١٨- كتَاب المنثُورَات وَالمُلَحِ

٣٧٠- باب أحاديث الدّجال وأشراط الساعة وغيرها

الحديث رقم (١٨١٠)

١٨١٠- عن النواس بن سمعان ﷺ قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: ((مَا شَأْنُكُمْ؟)) قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ الغَدَاةَ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فقالَ: ((غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إنْ يَخْرُجْ وَأنَا فِيكُمْ، فَأنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ؛ وَإنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، واللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كَأنِّي أُشَبِّهُهُ بعَبْدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ؛ إنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِيناً وَعَاثَ شِمالاً، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا)) قُلْنَا: يَا رسُولَ اللهِ، وَمَا لُبْثُهُ فِي الأرْضِ؟ قَالَ: ((أرْبَعُونَ يوماً: يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمْعَةٍ، وَسَائِرُ أيَّامِهِ كَأيَّامِكُمْ)) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَذلكَ اليَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: ((لا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ)).

قُلْنَا: يا رسولَ اللهِ، وَمَا إسْرَاعُهُ فِي الأرْضِ؟

قَالَ: ((كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأتِي عَلَى القَوْمِ، فَيَدْعُوهُم فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرىً وَأسْبَغَهُ ضُرُوعاً، وأمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأتِي القَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شَبَاباً فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيُقْبِلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إذْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذا طَأطَأَ رَأسَهُ قَطَرَ، وَإذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلاَّ مَاتَ،

وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي إلى حَيثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأتِي عِيسَى ﷺ، قوماً قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجاتِهِمْ فِي الجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذلِكَ إذْ أوْحَى اللهُ تَعَالَى إلى عِيسَى ﷺ: انِّي قَدْ اخْرَجْتُ عِباداً لي لا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إلى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللهُ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أوائِلُهُمْ عَلَى بُحَيرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبيُّ اللهِ عِيسَى ﷺ وَأصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيراً مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ اليَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى ﷺ وَأصْحَابُهُ رضي الله عنهم (إلى اللهِ تَعَالَى)[1]، فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى ﷺ، وَأصْحَابُهُ رضي الله عنهم إلى الأَرْضِ، فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتَنُهُمْ.

فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى ﷺ وَأصْحَابُهُ رضي الله عنهم إلى اللهِ تَعَالَى، فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى طَيْراً كَأَعْنَاقِ البُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ ﷻ مَطَراً لاَ يُكِنُّ مِنهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَقَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأرْضِ: أنْبِتِي ثَمَرتكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ؛ وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي (القَبِيلَةَ)[2] مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ؛ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إذْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى رِيحاً طَيِّبَةً فَتَأخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ؛ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيها تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ)).

رواه مسلم[3].

قوله: "خَلَّةً بين الشام والعراق": أي طريقاً بينهما. وقوله: "عَاثَ" بالعين المهملة والثاء المثلثة، والعيث: أشد الفساد. "والذُّرَى" بضم الذال المعجمة وهو أعالي الأسنمة. وهو جمع

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم.

(٢) لفظ مسلم: (الفخذ).

(٣) برقم ٢٩٣٧/١١٠.

ذروة بضم الذال وكسرها. "واليَعَاسِيب": ذكور النحل. "وجِزْلَتَيْن" أي: قطعتين، "والغَرَضُ": الهدف الذي يرمي إليه بالنشاب، أي: يرميه رمية كرمي النشاب إلى الهدف. "والمَهْرُودَةُ" بالدال المهملة والمعجمة، وهي الثوب المصبوغ. قوله: "لا يَدَانِ" أي: لا طاقة. "والنَّغَفُ": دود. "وَفَرْسَىٰ": جمع فريس، وهو القتيل. "والزَّلَقَةُ": بفتح الزاي واللام وبالقاف، وروى "الزُّلْفَةُ" بضم الزاي وإسكان اللام وبالفاء، وهي المرآة. "والعِصَابة": الجماعة. "والرسل" بكسر الراء: اللبن. "واللِّقْحَةُ": اللبون. "والفِئَامُ" بكسر الفاء وبعدها همزة ممدودة: الجماعة. "والفَخِذُ من الناس: دون القبيلة.

ترجمة الراوي:

النواس بن سمعان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٩٠).

غريب الألفاظ:

غداة: الغداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس. وقد تطلق ويراد بها مطلق الوقت[١].

فخفض فيه ورفع: خفض حقر، ورفع: عظمه[٢].

طائفة النخل: الطائفة: القطعة من الشيء، والمعنى أنه في بعض النخل[٣].

حجيجهُ دونكم: محاججه ومغالبه بإظهار الحُجّة عليه[٤].

قطط: شديد جعودة الشعر مباعد للجعودة المحبوبة[٥].

عينه طافية: هي الحبة التي خرجت عن نبتة أخواتها، فظهرت من بينها وارتفعت، وقيل: أراد به الحبة الطافية على وجه الماء شَبّه عينه بها[٦].

خلة بين الشام والعراق: أي في طريق بينهما[٧].

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (غ د و).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٦.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ط و ف).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ج ج).

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ف و).

(٧) رياض الصالحين ٦١٥.

فعاثَ: أفسد أشد الفساد[١].

ما لبثه: مدة إقامته ومكثه[٢].

اقدروا قدره: التقدير أي: قياس الشيء بالشيء[٣].

كالغيث استدبرته الريح: الغيث استدبرته المراد به الغيم الذي جاءت به الريح فأسرعت به، وهذا يضرب في شدة السرعة[٤].

سارحتهم: السّارحة: الماشية التي تذهب أول النهار إلى المرعى[٥].

ذُرىً: جمع ذروة أعالي الأسنمة[٦].

وأسبغه ضروعًا: ضروعه طويلة لكثرة اللبن[٧].

وأمده خواصر: ممتلئة لكثرة الشبع[٨]، والخاصرة: ما تحت الجنب[٩].

ممحلين: مجدبين فلا ينزل المطر ولا تخرج الأرض نباتًا[١٠].

الخربة: الأرض الخربة، والبقاع الخربة[١١].

يعاسيب النحل: ذكور النحل[١٢]، جمع يعسوب[١٣]

---

(١) رياض الصالحين ٦١٥.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ل ب ث).

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ق د ر).

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٠٩/٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ر ح)، وشرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

(٦) رياض الصالحين ٦١٥، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ذ ر و).

(٧) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

(٨) المرجع السابق ١٦٩٧.

(٩) لسان العرب، ابن منظور في (خ ص ر).

(١٠) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ٤٦٤، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي في (م ح ل).

(١١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨٠٩/٢.

(١٢) رياض الصالحين، ٦١٥.

(١٣) لسان العرب، ابن منظور في (ع س ب).

جزلتين: قطعتين[١].

الغرض: الهدف الذي يُرمى إليه بالنُّشَّاب، أي: يرميه رميه كرمية النشاب إلى الهدف[٢].

مهرودتين: المهرودة: الثوب المصبوغ[٣].

قطر: الماء[٤].

تحدر منه جمان اللؤلؤ: الجمان، هي: حبات من الفضة تضع على هيئة اللؤلؤ الكبار، والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفاته فسمى الماء جمانًا لشبهه به في الصفاء[٥].

بباب لُدٍّ: بلدة قرب بيت المقدس[٦].

لا يدان: لا طاقة[٧].

فحرِّز عبادي إلى الطور: نحهم وأزلهم عن طريقهم إلى الطور[٨].

حدب ينسلون: يظهرون من غليظ الأرض ومُرْتَفِعَها[٩].

بحيرة طبرية: بحيرة في شمال فلسطين[١٠].

النغف: دُود[١١].

فرسي: القتيل[١٢].

---

(١) رياض الصالحين ٦١٥.

(٢) رياض الصالحين ٦١٥.

(٣) رياض الصالحين ٦١٥.

(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٤٦٣.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

(٦) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٢٤.

(٧) رياض الصالحين ٦١٥.

(٨) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٨.

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح د ب).

(١٠) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٤٦.

(١١) رياض الصالحين ٦١٥.

(١٢) رياض الصالحين ٦١٥.

زهمهم: الريح المنتنة، أراد أن الأرض تُنتِنْ من جيفهم[١].

كأعناق البخت: نوع من الإبل، أي: طيرًا أعناقها في الطول والكبر كأعناق البخت[٢].

مدر: هو الطين الصلب[٣].

وبر: وهو وبر الإبل لأن بيوتهم يتخذونها منه[٤].

الزُّلقة: وروي الزُّلفة بضم الزاي وإسكان اللام وبالفاء وهي المرآة[٥].

العصابة: الجماعة[٦].

بقحفها: قشرها[٧].

الرسل: (الرِّسْلُ) بكسر الراء: اللبن[٨].

اللقحة: اللّبُونُ[٩].

الفئام: الجماعة الكثيرة[١٠].

الفخذ: (الفَخِذُ) من الناس: دون القبيلة[١١].

آباطهم: جمع إبط: باطن الكتف[١٢].

يتهارجون فيها تهارج الحمر: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز هـ م).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٨١٠/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ب ر).

(٥) رياض الصالحين ٦١٥.

(٦) رياض الصالحين ٦١٥.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ح ف).

(٨) رياض الصالحين، ٦١٥.

(٩) رياض الصالحين، ٦١٥.

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ف م أ).

(١١) رياض الصالحين ٦١٥.

(١٢) معجم لغة الفقهاء، أ.د. محمد رواس قلعة جي ١٧.

ولا يكترثون لذلك[1].

الشرح الأدبي

يموج هذا الحديث الشريف بأساليب متنوعة، وتراكيب متعددة، وصور مؤثرة دقيقة فاحصة.. وذلك في سياق وصف رسول الله ﷺ لفتنة المسيح الدجال، ومن جماليات الأداء الأسلوبي والتصويري في هذا البيان النبوي البليغ الدقيق:

١- عنصر التشويق.. ونزعة القَصّ، والتشويق يمتزج ببراعة الاستهلال في قول الصحابة رضي الله عنهم "ذكر رسول الله ﷺ: الدجال ذات غداة فخفّض فيه ورفّع حتى ظنناه في طائفة من النخل، ومعنى خفّضه: حقّره، ورفعه: أي عظمه باعتبار فتنته، والدجال: هو المُمَوّه الكذاب، وقال ابن دريد: كل شيء غطيته: فقد دجلته، وسمى الدجال بذلك لأنه يغطى الأرض بالجمع الكثير كذبًا وزورًا وبهتانا.

٢- الحوار بين رسول الله ﷺ والصحابة الأجلاء حول: وصف المسيخ الدجال، وزمنه، وطرق مقاومته، ومكانه، وهو حوار بليغ دقيق التصوير، فيه إنذار وتخويف، وفيه إرشاد إلى كيفية النجاة من هذه الفتنة الطاغية.

٣- دقة التصوير في وصف "الدجال" حيث قال رسول الله ﷺ في صيغة التوكيد إنه شاب قطط: عينه طافية أو طافئة، كأنى "أشبهه بعبد العزى بن قطن"، وقد مهّد رسول الله ﷺ لهذا التصوير بالحث على عدم الوقوع في هذه الفتنة وبضرورة مقاومتها والنجاة منها: فقال في أسلوب شرطي يتسق مع طبيعة الجدال والحجاج التي لابد منها في مواجهة الفتن "إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم".

٤- المقابلة والطباق بين مواقف الدجال الخادعة الكاذبة، والمفارقة في هذه المواقف الموهمة التي تدعو للعجب، وينخدع بها ضِعاف النفوس، وأصحاب الأهواء الذين لم يتحصّنوا بالإيمان، ولم يتزودوا بالتقوى، فالدجال يؤمن به بعض الناس، فيوهمهم

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/١٨١٠.

بالنعيم الزائف، ويزعمون أن السماء تمطر، والأرض تنبت بإرادة الدجال، والذين لا يستجيبون له يوهمهم أن الجدب والمحْل والقحط بسبب عدم استجابتهم، وهذا زيف وتمويه ودجل.

٥- الوصف الدقيق والتصوير الفائق للمسيح عليه السلام في تعبير بلاغي جميل حيث يقول: "فينزل عند المنارة البيضاء واضعًا كفيه على أجنحه ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ".

٦- الإيحاء بالهول، وتصوير ما يحدث من أحداث وفتن وابتلاءات إثر بعث يأجوج ومأجوج، وذلك من أمارات يوم القيامة، ولفظا يأجوج، وكذلك مأجوج، يتضمنان من خلال مادتهما اللغوية الإيحاء بالهول والفزع، وقيل إنهما مشتقان، من أجيج النار: أي التهابها، وقيل من: الإياجة، أي الاختلاط وشدة الحر، وقيل من الأج أي سرعة العدو، وقيل من الأجاج: أي الماء الشديد الملوحة، وجميع ما ذكر مناسب لحالهم.

٧- التشبيهات الدقيقة التي تَرصُد الحركة والهيئة واللون، ومن ذلك قوله ﷺ.

"فيرسل الله تعالى طيرًا كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله"، والصورة الأخرى تقابل هذه الصورة، وتقف على النقيض منها، لأنها تصور شرار الناس، والصورة الأولى تصور نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه، ولنتأمل هذه الصورة التي تلتهب بالشرور: حيث يقول المصطفى ﷺ "ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر.. فعليهم تقوم الساعة".

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان ذكر الدجال وأهمية ذلك.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة رضي الله عنهم من الدجال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإنسان عن نفسه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان صفة الدجال.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٨١٠- مع المضامين الدعوية للأحاديث التالية أرقامها: (١٨١١، ١٨١٢، ١٨١٣، ١٨١٤، ١٨١٥، ١٨١٦، ١٨١٧، ١٨١٨، ١٨١٩، ١٨٢٠، ١٨٢١).

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان طرق الوقاية من الدجال.

سادسًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان موطن خروج الدجال.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: مدة لبث الدجال في الأرض.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: بيان فتنة الدجال للناس.

عاشرًا: من موضوعات الدعوة: إثبات نزول المسيح عليه السلام وموطن نزوله.

الحادي عشر: من موضوعات الدعوة: بيان صفة المسيح وقتله للدجال.

الثاني عشر: من موضوعات الدعوة: إثبات خروج يأجوج ومأجوج وفتنتهم.

الثالث عشر: من موضوعات الدعوة: لجوء عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله وفضل ذلك.

الرابع عشر: من موضوعات الدعوة: بيان هلاك يأجوج ومأجوج وتطهير الأرض منهم.

الخامس عشر: من موضوعات الدعوة: بيان على من تقوم الساعة والنفخ في الصور.

السادس عشر: من موضوعات الدعوة: بيان بعث النار.

السابع عشر: من موضوعات الدعوة: حفظ مكة والمدينة من الدجال.

الثامن عشر: من موضوعات الدعوة: بيان أتباع الدجال.

التاسع عشر: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن خروج أحد المؤمنين للدجال.

العشرون: من موضوعات الدعوة: فضل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

الحادي والعشرون: من آداب المدعو: السؤال عما ينفعه.

الثاني والعشرون: من موضوعات الدعوة: هوان أمر الدجال على الله عز وجل.

الثالث والعشرون: من موضوعات الدعوة: إنذار الأنبياء أقوامهم من الدجال.

الرابع والعشرون: من موضوعات الدعوة: حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته.

الخامس والعشرون: من أساليب الدعوة: الحوار والاستفسار.

السادس والعشرون: من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات.

السابع والعشرون: من أساليب الدعوة: الترهيب.

الثامن والعشرون: من أهداف الدعوة: تهيئة المؤمنين للابتلاء والتمحيص.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان ذكر الدجال وأهمية ذلك:

حيث جاء في هذه الأحاديث[١]:

١- "ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة..."

٢- "حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال..."

٣- "يخرج الدجال في أمتي..."

٤- "يخرج الدجال فيتوجه قبله..."

٥- "ألا أحدثكم حديثًا عن الدجال..."

٦- "أن رسول الله ﷺ -ذكر الدجال بين ظهراني الناس..."

وهذا يدل على حرص النبي ﷺ على ذكر الدجال وبيانه للناس، والدجال معناه: الكذاب. قال ابن الأثير في النهاية: (أصل الدجل: الخلط. يقال: دجَّل إذا لبَّس وموّه. وقوله في الحديث "يكون في آخر الزمان دجالون" أي كذابون مموهون. وقد تكرر ذكر الدجال في الأحاديث النبوية، وهو الذي يظهر في آخر الزمان يدعي الألوهية، وفَعَّال من أبنية المبالغة: أي يكثر من الكذب والتلبيس"[٢].

وقال ابن منظور في اللسان: (ولفظ الدجال، مأخوذ من قولهم: دجل البعير، إذا طلاه بالقطران، وغطّاه به، وسمي الدجال دجالاً لأنه يغطي الحق بالباطل، أو لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم، وقيل: لأنه يغطي الأمر بكثرة جموعه)[٣].

والدجال يقال له المسيح فهو صفة له، قال النووي: (وأما الدجال فسمي مسيحًا لأنه ممسوح العين، وقيل لأنه أعور والأعور يسمى مسيحًا، وقيل لمسحه الأرض حين خروجه وقيل غير ذلك. والمسيح صفة لعيسى عليه السلام أيضًا، قال العلماء وسمي بذلك لأنه لم يمسح ذا عاهة إلا برئ، وقال ابن الأعرابي المسيح الصديق، وقيل: لكونه ممسوح أسفل

---

(١) أي أحاديث الباب المشار إليها في الصفحة السابقة.

(٢) النهاية في غريب الحديث في (د ج ل).

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (د ج ل).

القدمين لا أخمص له، وقيل: لمسح زكريا إياه، وقيل لمسحه الأرض أي قطعها، وقيل لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن، وقيل لأنه مسح بالبركة حين ولد، وقيل: لأن الله تعالى مسحه أي خلقه خلقًا حسنًا وقيل غير ذلك. ومما ينبغي ذكره والتأكيد عليه أن عيسى عليه السلام مسيح هدى، والدجال مسيح ضلالة)[١].

وطالما أن النبي ﷺ ذكره فهو حق وموجود، قال النووي: (وهذه الأحاديث التي ذكر فيها الدجال، حجة لمذهب أهل الحق من أهل السنة، وجميع المحدثين والفقهاء والنظار في صحة وجود الدجال، وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الحياة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره، ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره ويقتله عيسى عليه السلام ويثبت الله الذين آمنوا)[٢].

وإذا كان الرسول ﷺ قد ذكره وبينه، فمن الأهمية بمكان بيان ذكر الدجال لتعريف الناس به، قال السفاريني: (ومما ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال، وقد قال المحاربي: ينبغي أن يرفع هذا الحديث يعني حديث الدجال إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكتاب. فقد ورد أن من علامات خروجه نسيان ذكره على المنابر. خاصة عندما تشرأب الفتن، وتكثر المحن وتندرس معالم السنن)[٣]. قال د. محمد نعيم ياسين: (ومن أمارات الساعة الكبرى ظهور شخص سماه الرسول ﷺ بالدجال لكثرة تدجيله وكذبه، يدّعي الألوهية، ويحاول أن يفتن الناس عن دينهم، بما يحدثهم من خوارق العادات وعجائب الأمور بإذن الله سبحانه وتعالى، فيفتن به بعض الناس، ويثبت الله الذين آمنوا فلا ينخدعون بدجله وضلاله، ثم يأذن

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٢٠٨.

(٢) المرجع السابق ١٦٩٤.

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني ص ١٠٦/٢.

الله بالقضاء على فتنته فينزل عيسى عليه السلام فيقتله)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خوف الصحابة رضي الله عنهم من الدجال:

حيث جاء في الحديث الأول: "ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا... إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم".

وهذا يدل على خوف الصحابة من الدجال، قال النووي: (وخفض بمعنى حقر، ورفع بمعنى عظم وفخم، فمن تحقيره وهوانه على الله تعالى عوره، ومن تفخيمه وتعظيم فتنته، والمحنة به، هذه الأمور الخارقة للعادة وقيل خفض بمعنى ليستريح من تعب الكلام، ثم رفع ليبلغ صوته كل أحد)[٢].

وقال الطيبي: (وقوله "حجيجه" أي محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه، والحجة الدليل والبرهان، وقوله "دونكم" فيه إرشاد إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان في المحاجة معه غير محتاج إلى معاونة معاون من أمته في غلبته عليه بالحجة، فإن قيل أو ليس قد ثبت أن الدجال لا يخرج ونبي الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، بل لا يراه القرون الأولى من هذه الأمة، فما وجه قوله "إن يخرج وأنا فيكم" قال التوربشتي: إنما سلك هذا المسلك من التورية لإبقاء الخوف على المكلفين من فتنته، واللجوء إلى الله تعالى من شره لينالوا بذلك الفضل من الله، ويتحققوا بالشح على دينهم)[٣].

جاء في فتح الملهم: (وقوله: "فخفض فيه ورفع" اختلفوا في المراد منه على قولين:

الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر الكلام في شأنه، فتارة رفع صوته ليسمعه كل أحد، وأخرى خفض صوته ليستريح من تعب الجهر.

الثاني: أن المراد من التخفيض تصغير شأنه وتحقيره، كما ذكر أنه أعور وأنه أهون على الله من ذلك، وأنه لا يقدر على قتل أحد إلا ذلك الرجل، ثم يعجز عنه، وأنه

---

(١) الإيمان ٩٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١١٠/١٠.

يضمحل أمره ويقتل بيد عيسى عليه السلام والمراد من الترفيع تعظيم فتنته، حيث تصدر منه أمور خارقة للعادة، وأنه ليس بين يدي الساعة أحد أعظم فتنة من الدجال.

وقوله: "غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم" أي محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه، والمراد أنه إن خرج في حياتي فأنا أكفيكم شره وأغلب عليه بنور حجة النبوة والمعجزات الباهرة. وإذا كان قد جاء في الأحاديث المتواترة خروجه في آخر الزمان بعد خروج المهدي وأن الذي يقتله هو المسيح عليه السلام فكيف ذكر رسول الله ﷺ احتمال خروجه في حياته ﷺ؟ وقد ذكر التوربشتي أن هذا من التورية لإبقاء الخوف على المكلفين من فتنته. والأوجه من ذلك عندي أن يقال: إنه ﷺ ذكر هذا الاحتمال على سبيل الفرض، ووجهه أن الصحابة فزعوا من خروجه حتى زعموا أنه في طائفة النخل، فذكر أنه لا وجه لفزعهم وإن كان خارجًا في تلك الأيام على سبيل الفرض، لأنه ﷺ يكفيهم فتنته حينئذ، وليس المراد أن هذا الاحتمال قائم في نفس الأمر، لأن النبي ﷺ بين في نفس هذا الحديث أن المسيح عليه السلام هو الذي يقتله بباب لد)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الإنسان عن نفسه:

حيث جاء في الحديث "وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم" وهذا يبين مدى مسؤولية كل إنسان عن نفسه أمام فتنة الدجال، قال ابن عثيمين: (والمراد أنه إذا خرج الدجال بعد النبي ﷺ فكل إنسان يحاج عن نفسه، وقد استخلف ﷺ ربه أن يكون مؤيدًا للمؤمنين واقيًا لهم من فتن الدجال، الذي ليس بين خلق آدم وقيام الساعة فتنة أشد منها)[2]. ولا شك أن فتنة الدجال فتنة عظيمة (إن ما يدل على أن الدجال أعظم فتنة في تاريخ البشرية، تحذير جميع الأنبياء منه.

ولقد جلّى لنا رسولنا محمد ﷺ حقيقة الدجال بأوضح بيان، وآكد برهان، حتى يكون المسلم على حذر منه، وينجو من فتنته العظيمة. وإن الإيمان بقضية الدجال

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٢/٢٨٨-٢٨٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٥٤.

وما يقتضيها من كفره وضلاله وكذبه، يعني إن شاء الله النجاة من إفكه لمن حقق مقتضيات الإيمان بخروج الدجال، وأثر المعرفة بالدجال، هو العلاج بعون الله لمن أرسى قواعد هذا الاعتقاد في قلبه، وذلك يستلزم دراسة أمر الدجال: وهذا أمر لابد منه، إذ كيف يريد المسلم النجاة من فتنة الدجال وهو لا يعرف شيئًا عن هذه العقيدة الخطيرة. إذن، فعلى العبد المسلم أن يعني باهتمام بدراسة أمر الدجال بشيء من التفصيل، حتى تتضح أمامه هذه الحقيقة التي حذر منها النبيون أجمعهم؛ لأن الدجال يأتي بأمور عظيمة كجنته وناره، وسرعة انتقاله في الأرض، واستعانته بالشياطين، واستجابة الجماد والحيوان لأمره وغير ذلك من هذه الأمور، فإن لم يكن المسلم على دراية بهذه الفتن التي تُساق بإذن الله تعالى على يديه، صار في ريبة وشك من أمره، فإن علم ما يجب عليه تجاهه بدراسة نصوص رسول الله ﷺ، أصبح على بصيرة تامة من أمره، فينجو من غوائله بإذن الله.

لأنه يجد مثلاً أن الرسول ﷺ وصفه بأنه رجل جسيم أحمر، جعد الرأس أعور العين، كأن عينه عنبة طافية، وأنه رجل قصير مكتوب بين عينيه كافر يقرؤها كل مؤمن إلى غير ذلك من هذه الصفات، فإذا ما رآه المسلم بهذه الصفات علم يقينًا أنه الدجال الذي أخبر به رسول الله ﷺ. فعند ذلك لن يلتبس عليه أمره، ولن ينخدع بحيله وأباطيله)[1].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان صفة الدجال:

حيث جاء في الأحاديث:

١- "إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن...".

٢- "ألا إنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور مكتوب بين عينيه: ك.ف.ر".

وهذه الروايات تبين صفة الدجال فهو:

١- شاب رجل من بني آدم وليس بامرأة ولا شيء آخر.

---

(١) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد ص ٥٦١، ٥٦٢.

٢- صفة شعره أنه قطط: قال النووي (أي شديد جعودة الشعر مباعد للجعودة المحبوبة)[1]. وقال ابن الأثير: (الجعد من الشعر هو ضد السبط، لأن السبوطة أكثرها في شعور العجم، وهو الشعر المسترسل. والقطط: الشديد الجعودة)[2].

٣- وصفة عينه أنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية. قال النووي: (وطافية بالهمزة معناه ذهب ضوؤها، وبغير همزة معناه ناتئة بارزة، وفي هذه الرواية أنه أعور العين اليمنى، وجاء في رواية أخرى أنه أعور العين اليسرى، وكلاهما صحيح. وقد وصف في الحديث بأنه ممسوح العين وأنها ليست بجحراء ولا ناتئة بل مطموسة. ووصف في أخرى بأنه جاحظ العين وكأنها كوكب، ويجمع بين الأحاديث وتصحح الروايات جميعًا، بأن تكون المطموسة والممسوحة والتي ليست بجحراء ولا ناتئة هي العوراء الطافئة بالهمزة وهي العين اليمنى، وتكون الجاحظة والتي كأنها كوكب وكأنها نخاعة هي الطافية بغير همز، وهذا جمع بين الأحاديث والروايات في الطافية بالهمز وبتركه، وأعور العين اليمنى واليسرى، لأن كل واحدة منهما عوراء، فإن الأعور من كل شيء المعيب، لا سيما ما يختص بالعين، وكلا عيني الدجال معيبة عوراء، إحداهما بذهابها، والأخرى بعيبها، هذا آخر كلام القاضي، وهو في نهاية من الحسن)[3].

وبمثل هذا الجمع قال التوربشتي فيما نقله عنه الطيبي: (ووجه الجمع بين هذه الأوصاف المتنافرة، أن يقدر أن إحدى عينيه ذاهبة والأخرى معيبة، فيصح أن يقال: لكل واحدة عوراء: إذ الأصل في العور العيب)[4].

وفي حكمة بيان أنه أعور العين من صفات النقص فيه، قال ابن حجر: (وفي قوله "إنه أعور وإن الله ليس بأعور" اقتصر على ذلك مع أن أدلة الحدوث في الدجال ظاهرة، لكون العور أثر محسوس يدركه العالم والعامي ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٥٥، ٧٦٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٠٨/١٠.

ادعى الربوبية وهو ناقص الخلقة، والإله يتعالى عن النقص، علم أنه كاذب)[١].

٤- ومن صفته أنه مكتوب بين عينيه: "ك. ف. ر"، قال النووي: (الصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله ويظهرها الله تعالى لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته ولا امتناع في ذلك)[٢].

وقال ابن حجر: (قال ابن العربي: وهذا إخبار بالحقيقة، فإن الإدراك في البصر يخلقه الله للعبد كيف شاء ومتى شاء، فهذا يراه المؤمن بغير بصره وإن كان لا يعرف الكتابة، ولا يراه الكافر ولو كان يعرف الكتابة، فإن ذلك الزمان تتخرق فيه العادات في ذلك)[٣]. ومما يدل على ذلك ما جاء في الحديث عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((... وإن الدجال ممسوح العين، عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب))[٤].

جاء في فتح الملهم: (قوله: "كاتب وغير كاتب" يعني: من يستطيع الكتابة ومن لا يستطيعها، وقد تقدم أن ذلك على سبيل خرق العادة، بحيث يخلق الله تعالى إدراكًا في بصر المؤمن يدرك به ذلك)[٥].

٥- ومن صفته أنه أشبه بعبد العزى بن قطن، قال الطيبي: (لم يقل كأنه عبدالعزى؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن جازمًا في تشبيهه به، قيل: إنه كان يهوديًا، ولعل الظاهر أنه مشرك، لأن العزى اسم صنم، ويؤيده ما جاء في بعض الحواشي هو رجل من بني المصطلق من خزاعة هلك في الجاهلية)[٦].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٠٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٠٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٩٣٤.

(٥) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٢/٢٨٦.

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٠/١١١.

وقد جاء في صفته من الأحاديث النبوية أيضًا عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ مَسِيحَ الدَّجَّالِ رَجُل قَصِيرٌ أفحج جَعْدٌ أعْوَرُ مَطْمُوسُ الْعَيْنِ، لَيْسَ بِنَاتِئَةٍ وَلا جَحْرَاءَ، فإنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُم فاعْلَمُوا أنَّ رَبَّكُم لَيْسَ بِأَعْوَرَ))[1]. والخلاصة في صفة الدجال أنه (رجل من بني آدم له صفات كثيرة منها أنه رجل شاب أحمر قصير أفحج جعد الرأس، أجلى الجبهة عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة ولا جحراء كأنها عنبة طافئة، وعينه اليسرى ظفرة غليظة ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو "كافر" بدون تقطيع يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له)[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان طرق الوقاية من الدجال:

حيث جاء في الحديث "فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف" وقد بين النبي ﷺ أن من الوقاية والعصمة من فتنة الدجال، أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف.

قال ابن كثير: (ومما يعصم من الدجال الاستعاذة من فتنته وهي متواترة عن رسول الله ﷺ، وكذلك حفظ آيات من سورة الكهف، وكذلك الابتعاد عنه فلا يراه فإن من رآه افتتن، وكذلك سكنى المدينة النبوية ومكة شرفهما الله تعالى)[3]. هذا وقد دلت الأحاديث أنه ﷺ كان يتعوذ من فتنة الدجال في الصلاة، وأنه أمر أمته بذلك، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة ((اللَّهمَّ إني أعوذُ بكَ من عذاب القبرِ، وَأعوذ بكَ من فِتنةِ المسيحِ الدَجّالِ، وَأعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا وفتنةِ المَماتِ))[4]. وأما حفظ آيات من سورة الكهف فقد جاء في الحديث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ

(١) أخرجه أبو داود ٤٣٢٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٦٣٠).

(٢) أشراط الساعة، يوسف عبدالله يوسف الوابل، ط/١٨، دار ابن الجوزي، الرياض: ١٤٢٤هـ ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٩/١٩٩، ٢٠٠.

(٤) أخرجه البخاري ٨٣٢، ومسلم ٥٨٧.

الدَّجَّالِ))[١]. وجاء في مسند أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: ((مَنْ قَرَأَ عشر آيات من آخر الكهف عصم من فتنة الدجال "قال حجاج: من قرأ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ))[٢]. قال النووي: (وسبب ذلك ما في أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال، وكذا في آخرها قوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ﴾[٣])[٤].

ولا شك أن هذا من خصوصيات سورة الكهف، وقد جاءت الأحاديث بالحث على قراءتها وخاصة في يوم الجمعة، ومن ذلك ما رواه الحاكم عن أبي سعيد الخدري ﷺ ((مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنْ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ))[٥]. وفي رواية لغير الحاكم: ((مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ))[٦]. إن فتنة الدجال عظيمة، يحتاج المسلم للوقاية منها أن يأخذ بما أرشدت إليه السنة النبوية في مثل هذه الأمور.

(وللعصمة من شر فتنة المسيح الدجال عدة تدابير ينبغي على المسلم المبادرة إليها ما دام في العمر فسحة، وفي الأمر سعة، ومن أهمها الاستعاذة بالله من فتنة الدجال في الصلاة، وتتأكد الاستعاذة بعد التشهد الأخير قبل السلام، ومن ذلك أيضًا حفظ الآيات العشر الأول من سورة الكهف، فليحرص المسلم على الاستعاذة بالله من فتنة المسيح الدجال في كل صلاة اتباعًا لسنة الرسول ﷺ، وعلى حفظ العشر آيات الأول من سورة الكهف وتحفيظها لأبنائه، ومن ولاه الله أمرهم، وكذا المعلمين والمعلمات ينبغي لهم أن يحثوا الطلبة والطالبات على حفظها، وتشجيعهم على ذلك بالمسابقات

---

(١) أخرجه مسلم ٨٠٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٦/٦ رقم ٢٧٥١٦، وقال محققو المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجالين، ٥٠٩/٤٥.

(٣) سورة الكهف، آية: ١٠٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٥٤٠.

(٥) مستدرك الحاكم ٣٦٨/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع الصغير حديث رقم ٦٣٤٦ ص ٣٤٠/٥.

(٦) صحيح الجامع الصغير، الألباني، حديث رقم ٦٣٤٧ ص ٣٤٠/٥.

والأنشطة المتضمنة لحفظها. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام عدم مقدرة الدجال على دخول مكة والمدينة، فما أجدرنا إلى الأخذ بالتدابير السابقة تحرزًا من الوقوع في براثن هذه الفتنة، فما يدريك لعلها دنت أو أوشكت ساعتها، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى)[١].

سادسًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

حيث جاء في الحديث "فمن أدركه منكم..." وهذا يبين أن من أولى مهام الداعية أن يرشد المدعوين إلى ما فيه صلاحهم ومنفعتهم.

(ولقد أرشد النبي ﷺ أمته إلى ما يعصمها من فتنة الدجال، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فلم يدع ﷺ خيرًا إلا دل أمته عليه، ولا شرًا إلا حذرها منه، وكان كل نبي ينذر أمته الأعور الدجال، واختص محمد ﷺ بزيادة التحذير والإنذار، وقد بين الله له كثيرًا من صفات الدجال ليحذر أمته فإنه خارج في هذه الأمة لا محالة، لأنها آخر الأمم، ومحمد ﷺ خاتم النبيين)[٢].

ولقد أخبر الله عن محمد ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

إن الداعية الناجح ينفع الناس بعلمه، ولا يكتمه عنهم، فإن مهمة البلاغ من أعظم المهام التي تناط بالداعية.

قال الماوردي: (ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم. وكيف يسوغ لهم البخل بما مُنِحُوه جودًا من غير بخل، وأُوتوه عفوًا من غير بذل؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووهى. ولو استن بذلك من تقدمهم، لما وصل العلم

---

(١) المنهج الشرعي في مواجهة الفتن، مرفت بنت كامل بن عبدالله أسره ص ١١٥-١١٩ بتصرف.

(٢) أشراط الساعة، يوسف بن عبدالله يوسف الوابل، ٣٢٥.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

إليهم، ولانقرض عنهم بانقراضهم، ولصاروا على مرور الأيام جهالاً، وبتقلب الأحوال وتناقصها أرذالاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[2].

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلّموا. وقال بعض الحكماء: إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل، فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل. وقال بعض العلماء: كما أن الاستفادة نافلة للمتعلم، كذلك الإفادة فريضة على المعلم. وقد قيل في منثور الحكم: من كتم علمًا فكأنه جاهله. وقال خالد بن صفوان إني لأفرح بإفادتي المتعلّم، أكثر من فرحي باستفادتي من المعلم.

ثم له بالتعليم نفعان:

أحدهما: ما يرجوه من ثواب الله تعالى، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة.

والنفع الثاني: زيادة العلم، وإتقان الحفظ، فقد قال الخليل بن أحمد: اجعل تعليمك دراسة لعلمك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيهًا على ما ليس عندك. وقال ابن المعتز في منثور الحكم: النار لا ينقصُها ما أخذ منها، ولكن يُخمدها ألا تجد حطبًا، كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس، ولكن فقدُ الحاملين له سبب عدمه، فإياك والبخلَ بما تعلم. وقال بعض العلماء: علّم علمك، وتعلم علم غيرك، فإذًا أنت قد علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت)[3].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان موطن خروج الدجال:

حيث جاء في الحديث "إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينًا وعاث شمالاً

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٩.

(٣) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٨٧-٨٨.

يا عباد الله فاثبتوا" قال الطيبي: (وقوله "خلة بين الشام والعراق" أي في طريق بينهما وقيل للطريق والسبيل خلة؛ لأنه خل ما بين البلدين، أي أخذ محيط ما بينهما، وأما قوله "فعاث" قال التوربشتي: إشارة إلى أنه لا يكتفي بالإفساد في ما يطؤه من البلاد ويتوجه له من الأغوار والأنجاد، بل يبعث سراياه يمينًا وشمالاً، فلا يأمن شره مؤمن ولا يخلو من فتنته وطن)[١]. هذا وقد ثبت في صحيح مسلم على أن موطن خروجه من جهة المشرق في حديث الجساسة عن فاطمة بنت قيس: ((لاَ بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ. مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ. مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ». وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ. قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَـٰذَا مِنْ رَسُولِ اللّهِ))[٢]. قال النووي: (قال القاضي: لفظ "ما هو" زائدة صلة الكلام ليست بنافية والمراد: إثبات أنه في جهات المشرق)[٣]. وجاء أيضًا في سنن الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ((حدثنا رَسُولُ الله قَالَ: الدَّجَّالُ يخرُجُ مِنْ أَرْضٍ بالمَشْرِقِ يُقَالُ لَها خُراسَانَ يتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كأَنَّ وُجُوهَهُمْ المَجَانُّ المُطْرَقَةُ))[٤]. وأخرج أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ يهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ، مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْيَهُودِ عَلَيْهِمُ التيجَانُ))[٥].

ويتحصل مما سبق، أن مكان خروج الدجال من جهة المشرق من خراسان من يهودية أصبهان، ثم يسير في الأرض فلا يترك بلدًا إلا دخله، إلا مكة والمدينة فلا يستطيع دخولهما لأن الملائكة تحرسهما. قال ابن حجر: (وأما من أين يخرج؟ فمن قبل المشرق جزمًا)[٦]. وقال ابن كثير: (فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١١١/١٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٤٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠٣.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٢٣٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٢٤).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٢٢٤/٣ رقم ١٣٣٤٤، وقال محققو المسند: حديث حسن. وأصبهان: مدينة في شمال غرب إيران تقع على نهر زنده رود وهي جنوب طهران، بينها وبين شيراز. واليهودية: محلّة عظيمة في مدينة أصبهان وكانت تطلق أحيانًا على أصبهان نفسها. انظر: تحقيق مسند أحمد ٥٦/٢١، ٥٧.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٧/١٣.

يقال لها: اليهودية)[١].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: مدة لبث الدجال في الأرض:

حيث جاء في الحديث "قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يومًا يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم" وقوله في الحديث أيضًا: "يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يومًا أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا..." وهذه الأحاديث تبين مدة لبث الدجال في الأرض، قال النووي: (قال العلماء: هذا الحديث على ظاهره، وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور في الحديث يدل، عليه قوله ﷺ في الحديث وسائر أيامه كأيامكم. وقولهم في الحديث "فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم" قال: "لا اقدروا له قدره" قال القاضي وغيره: هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعه لنا صاحب الشرع، قالوا: ولولا هذا الحديث ووكلنا إلى اجتهادنا لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام. ومعنى: "اقدروا له قدره" أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم، فصلّوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر، فصلّوا العصر، وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب، فصلّوا المغرب، وكذا العشاء والصبح، ثم الظهر، ثم العصر، ثم المغرب وهكذا، حتى ينقضي ذلك اليوم، وقد وقع فيه صلوات سنة، فرائض كلها مؤداة في وقتها. وأما الثاني الذي كشهر، والثالث الذي كجمعة، فقياس اليوم الأول أن يقدر لهما كاليوم الأول على ما ذكرناه، والله أعلم)[٢].

وقال الطيبي: (قال التوربشتي: ولما تبين أن الدجال يبعث ومعه التشبيهات والتمويهات، فإنه يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم، حتى يخيل إليهم أن الزمان قد استمر على حالة واحدة، إسفار بلا ظلام، وصباح بلا مساء، فيقعون في حيرة والتباس من امتداد الزمان، ويدخل عليهم الدواخل باختفاء الآيات الظاهرة في اختلاف الليل

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٢٧/١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

والنهار، فأمرهم أن يجتهدوا عند مصادفة تلك الأحوال، ويقدروا لوقت كل صلاة قدرها، إلى أن يكشف الله عنهم تلك الغمة)[١].

وقال السفاريني: (أما قدر لبثه في الأرض فقد جاء في الخبر "أنها أربعون يومًا يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم" وقيل يمكث أربعين سنة السنة كنصف السنة والسنة كالشهر والسنة كالجمعة وآخر أيامه كالشررة. واختلف العلماء في تأويل الحديث، فمنهم من قال هو كناية عن اشتغال الناس بأنفسهم من الفتن، حتى لا يدروا كيف يمضي النهار، فيكون مضى النهار عندهم كمضي الساعة، والشهر كاليوم، والسنة كالشهر، ومنهم من قال بل هو على ظاهره. واختلف الجواب عن اختلاف الحديثين، فمنهم من مال إلى الترجيح، فيكون حديث النواس الأول أقوى لأنه أصح، وإن كان الثاني أيضًا صحيحًا فيقدم عليه، ومنهم من مال إلى الجمع وطريقه أن أيامه أربعون سنة، وتسمى السنين أيامًا مجازًا، كما يقال أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب)[٢].

وقد فصل القول حول هذه الآراء في مدة لبث الدجال صاحب فتح الملهم فقال: (قوله: "يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة" اختلف العلماء في تفسيره على ثلاثة أقوال:

١- إنه محمول على ظاهره، وإن هذه الأيام الثلاثة تطول حقيقةً، بحيث تصير حركة الشمس "أو الأرض" بطيئة، ولا تكمل دورة الليل والنهار في اليوم الأول إلا في وقت يستغرق سنة في الأيام العادية، وتكمل في اليوم الثاني بمقدار شهر، وفي اليوم الثالث بمقدار أسبوع. وإن ذلك سوف يقع على سبيل خرق العادة. وهذا الذي رجحه النووي والقرطبي والقاضي عياض وكثير من الشراح. قالوا: وليس ذلك ببعيد، لأن الله تعالى قادر على أن يجعل حركة الشمس "أو الأرض" بطيئة. وإن زمن الدجال تكثر فيه الخوارق، فمنها هذا.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١١٢/١٠.

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني ١٠٥/٢.

٢- ذكر ابن الملك عن بعض العلماء، أن المراد منه، أن اليوم الأول، لكثرة هموم المؤمنين وشدة بلاء اللعين[١]، يُرى للناس طويلاً كسنة، وفي اليوم الثاني يهون كيده ويضعف أمره، فيُرى كشهر، والثالث يُرى كجمعة، لأن الحق في كل وقت يزيد قدرًا، والباطل ينقص حتى ينمحق أثرًا، أو لأن الناس كلما اعتادوا بالفتنة والمحنة يهون عليهم إلى أن تضمحل شدتها[٢].

ولكن هذا القول ردّه العلماء، لأنه لو كان هذا التأويل صحيحًا، لما كان هناك حاجة إلى السؤال عن أوقات الصلاة، ولما أجاب عنه رسول الله ﷺ بقوله: "لا، اقدروا له قدره" كما سيأتي، فإنه يكاد يكون صريحًا في أن المسلمين لا تكفيهم في ذلك اليوم صلاة يوم واحد.

وقد حكى القرطبي عن أبي الحسن بن المنادي أنه طعن في صحة هذه الكلمة من الحديث، أعني قوله: "أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: لا، اقدروا له قدره" وقال: هذه من الدسائس التي كابرنا عليها من خالف علينا، وقال: "ولو كان ذلك صحيحًا لاشتهر على ألسنة الرواة، كحديث الدجال، فإنه رواه خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم، وكان أعظم وأقصى من طلوع الشمس من مغربها".

ولكن رد عليه القرطبي بقوله: "وهذا الذي ذكر هذا الرجل، لا يقدح في الثقة بما انفرد به العدل، فإنه يسمع ما لم يسمع غيره، ... وقد ذكر الحديث مسلم والترمذي وأبو داود، وحكموا بصحته، وتطرق إدخال المخالفين الدسائس على أهل العلم والتحرز، بعيد لا يلتفت إليه"[٣].

٣- والقول الثالث: ما ذكره التوربشتي ونذكر كلامه بلفظه، كما نقل عنه الطيبي في شرح المشكاة (١٠: ١١٢) قال: "قد تبين لنا بإخبار الصادق المصدوق ﷺ أن الدجال يبعث معه من الشبهات، ويفيض على يديه من التمويهات، ما يسلب عن ذوي

---

(١) المراد بـ"اللعين" المسيح الدجال.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان القاري ١٠/١٩٤، ١٩٥.

(٣) شرح الأبي، محمد بن خلفة الوشتاني ٢/٢٧٠.

العقول عقولهم، ويخطف من ذوي الأبصار أبصارهم. فمن ذلك تسخير الشياطين له، ومجيئه بجنة ونار، وإحياء الميت على حسب ما يدّعيه، وتقويته على من يريد إضلاله تارة بالمطر والعشب، وتارة بالأزمة والجدب. ثم لا خفاء أنه أسحر الناس. فلم يستقم لنا تأويل هذا القول إلا بأن نقول: إنه يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم، حتى يخيّل إليهم أن الزمان قد استمرّ على حال واحدة، إسفار بلا ظلام، وصباح بلا مساء. ويحسبون أن الليل لا يمدّ عليهم رواقه، وأن الشمس لا تطوي عليهم ضياءها، فيقعون في حيرة والتباس من امتداد الزمان، ويدخل عليهم الدواخل باختفاء الآيات الظاهرة في اختلاف الليل والنهار. فأمرهم أن يجتهدوا عند مصادفة تلك الأحوال، ويقدروا لوقت كل صلاة قدرها، إلى أن يكشف الله عنهم تلك الغمة. هذا الذي اهتدينا إليه من التأويل، والله الموفق لإصابة الحق)[1].

وحاصل ما ذكره التوربشتي أن زمان ذلك اليوم لا يمتّد في نفس الأمر، ولا تبطؤ حركة الشمس "أو الأرض" بالنسبة إلى الأيام العادية، وإنما تسير الشمس أو الأرض على حركتها العادية، ولكن الدجّال يسحر الناس بحيث إنهم لا يشعرون بمرور الوقت، وحركة الشمس، إلا ببطء غير عادي، فيُخيَّل إليهم أن النهار قد امتد عليهم فوق امتداده العادي، وكذا الليل، حتى إنهم يحسبون أن دورة الليل والنهار إنما كمُلت في وقت يستغرق سنة في الأيام المعتدلة، وليس ذلك إلا من باب السحر والتخييل.

وهذا الذي ذكره التوربشتي رجحه علي القاري في مرقاة المفاتيح (١٠: ١٩٥) وذكر أنه هو التحقيق، والله سبحانه وتعالى أعلم[2].

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: بيان فتنة الدجال للناس:

جاءت الأحاديث تدل على فتنة الدجال وأن فتنته من أعظم الفتن، وأن الله سبحانه يجعل معه من الأمور الخوارق والمبهمات التي فتن الناس معها، ومن فتنته ما يأتي كما

---

(١) قد ذكرنا رأي التوربشتي مختصرًا في شرح المضمون الثامن من المضامين الدعوية الواردة في شرح هذا الحديث، من نفس المرجع الذي ذكره صاحب فتح الملهم ونفس الجزء والصفحة.

(٢) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٢/٢٩١-٢٩٣.

دلّت الأحاديث:

١- سرعته في الأرض: حيث جاء في الحديث "يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح" قال الإمام الطيبي: (والمراد بالغيث هنا الغيم إطلاقًا للسبب على المسبب، أي يسرع في الأرض إسراع الغيم إذا استدبرته الريح)[١]. وإذا كانت هذه سرعته فإنه لا يترك موضعًا في الأرض إلا ذهب إليه، وفتن الناس بما معه إلا مكة والمدينة، ومما يدل على هذا ما جاء في حديث الجساسة عن فاطمة بنت قيس: ((... وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليَّ كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدًا منها استقبلني ملك بيده السيف صلتًا صدني عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها))[٢].

٢- كثرة الخير لمن يصدقه وانحساره لمن يكذبه: حيث جاء في الحديث "فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعًا وأمده خواصر ثم يأتي على القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم". وهذا من أعظم الفتن للناس، حيث من يتبعه يكثر لديه الخير والضرع واللبن، ومن يكذبه ينقطع عنهم المطر، وتيبس الأرض والكلأ، والله يثبت من يشاء.

٣- استخراج كنوز الأرض: حيث جاء في الحديث "ويمر بالخرب فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل" وهذا من فتنته أيضًا. قال النووي: (والمراد باليعاسيب ذكور النحل خاصة وقيل جماعة النحل، وكني عن الجماعة باليعسوب، وهو: أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته)[٣]. وقال الطيبي: (والمعنى: أنه يتبع الدجال كنوز الأرض كما تتبع اليعسوب النحل، وهو كناية عن سرعة اتباعه،

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٠/١١٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٤٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

أي تتبعه الكنوز بالسرعة)[١].

٤- قتل شاب وإحياؤه: حيث جاء في الحديث "ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك". وهذا أيضاً من فتنته، لأن الإحياء والإماتة بيد الله وحده، ولكن هذا من فتنته للناس، وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة الباهلي: ((وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِلأَعْرَابِي: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِهِ فَيَقُولاَنِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ))[٢].

٥- معه جنة ونار: حيث جاء في الحديث "أن الدجال يخرج وإن معه ماءً ونارًا فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق وأما الذي يراه الناس نارًا فماء بارد عذب" وهذا أيضًا من عظيم فتنته، وجاء في حديث آخر "وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار". قال النووي: (قال العلماء: هذا من جملة فتنته، امتحن الله تعالى به عباده ليحق الحق ويبطل الباطل، ثم يفضحه ويظهر للناس عجزه)[٣]. وقال ابن حجر: (وهذا كله يرجع إلى اختلاف المرئي بالنسبة للرائي، فإما أن يكون الدجال ساحرًا فيخيل الشيء بصورة عكسه، وإما أن يجعل الله باطن الجنة التي يسخرها الدجال نارًا، وباطن النار جنة، وهذا هو الراجح. وإما أن يكون ذلك كناية عن النعمة والرحمة بالجنة، وعن المحنة والنقمة بالنار، فمن أطاعه فأنعم عليه بجنته يؤول أمره إلى دخول نار الآخرة وبالعكس، ويحتمل أن يكون ذلك من جملة المحنة والفتنة، فيرى الناظر إلى ذلك من دهشته النار فيظنها جنة وبالعكس)[٤].

٦- معه جبل خبز ونهر ماء: حيث جاء في الحديث "إنه معه جبل خبز ونهر ماء"

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١١٢/١٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٧٧، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير برقم ٧٧٥٢، ٢٧٣/٦، وضعفه في ضعيف سنن ابن ماجه ٨٨٤).

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٧/١٣.

وهذا من عظيم فتنته للناس قال النووي: (والمراد أن الله جعل له ذلك ليزداد الذين آمنوا إيمانًا ويثبت الحجة على الكافرين والمنافقين ونحوه)[١].

٧- عظم فتنته وهولها: حيث جاء في الحديث "لينفرن الناس من الدجال في الجبال" وجاء أيضًا: "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال" قال السفاريني: (وأما الدجال فتنته عظيمة، وما كانت ولا تكون فتنة حتى تقوم الساعة أعظم من فتنة الدجال، وما من نبي إلا حذر قومه الدجال)[٢].

ويكفي في عظم فتنته ما تم إيراده سابقًا (والدجال شخص من بني آدم له بعض صفات المردة من الجن، وهو محبوس الآن في قيد بجزيرة، وفتنته أعظم فتنة في تاريخ البشر، حيث يجري الله على يديه أمورًا خارقة للعادة، ولهذه الأمور العظيمة التي يضل من يراها، فقد حذر كل نبي أمته من فتنته)[٣].

وقال الطيبي: (والدجال فتنته عظيمة جدًا، تدهش العقول، وتحير الألباب، مع سرعة مروره في الأرض، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء دلائل الحدوث والنقص، فيصدقه من يصدقه في هذه الحالة، ولهذا حذرت الأنبياء من فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله. أما أهل التوفيق فلا يغترون ولا ينخدعون بما فيه؛ لما ذكرنا من الدلائل المكذبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله. وهذه الأحاديث حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه ابتلى الله تعالى به عباده)[٤].

عاشرًا- من موضوعات الدعوة: إثبات نزول المسيح عليه السلام وموطن نزوله:

حيث جاء في الحديث "فبينما هو كذلك إذ بعث الله تعالى المسيح عيسى ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين" وقوله في الحديث أيضًا: "فيبعث

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠٠.

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني ٢/ ٩٠.

(٣) من مقدمة تحقيق كتاب الفتن للإمام حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني، تحقيق د. ناصر حسن صبري، ط/١، دار البشائر الإسلامية، بيروت: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ص ٧، ٨.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٠/ ١٠٩.

الله عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه" وفي هذا إثبات لنزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان لقتل الدجال. قال القاضي عياض: (ونزول عيسى المسيح وقتله الدجال حق صحيح عند أهل السنة؛ لصحيح الآثار الواردة في ذلك؛ ولأنه لم يرد ما يبطله ويضعفه، خلافًا لبعض المعتزلة والجهمية، ومن رأى رأيهم من إنكار ذلك، وزعمهم أن قول الله تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((لا نبي بعدي))[2] وإجماع المسلمين على ذلك وعلى أن شريعة الإسلام باقية غير منسوخة إلى يوم القيامة - يرد هذه الأحاديث. وليس كما زعموه؛ فإنه لم يرد في هذه الأحاديث أنه يأتي بنسخ شريعة ولا تجديد أمر نبوة ورسالة، بل جاءت بأنه حكم مقسط، يجيء بما يجدد ما تغير من الإسلام، وبصلاح الأمور والعدل، وكسر الصليب، وقتل الخنزير، وأن إمام المسلمين منهم كما قال عليه السلام.

وأما قوله: "ويضع الجزية": فليس معناه: أنه يسقطها عمن تجب عليه بخلاف شريعتنا، بل قيل: يسلم الكافر فلا يبقى مَنْ يعطي جزية، وقد يقال: إنه يقهر جميع الكفرة حتى لا يبقى له معاند ولا مقاتل، إلا من أسلم أو ألقى بيده، أو أعطى الجزية صاغرًا، ويكون وضع الجزية: أي يوظفها على كل من كفر؛ لا أنه يسقطها)[3].

وقال صاحب فتح الملهم معقبًا على كلام القاضي: (الأوضح في الجواب عن استدلالهم أن المراد من كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ومن كونه لا نبيّ بعده أنه لا يولد بعده نبي، لا أن جميعهم يموتون قبله. وليس مراد القاضي عياض أنه يمكن ولادة نبي بعده صلى الله عليه وسلم بشرط أن لا يأتي بشرع جديد، كما ادعى ذلك بعض المتنبئين في عصرنا، وإنّما مراده أن عيسى عليه السلام، وإن كان نبيًا، ولكنه يحكم بعد نزوله بشرع نبينا صلى الله عليه وسلم، فافهم)[4].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري ٤٤١٦، ومسلم ٢٤٠٤.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٨/٤٩٢، ٤٩٣.

(٤) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٢/٣١٤.

ومن الأدلة على نزوله عليه السلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[1]. قال الطبري: (وقوله "ليؤمنن به" أي بعيسى "قبل موته" يعني قبل موت عيسى، يُوجَّه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم، وعن ابن عباس قال قبل موته أي قبل موت عيسى، وعن أبي مالك في قوله "إلا ليؤمنن به قبل موته" قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به. وعن الحسن قال: قبل موت عيسى والله إنه الآن لحي عند الله، ولكنه إذا نزل آمنوا به أجمعون)[2].

وقال ابن كثير: (والصحيح ما ذكره ابن جرير وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موته، أي قبل موت عيسى عليه السلام وهذا ما يدل عليه سياق الآي من أن الله رفع عيسى إليه، وأنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويؤمن به حينئذ جميع أهل الكتاب، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم)[3]. وقال السعدي: (ومعنى الآية: وما من أحد من أهل الكتاب، إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار، فإنه تكاثرت الأحاديث في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة، يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين)[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، آية: ١٥٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٦٤/٧، ٦٦٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥٤/٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٧٧.

(٥) سورة الزخرف، آية: ٦١.

قال السعدي: (أي: وإن عيسى عليه السلام، لدليل على الساعة ... أو وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله، علامة من علامات الساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكنَّ في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر[1] اهـ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عليه السلام حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد))[2].

قال السفاريني: (وقد أجمعت الأمة على نزول المسيح عيسى بن مريم، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه، وقد انعقد الإجماع من الأمة على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء، وإن كانت النبوة قائمة وهو متصف بها)[3].

وقال أحمد شاكر: (وقد لعب المجددون أو المجردون في عصرنا الذي نحيا فيه بالأحاديث الدالة صراحة على نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان قبل انقضاء الحياة الدنيا: بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح تارة أخرى، ذلك أنهم - في حقيقة أمرهم- لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون بالغيب، وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يُعلم مضمون ما فيها من الدين بالضرورة، فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل)[4].

وأما موطن نزول المسيح عليه السلام فقد بين الحديث نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، قال النووي: (وهذه المنارة موجودة اليوم شرق دمشق وهذا الحديث من فضائل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٧١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٢٢، ومسلم ١٥٥.

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني ٩٤/٢.

(٤) نقلًا عن: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، الإمام محمد أنور شاه الكشميري، ترتيب محمد شفيع، تحقيق وتعليق د. عبدالفتاح أبو غدة، ط/٢، دار القرآن الكريم، بيروت: ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٣٥٦.

دمشق وقوله "مهرودتين" روى بالدال والذال ومعناه لابس ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران وقيل: هما شقتان والشقة نصف الملاءة)[1].

وقال ابن كثير: (والأشهر في موضع نزوله أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق وليس في دمشق منارة تعرف بالشرقية إلا التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقيه، وهذا هو الأنسب والأليق، لأنه ينزل وقد أقيمت الصلاة، فيقول له إمام المسلمين: يا روح الله تقدم فيقول: تقدم أنت فإنها إنما أقيمت لك، وقد جُدد بناء المنارة في زماننا في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة من حجارة بيض، وقد ورد أنه ينزل ببيت المقدس، والأحاديث تقتضي أن الدجال يقتل بلُدٍّ قبل أن يدخل بيت المقدس، فتدل على أنه لا يدخله الدجال كمكة والمدينة حماية له منه. وفي رواية: أن عيسى ينزل بالأردن وفي رواية بمعسكر المسلمين)[2].

الحادي عشر- من موضوعات الدعوة: بيان صفة المسيح عليه السلام وقتله للدجال:

حيث جاء في الحديث "واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ونفسه ينتهي إلى حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه باب لد فيقتله".

أما في صفة المسيح فقد جاء في الصحيح ما يدل على هيئته ففي الحديث: ((ولقيتُ عيسى، فنعتَه النبيُّ ﷺ فقال: رَبعةٌ أحمرُ، كأنَّما خرج من ديماسٍ "يعني الحمام"))[3] وفي الحديث أيضًا: ((رأيتُ عيسى وموسى وإبراهيمَ، فأما عيسى فأحمرُ جَعْدٌ عَريضُ الصدرِ))[4] وفي الحديث أيضًا: ((أراني الليلة عند الكعبة في المنامِ، فإذا رجلٌ آدمُ، كأحسنِ ما يُرَى من أُدْمِ الرِّجالِ تضرِبُ لِمَّته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسهُ ماءً، واضعًا يديهِ على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيتِ، فقلتُ: مَنْ هذا؟

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٩/٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٩٤، ومسلم ١٦٨.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٣٨.

فقالوا: هذا المسيحُ بنُ مريمَ))[١].

وأما صفته وهيئته عند نزوله فإنه يضع كفه على أجنحة ملكين، قال ابن عثيمين: (وينزل عيسى عليه السلام ويداه على أجنحة ملكين -لأن الملائكة أولو أجنحة- ينزلان من السماء وكأنه - والله أعلم- قد اغتسل بماء طيب، إذا طأطأ رأسه قطر ماء، وإذا رفعه تحدر منه الجمان، ويحتمل أن هذا ماء ويحتمل أنه عرق)[٢].

وقال النووي: (والمراد أنه يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفاته، فسمي الماء جمانًا لشبهه به في الصفاء، والجمان هو حب من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار)[٣].

وقال ابن عثيمين: (ومع نزوله لا يحل لكافر يجد نَفَس عيسى إلا مات ونَفَسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، ومعنى ذلك أنه يقتل أناسًا كثيرين من الكفار، لأن هذا النفس يطير في الهواء)[٤].

وأما طلبه للدجال وقتله، فقد جاء في الحديث أنه يدركه بباب لُدّ. قال النووي: (وهي بلدة قريبة من بيت المقدس)[٥]. وعندها يدرك عيسى عليه السلام المسيح الدجال فيقتله هناك، وبهذا ينتهي المسيح الدجال ويبقى المسيح رسول الله عليه السلام.

الثاني عشر – من موضوعات الدعوة: إثبات خروج يأجوج ومأجوج وفتنتهم:

حيث جاء في الحديث "ثم يأتي قومًا عصمهم الله منه -أي من الدجال - فيمسح عن وجوههم ويحدثهم... فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج..." وفي هذا إثبات لخروجهم ووجودهم. قال الإمام السفاريني: (ويأجوج ومأجوج اشتقاقهما من أجيج النار وهو ضوؤها وحرارتها وسموا بذلك لكثرتهم وشدتهم، وقيل من الأجاج وهو الماء

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٣٩، ومسلم ٢٧٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٨٥٥/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٨٥٦/٢.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٧.

الشديد الملوحة، وقيل هما اسمان أعجميان غير مشتقين. وأمر خروجهم ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، فأما الكتاب فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[١] وأما السنة فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ((خرج رسول الله ﷺ يومًا فزعًا، محمرًا وجهه يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعه الإبهام، والتي تليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث))[٢]. والحديث الذي معنا أيضًا يدل على ذلك، وقد ذكر ابن عبدالبر الإجماع على أنهم من ولد يافث بن نوح. فأمر خروجهم من وراء السد على الناس حق ثابت لوروده في الذكر، وثبوته عن سيد البشر، ولم يحله[٣] عقل فوجب اعتقاده)[٤].

وقال النووي: (ومَسْح عيسى عليه السلام للقوم الذين نجوا من الدجال، يحتمل أنه حقيقة على ظاهره، فيمسح على وجوههم تبركًا وبرًا، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف، وقوله "حرز عبادي إلى الطور" فالمعنى: نجهم وأزلهم عن طريقهم إلى الطور، وقوله "أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم" يعني لا قدرة ولا طاقة لأحد بقتالهم فهم يمشون مسرعين)[٥].

وأما فتنتهم فقد جاء في الحديث أنه يمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول: لقد كان بهذه مرة ماءًا.

الثالث عشر- من موضوعات الدعوة: لجوء عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله وفضل ذلك:

حيث جاء في الحديث "ويحصر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري ٣٣٤٦، ومسلم ٢٨٨٠.

(٣) استحال الشيء: صار محالاً. انظر: المعجم الوسيط في (ح ل ل).

(٤) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني ٢/١١٥.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦٩٨.

وأصحابه رضي الله عنهم إلى الله تعالى" قال ابن علان: (ويحاصر نبي الله عيسى وأصحابه في جبل الطور، ويمنعون من يأجوج ومأجوج من النزول إلى الأرض، حتى يكون رأس الثور عند أحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، وذلك لقوة حاجتهم للطعام واضطرارهم إليه، وإنما ذكر رأس الثور، ليقاس به البقية في ارتفاع القيمة)(١). وأمام هذه الحال يلجأ نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، ويتضرعوا إليه أن يكشف عنهم هذا الأمر، ودأب المؤمن دائمًا أنه يلجأ إلى الله عند الشدائد، وهذا هو حال الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾(٢) وقال سبحانه عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) وقال سبحانه عن زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ﴾(٤). وأمام تضرع ودعاء نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، يستجيب الله لهم، ويهلك يأجوج ومأجوج.

الرابع عشر- من موضوعات الدعوة: بيان هلاك يأجوج ومأجوج وتطهير الأرض منهم:

١- أما هلاكهم فقد جاء في الحديث "فيرسل الله تعالى عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فَرْسى كموت نفس واحدة". قال ابن عثيمين: (والنغف: هو عبارة عن دودة في أعناقهم فيصبحون فَرْسى -جمع فريسة يعني موتى - كنفس واحدة، كل هذه الأمم التي لا يحصيها إلا الله تموت في ليلة واحدة، لأن الأمر بيد الله سبحانه، فبمجرد دخول

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٧٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٨٣، ٨٤.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٨٧، ٨٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٨٩، ٩٠.

النغف في أعناقهم يموتون على الفور، ثم ينزل عيسى وقومه إلى الأرض)[1].

٢- وأما تطهير الأرض منهم: فقد جاء في الحديث "فلا يجدون في الأرض موضع قبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله عز وجل مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة". قال الطيبي: (ولما ينتشر في الأرض دسمهم وريحهم المنتنة، يرسل الله طيرًا أعناقها كأعناق البخت فتطرحهم، ويعم المطر الأماكن كلها، فيغسلها حتى تصير الأرض كالزلقة يعني كالمرآة، شبهها بالمرآة في صفائها ونظافتها، وقيل معناه كمصانع الماء أي حتى تصير الأرض كالمصنع الذي يجتمع فيه الماء وقيل كالروضة)[2]. وقال د. الحسيني هاشم: (ومعنى الحديث أن من علامات القيامة وخاتمة الدنيا ما فيه، إنه يصور مرحلة زمنية هي آخر مظاهر الحياة الدنيا وختامها. تبدأ هذه المرحلة بنزول الدجال، وهو شاب أعور مكنه الله من بعض الخوارق، يدعي الألوهية، ولا ينجو منه إلا الصادقون، ومنهم من قرأ أول سورة الكهف وآخرها، ثم ينزل المسيح عيسى بن مريم فتتطهر الأرض، أرض فلسطين، من الكفر، ثم ينزل يأجوج ومأجوج فلا ينجو منهم إلا من هرب مع المسيح إلى جبل الطور، ثم يهلكهم الله تعالى، ويعود المؤمنون، ثم يموتون بريح طيبة، ويبقى الأشرار، فعليهم تقوم الساعة. ولا يعرف أحد منهم ميعادها لا تأتيهم إلا بغتة.

وفي الحديث: ١ - إثبات نزول الدجال والتحذير منه وبيان الطريق إلى النجاة منه. ٢ - إثبات نزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجال. ٣ - خروج يأجوج ومأجوج، ولعلهم من ناحية الشرق، واضطرارهم المسيح ومن معه للهرب إلى الطور. ٤-بقاء بيت المقدس واللد وسائر بلاد فلسطين بأسمائها الإسلامية. ٥ - تحدث النبي ﷺ عن الغيب كأنه يراه، ووجوب الإيمان بما ذكر)[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٨٥٧/٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار، ١١٦/١٠.

(٣) شرح رياض الصالحين ٨١٧.

٣- وأما بركة الأرض بعد هلاك يأجوج ومأجوج فقد جاء في الحديث "ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك..." ومن مظاهر هذه البركة كما جاء في الحديث (وتنزل في زمن عيسى عليه السلام بركات دينية ودنيوية من كل نوع، ويخرج الحقد والضغينة من أفئدة الناس ويكون الرمان في زمانه كبيرًا حتى تكفي الرمانة الواحدة لجماعة من الناس، ويكفي لبن ناقة واحدة لجماعة من الناس، ويكفي لبن شاة واحدة لقبيلة واحدة)[١].

الخامس عشر- من موضوعات الدعوة: بيان على من تقوم الساعة والنفخ في الصور:

حيث جاء في الحديث "بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة" وفي الحديث "... ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته... فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع".

قال النووي: (ومعنى يتهارجون: أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ولا يكترثون لذلك)[٢]. فعلى هؤلاء تقوم الساعة، وأما أهل الإيمان فتقبض الريح الطيبة أرواحهم. وقال النووي أيضًا: (وقوله "فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع" أي إنهم يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد، كطيران الطير، وفي العدوان وظلم بعضهم لبعض، في أخلاق السباع العادية)[٣].

وأما النفخ في الصور: فقد جاء في الحديث "ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا[٤] ورفع ليتًا وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس"

---

(١) التصريح بما تواتر في نزول المسيح، محمد أنور شاه الكشميري، ٣٠٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٩٨.

(٣) المرجع السابق نفسه ص ١٧٠١.

(٤) اللِّيتُ: صفحة العنف، ومعناه: يضع صفحة عنه ويرفع صفحته الأرى، انظر: رياض الصالحين ص ٥٠٤، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.

والمراد أن شرار الناس يفتنهم الشيطان ويأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك في رزق وخير وعيش حسن ثم ينفخ في الصور. قال حبنكة الميداني: (لقد أخبرنا الله تعالى أنه ستحدث نفختان في الصور. الأولى: نفخة الإماتة العامة وعندها تكون ساعة إنهاء النظام القائم في الحياة الأولى. والثانية: نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت ويدل على حدوث هاتين النفختين قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1] وبالنفخة الثانية يبعث الله الناس إلى الحياة الثانية ليتم فيها نظام الجزاء الأكمل بالثواب أو بالعقاب)[2]. وقال ابن كثير: (والنفخة الأولى: هي نفخة الصعق وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهي نفخة البعث فإذا هم قيام ينظرون)[3]. وقد جاء في صحيح البخاري مقدار ما بين النفختين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة، أربعونَ يومًا؟ قال: أَبَيتُ. قال: أربعون سنةً؟ قال: أَبَيتُ، قال: أربعونَ شهرًا؟ قال: أَبَيتُ، ويَبلى كلُّ شيءٍ من الإنسان، إلا عَجْب ذَنَبه، فيه يُركَّبُ الخَلق))[4].

السادس عشر – من موضوعات الدعوة: بيان بعث النار:

حيث جاء في الحديث "ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال مِنْ كَمْ؟ فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فذلك يَوْمَ يجعل الوالدان شيبًا". قال الطيبي: (أي يسأل المخاطبون عن كمية العدد المبعوث إلى النار، فيقولون: كم عددًا نخرجه من كم عدد فيقال لهم: أخرجوا من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وقوله: يوم يكشف عن ساق كناية عن شدة عظيمة، وألم فظيع، وهو إقبال الآخرة وظهورها، وذهاب الدنيا،

(١) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٢) العقيدة الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ٦٤٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١١٦/٧.

(٤) أخرجه البخاري ٤٨١٤.

ويقال للأمر إذا اشتد وتفاقم وظهر وزال خفاؤه كشف عن ساقه)[1].

السابع عشر- من موضوعات الدعوة: حفظ مكة والمدينة من الدجال:

حيث جاء في الحديث "ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة وليس نقب من أنقابها إلا عليه ملائكة صافين تحرسهما فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج الله منها كل كافر ومنافق" وهذا من حفظ الله لمكة والمدينة. قال ابن كثير: (ومما يعصم من فتنة الدجال، سكنى المدينة النبوية ومكة شرفهما الله تعالى فقد ثبت في الصحيح أنه لا يدخل مكة ولا المدينة، تمنعه الملائكة لشرف هاتين البقعتين، فهما حرمان آمنان، وإنما إذا نزل عند سبخة المدينة ترجف بأهلها ثلاث رجفات إما حسًا وإما معنى على القولين، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة، فيومئذٍ تنفي المدينة خبثها وينصع طيبها)[2]. قال ابن حجر: (وقوله "ترجف المدينة" أي يحصل لها زلزلة بعد أخرى، ثم ثالثة، حتى يخرج منها من ليس مخلصًا في إيمانه، ويبقى بها المؤمن الخالص، فلا يسلط عليه الدجال، والحاصل إعلامه ﷺ أن الدجال لا يدخل المدينة ولا الرعب منه)[3].

وفي التدليل على حفظ مكة والمدينة من الدجال، ساق أحد الباحثين أربعة وسبعين حديثًا نبويًا في إثبات هذا، ثم عقب عليها بقوله: (وهذه الأحاديث المتقدمة يدل ما صح منها على أن فتنة الدجال فتنة عظيمة، لم تكن فتنة في الأرض منذ خلق الله آدم أعظم من فتنته، ولذلك حذر كل نبي أمته منه، وهو موجود في إحدى الجزر مكبَّل بالحديد، ويظهر -حين يأذن الله بخروجه- في المشرق، ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا، ويطوف الأرض كلها في أربعين يومًا، إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، فلا يستطيع أن يدخلها حيث يأتي المدينة فيجد الملائكة واقفين على مداخلها يحرسونها، بأيديهم السيوف مسلولة، كلما أراد أن يدخلها منعوه، فينزل سَبَخة الجُرْف عند جبل

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٤٧/١٠.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢٠٢/١٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١٥/٤.

صغير أحمر عند مجتمع السيول، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج منها كل كافر ومنافق، ويخرج إليه رجل من خيار الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيسلط الله عليه الدجال - ولا يُسلط على أحد غيره- فيقتله، ثم يحييه، مستدلاً بذلك على أنه الرب الذي يحيي ويميت، فيصدقه أتباعه، أما الرجل فيزداد يقينه بأنه الدجال، فيقول: "والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم"، فيريد الدجال أن يقتله مرة أخرى، فلا يُسلَّط عليه.

ويحاول الدجال دخول المدينة، فتصرف الملائكة وجهه إلى الشمال، فيذهب إلى الشام، فينزل حينئذ عيسى بن مريم عليه السلام، فيدرك الدجال في مدخل مدينة "لُد" بفلسطين فيقتله.

وحماية المدينة من الدجال نعمة عظيمة، ومنقبة ظاهرة للمدينة، حيث يحفظ الله عز وجل على المؤمنين -من أهلها- إيمانهم من التأثر بتلك الفتنة العظيمة)[1].

الثامن عشر- من موضوعات الدعوة: بيان أتباع الدجال:

حيث جاء في الحديث "يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة" وهذا يبين أن أكثر أتباع الدجال من اليهود "أما أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنساء، فأكثر أتباع الدجال هم من الترك وبعض الأعاجم، وقد جاء وصفهم في الحديث ((لا تقوم الساعةُ حتى تقاتلوا خُوزًا وكرمانَ منَ الأعاجم، حُمرَ الوجوهِ فُطسُ الأنوفِ صِغارَ الأعين كأنَّ وجوهَهُمُ المجانُّ المطرَّقة، نعالهمُ الشَّعر))[2]. وأما كون أكثر أتباعه من الأعراب فلأن الجهل غالب عليهم، وأما النساء فحالهن أشد من حال الأعراب، لسرعة تأثرهن وغلبة الجهل عليهن[3].

---

(١) الأحاديث الواردة في فضائل المدينة "جمعًا ودراسة"، د. صالح بن حامد بن سعيد الرفاعي، ط/٢، إصدار مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالمدينة المنورة: ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ص ١٦٤-١٦٥.

(٢) أخرجه البخاري ٣٥٩٠.

(٣) أشراط الساعة، د. يوسف عبدالله بن يوسف الوابل، ٣١٢.

التاسع عشر- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن خروج أحد المؤمنين للدجال:

حيث جاء في الحديث "يخرج الدجال فيتوجه قِبله رجل من المؤمنين فتلقاه المسالح مسالح الدجال فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج قال فيقولون له أو ما تؤمن بربنا فيقول: ما بربنا خفاء..." وفي هذا إخبار من النبي ﷺ عن خروج المؤمن الذي يذهب للدجال ويواجهه بأنه المسيح الكذاب، فيضربه بالمنشار ويقطعه فرقتين، ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قم فيستوي قائمًا، ويطلب منه الإيمان به، فيرفض ويقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، ثم يريد الدجال أن يذبحه فلا يستطيع، فيأخذه ويقذف به، فيحسب الناس أنه قذف في النار، وإنما أُلقي في الجنة، وهذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين.

قال ابن حجر: (قال الخطابي: فإن قيل كيف يجوز أن يجري الله الآية على يد كافر؟ فالجواب أنه على سبيل الفتنة للعباد، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعواه، وهو أنه أعور مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مسلم، فالذي أعطيه الدجال من ذلك فتنة لمن شاهده ومحنة لمن عاينه)[1]. وكل هذا دليل على عظم فتنة الدجال وشدة تمويهه على الناس.

العشرون- من موضوعات الدعوة: فضل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه:

حيث جاء في الحديث ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر ما سألته وإنه قال لي: ما يضرك..." والصحابي الجليل المغيرة بن شعبة له فضل كبير. قال ابن عبدالبر: (هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود، وهو من ثقيف يكنى أبا عبدالله وقيل: أبا عيسى، أسلم عام الخندق وقدم مهاجرًا وقيل: إن أول مشاهده الحديبية، وكان المغيرة رجلاً طوالاً ذا هيبة أعور، أصيبت عينه يوم اليرموك، قال له مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو واقف على قبره: أما والله لقد كنت شديد العداوة لمن عاديت، شديد الأخوة لمن آخيت، وعن الأصمعي قال: كان معاوية يقول: أنا للأناة، وعمرو للبديهة، وزياد للصغير والكبير، والمغيرة للأمر العظيم)[2].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/ ١١٠.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ص ٦٦٥.

وقال ابن حجر: (قال الطبري: كان ضخم القامة، عبل الذراعين، بعيد ما بين المنكبين، أَصْهَب[1] الشعر جعده، وكان لا يفرقه، وقال ابن سعد: كان يقال له مغيرة الرأي، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق، وقال الشعبي: كان من دهاة العرب، وقال البغوي: كان أول من وضع ديوان البصرة، وقال الطبري: كان لا يقع في أمر إلا وجد له مخرجًا، ولا يلتبس عليه أمران إلا أظهر الرأي في أحدهما، وقيل: إن للمغيرة عند عمر منزلة، إنه ليدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد، ومات سنة خمسين عند الأكثر)[2].

الحادي والعشرون- من آداب المدعو: السؤال عما ينفعه:

حيث تكرر في الحديث سؤال الصحابة لرسول الله ﷺ ومن ذلك: أتكفينا فيه صلاة يوم؟ وما إسراعه في الأرض؟ والمدعو واجب عليه أن يسأل عما ينفعه ويفيده، وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] قال السعدي: (وهذه الآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالسؤال والتعلم من أهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي الآية نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتعدى لذلك)[4].

ومما يدل على حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ عما ينفعهم ما جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ((كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاء الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر.

---

(١) أَصْهَب الشعر: كان أصفر ضاربًا إلى حمرة وبياض، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ص هـ ب).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٨٠.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٤٦٨.

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة. قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك))[1].

دل هذا الحديث على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسألون النبي ﷺ عن الخير ليعرفوه ويعملوا به، ومنهم من كان يسأل عن الشر ليجتنبه وليحذر منه.

قال ابن حجر: (وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزابًا، فلا يتبع أحدًا في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع، ذلك خشية من الوقوع في الشر، وعلى ذلك يتنزل ما جاء في سائر الأحاديث، وبه يجمع ما ظاهره الاختلاف منها.

وقال ابن أبي جمرة: في الحديث حكمة الله في عباده كيف إذا أقام كلا منهم فيما شاء، فحبب إلى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير ليعملوا بها ويبلغوها غيرهم، وحبب لحذيفة السؤال عن الشر ليجتنبه، ويكون سببًا في دفعه عمن أراد الله له النجاة.

وفيه سعة صدر النبي ﷺ ومعرفته بوجوه الحكم كلها، حتى كان يجيب كل من سأله بما يناسبه.

ويؤخذ منه ذم من جعل للدين أصلاً خلاف الكتاب والسنة، وجعلها فرعًا لذلك الأصل الذي ابتدعوه.

وفيه وجوب رد الباطل، وكل ما خالف الهدي النبوي، ولو قاله من قاله من رفيع أو وضيع)[2] اهـ.

الثاني والعشرون- من موضوعات الدعوة: هوان أمر الدجال على الله عز وجل:

حيث جاء في الحديث "هو أهون على الله من ذلك". والمراد أنه رغم فتنة الدجال

---

(١) أخرجه البخاري ٣٦٠٦، ومسلم ١٨٤٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٧.

العظيمة إلا أن أمره هين على الله. قال النووي: (قال القاضي: معناه: هو أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله تعالى على يده مضلاً للمؤمنين ومشككًا لقلوبهم، بل إنما جعله له ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويثبت الحجة على الكافرين والمنافقين، وليس معناه أنه ليس معه شيء)[١].

وقال ابن حجر: (والمراد أنه أهون من أن يجعل شيئًا من ذلك آية على صدقه، ولا سيما وقد جعل فيه آية ظاهرة في كذبه وكفره، يقرأها من قرأ ومن لا يقرأ زائدة على شواهد كذبه من حدثه ونقصه، ويحتمل أن يكون قوله "هو أهون" أي لا يجعل له ذلك حقيقة من جبال الخبز والماء والجنة والنار، وإنما هو تخييل وتشبيه على الأبصار، فيثبت المؤمن ويزل الكافر فهو أهون على الله من أن يكون له نهر ماء يجري فإن الذي معه يرى أنه ماء وليس بماء)[٢]. فأمر الدجال هين على الله.

الثالث والعشرون- من موضوعات الدعوة: إنذار الأنبياء أقوامهم من الدجال:

حيث جاء في الحديث "ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب" وقوله: "ألا أحدثكم حديثًا عن الدجال ما حدث به نبي قومه" قال ابن حجر: (قال ابن العربي: إنذار الأنبياء قومهم بأمر الدجال تحذير من الفتن وطمأنينة لها لا يزعزعها عن حسن الاعتقاد، وكذلك تقريب النبي ﷺ له زيادة في التحذير، وأشار مع ذلك إلى أنهم إذا كانوا على الإيمان ثابتين، دفعوا الشبه باليقين. وأما إنذار نوح قومه بالدجال فقد استشكل، لأن الأحاديث قد ثبتت أنه يخرج بعد أمور ذكرت، والجواب أنه، كان وقت خروجه أخفى على نوح ومن بعده، فكأنهم أنذروا به، ولم يذكر لهم وقت خروجه فحذروا قومهم من فتنته)[٣]. ولاشك أن مهمة الأنبياء هي الإنذار من الفتن والشرور ولا فتنة أشد وأكبر من فتنة الدجال (ولأن الدجال فتنة عظيمة تحير العقول وتدهش الألباب مع سرعة مروره في الأرض، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٩٩/١٣، ١٠٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، ١٠٣/١٣.

ودلائل الحدوث فيه والنقص، لهذا حذرت الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله)[١].

قال د. عمر سليمان الأشقر: (بعث الله رسوله ﷺ دالاً على الخير، محذرًا من الشر، وقد دل أصحابه على المنهج الأمثل الذي ينبغي أن يسلكوه في الوقائع التي وقعت في عصره، وفي إخباره بالمغيبات المقبلة، توجيه للذين جاءوا من بعده من أمته كيف يتصرفون حيال الأحداث التي قد يخفى عليهم وجه الحق فيها.

ومن هذه التوجيهات التي كان لها أثر كبير في توجيه المسلمين إلى الحق تبشيره عثمان رضي الله عنه بالجنة على بلوى تصيبه، وإخباره بأن عمارًا تقتله الفئة الباغية، وأمره أباذر بأن يعتزل الفتنة، وأن لا يقاتل ولو قتل.

ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من حديث حذيفة حيث كان يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، بينما أصحابه رضي الله عنهم كانوا يسألون الرسول ﷺ عن الخير.

ومن هذا نَهْي الرسول ﷺ المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات في آخر الزمان، وإخبارهم عن حقيقة الدجال، وبيان ما يأتي به من الشبهات. وغير ذلك من الكائنات التي يبصّر الرسول ﷺ أمته بالتصرف الأمثل حيالها.

وقد تمر بالمسلمين وقائع في مقبل الأيام تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها، ولو ترك المسلمون إلى اجتهادهم فإنهم قد يختلفون، وقد لا يهتدون إلى الصواب، بل قد يكون بيان الحكم الشرعي في تلك الأحداث واجب لا بد منه، وعدم البيان يكون نقصًا تنزه الشريعة عنه.

فمن ذلك أن الرسول ﷺ أخبر أن الدجال يمكث في الأرض أربعين يومًا، يوم من أيامه كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وبقية أيامه كأيامنا، وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن تلك الأيام الطويلة أتكفي الواحد منها صلاة يوم، قال الرسول ((لا، اقدروا له قدره))[٢]. ولو وكل العباد إلى اجتهادهم لاقتصروا على الصلوات الخمس عند

(١) أشراط الساعة، د. يوسف بن عبدالله يوسف الوابل، ٣٢٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٣٧.

الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام.

وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى عليه السلام بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى، ولا يقبل منهم إلا الإيمان.

وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري، لأن عيسى عليه السلام يحكم بهذا الشرع)[1].

الرابع والعشرون- من موضوعات الدعوة: حرص النبي ﷺ على أمته:

حيث جاء في الحديث "إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم" وقوله "فمن أدركه منكم فليقع في الذي يراه نارًا فإنه ماء عذب طيب" وقوله "فالتي يقول إنها الجنة هي النار" وكل هذا يدل على مدى حرص النبي ﷺ على إنذار قومه وتعريفهم أمر الدجال، حتى لا ينخدعوا فيه، ولقد كان من حديث القرآن عن الرسول ﷺ أنه حريص على أمته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

قال القرطبي: (قال أبو جعفر النحاس وأحسن ما قيل في معناه مما يوافق كلام العرب ما جاء من عبدالله بن داود الخريبي "حريص عليكم" قال: أن تدخلوا الجنة، وقيل حريص عليكم أن تؤمنوا، وقال العزاء: شحيح عليكم بأن تدخلوا النار، والحرص على الشيء: الشح عليه أن يضيع ويتلف)[3]. وإذا كان النبي ﷺ حريصًا على أمته وقومه فواجب على كل داعية أن يشعر المدعوين بحرصه عليهم وشفقته بهم، وحنوه عليهم ورغبته في نصحهم وإرشادهم، ودلالتهم إلى ما ينفعهم.

الخامس والعشرون- من أساليب الدعوة: الحوار والاستفسار:

حيث جاء في الحديث "فقال: ما شأنكم؟ قلنا يا رسول الله: ذكرت الدجال الغداة..." وقوله "قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض" وقوله في حديث آخر "وإنه قال لي:

---

(١) اليوم الآخر، القيامة الصغرى، د. عمر سليمان الأشقر، ص ١٣٠-١٣٣ بتصرف.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٠٢/٤.

ما يضرك قلت إنهم يقولون: إنه معه جبل خبز ونهر ماء" ولاشك أن أسلوب الحوار والاستفسار من أساليب الدعوة المهمة حيث يستفرغ المدعو ما عنده من تساؤلات، ويتعرف على ما يجهل من أمور، ولذا يجب على الدعاة أن يشجعوا المدعو على الحوار والاستفسار لتحقيق هذا الغرض (إن الحوار يعني الانفتاح الواعي على الآخرين، والحوار ظاهرة اجتماعية إذ هو من أفعال المشاركة التي لا يمكن للفرد أن يقوم بها، وفي واقعنا المعاصر يعود ضعف الحوار إلى أمرين الأول: الاستخفاف بفائدة الحوار. والثاني: الخوف من الحوار، والذين لا يدركون قيمة الحوار فهم كثر، وانعدام الحوار يؤدي إلى قطع خيوط التواصل مع الآخرين)[(١)].

السادس والعشرون- من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات:

يتضح هذا من سياق الأحاديث حيث أخبر الرسول ﷺ عن فتنة الدجال التي ستقع وماذا يقول وماذا يدَّعي وماذا سيكون، ولا شك أن كل هذا من دلائل نبوته ﷺ. قال ابن كثير: (وهذا الحديث يذكر في دلائل النبوة ولهذا يقول المؤمن الذي يسلط عليه الدجال فيقتله ثم يحييه: والله ما ازددت فيك إلا بصيرة أنت الأعور الكذاب الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ، ولا يلزم من هذا أنه سمع خبر الدجال من رسول الله ﷺ شفاهًا)[(٢)]. جاء في موسوعة نضرة النعيم: (من معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته إخباره عن المغيبات مما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها، ومن المعلوم والمقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وأنه استأثر به، وقد جاء ما يفيد أن الله استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم)[(٣)]. وقد قال حذيفة ابن اليمان رضي الله عنهما: ((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللّهِ مَقَامًا. مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ. إِلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ))[(٤)]. ومن الآيات التي تدل

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي، د. عبدالكريم البكار ص ٢٧٦.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٩٨/١٩.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٤٢/١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٣، ٢٨٩١.

على إطلاع الله بعض أنبيائه على بعض الغيوب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[1].

السابع وعشرون- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يتضح هذا من سياق الأحاديث حيث حذر النبي ﷺ وخوف أمته من الدجال وفتنته وما يكون معه، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة المهمة حيث إن النفس البشرية طبيعتها تخاف الهلاك والوعيد بالضرر (والترهيب أسلوب قرآني، يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب، وخوفًا من فقدان السلام و الأمن)[2]. (والرهبة طول الخوف واستمراره والترهيب هو التخويف والتوعد، فمن الناس من يلهث وراء الشهوات، ويجري وراء المادة ويشغف بالمنكر، فهذا يقرعه الترهيب، ويوقفه الإنذار، ويوقظه التخويف من عواقب ما هو فيه)[3].

الثامن والعشرون- من أهداف الدعوة: تهيئة المؤمنين للابتلاء والتمحيص:

يتضح هذا من سياق الأحاديث وما يكون مع الدجال من فتن وابتلاءات، ولاشك أن في هذا تهيئة للمؤمنين لاستقبال هذه الفتن والابتلاءات والاستعداد لها. (ولقد جلى لنا رسولنا محمد ﷺ حقيقة الدجال بأوضح بيان وآكد برهان، حتى يكون المسلم على حذر منه، وينجو من فتنته العظيمة، وإن الإيمان بقضية الدجال وما يقتضيها من كفره وضلاله وكذبه يعني للمؤمن النجاة من إفكه لمن حقق مقتضيات الإيمان به، ومن ذلك دراسة أمر الدجال حتى تتضح أمامه هذه الحقيقة التي حذر منها النبيون أجمعهم؛ لأن الدجال يأتي بأمور عظيمة، ومن تهيئة المؤمنين للابتلاء أن يكثروا الاستعاذة بالله من فتنة الدجال، إذ أن الله هو المعين من كل ضائقة ومصيبة)[4].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٢) فقه الدعوة إلى الله تعالى، د. علي عبدالحليم محمود ٢٣٢/١.

(٣) الدعوة إلى الله - الوسيلة - الهدف، د. توفيق الواعي، ١٩٩، ٢٠٠.

(٤) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد، ٥٦١، ٥٦٢.

والمؤمن عندما يتعرف على أحوال المسيح الدجال، فإنه يأخذ حذره ويتهيأ ويسلك سبل السلامة. (وفتنة الدجال من أعظم فتن آخر الزمان، التي تموج بعقول أولي الألباب، وينبغي على المسلم أن يحرص على معرفة ما ورد عن الدجال، لأنها تعطي تصورًا واضحًا عن علامات الدجال، ليحتاط لدينه، ويكون على بصيرة من أمره إذا اشتعلت نار هذه الفتنة، واختلفت أحوال الناس فيها بين مقبل ومدبر، يثبت الله عز وجل بفضله من يشاء من عباده المخلصين، فالواجب على المسلم أن يحتاط من الوقوع في هذه الفتنة)[1].

ولقد تكاثرت الأحاديث التي تبين للمسلم الفتنة والمخرج منها، وماذا يفعل حيالها (لقد حذر النبي ﷺ أمته من الفتن وأخبرهم بعلامات الساعة فمنها علامات صغرى -وقد وقع معظمها- ومنها علامات كبرى، فما من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، فكان النبي ﷺ أحرص ما يكون على أن يقدم لأمته الوصية عند وقوع الفتن وانتشار الأهواء وحدوث الاختلاف -وقد حدث - فجاءت الأحاديث الكثيرة المبينة لذلك.

- وقد أوصى النبي ﷺ عند وقوع الفتن بالاعتزال وعدم الخوض فيها ونبذ الاختلاف.

قال ابن حجر: (وقد اختلف السلف في أصل العزلة فقال الجمهور: الاختلاط أولى لما فيه اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام، وتكثير سواد المسلمين، وإيصال أنواع الخير إليهم من إعانة وإغاثة وعيادة وغير ذلك.

وقال قوم العزلة أولى لتحقيق السلامة بشرط معرفة ما يتعين.

وقال النووي: المختار تفضيل المخالطة لمن لا يغلب على ظنه أنه يقع في معصية، فإن أشكل الأمر فالعزلة أولى.

وقال غيره: يختلف باختلاف الأشخاص، فمنهم من يتحتم عليه أحد الأمرين، ومنهم من يترجح - فمن يتحتم عليه المخالطة، من كانت له قدرة على إزالة المنكر، فيجب عليه إما عينًا وإما كفاية بحسب الحال والإمكان)[2].

---

(١) المنهج الشرعي في مواجهة الفتن، مرفت بنت كامل بن عبدالله أسرة ص ١١٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢/١٣.

وهذا حيث لا يكون هناك فتنة عامة، فإن وقعت الفتنة ترجحت العزلة، لما ينشأ فيها غالبًا من الوقوع في المحذور، وقد تقع العقوبة بأصحاب الفتنة، فتعم من ليس من أهلها كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

ثم نقل ابن حجر عن الخطابي قوله: إن العزلة والاختلاط يختلف باختلاف متعلقاتهما فتحمل الأدلة الواردة في الحض على الاجتماع، على ما يتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين وعكسها في عكسه، وأما الاجتماع والافتراق بالأبدان، فمن عرف الاكتفاء بنفسه في حق معاشه ومحافظة على دينه فالأولى له الاكتفاء عن مخالطة الناس، بشرط أن يحافظ على الجماعة والسلام والرد وحقوق المسلمين من العيادة وشهود الجنازة ونحو ذلك.

والمطلوب إنما هو ترك فضول الصحبة، لما في ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمات، ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الغذاء والعشاء، فيقصر منه على ما لا بد له منه، فهو أروح للبدن والقلب والله أعلم اهـ[2])[3].

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٣٢/١١.

(٣) الرسالة في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، أبو عبيدة ماهر بن صالح آل مبارك، ص ٤٨-٤٩.

الحديث رقم (١٨١١)

١٨١١- وعن رِبعِيِّ بنِ حِرَاشٍ، قال: انطلقت مع أبي مسعود الأنصاري إلى حُذَيفَةَ بن اليمان رضي الله عنهما، فقال له أبو مسعود: حَدِّثْنِي ما سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، في الدَّجَّالِ، قال: **((إنَّ الدَّجَّالَ يَخرُجُ، وإنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا، فَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً فَنَارٌ تُحْرِق، وأمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ. فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُم[1]، فَلْيَقَعْ فِي الَّذي يَرَاهُ نَارًا، فَإِنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ))** فقال أبو مسعود: وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ. متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٢).

الشرح الأدبي

إن المفارقة الأسلوبية هي التي تغمر البيان النبوي في هذا الحديث الشريف، وهذه المفارقة التي تعني بإبراز التناقض بين الأشياء، وسوق المعنى وضده في سياق واحد، وتقديم الجميل في صورة القبيح، والقبيح في صورة الجميل، وهذا التضاد في الدلالات، وقلب موازين الأشياء، من أوضح الدلائل على زيف وكذب مقولات الدجال، فالباطل عنده حق، والحق عنده باطل، وماؤه نار تحرق، وناره ماء حلو طيب عذب، ويبدأ الحديث بتأكيد الخبر وجملة ناسخة في قوله: "إن الدجال يخرج" و"إن" حرف ناسخ ويفيد التأكيد، والنسخ اللغوي هنا يوحي بنسخ كل ما يقدم الدجال من أقوال وأفعال: ويتكرر التأكيد "مرة ثانية" بإن: وهي كذلك توحي بالنسخ السلوكي الذي تضمنه النسخ اللغوي في قوله: "وإن معه ماءً ونارًا"، وهما يرمزان للخير والشر: "فماء الدجال" منبع الهلاك والشرور، "وناره": المزعومة: هي الماء العذب الزلال في حقيقة الأمر، لأنه يغوي الناس بالباطل.

---

(١) لفظ مسلم: (فمن أدرك ذلك منكم).

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٥٠، ومسلم واللفظ له ٢٩٣٤/١٠٧.

وأسلوب الشرط الذي يتضمن تفصيل الأمر، وتوضيح الحقيقة يوحي بالمقصود حيث التأمل والتفكير الدقيق الذي يتسم به أولوا الألباب: ولنتأمل المفارقة الدقيقة والبليغة في قوله: "فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق"، وأما الذي يراه الناس نارًا فماء بارد عذب، ولنتأمل هذا التوجيه النبوي البليغ الذي ورد في صيغة الشرط المتضمن الأمر في الجواب وهو يتضمن المفارقة التي تدعو للدهشة والتأمل: (فمن أدركه منكم فليقع في الذي يراه نارًا).

والتأكيد في نهاية الحديث يدعو إلى مقاومة فتنة الدجال، وكشف أباطيله: فالرسول ﷺ يأمر كل من يدرك الدجال بقوله: "فليقع في الذي يراه نارًا"، "فإنه ماء عذب طيب". والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٨١٢)

١٨١٢ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((يَخرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أربَعِينَ (لاَ أدْرِي أربَعِينَ يَومًا أو أربَعِينَ شَهْرًا، أو أربَعِينَ عَامًا)، فَيَبْعَثُ اللهُ تَعالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ [١]، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيسَ بَينَ اثْنَينِ عَدَاوةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيرٍ أو إيمَانٍ إلاَّ قَبَضَتْهُ، حَتَّى لو أنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ، لَدَخَلَتْهُ عَلَيهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ[٢].

فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ في خِفَّةِ الطَّيْرِ، وأحْلامِ السِّبَاعِ، لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فيَقُولُ: ألاَ تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تأمُرُنَا؟ فَيَأمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأوْثَانِ، وَهُمْ في ذلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ في الصُّورِ، فَلاَ يَسْمَعُهُ أحَدٌ إلاَّ أصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، وَأوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إبِلِهِ فَيُصْعَقُ ويُصْعَقُ النَّاسُ (حوله) [٣]، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ -أو قالَ: يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنهُ أجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يا أيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: اخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ ألْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وتِسْعِينَ؛ فَذَلِكَ يَومٌ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَومَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)). رواه مسلم[٤]. "اللِّيتُ": صفحة العنق، ومعناه: يضع صفحة عنقه ويرفع صفحته الأخرى.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

---

(١) عند مسلم زيادة: (كأنه عروة بن مسعود).

(٢) عند مسلم زيادة: (قال: سمعتها من سرول الله ﷺ، قال).

(٣) (حوله) لا توجد عند مسلم في هذه الرواية.

(٤) برقم ٢٩٤٠/١١٦.

غريب الألفاظ:

مثقال: مقدار[1].

الذَّرة: ما يُرى في النور إذا دخل النافذة[2].

كَبِدِ جَبَلٍ: وسطه وداخله وكبد كل شيء وسطه[3].

خفة الطير وأحلام السباع: أي: يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير وفي العدوان وظلم بعضهم بعضًا في أخلاق السباع العادية[4].

دَارٌّ رزقهم: كثر[5].

ليتا: الليت: صفحة العنق. ومعناه يضع صفحة عنقه ويرفع صفحته الأخرى[6].

يلوط حوض إبله: يطينه ويصلحه[7].

الطلّ: الذي ينزل من السماء في الصّحْو، والطّل -أيضًا-: أضعفُ المطر[8].

بعث النار: المبعوث إليها من أهلها[9].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف نجده ينهج النهج القصصي في عرض أخبار ظهور الدجال، وبعض أمارات يوم القيامة، أو الإخبار عن الظواهر الكونية التي تمثل إرهاصات لقيام الساعة، وأول سمة من سمات النهج

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث ق ل).

(٢) المرجع السابق في (ذ ر ر).

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠١.

(٤) المرجع السابق ص ١٧٠١.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (د ر ر).

(٦) رياض الصالحين ٦١٦.

(٧) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠١.

(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ل ل)، شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠١.

(٩) المرجع السابق في (ب ع ث).

القصصي: تتابع الأفعال المضارعة في الحديث كله.. والرابط من هذه الأفعال المتوالية الفاء، التي تفصح عن تعاقب الأحداث والأفعال، وتجيء ثم للربط بين الأحداث التي تتسم بالتراخي وتفصل بينها مسافات زمنية ليست بالقصيرة.

ولنتأمل مكونات المشهد الأول وهو مشهد ظهور الدجال وبعث عيسى بن مريم وقتله للدجال، يقول رسول الله ﷺ "يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين..... فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم فيطلبه ويهلكه".

ثم يبدأ مشهد آخر، ولذلك يجيء العطف بـ"ثم": حيث يقول: ثم يمكث الناس سبع سنين، ثم يرسل الله عز وجل ريحًا باردة، والريح هي المشهد الثالث من المشاهد التي ترهص بقيام الساعة.

وأسلوب القصر يتسق مع جو الفناء ونهاية العالم إثر هذه الريح: حيث يقول رسول الله ﷺ "فلا يبقى على وجه الأرض أحد... إلا قبضته"، وأسلوب الشرط: وأداته "لو" وهي أداة امتناع لامتناع، وهذا الأسلوب يجيء في سياق تصوير الريح المدمر المهلكة: في قوله: لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه، وفي ذلك إشارة إلى أنه لن يفلت أحد من أهوال يوم القيامة، وأما ما يسبقها من إرهاصات: فلن يبقى إلا شرار الناس، وجاء وصفهم غي إطار الكناية فهم في خفة الطير وأحلام السباع، وذلك كناية عن أنهم في سرعتهم إلى الشر وقضاء الشهوة والفساد يكونون في سرعة الطير وهم في العدو خلف بعضهم بعضًا لهم أحلام السباع، فهم لا يعقلون من أمرهم شيئًا.

ومن جماليات الأسلوب في هذا الحديث: الحوار بين الشيطان وشرار الناس، والحوار ثمرته مرة ضارة وهي عبادة الأوثان، ويأتي العطف بـ "ثم" في مشهد تالٍ مفاجئ لهؤلاء الأشرار وهو النفخ في الصور، ولذلك قال ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، أي يضع صفحة عنقه، ويرفع صفحته الأخرى، وذلك كناية عن الحيرة والذهول والمفاجأة.

والتشبيه الذي يحسم الحقيقة يتمثل في قوله: ثم يرسل الله مطرًا كأنه الطل أو الظل، فتنبت منه أجساد الناس، والمشهد الأخير يبدأ بالعطف بـ"ثم" وهو مشهد البعث

والناس قيام ينظرون.

وفي هذا المشهد تأثر بالقرآن الكريم واستمداد لمعاني القرآن وألفاظه في تصوير مشاهد يوم القيامة، ومن ذلك قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٤]، والله أعلم.

المضامين الدعوية[٥]

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٢) سورة الصافات، آية: ٢٤.

(٣) سورة المزمل، آية: ١٧.

(٤) سورة القلم، آية: ٤٢.

(٥) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨١٣)

١٨١٣ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَيسَ مِنْ بَلَدٍ إلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلاَّ مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ؛ وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أنقَابِهِمَا إلاَّ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهُمَا[1]، فَيَنْزِلُ بالسَّبَخَةِ، فَتَرْجُفُ المَدِينَةُ ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، يُخْرِجُ اللهُ[2] مِنْهَا كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ)) رواه مسلم[3].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

النقب: الطريق بين الجبلين[4].

السبخة: الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر[5].

الشرح الأدبي

لقد جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، وأقسم بالبلد الأمين، في سورة التين، وأقسم به كذلك في سورة البلد، فمكة المكرمة بلد الله الحرام، ومهوى أفئدة الآمنين القادمين من كل فج عميق، والأمن يظلل كل الكائنات التي تسبح بحمد ربها، والمدينة المنورة مهاجر رسول الله، وملتقى الأخوة الإسلامية، من المهاجرين الأنصار، وبها مسجد رسول الله ﷺ، ومنها انطلق فرسان الإسلام، ينشرون التوحيد، ويفتحون الأمصار، وهم لا يفترون عن ذكر الله آناء الله وأطراف النهار.

---

(١) لفظ مسلم: (تحرسها).

(٢) لفظ مسلم: (يخرج) فقط.

(٣) برقم ١٢٣/٢٩٤٣، وأخرجه أيضًا البخاري ١٨٨١.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ق ب).

(٥) المرجع السابق في (س ب خ).

والحديث الشريف يبشر كل المسلمين بأن مكة والمدينة ستنجوان من فتنة الدجال، وأن الملائكة ستحرسهما، والله سيحفظهما من دنس الدجال، ويحفظ المسجد الأقصى ومسجد الطور.

ويبدأ الحديث بجملتين تؤكدان هذا الحفظ عن طريق أسلوب القصر، وهذا الأسلوب فيه مزيد من الوعد والبشرى من رسول الله ﷺ، وتكررت أداة النفي "ليس": في صور الجملتين "ليس من بلد سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة"، ثم يؤكد وسيلة هذا الحفظ، وهي حراسة الملائكة، وتكرار "ليس" مع أسلوب القصر نفسه يضاعف التأكيد ويوثق الوعد الصادق، وتكرار الحال الذي يصور الملائكة وهي تحرس المدينة ومكة، وكذلك قوله: "وليس نقب من أنقابها" أي حَزْق، وذلك كناية عن حفظ كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، وقوله:: "ليس من بلد" يفيد أن "من"، المزيدة هنا للتأكيد والاستقصاء، فكل بلاد الدنيا سيطؤها الدجال إلا مكة والمدينة، وقوله: فينزل بالسبخة، إشارة إلى تحقير مكانة الدجال وكل من يتبعه من المنافقين والكفار، وقوله: ترجف المدينة، المراد منه: الإرفاق وهو إشاعة مجيء الدجال وأنه لا طاقة لأحد به فيسارع حينئذ إليه من يتصل بالنفاق أو الفسق: فظهر حينئذ، كما قال العلماء، وكما ورد في السنة المباركة: أن المدينة تنقي خبثها.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨١٤)

١٨١٤ - وعنه رضي الله عنه : أنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِم الطَّيَالِسَةُ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أصبهان: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان (عربستان) بلد سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ومنها بدأت رحلته التي انتهت بالمدينة المنورة، وهي من مدن إيران المعروفة[٢].

الطَّيَالِسَةُ: ضَرْبٌ من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن. خال عن التفصيل والخياطة. أو هو ما يعرف في العامية المصرية بالشال، (فارسي معرب. تالسان أوتالشان)[٣].

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث جملتين... إخباريتين، ولأن الخبر هنا يجمع بين الدجال واليهود فهو صادق لا يحتمل الشك، ولا يعقل أن ينكره أحد من المسلمين، ولذلك خلا من التأكيد.. لأن الذهن المسلم متهيئ لاستقبال مثل هذا الخبر، فلا تردد في استقباله، ولاشك في مضمونه، ولا إنكار لما يتضمنه من دلالة وحدث، والحدث المراد توضيحه هو أنه سيتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا ، وهنا حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم صنفًا من أصناف البشر الذين سيفتتون بالدجال ويتبعونه وهم اليهود ، والأمر يزداد تحديدًا حين يشير إلى جنس ومكان هؤلاء اليهود وهم يهود أصبهان من الفرس، ويزداد الأمر وضوحًا وجلاءً حين يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العدد ، وهم سبعون ألفًا ، وذلك كناية

---

(١) برقم ٢٩٤٤/١٢٤.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ، ٤٤.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ط ل س).

عن الكثرة، وليس المقصود التحديد الكمي، والعدد سبعون عند العرب يشير إلى الكثرة في سياقات كثيرة.

والجملة الأخيرة تضيف معلمًا آخر لصورة هؤلاء الذين يتبعون الدجال: وهو تحديد هيئتهم، وملابسهم فهم: يهود، ومن أصبهان، وعددهم سبعون ألفًا ويزيدون ويتضاعفون، وهم كذلك، عليهم الطيالسة، وقيل المراد بالطيالسة: الأكسية، وقيل الطيلسان المقور أي المدوّر، وهو المقصود في الحديث الشريف، لم يكن من فعل النبي ﷺ والصحابة، بل هو من شعار اليهود، وهو لباس اليهود قديمًا، والعجم أيضًا، والعرب تسميه ساجا.

وقد نهانا رسول الله عن التشبه باليهود، ولعن الله من تشبه بهم: فهم صهاينة أشرار، ومغتصبون فجار.

تعاموا عن ضياء الحق حتى ... أظلهم ضلال لا يحد

شرازمة أتوا من كل فج ... كجرزان الخرائب حين تعدو

خنازير أقاموا في جنان ... وذا شأن له في القلب ردٌّ!!

وكيف تملك الحيات أرضًا ... وهم دومًا من الإحساس جرد

لنا يوم كيوم الحشر معهم ... نريهم أينا أقوى أشد

ملائكة مسومة نراها ... مع الأحرار بالآفاق تبدو

وقوتنا من الرحمن مدت ... وفي القرآن نادانا، أعدوا

وإن كان اليقين سبيل قوم ... أتتهم من سماء الله جند[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) من قصيدة يوم الثأر، للدكتور صابر عبدالدايم، ديوان الأعمال الكاملة، وكتبت هذه القصيدة في مايو ١٩٦٧م، قبل نكسة يونيو: ١٩٦٧.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨١٥)

١٨١٥- وعن أم شريكٍ رضي الله عنها: أنها سَمِعَتِ النَّبيّ ﷺ، يقولُ: ((ليَنْفِرَنَّ[١] النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِي الجِبَالِ)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أم شريك القرشية: اختلف في نسبها فقيل هي: أم شريك القرشية العامرية واسمها غَزِيَّةُ -وقيل غُزَيلة- بنت دُودان بن عوف بن عمرو بن عامر بن رواحة بن حُجْر -ويقال حُجَيْر-من بني عامر، ويقال في نسبها: أم شريك بنت عوف بن جابر بن طيبان بن حجر من بني عامر بن لؤي، ويقال غزية بنت جابر بن حكيم، العامرية القرشية، ويقال الدَّوسية، ويقال الأنصارية.

يقول الحافظ ابن حجر في الإصابة عقب هذه الترجمة لأم شريك، والذي يظهر في الجمع أن أم شريك واحدة، اختلف في نسبتها أنصارية، أو عامرية من قريش، أو أزدية من دوس، واجتماع هذه النسب الثلاث ممكن (كانت قرشية تزوجت من دوس فنسبت إليهم، ثم تزوجت من الأنصار فنسبت إليهم، أو لم تتزوج أصلاً بل هي نسبت إليهم بالمعنى الأعم، يقال هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، واختلف في ذلك، وقيل إن النبي تزوجها ولم يدخل بها لأنه كره غيرة الأنصار، وقد ذكرها بعضهم في أزواج النبي ﷺ، ولا يصح من ذلك شيء، لكثرة الاضطراب فيه، والأصح أنها كانت تحت الطفيل بن الحارث أو الحارث الأزدي فولدت له شريكًا، لها ثلاثة أحاديث، حديث في البخاري، وحديث في مسلم والثالث في سنن الترمذي.

قال السندي: وجاء أنها كانت غنية من الأنصار، عظيمة النفقة في سبيل الله،

---

(١) لفظ مسلم: (ليفرّن).

(٢) برقم ١٢٥/٢٩٤٥.

ينزل عليها الضِّيفان[1].

غريب الألفاظ:

لينفرن: أي: يهربون منه[2].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الشريف فزع الناس وهلعهم وخوفهم من فتنة الدجال، وهذا التصوير ينزع إلى رصد حركة الناس، فهو تصوير حركي، وقد بدأ الحديث بتأكيد ذلك الفزع، وذلك عن طرق القسم المؤذنة به الزيادة في التقرير، وإيماء إلى عظيم فتنته وشدة شرها.

وجاء الفعل الدال على النفرة والهروب إلى الجبال في قالب المضارع، للإيحاء بأن هروب الناس مستمر ومتتابع من هذه الفتنة، وكذلك تأكيد الفعل بنون التوكيد الثقيلة يضاعف من الإحساس بالذعر والهلع، والحرص على النجاة من براثن الدجال، والجذر اللغوي للفعل: "لينفرن": يتسق مع الجو العام الذي تشكله صورة هذا الاستنفار فالنفر في اللغة: التفرق، والغلبة، ويقال: نفرت الدابة: تنفر،نفورًا، ونفارًا أي جزعت وتباعدت، ويقال: نفرت العين وغيرها: أي هاجت وورمت، وقوله: "في الجبال"، تصوير لكثرتهم، وتفرقهم في الشعاب والأودية، والهضاب، وأعالي الجبال، والكهوف والمغارات، و"في" هنا على حقيقتها لأنها تتضمن الظرفية، والجبال تعج بالأماكن

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٨/١٥٥-١٥٧، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩٥٥، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٧/٣٤٠، ٣٤١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٨١٣، ١٨١٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢/٢٢٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٨/٥٩٧، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤/٦٩٨، والسندي ٤٥/٣٥٩، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ٣/٢١٤١، ٢١٤٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ن ف ر).

والمرتفعات والمنخفضات، وقال بعض العلماء: الظاهر أن "في" بمعنى "على"، والمراد بالناس، في الحديث: المؤمنون، لأنه لن يلحق بالدجال إلا الكفار والمنافقون، نسأل الله النجاة والعفو والفوز بالجنة والنجاة من النار، آمين.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨١٦)

١٨١٦ - وعن عمران بن حُصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((**مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إلى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عمران بن الحُصْين: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٢).

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي هو الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، كما يقول الجاحظ، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر.

وهذا الحديث الشريف الموجز تتسع دوائره، وتتلاقى أواصره، وتتآزر أوائله وأواخره، فهو في جملة واحدة يرصد خطر فتنة الدجال، ويقرر في النفوس أن كل مسيرة البشرية من لدن خلق آدم إلى قيام الساعة بما ينبثق عنها من أخطار، وما يندلع فيها من كوارث وأوزار، وحروب وهلاك ودمار، كل ذلك ليس بأخطر ولا أعظم من فتنة الدجال، وفي هذا الحديث لم يصرح بالفتنة، وإنما قال من الدجال، لأنه مصدر الفتنة، وباعث شررها، فهو الفتنة نفسها، وهو الخطر ذاته، والجذر اللغوي للفظ الدجال: يحدد كثيرًا من الدلالات التي تفصح عن معالم هذه الشخصية، وعن وظيفتها ودورها وآثارها.

فالدجيل: القطران، ودجل البعير: طلاه بالقطران، أو عم جسمه بالهناء، والدجال كأنه القطران، في أذنه، ولونه، ورائحته، ووظيفته المنفرة، ومن معاني: دجل: كذب، وأحرق، وقطع نواحي الأرض سيرًا، وذلك من معالم الدجال، وقيل مشتق من الدجال: كسحاب، والدجال: هو السرجين: لأنه ينجس وجه الأرض، وكذلك الدجال ينشر

---

(١) برقم ٢٩٤٦/١٢٧.

الباطل والخوف، والكفر والفساد، وهذه الدلالات تتفق مع ما يحدثه الدجال من فتن، ومصائب، وتمويه على الناس، وما أبلغ تصوير رسول الله ﷺ للباطل الذي ينشره هذا الدجال، حيث يقول: "وإن معه ماء ونارًا، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق!!!

وأما الذي يراه الناس نارًا فماء بارد عذب!!!، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨١٧)

١٨١٧- وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: ((يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ المُؤمِنِينَ فَيَتَلَقَّاهُ المَسَالِحُ: مَسَالِحُ الدَّجَّالِ. فَيقُولُونَ لَهُ: إلى أيْنَ تَعْمِدُ فَيَقُولُ: اعْمِدُ إلى هذَا الّذِي خَرَجَ. فَيَقُولُونَ لَهُ: أوَمَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ! فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ. فَيقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ألَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أنْ تَقْتُلُوا أحَدًا دُونَهُ، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إلى الدَّجَّالِ، فَإذَا رَآهُ المُؤْمِنُ قَالَ: يا أيُّهَا النَّاسُ، إنَّ هذَا الدَّجَّالُ الّذي ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ؛ فَيَأمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ؛ فَيَقُولُ: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ. فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، فَيقُولُ: أوَمَا تُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: أنْتَ المَسِيحُ الكَذَّابُ! فَيُؤْمَرُ بِهِ، فَيُؤْشَرُ بِالمِنْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ. ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ القِطْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا. ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أتُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: ما ازْدَدْتُ فِيكَ إلاَّ بَصِيرَةً. ثُمَّ يَقُولُ: يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّهُ لاَ يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ؛ فَيَأخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيَجْعَلُ اللهُ[1] ما بَيْنَ رَقَبَتِهِ إلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا، فَلاَ يَسْتَطِيعُ إلَيهِ سَبيلاً، فَيَأخُذُهُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ، فَيَحْسَبُ النَّاسُ أنَّهُ قَذَفَهُ إلَى النَّارِ، وَإنَّمَا أُلْقِيَ فِي الجَنَّةِ)).

فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ((هذا أعْظَمُ النَّاس شَهَادَةً عِندَ رَبِّ العَالَمِينَ)). رواه مسلم[2].

وروى البخاري بعضه بمعناه.

"المَسَالح": هم الخفراء والطلائع.

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

قِبَلَهُ: جهته[3].

---

(١) لفظ مسلم: (فيجعل) فقط.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٨٢، ومسلم واللفظ له ٢٩٣٨/١١٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ب ل).

المسالح: الخفراء والطلائع[١]، وهي جمع مسلحة، القوم الذين يحفظون الثغور من العدو، وسمُّوا كذلك لأنهم يكونون ذوي سلاح [٢].

تعمد: أي: تقصد[٣].

فيُشبَّح: يمد في الشمس على بطنه [٤].

شُجوه: الشجُّ: أن يضرب بشيء في رأسه فيشقه[٥].

فيؤشر بالمنشار من مفرقه: ينشر بالمنشار من وسط رأسه[٦].

ترقوته: هي: عظمة مشرِفة بين ثغرة النحر والعاتق[٧].

الشرح الأدبي

يصور هذا الحديث الصراع بين حزب الرحمان، وحزب الشيطان: وهذا الصراع يقدمه رسول الله ﷺ في صورة قصصية... تتضمن كل عناصر البناء القصصي في الحديث: الشخصيات، والأحداث، والحوار، والحبكة، والعقدة، ولحظة التنوير، أو الحل، والمفارقة تؤطر كل هذه العناصر.

وأول سمة من سمات النزعة القصصية هي: توالي الأفعال المضارعة.. والعطف بالفاء يجسم هذا التتابع، والعطف بـ"ثم" يجيء في بداية المشاهد التي تتوالى في بطء أو تتعاقب في تراخ.

وفي الحديث إشارة إلى انتصار الحق، ونصرة حزب الرحمان: حيث يبدأ بالإخبار عن الدجال: وخروجه، ويبدأ الصراع حيث يتوجه قبل الدجال رجل من المؤمنين... لمقاومته وصده وكشف باطله.

---

(١) رياض الصالحين ٦١٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ل ح).

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٩٠.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ب ح).

(٥) المرجع السابق في (ش ج ج).

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي بن محمد الفيومي في (أ ش ر).

(٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ت ر ق و).

وتتوالى الأحداث عبر ذلك الحوار بين الدجال والرجل المؤمن، بعد أن تغلب عليه الخفراء ورجال الأمن والشرطة، ولكن الرجل يصمد، ولا يضعف أمام الضرب والشج، وحتى عندما يأمر به الدجال فينشر، يظل على تمسكه بمبدئه لأنه على الحق، وتتكرر العقدة، في حادثي الشج والنشر وتحدث المفاجأة حينما يرفض المؤمن تصديق الدجال.

وكذلك حينما يحاول الدجال ذبحه... ولكن الله يجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، ولا يستطيع إليه سبيلا، ودفاع الله عن المؤمن الذي يرمز إلى كل أنصار الإيمان، وإلى حزب الرحمان: تتجلى بوارقه في ختام الحديث: حينما يقذف الدجال بالمؤمن، فيحسب الناس، إنما قذفه في النار، ويقول رسول الله ﷺ في أسلوب القصر والتأكيد: وإنما ألقي في الجنة.

ويقول المصطفى ﷺ مبشرًا كل الشهداء، وكل الذين يقاومون الباطل والكفر: ((هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين)).

وهذا العرض الشائق لهذا الصراع تضمن الحوار الكاشف عن زيف الباطل وثبات الحق بين الدجال والرجل المؤمن، وتضمن كذلك: أساليب الاستفهام التقريري، والإنكاري، والتوبيخي، ويتضمن كذلك أسلوب النداء والقصر؛ وتكرار بعض العبارات يرشد إلى إلحاح الدجال وتهافته، وإلى إصرار المؤمن رغم العذاب الشديد، على منطقه الإيماني، وذلك حينما قال: الدجال له، في استفهام مثير للرغبة والشوق إلى استمالة قلب المؤمن: في قوله: "أتؤمن بي" مرتين، ولكن الرجل المؤمن يرفض، وواجهه عقب السؤال الأول بحقيقة زيفه، حيث قال له: أنت المسيح الكذاب، وفي المرة الثانية: يقول له في إصرار: مؤكدًا كلامه ورأيه عبر أسلوب القصر: حيث قال للدجال.. "ما ازددت فيك إلا بصيرة"، وهكذا يجب أن يكون المؤمن في كل زمان ومكان، يتصدى للباطل، ويكشف زيف الدجالين والمنافقين، والمستبدين، والظالمين، وما أكثر الدجالين في زماننا، فهل يزداد فيهم الناس بصيرة، وهل يفطنون لما يضمرونه من مكائد وحيل خادعة، وكوارث مفجعة.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨١٨)

١٨١٨ - وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: ما سألَ أَحَدٌ رسولَ الله ﷺ عَن الدَّجَّالِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ؛ وإِنَّهُ قَالَ لِي: ((مَا يَضُرُّكَ)) قُلْتُ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَعَهُ جَبَلَ خُبْزٍ وَنَهَرَ مَاءٍ. قالَ: ((هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلكَ)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

المغيرة بن شعبة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٨).

الشرح الأدبي

إن الباطل مهما اشتد عوده فهو ضعيف، لأنه لا ثمرة له في الحياة نافعة، فهو يذوي ويتلاشى وإن كثر أعوانه وأنصاره، فهؤلاء الأعوان يواجهون مصارعهم ولا يستطيعون دفعها، وهذا المصير الأليم هو ما نستفيده من هذا الحديث الشريف الذي صيغ في القالب الحواري المشوق، حيث يدور الحوار الجميل المقنع بين المغيرة بن شعبة ورسول الله ﷺ.

ويبدأ الحديث بأسلوب التفصيل الذي يفيد الإكثار والمبالغة، حيث يقر المغيرة بأنه كان من أكثر الصحابة سؤالاً عن الدجال، وذلك لمزيد من المعرفة، ورغبة في الاستعداد لمواجهته، ومواجهة أعوانه من الكفار والمنافقين الذين يتكررون في كل الأزمنة وكل الأمكنة.

ويتكرر التأكيد مرتين في الحديث على لسان المغيرة في الحوار بينه وبين رسول الله ﷺ.

والتأكيد في المرة الأولى جاء في سياق إخبار المغيرة: عن إجابة رسول الله ﷺ له: في هذه الجملة، وإنه قال لي: ما يضرك، أي ما يتعبك منه شيء، ولن يلحق بك ضرر وبغيرك.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٧١٢٢، ومسلم ٢٩٣٩/١١٤.

والمغيرة يحرص على إزالة الشبهة، وزوال اللبس حيث يبالغ الناس في الأخبار، ويصورون الدجال في صورة غير حقيقية، حتى يتوهم الناس أنه ذو قوة وبطش ونفوذ،- ولذلك قال المغيرة "إنهم يقولون"، وقوله: "يقولون" يوحي بالتشكك في أقوال هؤلاء، ولم يحدد المغيرة من هؤلاء الذين يقولون تهوينا من شأنهم، ومن شأن الدجال، ويتكرر التأكيد مرة ثالثة في قول المغيرة: إن معه جبل خبز ونهر وماء، وقيل المراد أن معه من الخبر قدر الجبل، وفي رواية: إن معه الطعام والأنهار.

وفي ذلك إيحاء بأنه قادر على إغراء الناس، وفتنتهم بماله، ومكاسبه المادية، وهذه هي طبيعة الحضارة المادية الحديثة التي فقدت منظار الروح، ولم تملك سوى المنظار الحسي المادي، ولذلك قال رسول الله ﷺ معبرًا عن الدجال بضمير الغائب تحقيرًا لشأنه، هو أهون على الله تعالى من ذلك !!!.

وقيل إن دلالة ذلك أن الدجال: أهون من أن يجعل ما يخلقه على يديه مضلاً للمؤمنين، ومشككًا لقلوب الموقنين، بل ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويرتاب الذين في قلوبهم مرض[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٥٤٥/٤.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨١٩)

١٨١٩ - وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَا مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الكَذَّابَ، ألاَ إنَّهُ أعْوَرُ، وإنَّ رَبَّكُمْ عز وجل لَيْسَ بِأَعْوَرَ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: ك ف ر)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث الشريف بعض سمات وملامح الدجال، وهي تجمع بين السمات الحسية والمعنوية، فمن ملامحه الحسية الشكلية التي ترمز إلى نقص الرؤية الحسية والإدراكية لديه أنه أعور، فهو لا يرى الأشياء رؤية متكاملة شاملة، ولكنه لا يرى إلا معالم الكفر، وأمارات الضلال، وأما الملمح الثاني: وهو ملمح سلوكي مرفوض فهو الكذب، فكل أخباره وادعاءاته كاذبة ملفقة، فماؤه نار، وناره ماء طيب عذب كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والحديث في صياغته يتضمن عدة مظاهر جمالية، ويبوح ببعض الأسرار التعبيرية ومنها:

أ- أسلوب القصر في الجملة الأولى: وهو يرشد إلى أن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من الدجال الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالأعور الكذاب، تحقيرًا لشأنه، وفضحًا لأمره، والأنبياء عرفوا ذلك وأنذروا قومهم.

ب- الحرص على التنبيه والرغبة في الإصغاء والاستجابة وذلك ما يتضمنه ذكر "ألا" في بداية الجملة الثانية، وهي أداة استفتاح وحرف تنبيه، وتأتي في سياق الحث على الاستماع والإصغاء والتنبه.

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٣١، ومسلم واللفظ له ٢٩٣٣/١٠١.

ج- التأكيد بإن: حيث تكرر مرتين: بعد أداة الاستفتاح وفي بداية الجملة الثالثة، وهذا التأكيد المتكرر للإقناع والحث على معرفة حقيقية هذا الدعي الدجال الأعور الكذاب، ولنتأمل ما يحمله هذا التعبير من طاقة تأثيرية إقناعية، تنفر المسلم من الاقتراب من عوالم هذه الشخصية. ألا إنه أعور، والجملة الثانية تتضمن السخرية من هذا الدعي لأنه يدعي أنه له نارًا وجنة ويدعي أنه الرب، وكيف يكون ربًا، ورسول الله ﷺ يقول: وإن ربكم ليس بأعور.

د- الجملة الأخيرة مكتوب بين عينيه كفر، تفصح بصياغتها الاسمية عن ثبات هذا الملمح في شخصية الدجال، وقال الحافظ هذا إخبار بالحقيقة، وذلك لأن الإدراك في البصر يخلقه الله تعالى للعبد، كيف شاء ومتى شاء، فهذا يراه المؤمن بغير بصره، ولو كان لا يعرف الكتابة.

ولا يراه الكافر، ولو كان يعرف الكتابة، كما يرى المؤمن الأدلة بعين بصيرته ولا يراها الكافر، فيخلق الله للمؤمن الإدراك دون تعلم، لأن ذلك الزمان تنخرق فيه العادات في ذلك، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨٢٠)

١٨٢٠- وَعَن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((ألا أُحدِّثُكمْ حديثًا عن الدجالِ ما حدَّثَ بهِ نبيٌّ قَومَهُ! إنَّهُ أعورُ، وَإنَّهُ يجيءُ مَعَهُ بمِثالِ الجنَّةِ والنَّارِ، فالتي يقولُ إنَّها الجَنَّةُ هي النَّار)). متفقٌ عليهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

تتوالى الأحاديث في هذا السياق، وهي تنذر الأمة وتحذرها من فتنة الدجال، وهذه النذر كأنها شهب كاشفة، وصواعق راجفة، توقظ الغافلين، وتحذر السامعين، ويبدأ الحديث بأسلوب يجمع بين الترغيب والترهيب، يتمثل في هذه الصيغة التي تفصح عن التنبيه والاستفتاح، وتستميل النفوس والآذان بالاستفهام التقريري المرغب في قول رسول الله ﷺ "ألا أحدثكم حديثا عن الدجال ما حدث به نبي قومه"، والخطاب هنا للصحابة رضي الله عنهم ولكل أبناء الأمة الإسلامية تحذيرًا لهم من هذه الفتنة التي تدع الحليم حيرانا، وتختلط فيها القيم، وتفسد فيها المعايير.

ووصفه بالأعور يجيء في أسلوب التوكيد، "إنه أعور" وهذا التأكيد على هذا الملمح الحسي الشكلي من ملامح الدجال، ليقنع الناس بأن أحكام الدجال ومقاييسه فاسدة ناقصة.

والتأكيد يتصدر الإخبار عن المنطق الفاسد لهذا الدعي، حيث يزيف الحقائق، ويخدع الناس، إنه يجيء بمثال الجنة والنار، وكلمة مثال أي شبيه، فهو يحاكي وليس يقدم شيئًا حقيقيًا.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٣٣٣٨، ومسلم ٢٩٣٦/١٠٩ وزادا: (وإني أنذركم كما أنذر به نوحٌ قومه).

ويجيء التأكيد مرة ثالثة في تحديد طبيعة أقوال هذا الدجال فهو كذاب، وهو متناقض، وشره خير، وخيره شر، وما أبلغ هذا التعبير القوي الذي ينذر الناس، وينبههم إلى خطر هذا الأعور الكذاب، الذي يخدع الناس بمثال الجنة والنار.

فالتي يقول: إنها الجنة هي النار!!!، والله أعلم.

المضامين الدعوية[١]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨٢١)

١٨٢١- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ الله ﷺ ذَكَرَ الدَّجَّالَ بَيْنَ ظَهْرَانَي النَّاسِ، فَقَالَ: ((إنَّ اللهَ لَيْسَ بأعْوَرَ، ألاَ إنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ)) متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

بين ظهراني الناس: بين ظهورهم، أي: بينهم[2].

عنبة طافية: هي: الحبة التي خرجت عن حد نبتة أخواتها، فظهرت من بينها وارتفعت، وقيل: أراد به الحبة الطافية على وجه الماء، شبه عينه بها[3].

الشرح الأدبي

إن صفات وملامح الدجال تتعدد في روايات الأحاديث، فكل رواية تضيف صفة جديدة تعمق قبح صورة هذا الكذاب الدعي، وفي هذا الحديث نجد إضافة جديدة إلى ملامح الدجال: وهي تحديد عينه باليمنى في هذه الصورة المنفرة، التي تثير الاشمئزاز والكراهية لهذه الشخصية، فهو أعور العين اليمنى: كأن عينه عنبة طافية.

وأول ما يثير قول ابن عمر ذكر الدجال بين ظهراني الناس، حيث أتى بهذا التعبير للدلالة على زيادة الظهور وعدم الاختفاء، "وظهراني"، أصلها: ظهر، والألف والنون زائدتان، وهي تعني النصير، ومعنى ذلك: أن ظهرًا منه قدامه، وظهرًا خلفه فكأنهم خفراء من جانبيه، كما يقول صاحب فتح الباري، وقوله: إن الله ليس بأعور، تأكيد

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٣٩، ومسلم ١٦٩/٢٧٤ ولفظهما سواء.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ظ هـ ر).

(٣) المرجع السابق (ط ف ع).

لبطلان مزاعم الدجال أن له جنة ونارًا وأن له صفات الإله، وكيف يكون كذلك وهو أعور العين اليمنى، واليسرى جاحظة واليمنى كأنها عنبة منتنة، وهذه صفات نقص فكيف يدعي أن الرب، والله متصف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، تعالى الله عما يقول علوًا كبيرًا، وأداة الاستفتاح "ألا" مع التأكيد في جملة وصف الدجال بالعور، ترسيخ لهذه الصفة التي تبطل مزاعمه، وهذا الحديث يحدد العوراء باليمنى، وبعض الروايات تقول بأنها العين اليسرى.

والقاضي عياض قال: يصحان معًا، بأن تكون المطموسة والممسوحة هي العوراء الطائفة - بالهمز التي ذهب نورها وهي العين اليمنى، وتكون الجاحظة التي كأنها كوكب أو كأنها نخاعة في حائط هي الطافية بلا همز وهي اليسرى، كما جاء في الرواية الأخرى، ثم يقول: فكلا عيني الدجال معيبة، إحداهما بذهاب ضوئها، والأخرى بنتوئها، وهذا هو نهاية القبح، كما يقول صاحب دليل الفالحين، نسأل الله النجاة من فتنة الدجال، والفوز برضا الكبير المتعال... آمين.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٨١٠).

الحديث رقم (١٨٢٢)

١٨٢٢ - وعن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى **يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وَرَاء الحَجَرِ وَالشَّجَرِ. فَيَقُولُ الحَجَرُ وَ[1] الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ هذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي تَعَالَ فَاقْتُلْهُ؛ إلاَّ الغَرْقَدَ فإنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ)).** متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث إحدى نبوءات المصطفى ﷺ، فهو لا ينطق عن الهوى، وقد علمه شديد القوى، ومن دلائل صدق هذه النبوءة: أن الرسول ﷺ لم يحدد موعدًا زمنيًا لانتصار المسلمين على اليهود، لأن الحرب سجال، والأيام دول، ولكن شمس الحق تظل دائمة متوهجة في آفاق العزة الإيمانية، ومدارات البطولة الإسلامية، حتى وإن حجبتها سحب الباطل، وغيوم النفاق، وعواصف الكفر، وترهات المرجفين، ووسائل إعلام الملاحدة والعلمانيين، والماديين والدهرين.

والحديث يبدأ بقوله: "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود"، والمسلمون هنا لهم الغلبة لأنهم الفاعلون، وهم المقاتلون، ولم يقل حتى يقتتل المسلمون واليهود، ولكنه جعل اليهود مفعولاً به، فقد وقع عليهم فعل القتال، وهم في موقف الدفاع، وما أدق هذه الصورة الحركية المبشرة: وهي صورة اختباء اليهودي من وراء الحجر والشجر، أي خلف الجدران، وفي قلب البنايات والحصون، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا

---

(١) لفظ مسلم: (أو).

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٢٦، ومسلم واللفظ له ٢٩٢٢/٨٢.

﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾[1]. والاختباء يعني الفرار والخوف والهزيمة، ولفظ "حتى" يفيد الغاية وهي تعلن أن الصراع طويل وممتد، ولكنه في نهاية المطاف يؤول إلى هزيمة اليهود، والله سبحانه وتعالى ينطق الجماد "الحجر"، وينطق النبات "الشجر"، وهي رموز قد تتطور وتتشكل وتأخذ أسماء جديدة ومنها المخترعات العصرية، ووسائل الإعلام، ووسائل الحرب الإلكترونية الحديثة، التي سيمن الله على المسلمين بامتلاكها، وإعداد القوة العلمية والمادية والنفسية مع قوة العقيدة ووحدة الصف، وثبات الجنان ونصرة إرادة الرحمن، ويقول الحجر والشجر بكل الرموز والصوتيات يامسلم: هذا يهودي خلفي تعال: فاقتله، والنداء هنا يحث المسلمين على أن يكونوا جميعًا ملتزمين بصفات المسلم الحقيقي، حتى يتم النصر والتأييد الإلهي، واسم الإشارة يدل على التحديد والتعيين، وتنكير لفظ "يهودي" يفيد التحقير لهؤلاء الذين غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، وفعل الأمر هنا: واجب النفاذ، تعال: فاقتله، لأن في قتله إعزازًا لدين الله، وإسعادًا للبشرية، وحماية للمسلمين.

وأسلوب الاستثناء هنا في قوله: "إلا الغرقد"، وهو شجر العوسج أي الشوك: يفيد أن اليهود سيظلون على عنادهم، ولهم من يناصرهم، ويدافع عن باطلهم، وقد رمز لهؤلاء: بشجر الشوك، وهو لا ثمرة له إلا الضرر والإيذاء، وكذلك كل من يناصرون اليهود من الدول المارقة، ووسائل الإعلام الهابطة، كلهم مثل الشوك وهم من أعوان الدجال، الذي سيلقى حتفه هو وأعوانه واليهود تحقيقًا لهذه النبوءة، وتلك البشرى التي بشر بها: محمد رسول الله ﷺ أصحابه والمسلمين جميعًا، وأول شعاع من شمس هذه البشرى أضاء الأفق الإسلامي في عهد النبوة، حين طرد رسول الله ﷺ اليهود من المدينة وأجلاهم وانتصر عليهم، فهل تبزغ هذه الشمس الآفلة، وهل تعود للمسلمين من جديد قيادة القافلة ؟؟ إن ذلك ليس على الله ببعيد، فهو القوي القاهر الذي يبدئ ويعيد، وهو فعال لما يريد.

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من أشراط الساعة قتال المسلمين اليهود.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإخبار:

حيث جاء في الحديث "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود..." وفي هذا إخبار منه ﷺ بما يكون في آخر الزمان، والإخبار أسلوب من أساليب الدعوة المهمة وعليها المدار في الدعوة إلى الله، فإن مهمات الأنبياء التبليغ للناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾(١) وأمر الله نبيه ﷺ بالبيان للناس، فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢). وبالإخبار تقوم الحجة على المدعوين بتعريفهم والبيان لهم ولأجل هذا كان إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(٣).

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: من أشراط الساعة قتال المسلمين اليهود:

حيث جاء في الحديث "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر..." وهذه المقاتلة من أشراط الساعة. قال الإمام النووي: (والغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود)(٤). وقال ابن حجر:(والمراد بقتال اليهود، وقوع ذلك إذا خرج الدجال ونزل عيسى، وفي الحديث ظهور الآيات قرب قيام الساعة من كلام الجماد من شجرة

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٨٩.

وحجر، وظاهره أن ذلك ينطق حقيقة، ويحتمل المجاز بأن يكون المراد أنهم لا يفيدهم الاختباء، والأول أولى، وفيه أن الإسلام يبقى إلى يوم القيامة)[١].

ومما هو معلوم (أن من أشراط الساعة قتال المسلمين لليهود في آخر الزمان، وذلك أن اليهود يكونون من جند الدجال فيقاتلهم المسلمون الذين هم جند عيسى عليه السلام حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله، والذي يظهر من سياق الأحاديث أن كلام الحجر والشجر ونحوه حقيقة، وذلك لأن حدوث تكلم الجمادات ثابت في غير أحاديث قتال اليهود، واستثناء شجر الغرقد من الجمادات بكونها لا تخبر عن اليهود، لأنها من شجرهم، يدل على أنه نطق حقيقي)[٢].

قال القاضي عياض: (وقوله: "إلا الغرقد فإنه شجرهم" يعني اليهود. الغرقد: هو العوسج قال أبو حنيفة الدينوري[٣] إذا عظمت العوسجة فهي غرقدة، ورأيت في بعض التعاليق أنه الدلفي ولا يصح)[٤].

وقال القرطبي: (وهذه المقاتلة تكون بعد قتل الدجال، فإن اليهود هم أكثر أتباعه)[٥]. وقد دل الحديث على أن اليهود أكثر أتباع الدجال، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: ((يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة))[٦].

وقال صاحب فتح الملهم: (وقوله: "حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي" يعني حينما يريد اليهود أن يختفي وراء حجر، فإنه ينطق ويخبر المسلمين بمكانه. وذلك يقع بعدما

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٠٦/٦.

(٢) أشراط الساعة، د. يوسف بن عبدالله بن يوسف الوابل، ٢٢١.

(٣) هو أحمد بن داود الدينوري كان نحويًا لغويًا مع الهندسة والحساب راويًا ثقة ورعًا زاهدًا، أخذ عن البصريين والكوفيين صنف لحن العامة وإصلاح المنطق وتفسير القرآن وغيره. مات سنة ٢٨٢هـ، وهو غير أبي حنيفة صاحب المذهب. [انظر: محقق إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٦٣/٨].

(٤) المرجع السابق ٤٦٣/٨.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٥١/٧.

(٦) أخرجه البخاري ٣٤٥٠، ومسلم ٢٩٤٤، وأبو داود ٤٣١٥.

يقتل عيسى عليه السلام الدجال. قال الأبي:لا مانع من حمله على الحقيقة بإدراك يخلقه الله تعالى للحجر، ويحتمل المجاز، وإنه كناية عن كمال استئصال قتلهم)[١].

قال د. الحسيني هاشم: (وفي الحديث قتال المسلمين لليهود وانتصارهم عليهم بعد ثبوت دعائم اليهود وقوة دولتهم وظهور كيانهم، وانتصار المسلمين عليهم ببيت المقدس حيث يوجد شجر الغرقد بكثرة، وفيه معجزة ظاهرة حيث حذر من اليهود وقد تشتتوا، وبين أنهم سيحاربون المسلمين)[٢].

وإذا كان المسلمون يقاتلون اليهود في آخر الزمان، فإن اليهود هم ألد أعداء الدعوة الإسلامية منذ ظهور الإسلام.

(أما اليهود فهم أهل علم وكتاب سماوي، ورثوه منذ قرون. ولكنهم ورثوا نصوصه، ولم يرثوا روحه؛ فاستقرت نصوصه في أدمغتهم، وأقفرت نفوسهم من روحه ومثله العُلى. وطال بهم الأمد فقست قلوبهم وفسق أكثرهم عن أمر ربه. ودخلهم حب الدنيا وتعاملوا بالرشوة وأخذوا الربا وقد نهوا عنه، فهم يأخذون عرض هذا الأدنى باطلاً وسحتًا ويقولون: سيغفر لنا، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه في غير تورع ولا استحياء لأنهم أبناء الله وأحباؤه، فلن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة... هكذا أخضعوا دينهم لدنياهم. واشتروا بكتابهم ثمنًا قليلاً. ذلك موجز أمرهم وأمر آبائهم من قبل)[٣].

وإزاء مواقف اليهود المعادية للإسلام كان لابد من فضحهم، وكشف مساويهم وإظهار عداوتهم حتى تتنبه الجماعة المسلمة، والصف المسلم للمؤامرات التي يحيكونها ضد الإسلام والمسلمين.

(لقد كان لابد من الحملة على اليهود، وتعقب مخازيهم، وهتك أستارهم وأسرارهم، ولكنها حملة هي غاية في العدل، فلم تتجاوز تقرير الحقائق وبيان ما ارتكبوا من جرائم التحريف والتغيير، وذكر ما لأسلافهم في الماضي من مواقف مع

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني ١٢/٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ٨٢١.

(٣) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ٣١١.

الأنبياء، ابتداء من موسى إلى عيسى عليهم صلوات الله وسلامه، وما كان لهم من خلاف وتعنت وجحود بآيات الله؛ وقتل لبعض هؤلاء الأنبياء وتكذيب لبعض ... يسرد القرآن ذلك كله حتى لا يخدع الناس بهم. ويعرفوا أن موقفهم اليوم من القرآن، إن هو إلا حلقة من سلسلة ماضيهم الطويل، وعادة يجرون فيها مع ميراث قديم. وهو في كل هذا لا يتجاوز ما هو مكتوب عندهم في التوراة.

وإنك لتتبين عدالة هذه الحملة، حين ترى الإسلام في تقريره للوقائع يذكر ما لهم وما عليهم؛ فيقول عن أصولهم وأجدادهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ويقول فيهم: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] ولكنه مع هذا يقرر أنه مسخ بعض هؤلاء القدامى، فجعل منهم القردة والخنازير، بما فسقوا عن أمره... ويعدل معهم في حاضرهم، فيقول: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3] ويقول سبحانه: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[4].

ولقد كان رسول الله ﷺ بسلوك هذه الخطة العادلة، يطمع أن يؤمن هؤلاء به، فقطع الله له كل طمع فيهم، وقال له: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾[6] وقال جل شأنه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[7])[8].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٣.
(٢) سورة الدخان، آية: ٣٢.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٣، ١١٤.
(٤) سورة المائدة، آية: ٦٦.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٢٠.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٤٥.
(٧) سورة البقرة، آية: ٧٥.
(٨) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ٣١٩-٣٢٠.

الحديث رقم (١٨٢٣)

١٨٢٣- وعنه رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرجُلُ على القَبْرِ، فَيَتَمَرَّغَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هذَا القَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ، (ما بِهِ) [1] إلاَّ البَلاَءُ)). متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فيتمرغ: أي: يتقلب عليه[3].

البلاءُ: الغمُّ والشِّدة[4].

الشرح الأدبي

إن المسلم قوي الإيمان، ثابت الجنان، لا يضعف أمام ابتلاءات الحياة، ولا نكبات الزمان، بل يظل دائمًا متمسكًا بالمنهج الرباني في علاقة المسلم بربه، إن رأى خيرًا شكر وإن رأى غير ذلك صبر، وهذا الحديث الشريف يشخص واقع صنفٍ من الناس بعيد عن المنهج الإسلامي، حيث يكون القلق والتشاؤم أهم ملامحه السلوكية، وكيفية استقباله للأحداث والمتغيرات.

ويبدأ الحديث بالقسم بالله عز وجل، والمقسم هو رسول الله ﷺ والمقسم به هو الله عز وجل، وكنى عن ذلك بقوله "والذي نفسي بيده" وهذا التعبير يتسق مع المراد من الحديث وهو التسليم والإذعان للقدر، والإيمان بالمشيئة الإلهية، فنفوسنا كلها بيده،

(١) (ما به) لا توجد عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري ٧١١٥، ومسلم واللفظ له ٥٤/١٥٧، كتاب الفتن، باب ١٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (م ر غ).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ل ي).

يصرفها كيف يشاء، والمفارقة بين بداية الحديث الإيمانية وبين منطوقه بعد ذلك، تتجلى في عرض هذه الصورة المرفوضة، التي ابتعد أصحابها عن إسلام الوجه لله، والتسليم بمشيئته، والإيمان بالقضاء والقدر، ولكنهم أسلموا أنفسهم للهواجس والوساوس، ووقعوا فريسة الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

وما أدق الوصف في هذه الصورة الحركية في قوله: "حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ عليه"، وكأنه أصبح مثل الحيوان لا يفكر ولا يعي، وهذه الصورة تكشف عن نوازع القلق، وأشباح اليأس التي تهزم النفوس الضعيفة، وتغلق منافذ الأمل، وتدعو كثيرًا من ضعاف الإيمان إلى التفكير في الموت، وبعضهم يقدم على الانتحار!!!.

ويجسد رسول الله ﷺ الموقف النفسي الانهزامي، والإحباط الذي يسيطر على مثل هؤلاء البائسين من رحمة الله والقانطين، حيث يقول كل منهم ياليتني مكان صاحب هذا القبر.

والياء للتنبيه، وقيل للنداء، ففي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير ياقوم أو يا نفس، أو يا بؤس، وكأنه يصيح بأعلى صوته وسط المقابر، من فزعه وهلعه ويأسه بهذا النداء اليائس البائس.

وقوله: ليتني يفيد التمني، ولكنه مستحيل الوقوع: لأن لكل نفس أجلها وموعدها الذي لا يتقدم ولا يتأخر، ويختم الحديث بما يسمى في البلاغة الحديثة المفارقة أو لغة المفارقة، وهي: الجمع بين الشيء وضده في سياق واحد، فهذا اليائس لا يتمنى الموت من أجل الفوز بالجنة، ولكن الدافع هو الحزن على مباهج الدنيا التي لم ينل منها شيئًا، والضعف أمام المحن والأوصاب الدنيوية، ولذلك يفسر رسول الله ﷺ هذا الموقف تفسيرًا محددًا، تتمثل فيه المفارقة الكاملة بين موقفين، حيث يقول: ليس به الدين، ما به إلا البلاء.

وأسلوب القصر في الجملة الأخيرة يؤكد ضعف الوازع الديني عند هذا الصنف من الناس، ويدين موقفهم الضعيف واليائس: لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: القسم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان شدة البلاء والفتن في آخر الزمان.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: القسم:

حيث جاء في الحديث "والذي نفسي بيده" وأسلوب القسم من أساليب الدعوة المهمة حيث يقنع المدعو بما يقول الداعية (وأسلوب القسم يجري على عادة العرب، حيث استعملوه، وعرفه الناس قديمًا، تأكيدًا لخبر، أو تعظيمًا لشيء، أو جمع الانتباه حول غاية، أو دليلاً على إثبات الحق، وأسلوب القسم يبصر بالدعوة، ويبين دعائمها الأساسية بشكل مفصل ثابت أمام الدعاة والمدعوين، لكي تكون حركة الجميع على بيان ووضوح، وأسلوب القسم موعظة حسنة، لأن القرآن دائمًا يقصد به الإقناع والإثارة، فإن من الناس من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية مثل القسم)[3]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب القسم قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[4] وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[5].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان شدة البلاء والفتن في آخر الزمان:

حيث جاء في الحديث "لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ عليه ويقول: يا

(١) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١١.

(٣) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، علي بن صالح المرشد ١٦٢.

(٤) سورة يونس، آية: ٥٣.

(٥) سورة سبأ، آية: ٣.

ليتني مكان صاحب هذا القبر وليس به الدين ما به إلا البلاء". قال الطيبي: (قيل الدين هينا العادة، والمعنى: يتمرغ على رأس القبر ويتمنى الموت في حاله، وليس التمرغ من عادته، وإنما يحمله عليه البلاء، ولكن أقول: ويجوز أن يحمل الدين على حقيقته، أي ليس ذلك التمرغ والتمني لأمر أصابه من جهة الدين لكن من جهة الدنيا، فيفيد "البلاء" المطلق بالدنيا)[1].

وقال ابن حجر: (قال ابن بطال: تغبط أهل القبور، وتمنى الموت عند ظهور الفتن، إنما هو خوف ذهاب الدين بغلبة الباطل وأهله، وظهور المعاصي والمنكر. انتهى. وليس هذا عامًا في حق كل أحد، وإنما هو خاص بأهل الخير، وأما غيرهم فقد يكون لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفسه أو أهله أو دنياه، وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه، وذكر الرجل فيه للغالب، وإلا فالمرأة يتصور فيها ذلك. وقال القرطبي: فيه إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين، ويقل الاعتناء بأمره، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه نفسه وما يتعلق به، ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة، وفي قوله "وليس به الدين إنما هو البلاء" فإنه سيق مساق الذم والإنكار، وفيه إيماء إلى أنه لو فعل ذلك بسبب الدين لكان محمودًا)[2].

قال القاضي عياض: (ويحتمل أن يكون هذا لما يرى من تغيير الشريعة وتبديل الدين، أو لما يرى من البلاء والمحن والفتن، كما قال في الحديث الآخر ((لا يدري القاتل في أي شيء قتل ولا المقتول على أي شيء قتل))[3] وعلى الوجهين فقد كان ما أخبر به ﷺ وظهر، وكذلك في كثير من المشقات والأمور والفتن التي أخبر بها في هذه الأحاديث ووقعت عيانًا)[4].

وقال القرطبي: (والمراد أن هذا يحدث من شدة المحن، وكثرة الفتن والأنكاد

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٩٥/١٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨١/١٣.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٠٨.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٥١/٨.

اللاحقة للإنسان في نفسه وماله وولده، ولذلك قال "ليس به الدِّين إلا البلاء" وكأن هذا إشارة إلى أن كثرة الفتن والمشقات والأنكاد قد أذهبت الدين من أكثر الناس، أو قللت الاعتناء به من الذي يتمسك بالدين عند هجوم الفتن، ولذلك عظم قدر العبادة في حالة الفتن، حتى قد قال ﷺ: ((العبادة في الهَرْج كهجرة إليّ))[1])[2].

وجاء في فتح الملهم: (وقوله "فيقول: يا ليتني مكانه" يعني يتمنى الموت إما لفساد يرى الناس يصيب في دينهم، أو لضر دنيوي نزل به، والأول لا بأس به، والثاني مذموم وقوله "فيتمرغ" أي يتقلب يقال تمرغ الرجل إذا تقلب وتلّوى من وجع يجده، وقوله "ليس به الدين إلا البلاء" يعني أنه لا يتمنى الموت لحفظ دينه، وإنما يتمناه لبلاء أصابه في دنياه، وهذا في معرض الذم، والمراد أن الناس يتمنون الموت لضرر دنيوي أصابهم، مع أنه منهي عنه في الشرع)[3].

ولا شك أن هذا الحديث يدلل على هول الفتن وشدتها في آخر الزمان.

(وقد حثَّ النبي ﷺ عندما تَدْلَهِمّ الفتن على الفرار منها والاشتغال برعي الأغنام طلبًا للعيش.

قال ﷺ: ((يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغَنَمُ، يتبع بها شَعَفَ[4] الجبال ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن))[5].

والهدف من اعتزال تلك الفتنة، هو الحذر من الوقوع في العاقبة الوخيمة التي توعَّد الله بها المسلمين إذا تقاتلوا، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار" قيل: فهذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: ((إنه أراد قتل صاحبه))[6].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٤٨.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٧/٢٤٥.

(٣) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٢/٤٥٣-٤٥٤.

(٤) الشَّعَفَةُ من كل شيء: أعلاه، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ع ف).

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٩٥.

(٦) أخرجه البخاري ٧٠٨٢.

وأي خسران من أن يبذل الإنسان دمه وحياته ثمنًا بخسًا للتعاسة والشقاء! ولكنها الفتنة التي تعمي وتصم.

لذلك سدَّ الإسلام تلك الذريعة بتحريمه مجرد رفع السلاح على المسلم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((من حمل علينا السلاح فليس منا))[١].

لأن فتنة الهرج إذا انطلقت شرارتها بين المسلمين استمر حريقها مندلعًا إلى قيام الساعة، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة))[٢].

ومن لم يتيسر له الاعتزال والفرار من الفتن، والاشتغال برعي الأغنام كما أرشد إليه ﷺ، فلا أقلَّ من اجتناب القتال فيها، وللتأكيد على ذلك أمر النبي ﷺ بكسر السيوف في الفتنة)[٣].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

ويؤخذ هذا من سياق الحديث، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفس المدعو، وتحمله على الالتزام وترك المحظورات (والترهيب كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[٤]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨٧٤، ومسلم ٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٢٠٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٧٩٣).

(٣) المنهج الشرعي في مواجهة الفتن، مرفت بنت كامل بن عبدالله أسره ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ٤٣٧.

(٥) سورة المطففين، آية: ١٥، ١٦.

الحديث رقم (١٨٢٤)

١٨٢٤- وعنهُ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ يُقْتَتَلُ[١] عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِئَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فَيَقُولُ كُلُّ رجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أنْ أكُونَ أنَا أنْجُو)) [٢].

وَفِي رواية: ((يُوشِكُ أنْ يَحْسِرَ الفُرَاتُ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلاَ يَأخُذْ مِنْهُ شَيْئًا)) متفق عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يحسر الفرات: يرتد ماؤه عن ساحله فتتكشف الأرض[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من نبوءات المصطفى ﷺ، ويتضمن أخبارًا مستقبلية تنبئ عن وقوع أحداث في المستقبل، وهي أحداث تتمخض عنها الأطماع، والتكالب على متاع الدنيا وزخرفها، ومن هذه الأحداث جفاف نهر الفرات وذهاب مائه، وهذا من الظواهر الطبيعية التي تحدث، فكثير من الأنهار جف ماؤها، وعادت يبسا، ويساق هذا الحديث للإنذار بقيام الساعة، ولذلك جاء النفي في أول الحديث، لا تقوم الساعة، والنفي هنا يفيد: أي أن الساعة ستقوم.. وقبلها ينكشف الفرات، أي يذهب ماؤه، ثم يظهر جبل من ذهب، وصور رسول الله ﷺ الصراع على هذا الذهب، فأتى: بالفعل "يقتتل"، مبنيًا للمجهول، لأن المتقاتلين يكونون من كل حدب وصوب، وتتعدد طوائف المتقاتلين، وأجناسهم، وقبائلهم.

---

(١) عند مسلم زيادة: (الناس).

(٢) أخرجه مسلم ٢٩/٢٨٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧١١٥، ومسلم ٣٠/٢٨٩٤.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح س ر).

ولكن الهلاك هو المصير المحتوم لأكثرهم، فلن ينجو من كل مائة إلا واحد وكلهم يحرص على النجاة فيفنى بعضهم بعضا، وكأنهم يتقاتلون على سراب، والفعل "يقتل" مبني للمجهول كذلك، لأن الكل حريص على قتل الآخر، ولا يعرف الناس من قاتل من !!!، وفي قوله: "لعلى أن أكون أنا أنجو"، دليل على حرص كل واحد منهم على قتل الآخر على النجاة، وقوله: "لعلي" فيه حمل لعلَّ على عسى أختها في معنى: التوقع والإشفاق: وفي هذا التعبير إيجاز بالحذف، وقال العلماء: في الكلام مضاف مقدر، إما في المحكوم عليه: أي لعل شأني كوني أنجو، حيث تحول المصدر المؤول إلى مصدر صريح، أو في المحكوم أي لعل ذا كون نجاة.

والشواهد التاريخية والمعاصرة: تعد إرهاصات تمهد لمثل هذه الصراعات القادمة، فكم حدثت في العراق من فتن وحروب، وما يحدث فيها الآن من أقوى الشواهد على هذا الاقتتال الدامي، وذلك الصراع الطائفي الأحمق، وذلك البطش الظالم من القوى الباغية المعتدية، التي هبت كالأعاصير المدمرة على وادي الرافدين طمعًا في نهب خيراتها، وسرقة بترولها وكنوزها، ومن قصيدة غاية النار، تصور هذه الأبيات بعض مشاهد هذا الصراع:

وجه السلام غريب في مدائننا ... وللغزاة فحيح كاسر ضار
هبوا جياعا وفي بيدائنا غرقوا ... ولم تمت في دمانا غضبة الثار
ولم تزل للردي بغداد رافضة ... تشدو بآفاقها أسراب أقمار
وللفرات هدير مائج بدم ... يجري بأصلاب شعب حُفَّ بالغار
والهاربون من الطوفان يحرقهم ... قيظ المتاهات في صحراء عشتار
هم استجاروا وكان التيه منجدهم ... فهل يظلون في تيه بلا دار
والمستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار
وعاد بالبطش هولاكو وتسبقه ... عواصف الموت تغتال السنا السَّاري[1]

---

(١) من قصيدة "غاية النار" شعر د. صابر عبدالدايم، ديوان العمر والريح، طبع ونشر الهيئة الهامة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٧م.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فتن آخر الزمان.

ثالثًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً – من أساليب الدعوة: الإخبار:

حيث جاء في الحديث "لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب..." وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة التي تقيم الحجة على المدعوين بالبلاغ، وهو مما أمر الله به نبيه ﷺ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾. قال السعدي: (هذا أمر من الله لرسوله ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، فبلّغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين، حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله، فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه)[1]. وأمره الله عز وجل بالبيان فقال له: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ثانيًا– من موضوعات الدعوة: بيان فتن آخر الزمان:

حيث جاء في الحديث "لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون فيقول كل رجل منهم، لعلي أن أكون أنا أنجو" وقوله "يوشك أن يحسر الفرات عن كنز من ذهب".

قال الطيبي: (وقوله "يحسر الفرات" أي ينكشف وقوله "أنا الذي أنجو" أي أنا الذي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، عبدالرحمن السعدي، ٢٠١.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

أفوز به، لأنه إذا نجا من القتال يفوز بالمال وملكه)[1]. وقال ابن حجر: (ويوشك أي يقرب، وأن يحسر أي أن ينكشف، والفرات هو النهر المشهور، وتسمية الذهب كنزًا باعتبار حاله قبل أن ينكشف، وتسميته جبلاً للإشارة إلى كثرته)[2]. وفي هذا بيان لصورة من صور الفتن التي تقع في آخر الزمان.

قال القرطبي: (وقوله يحسر الفرات "أي يكشف ومنه حسرت المرأة عن وجهها أي كشفت، والحاسر: الذي لا سلاح له، وكأن هذا إنما يكون إذا أخذت الأرض تقيء ما في جوفها وقوله "فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا" نهى على أصله من التحريم؛ لأنه ليس ملكًا لأحد وليس بمعدن ولا ركاز، فحقه أن يكون في بيت المال؛ ولأنه لا يوصَل إليه إلا بقتل النفوس فيحرم الإقدام على أخذه)[3].

وقال محمد تقي العثماني: (والفرات نهر مشهور بالعراق، والمراد من حسره أنه ينكشف لذهاب مائه فيظهر في محله جبل من ذهب، ويحتمل أن يكون ما يظهر جبلاً حقيقة فيه كنز من ذهب، ويحتمل أن يكون كنزًا سمي في هذه الرواية جبلاً لكثرة ما فيه من ذهب. وقوله "لعلي أكون أنا الذي أنجو" يعني أنه يقتحم القتال مع ما يرى من شدته لأنه يرجو أن يكون هو الناجي، فيفوز بالكنز دون غيره، والسبب في منع الأخذ من هذا الكنز، ما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال بين المسلمين)[4].

وقال د. الحسيني هاشم: (من علامات الساعة ظهور جبل من الذهب بنهر الفرات أو ببلاده، يقتتل عليه الناس فلا يبقى من المائة إلا واحدًا، وعلى العاقل اجتنابه لأنه فتنة، والتعرض للقتل بسببه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفي الحديث التحذير من التنافس على الدنيا)[5].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٩٤/١٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٦/١٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٢٩/٧.

(٤) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثمان ٢٢٨/١٢.

(٥) شرح رياض الصالحين ٨٢٢.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن جبل الذهب الذي جاء الإخبار عنه في الحديث، ليس هو النفط أو البترول كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، وقد رد عليه صاحب كتاب أشراط الساعة فقال: (وليس المقصود بهذا الجبل من ذهب "النفط/ البترول الأسود"؛ كما يرى ذلك صاحب التعليق على "النهاية/الفتن والملاحم" لابن كثير[1]، وذلك من وجوه:

١- أن النص جاء فيه: "جبل من ذهب"، والبترول ليس بذهب على الحقيقة؛ فإن الذهب هو المعدن المعروف.

٢- أن النبي ﷺ أخبر أن ماء النهر ينحسر عن جبل من ذهب، فيراه الناس، والنفط أو "البترول" يستخرج من باطن الأرض بالآلات من مسافات بعيدة.

٣- أن النبي ﷺ خصَّ الفرات بهذا دون غيره من البحار والأنهار، والنفط نراه يُستخرج من البحار كما يستخرج من الأرض، وفي أماكن كثيرة متعددة.

٤- أن النبي ﷺ أخبر أن الناس سيقتتلون عند هذا الكنز، ولم يحصل أنهم اقتتلوا عند خروج النفط من الفرات أو غيره، بل إن النبي ﷺ نهى من حضر هذا الكنز أن يأخذ منه شيئًا؛ كما في الرواية الأخرى عن أبي بن كعب رضي الله عنه؛ قال: لا يزال الناس مختلفةٌ أعناقهم في طلب الدنيا... إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((يوشك الفراتُ أن يَحْسِرَ عن جبلٍ من ذهب، فمن حضره؛ فلا يأخذ منه شيئًا))[2]، ومن حمله على النفط، فإنه يلزمه على قوله هذا النهي عن الأخذ من النفط، ولم يقل به أحد. وقد رجح الحافظ ابن حجر أن سبب المنع من الأخذ من هذا الذهب، لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه"[3])[4].

ثالثًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

وذلك حيث جاء في الحديث "فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا" وفي هذا إرشاد من

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: الفتن والملاحم ٢٠٨/١، تحقيق وتعليق محمد فهيم أبو عبية.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٩٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨١/١٣.

(٤) أشراط الساعة، يوسف بن عبدالله بن يوسف الوابل، ٢٠٥، ٢٠٦.

النبي ﷺ إلى عدم الأخذ من هذا الذهب، وهذه من أولى مهام الداعية أن يحذر المدعوين من الأخطار ويرشدهم ويوجههم إلى ما فيه صلاحهم. قال ابن حجر: (والحكمة في النهي عن الأخذ منه لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه، ويحتمل أن تكون الحكمة لكونه يقع في آخر الزمان عند الحشر الواقع في الدنيا، وعند عدم الظهور أو قلته، فلا ينتفع بما أخذ منه. ويقع هذا عند ظهور المهدي، وذلك قبل نزول عيسى عليه السلام وقبل خروج النار جزمًا والله أعلم)[1].

وينبغي أن يتنبه الدعاة إلى الله لهذا، ويكون لديهم الحرص الدائم على إرشاد المدعوين، وتنبيههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨٧/١٣.

الحديث رقم (١٨٢٥)

١٨٢٥- وعنهُ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((يَتْرُكُونَ المَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ، لاَ يَغْشَاهَا إلاَّ العَوَافِي -يُرِيد عَوَافِي السِّبَاعِ والطَّيرِ- وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ، يُرِيدَانِ المَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِهَا وُحُوشًا، حَتَّى إذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الوداعِ خَرَّا عَلَى وُجُوهِهِمَا)) متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

عوافي السباع والطير: طلاب الرزق من السباع والطير[2].

ينعقان بغنمهما: يصيحان[3].

فيجدانها وحوشًا: قيل: يجدان أهلها قد صاروا وحوشًا، وقيل: فيجدانها وحشًا أي: خالية من سكانها.

وقيل: إن غنم الراعيين المذكورين تصير وحوشًا.

وقال النووي: الصواب الأول[4].

ثنية الوداع: ثنية مشرفة على المدينة المنورة يطؤها من يريد مكة المكرمة، فهي موضع وداع المسافرين من المدينة المنورة إلى مكة[5].

الشرح الأدبي

يشع هذا الحديث بأخبار وإرهاصات مستقبلية: حيث قال القاضي عياض: وهذا

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (١٨٧٤)، ومسلم (١٣٨٩/٤٩٩).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ف و).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ع ق).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٨/٤.

(٥) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل، ١٠٨.

من معجزاته ﷺ فقد تركت المدينة على أحسن ما كانت حين نقلت الخلافة إلى الشام في عصر الأمويين، وإلى العراق في عصر العباسيين، وذلك الوقت أحسن ما كانت المدينة للدين والدنيا، أما الدين فلكثرة العلماء بها، وأما الدنيا فلعمارتها واتساع حال أهلها، وهذا الواقع التاريخي تفسير لقوله ﷺ "يتركون المدينة على خير ما كانت".

وهذا الرأي يقابله رأي آخر: وهو أن الترك للمدينة سيكون في آخر الزمان عند قيام الساعة، ويوضح هذا الرأي ويعضده قوله: وآخر من يحشر، والحديث في ظل التفسيرين من معجزاته ﷺ، وقوله: لا يغشاها إلا العوافي، أي لا يقبل على المدينة ويملؤها ويحيط بها إلا عوافي السباع والطير، أي التي تطلب الرزق من الحب وغيره من خيرات المدينة، وقوله: عوافي مأخوذ من عفوته: إذا أتيته تطلب معروفه، والعفاة هم السائلون.

وهذه الجملة صيغت في أسلوب القصر، للدلالة على هجر أهل المدينة لها، ورحيلهم إلى أماكن أخرى ولا يقصدها إلا السباع والطير.

والجزء الأخير من الحديث يرسم صورة للنهاية التي تنتظر ملايين البشر، وهي صورة الراعيين يسوقان غنمهما ويصيحان... فلا يجدان أحدًا بالمدينة، وإنما يجدان الوحوش تعبث في المكان، وتنذر بالنهاية، وهذه صورة صادمة منذرة: توقظ السادرين في غفلتهم، الذين تلهيهم زخارف الدنيا فيرحلون عن مدينة رسول الله ﷺ طيبة الطيبة العامرة بأنفاس الصحابة، وعبق الحضارة الإسلامية، وخطوات رسول الله ﷺ ومشاهد السيرة المضيئة بالبطولات والذكريات الماجدة، وتتابع فصول وأحداث الرسالة الخالدة.

وختام الحديث يجسد النهاية التي تنتظر كل من على الأرض... وفي الكون كله، كل مَنْ عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، ولنتأمل هذا البيان النبوي الذي يصور نهاية رحلة الشقاء والكد في الحياة، ومنهم هذان اللذان يتعقبان بغنمهما، وهما راعيان من مزينة يريدان المدينة، طلبًا لخيراتها وثمارها (حتى) إذا بلغا ثنية الوداع خرًّا على وجوههما.

وقوله: خرًا أي سقطا فجأة، وهكذا يكون قيام الساعة لا تأتيكم إلا بغتة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾(١).

المضامين الدعوية

أولاً: من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان حال المدينة في فتن آخر الزمان.

أولاً - من دلائل النبوة: الإخبار عن المغيبات:

حيث جاء في الحديث "يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافي..." وفي هذا إخبار منه ﷺ بما سيحدث في المستقبل، ولا شك أن هذا من إخبار الله تعالى له. قال القاضي عياض: (وهذه من علامات نبوته عليه السلام فقد تركت على أحسن ما كانت حين انتقلت الخلافة عنها إلى الشام والعراق، وذلك الوقت أحسن ما كانت للدين علمًا وكمالاً من رجاله، ودنيا لتمام عمارتها، وغرسها، واتساع حال أهلها. ثم ذكر الإخباريون في بعض الفتن التي تعاورتها، وخاف أهلها على أنفسهم، رحل عنها أكثر الناس، وبقيت ثمارها أو أكثرها للعوافي، وخلت مدة ثم تراجع الناس إليها، وحالها اليوم قريب من هذا، وقد خربت أطرافها وزالت أغلاقها. وقد حكى كثير من الناس أنهم رأوا ما أنذر به عليه السلام من تغذية الكلاب على سواري مسجدها، ومعنى: "تغذى": تبول، وأصله البول دفعة بعد دفعة، وهي صفة بول الكلاب)(٢).

قال سعيد حوي: (وعندما يقول رجل عن نفسه إنه رسول ويخبر عن المستقبل المجهول، ويتحقق هذا المستقبل تحققًا تامًا لا يخرم منه شيء، فتلك إذن نبوة لاشك فيها، واتصال بالله عالم الغيب والشهادة لاشك فيه، وهذه النبوءات التي تحدث بها الرسول ﷺ تجعلك على مثل الشمس مبصرة، أن محمدًا رسول الله ﷺ وأنه لا

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٠٧/٤.

ينطق عن الهوى. والنبوءات التي ذكرها الرسول ﷺ قد تكون عن حوادث معينة لأشخاص معينين، أو نبوءات وقعت قديمًا وأخرى نراها الآن، ونبوءات عن حوادث خاصة أو عامة تقع للأمة الإسلامية أو بينها قريبًا من حياة الرسول ﷺ أو بعيدًا، والأمثلة لذلك كثيرة مستفيضة)[1]. وقد جاء في القرآن أن الله سبحانه أطلعه على ذلك قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان حال المدينة في فتن آخر الزمان:

حيث جاء في الحديث "يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافي، وآخر من يحشر راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشًا حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما).

قال النووي: (ومعنى الحديث، فالظاهر المختار أن هذا الترك للمدينة يكون في آخر الزمان عند قيام الساعة، وتوضحه قصة الراعيين من مزينة، فإنهما يخران على وجوههما حين تدركهما الساعة وهما آخر من يحشر، وقال القاضي عياض: هذا فيما جرى في العصر الأول وانقضى، وهذا من معجزاته ﷺ فقد تركت المدينة على أحسن ما كانت حين انتقلت الخلافة عنها إلى الشام والعراق. وذلك الوقت أحسن ما كانت للدين والدنيا)[3].

وقال ابن حجر: (وقوله "تتركون المدينة" المراد بذلك غير المخاطبين، لكنهم من أهل البلد أو من نسل المخاطبين أو من نوعهم. وقوله "على خير ما كانت" أي على أحسن حال كانت عليه من قبل، وقال المهلب وفي هذا الحديث أن المدينة تسكن إلى يوم القيامة، وإن خلت في بعض الأوقات لقصد الراعيين بغنمهما إلى المدينة، والراجح ما

---

(١) الرسول ﷺ ١٢٢/٢.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ ، ٢٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٨٦٢.

ذهب إليه النووي أن ذلك الترك في آخر الزمان)[١].

قال القاضي عياض: (وقوله: "يخرج راعيان من مزينة يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما" أي: يصيحان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾[٢].

وقوله: "فيجدانها وحشًا": أي خلاء، قال الحربي: وحشي من الأرض أي خلاء، ويمشي وحشًا: أي وحده. وروى في كتاب البخاري: "وحوشًا" فمعناها بين؛ لخلائها، عمرتها الوحوش كما قال للعوافي في الطير والسباع، ويكون "وحشًا" أيضًا بمعنى وحوش، والوحش كل شيء توحش من الحيوان وجمعه وحوش. وقد يعبر بواحدة عن جنسه. وقال ابن المرابط: قوله: "فيجدانها وحوشًا": أي أن غنمهما صارت وحوشًا. قال: فيحتمل أن تصير وحوشًا غير غنم، ويحتمل أن تتوحش وتنفر من أصواتها.

قال القاضي: وليس يدل الحديث على أن الضمير في خرابها يعود على الغنم، وإنما يعود على المدينة كما قدمنا. رواية البخاري لهذا الحديث أتم، قال: "آخرُ من يحشر راعيان من مزينة" وذكر الحديث، قيل: معناه: آخر من يموت بها فيحشر؛ لأن الحشر إنما هو بعد الموت، ويحتمل أن يتأخر حشرهما بحسب تأخر موتهما، وإن لم يكن بين حشر الناس أمد بعيد، قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٣]، وكذلك صعقها أيضًا الصيحة الأولى يكون آخر من يموت بها، قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾[٤])[٥].

وقال القرطبي: (وقوله: "تتركون المدينة على خير ما كانت" تتركون: بتاء الخطاب. ومراده: غير المخاطبين، لكن فرعهم من أهل المدينة، أو نسلهم. و"على خير ما كانت" أي: على أحسن حال كانت فيما قبل. وقد وجد هذا الذي قاله النبي ﷺ،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٨/٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧١.

(٣) سورة يس، آية: ٥٣.

(٤) سورة يس، آية: ٢٩.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥٠٨/٤.

وذلك: أنها صارت بعده ﷺ معدن الخلافة وموضعها، ومقصد الناس، وملجأهم، ومعقلهم، حتى تنافس الناسُ فيها، وتوسَّعوا في خططها، وغرسوا وسكنوا منها ما لم يُسكن من قبل، وبنوا فيها، وشيَّدوا حتى بلغت المساكنُ إهابها، وجُلِبت إليها خيراتُ الأرض كلها، فلما انتهت حالُها كمالاً وحُسنًا، انتقلت عنها الخلافة إلى الشام، فغلبت عليها الأعراب، وتعاورتها الفتن، فخاف أهلها، فارتحلوا عنها.

وذكر الإخباريون: أنها خَلَتْ من أهلها، وبقيت ثمارها لعوافي الطير، والسِّباع، كما قال ﷺ، ثم تراجع الناس إليها، وفي حال خلائها غذت الكلاب على سواري المسجد. وعوافي الطير: هي الطالبةُ لما تأكل. يقال: عفوته، أعفوه؛ إذا طلبت معروفه. وغذَّى الكلب يُغَذِّي: إذا بال دفعةً بعد دفعةٍ.

وقوله: "ثم يخرج راعيان من مزينة ينعقان بغنمهما" أي: يصيحان بها، ليسوقاها. والنعاق: صوتُ السائق للغنم. ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾[1].

وقوله: "فيجدانها وحشًا" أي: خلاء. يقال: أرض وحش. أي خالية. ومشى وحشًا؛ أي: وحده. قاله الحربي. ويحتمل أن يكون معناه: كثيرة الوحش؛ كما قال في البخاري: "فيجدانها وحوشًا" أي: يجدان المدينة كثيرة الوحوش لما خلت من سكانها، كما قال: للعوافي. والوحش: كلٌّ ما توحَّش من الحيوان، وجمعه: وحوش. والضمير في "يجدانها" على هذا: راجع للمدينة. وقيل: إنَّه عائدٌ على الغنم. أي: صارت هي وحوشًا، إما بأن تنقلب كذلك -والقدرة صالحةٌ- وإما بأن تتوحش، فتنفر من أصوات الرُّعاة.

و"خرًّا على وجوههما" أي: سَقَطا ميتين. وهذا الذي ذكره النبي ﷺ من حديث الرَّاعيين إما يكونُ في آخر الأمر، عند انقراض الدنيا، بدليل ما قال البخاري في هذا الحديث: ((آخر من يُحشر راعيان من مزينة))[2]. قيل: معناه: آخر من يموت بها فَيُحشر؛ لأنَّ الحشرَ بعد الموت. ويُحتمل: أن يتأخَّر حشرُهما لتأخير موتهما. قلتُ: ويحتملُ أن

(١) سورة البقرة، آية: ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٧٤.

يكونَ معناه: آخر من يُحشر إلى المدينة. أي: يُساق إليها. كما في لفظ كتاب مسلم)[1].

جاء في فتح الملهم: (قوله ﷺ للمدينة: "ليتركنها أهلها على خير ما كانت مذللة للعوافي" يعني السباع والطير. وفي الرواية الثانية: "يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافي يريد عوافي السباع والطير ثم يخرج راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشًا حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما". أما "العوافي" فقد فسرها في الحديث: بالسباع والطير وهو صحيح في اللغة. مأخوذ من عفوته إذا أتيته تطلب معروفه. وأما معنى الحديث فالظاهر المختار أن هذا الترك للمدينة يكون في آخر الزمان عند قيام الساعة، وتوضحه قصة الراعيين من مزينة فإنهما يخران على وجوههما حين تدركهما الساعة، وهما آخر من يحشر كما ثبت في "صحيح البخاري"[2]".

قوله ﷺ: "فيجدانها وحشًا" وفي رواية البخاري: "وحوشًا" قيل معناه يجدانها خلاء. أي: خالية ليس بها أحد، قال إبراهيم الحربي: الوحش من الأرض هو: الخلاء، والصحيح أن معناه: يجدانها ذات وحوش. كما في رواية البخاري، وكما قال ﷺ: "لا يغشاها إلا العوافي" ويكون وحشًا بمعنى وحوشًا، وأصل الوحش كل شيء توحش من الحيوان[3].

قال د. خليل إبراهيم ملا خاطر: (إن المدينة النبوية ستبقى عامرة -من حيث عمرانها والحياة فيها - إلى قيام الساعة لأنها آخر قرى الإسلام خرابًا، لكن أهلها سيتركونها وهي على أحسن حال، ولن يتركوها مرة واحدة -والعلم عند الله تعالى- بل سيتركونها مرتين، أما في المرة الأولى فسيعودون إليها قريبًا، وأما المرة الثانية فستطول مدة الترك أربعين عامًا، والله تعالى أعلم، ويظهر أن ذلك سيكون قبيل قيام

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٥٠١، ٥٠٢.

(٢) انظر: البخاري ١٨٧٤.

(٣) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ٦/٥٣٢.

الساعة والله أعلم. وقوله في الحديث "يتركون المدينة" جاء في بعض الروايات "تتركون المدينة" بتاء الخطاب فالمراد بذلك -كما قال ابن حجر- غير المخاطبين لكنهم من أهل البلد، أو من نسل المخاطبين، أو من نوعهم[1].

قلت: ولعل المراد -والله أعلم- يا أهل المدينة، أو يا سكان المدينة فيشمل من كان حاضرًا، ومن كان غائبًا، وهذا هو ظاهر الروايات الأخرى "يدعها أهلها، يتركون المدينة، يتركها أهلها، ليتركنها أهلها، أما إنهم سيدعونها..." ورواية "لتُتْركنَّ المدينة..." بصيغة البناء للمجهول شامل لذلك أيضًا)[2].

ومن خلال كلام العلماء السابق يتضح تساؤل مؤداه هل وقع هذا الترك للمدينة فعلاً أم إنه في آخر الزمان؟

هناك رأيان:

الأول: أن هذا الإخلاء والترك للمدينة قد وقع فعلاً وإلى هذا ذهب القاضي عياض والقرطبي رحمهما الله وقد سبق إيراد قولهما في هذا.

الثاني: أن هذا الإخلاء والترك لم يقع وأنه سيكون في آخر الزمان، وإلى هذا ذهب النووي والأبي ومال إلى ذلك ابن حجر تبعًا للإمام النووي وجعله الأظهر وتابعهم على ذلك صاحب تكملة فتح الملهم الشيخ محمد تقي العثماني، وقال بأن الترك للمدينة في آخر الزمان عند قيام الساعة هو الظاهر المختار، وقد تم إيراد أقوال الجميع فيما مضى.

قال د. خليل إبراهيم ملا خاطر: (وقوله في الحديث "أحسن ما كانت - أو خير ما كانت" فيحتمل ثلاثة احتمالات:

١- أحسن ما كانت في أمور الدين حيث يكثر فيها العلماء والصالحون.

٢- أحسن ما كانت في أمور الدنيا بحيث تتسع حالها ويتنافس الناس في البناء والغرس وتجبى إليها ثمرات الأرض.

---

(١) سبق ذكر كلام ابن حجر فيما مضى. وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٠٨/٤.

(٢) فضائل المدينة المنورة، د. خليل إبراهيم ملا خاطر، ط/١، دار القبلة للثقافة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ص ٣٧٩-٣٨٣ بتصرف.

٣- أو هما معًا أي أحسن ما كانت للدين والدنيا، وهذا ما جنح إليه القاضي عياض والإمام القرطبي.

وفي كون الثمار تكون للعوافي: الطير والسباع قال ابن الجوزي: اجتمع في العوافي شيئان، أحدهما: أنها طالبة لأقواتها من قولك: عفوت فلانًا أي أتيت أطلب معروفه. والثاني: من العفاء وهو الموضع الخالي الذي لا أنيس به، فإن الطير والوحش تقصده لأمنها على نفسها فيه. فكون الثمار ستكون للعوافي، إما أنها ستعيش منها، وإما لأنها تتفرد بها دون أهلها لأنهم تركوها وخرجوا)[1].

(١) فضائل المدينة المنورة ١/٤٠٠-٤٠١.

الحديث رقم (١٨٢٦)

١٨٢٦ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((يكُونُ خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائِكُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَحْثُو المَالَ وَلاَ يَعُدُّهُ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

يحثو المال ولا يعده: أي: يغرف المال غرفًا إشارة إلى الكثرة[٢].

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ودليلاً على صحة رسالته، أحداث تنبأ بها وحدثت في حياته، وأحداث تنبأ بها وحدثت بعد وفاته، والحديث الذي نحن بصدده ينبئ عن أحداث تقع بعد وفاته ﷺ.

وتتنوع الأحداث التي تنبأ بها رسول الله ﷺ وحدثت بعد وفاته، ومنها:

١- أحداث تتصل بمصير الأمة الإسلامية.

٢- أحداث الفتن.

٣- أحداث تتصل بأفراد من الصحابة ومصائرهم.

٤- أحداث تتصل بنهاية العوالم الأرضية[٣].

وهذا الحديث من الأحاديث التي تصور الأحداث المتصلة بنهاية العالم، أو أحداث الفتن المستقبلية، لأن كثرة المال تطغى، وتؤدي إلى الصراع والتكالب على زخارف الدنيا وزينتها.

---

(١) برقم ٢٩١٤/٦٨. والسياق للحميدي في جمعه ٤٧٧/٢ رقم ١٧٣٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ث و).

(٣) انظر: الحديث النبوي والتاريخ، د. أحمد جمال العمري، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م.

ولـذلك جـاءت الـصياغة في الحـديث بالمـضارع، وهـو يفيـد الاسـتمرار في الحـال والاستقبال، ولنتأمل دلالة هذه الأفعال في صياغتها الزمنية: يكون خليفة، يحثو المال ولا يعد.

وتنكير لفظ خليفة إشارة إلى أنه مجهول لم يحدد، وربما تتكرر نماذج هذا الذي ذكره رسول الله ﷺ، والتنكير فيه شيوع وتقليل من شأنه، فهو ليس له دور إلا جمع المال، وقوله: "في آخر الزمان" يفيد أنه ليس قريبًا من عهد النبوة، وبعض العلماء قال: الظاهر والله أعلم أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد كثر المال في زمنه... وهو في آخر زمان الخلفاء، وهذا الرأي ليس على جهة اليقين، ولكنه كما قال صاحبه وهو ابن الخياط محدث اليمن: "كذلك أظن والله اعلم بمراد نبيه ﷺ".

والحديث ليس على جهة المدح، ولكنه في مضمونه يدين الافتتان بالمال، والانشغال بزخارف الحياة، والتعبير بقوله: "يحثو": يرمز إلى أن المال يصير كالتراب في كثرته وقلة بركته: لأن لفظة "حثًا": مرتبطة بالتراب في اللغة، حيث يقولون: حثى التراب عليه يحثوه ويحثيه حثوًا وحثيًا، والحثى كالثرى التراب المحثو، وقشور التمر، والتين، أو دقائقه أو حطامه، أو البن المعتزل عن الحب، والحثى: كالرمي، ما رفعت به يدك.

وهذه الدلالات اللغوية تتسق مع ما يقصد إليه الحديث من دلالات وفوائد ومقاصد، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: كثرة المال في آخر الزمان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: كثرة عدد النساء في آخر الزمان.

أولاً – من أساليب الدعوة: الإخبار:

يتضح هذا من الحديثين[2] الأول قوله: "يكون خليفة من خلفائكم في آخر

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٨٢٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٢٧).

(٢) الحديث رقم (١٨٢٦)، (١٨٢٧).

الزمان..." والثاني قوله: "ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب..." وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة التي تبين للمدعو الأمور التي ستقع ويخبر عنها، وبهذا تقوم الحجة على المدعو بتعريفه وإخباره، وقد أمر الله رسوله ﷺ بالبلاغ فقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾[1]. وأمره بالبيان فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

قال السعدي: (والمراد أنزلنا إليك القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، وقوله "لتبين للناس" وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه)[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: كثرة المال في آخر الزمان:

حيث جاء في الحديثين: "يكون خليفة من خلفائكم في آخر الزمان يحثو المال ولا يعده" وقوله "ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب فلا يجد أحدًا يأخذها منه" قال النووي: (والحثو هو: الحفن باليدين، وهذا الحثو الذي يفعله هذا الخليفة، يكون لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات، مع سخاء نفسه)[4].

وقال ابن علان: (وإنما يكثر المال لإخراج الأرض كنوزها وفيضان المال)[5]. ولاشك أن كثرة المال وفيضانه هو من أشراط الساعة في آخر الزمان. (ومن أشراط الساعة استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يُهِمَّ رَبَّ المالِ مَن يقبله منه صدقة، ويُدعى إليه الرجل، فيقول: لا أرب لي فيه))[6].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣٩٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٨٦.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٧٩٤.

(٦) أخرجه البخاري ١٤١٢، ومسلم ١٥٧.

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ليأتين على الناس زمانٌ يطوف الرجلُ فيه بالصدقة من الذهب، ثم لا يجد أحدًا يأخذها منه))[1].

وأخبر ﷺ أن الله تعالى سيعطي هذه الأمة، ويفتح عليها من كنوز الأرض، وأن ملك أمته سيبلغ مشارق الأرض ومغاربها، ففي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله زوى[2] لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمَّتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض))[3].

لقد تحقَّق كثيرٌ ممَّا أخبرنا به الصادق ﷺ، فكثر المال في عهد الصحابة رضي الله عنهم بسبب ما وقع من الفتوح، واقتسموا أموال الفرس والروم، ثم فاض المال في عهد عمر بن عبدالعزيز، فكان الرجل يعرِض المال للصدقة، فلا يجد من يقبله.

وسيكثر المال في آخر الزمان، حتى يعرض الرجل ماله، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به.

وهذا -الله أعلم- إشارةٌ إلى ما سيقع في زمن المهدي وعيسى عليه السلام من كثرة الأموال، وإخراج الأرض لبركتها وكنوزها.

ويحتمل أن يكون استغناء الناس عن المال وتركهم له وقت خروج النار واشتغال الناس بأمر الحشر، فلا يلتفتُ احدٌ حينئذ إلى المال، بل يقصد أن يتخفَّف ما استطاع.

وما ذكره ابن حجر من استغناء الناس عن المال لاشتغالهم بأمر الحشر لا يُنافي أن يكون لاستغنائهم سببٌ آخر، وهو كثرة المال؛ كما حصل في زمن المهدي وعيسى عليه السلام، وبذلك يكون الاستغناء يقع في زمنين -إن تباعدا - بسببين مختلفين، والله أعلم[4].

إن يقين المسلم وإيمانه بما أخبر به الرسول ﷺ من كثرة المال واستفاضته، يجعله يتوقف مع نفسه، ويترك التكالب على المال، والتقاتل عليه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٤١٤، ومسلم ١٠١٢.

(٢) "زوى" يقال: زويته ازويه زيًا اي جمعته والمعنى: ان الله جمع له ﷺ الأرض وقربها حتى رأى مشارقها ومغاربها. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤٠٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٨٨٩.

(٤) أشراط الساعة، د. يوسف الوابل، ٨٧-٨٩ بتصرف.

ومن آثار الإيمان بعلامات الساعة الصغرى التي لم تقع بعد، الزهد في المال وليس تركه، وهو أمر مطلوب لصلاح النفس الإنسانية.

(والزهد في المال الذي يتمثل في أوج صوره وهو حب الذهب والفضة آتٍ لا محالة، وذلك من أشراط الساعة. والمسلم العاقل هو الذي يزهد قريبًا في شيء يندم عليه بعيدًا، فإذا كان المسلم يندم إذا أخرجت الأرض أفلاذ كبدها من كنوز الذهب والفضة، ورأى هذا المال وزهد الناس فيه، فيندم عند ذلك ويقول: في هذا قطعت يدي، وفي هذا قطعت رحمي إلى غير ذلك من صور الندم، إذا كان الندم هناك على مثل هذه الصورة، فالأولى الآن الزهد في ذلك المال، الذي لا يستحق بحال أن تقطع فيه الرحم واليد.

فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع، فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا))[1].

فيا أيها القاتل! ويا أيها القاطع! ويا أيها السارق! أليس في هذا الحديث أكبر رادع لك، لتنتهي عما أنت فيه من كبائر السطو على الآخرين وترويع الآمنين، وقطع الأقربين.

وإن هذا المال لا يستحق أيضًا أن تزهق فيه الأرواح، لذلك أمر النبي ﷺ من يحضر جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات أن لا يأخذ منه شيئًا، لحفظ دمه الذي هو أكرم من المال مهما كان.

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا))[2].

والزهد في المال، ليس معناه تركه بالكلية، بل معناه زهد القلب فيه ولو كثر بين يديه، وعدم أخذه من طريق حرام[3].

---

(١) أخرجه مسلم ١٠١٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٩٤.

(٣) التوحيد وأثره على العبيد، خميس السعيد محمد ص ٥٥٩، ٥٦٠.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: كثرة عدد النساء في آخر الزمان:

ويتضح هذا من الحديث الثاني: "ويرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء" قال النووي: (ومعنى يلذن به أي ينتمين إليه ليقوم بحوائجهن ويذب عنهن، كقبيلة يبقى من رجالها واحد فقط وبقيت نساؤها، فيلذن بذلك الرجل ليذب عنهن ويقوم بحوائجهن، ولا يطمع فيهن أحد بسببه، وأما سبب قلة الرجال وكثرة النساء، فهو الحروب والقتال الذي يقع في آخر الزمان وتراكم الملاحم)[1]. هذا وقد جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: ((من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد))[2]. قال ابن حجر: (وكثرة النساء سببه أن الفتن تكثر فيكثر القتل في الرجال، لأنهم أهل الحرب دون النساء، والظاهر أن هذا علامة محضة لا لسبب آخر، بل يقدر الله في آخر الزمان أن يقل من يولد من الذكور، ويكثر من يولد من الإناث، وكون كثرة النساء من العلامات مناسبة لظهور الجهل ورفع العلم)[3].

ومما هو معلوم أن كثرة عدد النساء في آخر الزمان، إنما يجعل المرأة أكثر فتنة للرجل، فقد جعل الله فيها من وسائل الإغراء، ووسائل الفتنة ما يأخذ بألباب الرجل، ولذا فالواجب الحذر من فتنة النساء.

(إن المرأة بكل ما وهبها الله تعالى من خصائص وصفات، تستطيع أن تكون مصدر فتنة لكثير من الرجال إذا لم تتق الله عز وجل، بل إن الفتنة بها أشد من غيرها، قال ﷺ: ((ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء))[4].

فالفتنة بالمرأة مرض فتَّاك يفتك بقلب الرجل، كما يفتك السرطان بالبدن، إذا لم يتداركه الله بعفوه وتوفيقه.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٤٣.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٨١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢١٥/١.

(٤) أخرجه البخاري ٥٠٩٦، ومسلم ٢٧٤٠.

وتزداد الفتنة اشتعالاً إذا أضفت المرأة على نفسها شيئًا من التبرج، فحينئذٍ تكون الفتنة أعظم والمحنة أكبر.

ولقد جاء الشارع الحكيم بعدة تدابير للحيلولة دون حدوث الفتنة بالنساء، من أهمها: الأمر بالحجاب، حيث أمر الله تعالى المرأة المسلمة بالحجاب عن الرجال الأجانب حفاظًا عليها وصيانة لكرامتها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

والجلباب هو الرداء فوق الخمار، وهو بمنزلة الإزار اليوم، أو العباءة، والخمار ما يخمر به، أي: يغطى به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقانع.

وهكذا دلّت الآيتان الكريمتان على وجوب الحجاب على المرأة المسلمة عن الرجال الأجانب.

ومن التدابير أيضًا الأمر بالقرار في البيت: إن خير حجاب للمرأة بعد حجاب وجهها وجسمها باللباس هو بيتها، وذلك أن العديد من المخالفات الشرعية النسائية كالاختلاط بالرجال والتبرج والسفور، إنما تتولد عن كثرة خروج النساء من بيوتهن،

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

لذلك سدَّ الإسلام هذه الذريعة بأمر النساء بالقرار في البيت، وعدم الخروج منه لغير حاجة أو مصلحة.

فإذا كانت الخيرية في ترك المرأة للخروج من بيتها للصلاة في المسجد، وهي طاعة وعبادة تتقرب بها المرأة إلى الله عز وجل، فإن تركها للخروج لِمَا دون ذلك من أمور الدنيا أولى.

والتعود على القرار في البيت يحتاج إلى جهاد كبير من المرأة لنفسها، وترويض لها عليه طاعة لله عز وجل، شأنه شأن سائر الطاعات التي يجاهد المسلم نفسه عليها إرضاءً لله عز وجل.

ويحتاج إلى بيئة أسرية صالحة تُعوِّد المرأة منذ طفولتها على ملازمتها للبيت وعدم الخروج منه إلا لحاجة وبالضوابط الشرعية، حتى تنشأ مرتبطة ببيتها ملازمة له، تأبى مفارقته لغير حاجة[1].

---

(١) المنهج الشرعي في مواجهة الفتن، مرفت بنت كامل عبدالله أسره ص ٨١-٨٥ بتصرف.

الحديث رقم (١٨٢٧)

١٨٢٧- وعن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((لَيَأتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنهُ، وَيُرَى الرَّجُلُ الوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

يلذن: ينتمين إليه ليقوم بحوائجهن ويذب عنهن، ولا يطمع فيهن أحد إشارة إلى كثرة النساء وقلة الرجال بسبب كثرة القتال والحروب في آخر الزمان[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من أحاديث التنبؤ بأحداث قيام الساعة، لأن رسول الله ﷺ يقول في حديث قد رواه البخاري بإسناده «عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة: دعوتهما واحدة[3]، ثم يذكر أمارات عدة ومنها، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به».

ويبدأ الحديث بلام التوكيد المشعرة بالقسم، وكذلك بالفعل المضارع المقترن بنون التوكيد الثقيلة، والتقدير، والله ليأتين على الناس زمان.... وهذا التأكيد المقترن بالقسم يفيد حصول هذا الأمر، وكثرة المال، حتى قيل: ليفيض المال حتى لا يجد من ينفقه.

---

(١) برقم ١٠١٢/٥٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٤٣.

(٣) أخرجه البخاري ٨٥، ٣٦٠٨

ولنتأمل موحيات هذا التعبير الذي يصور الرخاء الذي يعم الناس، فالرجل: يطوف بالصدقة من الذهب فلا يجد أحدًا يأخذها منه، وقوله: "يطوف": يصور حرص الرجل وكثرة بحثه وطوافه، وذهابه ومجيئه، وتحديد الصدقة يوحي بأن هذا الأمر محبب إلى الرجل وليس نفاقًا ولا رياءً، ولا رغبة في مديح أو ثناء، وقوله: "من الذهب": يحدد: نوعية النقد المتصدق به، وهو أثمن ما يمتلكه الإنسان، ورغم هذا كله لا يجد هذا الثري محتاجًا يأخذ الصدقة، لأن الذهب أصبح في متناول الجميع، والناس كلهم يملكونه، ولكنهم لا يشكرون ربهم، ولا يحمدونه على هذا العطاء.

ومن مظاهر الاختلال في حركة المجتمع قلة الرجال، وكثرة النساء، وذلك يرجع إلى استشهاد الرجال في الحروب، أو موتهم في الصراعات الدائرة من أجل المكاسب الدنيوية ، حيث تكثر الفتن، ويكثر الهرج، والرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يعتصمن به من أجل حمايتهن، وهذا واقع غير متوازن يوحي باضطراب الحياة، وتفاقم المفاسد، وانتشار الفتن، وتلك أمارات الساعة .

وفي الحديث طباق يؤدي إلى الإحساس بالتناقض وعدم الاستقرار، حيث يتجسد التناقض في الطباق بين قلة وكثرة، والرجال والنساء، والقلة مرتبطة بالرجال، والكثرة مرتبطة بالنساء ؟!!!.

والأفعال المضارعة في الحديث تفصح عن استمرار هذا الواقع غير المتوازن ردحًا من الزمن للاختبار والابتلاء، ثم تقوم الساعة، ومن أماراتها كما يقول رسول الله ﷺ: "وحتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرْج، وهو القتل. والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٨٢٨)

١٨٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: ((اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا، فَوَجَدَ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَشْتَرِ[1] الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قالَ أحَدُهُما: لِي غُلامٌ، وقالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ قال: انْكِحَا[2] الغُلامَ الجَارِيَةَ، وانْفِقَا عَلَى أنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا)) متفق عليه[3].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

عقارًا: العقار: كل ملك ثابت له أصل كالأرض والدار[4].

الجرة: إناءٌ من الفخار[5].

الشرح الأدبي

نقتبس من هذا الحديث هالات الحكمة، وأشعة الأمانة، وباقات الإخلاص، وثمرات التقوى، فالحديث قصة تاريخية وقعت مشاهدها في بني إسرائيل، ويروي الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المشاهد في أسلوب خبري، فيه تسلسل المشاهد والأحداث، وترابط الفكرة، وجمال المقصد، وسمو التوجيه، وهذه القصة سيقت لزرع الأمانة في نفوس الناس، وانتزاع الأطماع من نفوسهم كذلك.

---

(١) عندهما بلفظ: (ولم أبتع منك).

(٢) عندهما بلفظ: (أنكحوا).

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ٣٤٧٢، ومسلم ١٧٢١/٢١.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ق ر).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ج ر ر).

والأفعال الماضية تسيطر على لغة الحديث: لأنها حكاية مضت... ولكنها يمكن أن تتكرر في أي زمن قادم، وعناصر البناء القصصي تصنع هذه المشاهد وتحدث التأثير والتشويق في نفس السامع، فأشخاص القصة هم: البائع والمشتري، والولد والجارية.

والأحداث متداخلة: شراء العقار، ثم العثور على جرة فيها ذهب، بعد البيع، ولكن المفارقة تتم حين يقول المشتري للبائع: خذ ذهبك، فيرفض البائع: لأنه باع الأرض وما فيها، وينشأ بينهما الحجاج، لا من أجل اغتصاب الحق، ولكن من أجل تنازل كل منهما عن حقه، وهذه صورة إيجابية لكل مؤمن في أي عصر.

وتنشأ العقدة القصصية بعد هذا الإشكال: كل يقول: الذهب ليس لي.

وتبدأ لحظة التنوير... وبشائر الحل حين يحتكمان إلى أحد الحكماء، فتحا كما إلى رجل وحكم الرجل بينهما حكمًا يحل العقدة، ويقضي على الشبهة التي نشأت، حيث قال: أنكحا الغلام الجارية، وأنفقا على أنفسهما منه: وتصدقا.

ويتضمن الحديث في صياغته بعض الأساليب التي تكشف عن صدق النية، والرغبة الأكيدة في عدم اقتناء الذهب، ومن ذلك أسلوب القصر في قول المشتري، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أشتر الذهب، ويرد البائع بالأسلوب نفسه وبالطريقة نفسها ليؤكد عدم رجوعه في البيع، وعدم طمعه في الذهب، حيث قال: إنما بعتك الأرض وما فيها، وهكذا تكون أخلاق كل مؤمن في كل عصر، وفي أي زمان، وأي مكان والمسلمون أولى بهذا الخلق الكريم، وذلك السلوك القويم.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: القصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الورع عما فيه شبهة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحكمة في الإصلاح بين الناس.

أولاً – من وسائل الدعوة القصة:

حيث جاء في الحديث "اشترى رجل من رجل عقارًا فوجد الذي اشترى العقار في

عقاره جرة..." والقصة وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، وقد جعل الله سبحانه في القصة العبرة والعظة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1]. ومما لاشك فيه (أن خطاب القصص القرآني جاء للناس على اختلاف أفهامهم وإدراكهم، يخاطب جميع هذه الدرجات المتفاوتة من الناس بكل ما يتفق مع الإنسان من طبائع حيث جاء موافقًا للفطرة البشرية وطبيعة الإنسان، حيث يعلم أنه جاء للقوي والضعيف، وللغني والفقير)[2]. هذا ولقد اتخذ القرآن الكريم من وسيلة القصة سبيلاً لنشر الدعوة الإسلامية، وبيان العبر والعظات منها، وعلى الدعاة إلى الله أن يتخذوا من القصص الصحيح وسيلة لتوجيه الناس إلى الخير.

ولا يليق بالداعية أن يتخذ من القصة وسيلة لوعظ الناس، بدون تحديد هدف من موعظته أو قصته التي يسوقها للناس.

(لا يكن كل همك أيها الداعية أن تتظرف بالنكت اللبقة، والفكاهات البارعة، ليقول الناس إنك مجدد في الوعظ، وعند هذا تنتهي مهمتك، ولا يكن همك أن تسلّي الجمهور، وتقضي معه ساعة في حديث لا يرمي إلى هدف... لا تكن كذلك الذي يقبل على الناس في حذر وخفة. فلا يمسهم إلا مسًا رقيقًا كأنما يخشى عليهم أن يتكسروا، فيسوق لهم من قصص التاريخ، وحكايات السابقين وأسباب نزول آيات القرآن الكريم، ما لا صلة لبعضه ببعض، وما لا يؤلف بمجموعه موضوعًا ذا غرض معين، وهدف مقصود ... لا يريد بما يسوق إلا أن يجلس الناس من حوله، فيستمعوا له ثم يخرجوا، وقد أسعدهم بوقت قضاه معهم في مؤانسة، ومتعة عاطفية بريئة... هذا وعظ سلبي لا شأن لك به، ولا مقام له في رسالتنا. إن رسالتك تقتضيك أن تدخل على مشاعر جمهورك في حكمة، فتحرك وجدانهم، وتستثير عواطفهم إلى الله، فإذا تأتى لك ذلك ولانت نفوسهم لقولك، فاصنع منهم ما تشاء صنعه، أبنْ لهم عن غرضك،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي، ١٩٠.

وابعث بآمال قلوبهم إلى ما تحب أن يصلوا إليه، فإنهم مستجيبون لك إن شاء الله)[١].

ثانيًا – من موضوعات الدعوة: أهمية الورع عما فيه شبهة:

حيث جاء في الحديث "قال الذي اشترى العقار خذ ذهبك إنما اشتريت منك الارض ولم أشتر الذهب وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها" وهذا يدل على أهمية الورع عما فيه شبهة. قال الكفوي: (والورع الاجتناب عن الشبهات، سواء كان تحصيلاً أو غير تحصيل؛ إذ قد يفعل المرء فعلاً تورعًا، وقد يتركه تورعًا أيضًا، ويستعمل بمعنى التقوى، وهو الكف عن المحرمات القطعية)[٢].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (ويكون الورع عند الاشتباه في حكم الشيء من حل أو حرمة، إما لخفاء الدليل الشرعي، أو عند تعارض الأدلة وتكافئها، وإما للشك في وجود السبب المحرم أو المحلل، وإما للخروج عن الخلاف)[٣]. ومن صور الورع عن الشبهات ما جاء عن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ ((إِنِّي لأَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَىٰ فِرَاشِي. ثُمَّ أَرْفَعُهَا لآكُلَهَا. ثُمَّ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً. فَأُلْقِيهَا))[٤]. وقال ابن مفلح: (قال إبراهيم النخعي: إنما أهلك الناسَ فضولُ الكلام وفضولُ المال، وقال الشافعي: زينة العلم الورع والحلم)[٥].

وقال ابن قدامة: (اعلم أن الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكنه يقول: هذا حار في الدرجة الأولى، وهذا في الدرجة الثانية، وهذا في الثالثة، وهذا في الرابعة. مثال ذلك في الحرام المأخوذ بعقد فاسد، حرام، ولكنه ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه إيذاء

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي ص ٣٩.

(٢) الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ٩٤٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٠٦/٤٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٣٢، ومسلم واللفظ له ١٠٧٠.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢٧٠/٣.

الغير، وترك طريق الشرع في الاكتساب، وليس في العقود الفاسدة إلا ترك طريق التعبد فقط، وكذلك المأخوذ ظلمًا من فقير أو صالح أو يتيم، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق.

والورع له درجات أربع:

الدرجة الأولى: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى تحريمه، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب.

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالى، وهو ورع الصديقين.

والتحقيق فيه أن الورع له أول غاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديدًا، كان أسرع جوازًا على الصراط، وأخف ظهرًا، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب درجات الحرام. فإن شئت فزد في الاحتياط، وإن شئت فترخص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص[1].

والإنسان لا يتورع عن الحرام طالما في داخل نفسه طمع وشره، وليست لديه عفة وقناعة بما رزقه الله، فهو يرغب في كسب المال بكل سبيل.

قال الماوردي: (ومن شواهد الفضل ودلائل الكرم النزاهة عن المطامع الدنية، فلأن الطمع ذل، والدناءة لؤم، وهما أدفع شيء للمروءة.

وقال بعض الشعراء:

لا تخضَعَنَّ لمخلوق على طَمعٍ ... فإن ذلك نقصٌ منكَ في الدِّينِ

واسترْزِق الله مما في خَزائنه ... فإنما هو بين الكاف والنونِ

والباعث على ذلك شيئان: الشَّرَه، وقلة الأنفة، فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيرًا،

(١) مختصر منهاج القاصدين ٩٥، ٩٦.

لأجل شرهه، ولا يستنكف مما مُنِع وإن كان حقيرًا، لقلة أنفته. وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدرًا، ويرى المال أعظم خطرًا، فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مَغنمًا، وليس لمن كان المال عنده أجلّ، ونفسه عليه أقل، إصغاء لتأنيب، ولا قبول لتأديب.

وقال بعض الشعراء:

ومن كانت الدنيا مُناهُ وهمَّهُ سَبَتْهُ المَنى واستعبدتْه المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان: اليأس، والقناعة[1].

وجاء في موسوعة فقه القلوب: (وأما فقه الورع فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: ((الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهاتٌ لا يعلمها كثيرٌ من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، الا وإن لكل ملك حمى، الا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))[3].

الورع: ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، من كل ما يخاف ضرره في الآخرة.

والورع على وجهين:

ورع في الظاهر ... وورع في الباطن.

فورع الظاهر أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن أن لا تُدخل قلبك سواه.

والورع أول الزهد، بأن يتورع عن كل ما سوى الله، ويتوقى الحرام والشبه وما يخاف ضرره، حذرًا وخوفًا من ربه.

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣١٤.

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

والورع على ثلاث درجات:

الأولى: تجنب القبائح، وذلك بصون النفس وحفظها وحمايتها عما يشينها، ويزري بها عند الله عز وجل، وعند ملائكته وعباده المؤمنين وسائر خلقه.

ومن كرمت عليه نفسه صانها وحماها عن الرذائل والقبائح، ومن هانت عليه نفسه، ألقاها في الرذائل، وأطلق زمامها في القبائح.

وكذلك يوفر زمانه على اكتساب الحسنات، فإذا اشتغل بالقبائح، نقصت عليه الحسنات التي كان مستعدًا لتحصيلها)[١].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الحكمة في الإصلاح بين الناس:

حيث جاء في الحديث "قال أنكحا الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه وتصدقا" وفي هذا إشارة إلى ضرورة الحكمة في الإصلاح بين الناس، وقد بين الله في القرآن أن الحكمة فيها خير كثير، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾[٢] والحكمة مما يغتبط به فعن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((لا حسَدَ إلاّ في اثنَتينِ: رجُلٍ آتاهُ اللّهُ مالاً فسلَّطهُ على هَلَكتهِ في الحقّ، ورجُلٍ آتاهُ اللّهُ حِكْمَةً فهو يَقضِي بها ويُعلِّمها))[٣].

وجاء في موسوعة نضرة النعيم: (عن السكن بن عمير قال: سمعت وهب بن منبه يقول: يا بني عليك بالحكمة، فإن الخير في الحكمة كلها، وتشرف الصغير على الكبير، والعبد على الحر، وتزيد السيد سؤددًا، وتجلس الفقير مجالس الملوك. وعن مطر الوراق قال: بلغنا أن الحكمة خشية الله والعلم بالله)[٤].

ومن أبرز صور ومظاهر الحكمة في الإصلاح بين الناس، ما حدث من النبي ﷺ

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ص ٢٠٧٢/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.

(٣) أخرجه البخاري ٧١٤١، ومسلم ٨١٦.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ١٧٠٣/٥.

عندما اختلفت قريش في وضع الحجر في مكانه، حتى كادت أن تقتتل فيما بينها لولا حكمة النبي ﷺ في نزع فتيل الخلاف، وقطع دابر الخصومة.

قال الدكتور البوطي: (وفي هذا الحدث يتبين مدى حكمة النبي ﷺ في تدبير الأمور، وسياسة القضايا، وقطع دابر الخصومات بين أقوام، وصل بهم الخلاف إلى درجة كاد أن ينشب فيما بينهم القتال، فقد قربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ)[1].

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد بن عيد رمضان البوطي ٩٠.

الحديث رقم (١٨٢٩)

١٨٢٩- وعنهُ رضي الله عنه : أنَّه سمعَ رسُول الله ﷺ يقولُ: ((كانت امْرَأتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بابْنِ إحْدَاهُمَا. فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إنَّمَا ذَهَبَ بابْنِكِ، وقالتِ الأخرَى: إنَّمَا ذَهَبَ بابْنِكِ، فَتَحَاكَمَا إلى دَاوُدَ ﷺ فقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُد ﷺ فأَخْبَرَتَاهُ. فقالَ: ائْتُونِي بالسِّكِّينِ أشُقُّهُ بَيْنَهُمَا. فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لاَ تَفْعَلْ! رَحِمَكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا. فَقَضَى بِهِ للصُّغْرَى)) متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذه القصة التاريخية وقعت أحداثها في زمن بني إسرائيل، ولذلك بدأ الرسول ﷺ الحديث بقوله: "كانت امرأتان"، ولم يحدد اسم المرأتين، لأن العبرة بعموم الموعظة والمغزى الخلقي في القصة، وقيل دلت هذه القصة على أن الفطنة والفهم موهبة من الله تعالى لا تتعلق بكبر سن ولا صغر، فسليمان بن داود حكم بالصواب، وقيل: فيه جواز حكم الأنبياء بالاجتهاد.

والقصة في الحديث النبوي قد تعتمد على عنصر الغموض والمفاجأة، أو إثارة الانفعالات، أو عنصر التدرج والانفراج، وعنصر التدرج يبدو في القصة النبوية في الانتقال بالأحداث في سياق القصة من مستوى إلى مستوى وفق مراحل، ومن خلال تسلسل معين، بحيث لا يأتي الوصول للأزمة، أو انفراجها دفعة واحدة، وإنما يتم ذلك من خلال تدرج صاعد نحو التأزيم، أو تدرج هابط نحو الانفراج.

وهذه القصة من القصص التي يتدرج السياق فيها نحو التأزيم، ثم يأتي الانفراج في آخر لحظة بعد أن تصل الأزمة إلى ذروتها، فالقصة تبدأ بذهاب الذئب بابن إحدى

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ٣٤٢٧، ومسلم ١٧٢٠/٢٠.

المرأتين: أي أكله والتهامه، وهي مشكلة تبدو منذ الوهلة الأولى في سياق القصة وتأخذ في التأزم حين تدعي كل واحدة من المرأتين بأن الابن الباقي هو ابنها، ويتفاقم الأمر بينهما إلى حد الترافع إلى الحاكم، فالمشكلة تتعقد وتتطور وهي حول قضية بالغة الأهمية: ادعاء بنوة[1]، ويحكم داود عليه السلام للكبرى، ويقول القرطبي: "إن قضاء داود به لها، لسبب اقتضى ترجيح قولها عنده، إذ لا بينة لإحداهما.

ولكن الصغرى وهي الأم الحقيقية لم تقتنع بالحكم، وتبدأ العقدة في الحل، والأزمة تبدو بوادر انفراجها، ولكن تصل مشكلة الصغرى منهن إلى ذروتها حين تحاكما إلى سليمان، ففطن سليمان لأمر مثير يكشف الحقيقة، ويظهر الزيف والكذب، فقال: ائتوني بسكين: أشقه بينهما، وتفزع الصغرى، وتدفعها عاطفة الأمومة إلى الإقرار بأن الولد للكبرى حماية له من الشق والموت، وهنا تنكشف الحقيقة للقاضي العادل الحكيم سليمان: حين رأى عاطفة الصغرى وحزنها وخوفها على الابن، وقرأ ذلك في ملامح وجهها، ونبضات قلبها، وتهدجات صوتها، وشرود عينيها: فقضى بالولد للصغرى، وهنا تنبثق لحظة الانفراج بعد لحظات التأزيم المعقدة، وهذا من أسرار البيان النبوي البليغ، الذي يتكئ في كثير من نماذجه على العنصر القصصي الهادف المقنع المؤثر.

المضامين الدعوية

أولاً: من أصناف المدعوين: النساء.

ثانيًا: من صفات الداعية: الفطنة والذكاء.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحكم بين الناس بالعدل.

أولاً- من أصناف المدعوين: النساء:

حيث جاء في الحديث "بينما امرأتان معهما ابناهما..." والنساء من أصناف المدعوين وهن يدخلن مع الرجال في غالب خطاب القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد جاء

---

(١) انظر: القصص في الحديث النبوي، دراسة فنية وموضوعية، د. محمد بن حسن الزير.

الخطاب خاصًا بهن في بعض المواضع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[2] وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾[3] وجاء إشراكهن في الحكم مع الرجال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾[4]. والإسلام اهتم بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال (إن الدعاة إلى الله مطالبون بالتوقف عند بعض الصفات التي تتصف بها المرأة، كي يقوموا بواجبهم تجاهها خير قيام، ومن ذلك أنها كائن تغلب عليه العاطفة والرقة، وتحب المداراة والمدح، وأنها كائن صاحب عطاء إذا تم استيعابه، وهي كائن كالرجل قادر على الإيذاء والمكر، إذا وقف تجاهها موقفًا سلبيًا)[5].

ثانيًا- من صفات الداعية: الفطنة والذكاء:

حيث جاء في الحديث "ائتوني بالسكين أشقه بينكما..." قال الإمام ابن حجر: (ودلت هذه القصة على أن الفطنة والفهم موهبة من الله لا تتعلق بكبر سن ولا صغره، وفيه أن الحق في جهة واحدة، وفيه استعمال الحيل في الأحكام لاستخراج الحقوق، ولا يتأتى ذلك إلا بمزيد الفطنة وممارسة الأحوال)[6]. والداعية أحوج ما يكون إلى الفطنة

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٥) فقه الدعوة، د. بسام العموش ٧٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٥٣٦.

والذكاء في التعامل مع المدعوين. جاء في موسوعة نضرة النعيم: (قال الأبشيهي قد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل، وزيادة معرفة، تخرجه عن حد الاكتساب، ويصير بها راجحًا على ذوي التجارب والآداب، ويستدل على رجاحة عقل الرجل بأمور متعددة، منها: ميله إلى محاسن الأخلاق، وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه عارًا ويورثه سوء السمعة)[1].

ومما يدل على أهمية الفطنة والذكاء للداعية الناجح، أن من أهم صفات الرسل الفطانة، لأنهم المبلغون لوحي الله، المدافعون عن شريعته، المحاورون للخصوم والأعداء. قال حبنكة الميداني: (إن حمل رسالة علمية، ومهمة تربوية للناس، وقيادة سياسية، لا بد أن يرافقها في حاملها صفة الاستعداد لحمل هذه الرسالة، وذلك لأن الحكمة العليا تقتضي ذلك.

والصفة التي تمثل الاستعداد لحمل رسالة علمية، ومهمة تربوية، وقيادة سياسية، لمجموعة من البشر، إنما هي صفة "الفطانة". فبها يعرف الرسول ما يلقى إليه من الوحي، وبها يستطيع أن يحفظه ولا ينساه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يبلغه كما أوحي به إليه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يعالج أمته بالتربية الحكيمة، والقيادة السليمة، وفق طبائعهم وأخلاقهم.

لذلك فلا يصطفي الله لرسالته إلا من يتمتع بصفة الفطانة التامة، والعقل الراجح.

ويشهد لفطانة الرسل عليهم السلام آيات كثيرة من القرآن الكريم.

ومما يدل على فطانة نبينا محمد ﷺ، قوله تعالى يخاطبه في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[2]. وقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[3].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣١٣٥/٨.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٣) سورة طه، آية: ١١٤.

فتحريك الرسول لسانه بالقرآن لحفظه عند نزول الوحي من فطانته وذكائه؛ وكذلك تعجله بترديد آياته من قبل أن يقضى إليه وحيه من كمال فطانته وذكائه.

وقوله تعالى أيضًا: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[١]. فشهادة الله له بأنه لا ينسى تثبت فطانته. كما يشهد لفطانته أمر الله له بمجادلة القوم بالتي هي أحسن، وذلك في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢]. والمجادل يحتاج إلى نباهة زائدة، وفطانة كبيرة، حتى يستطيع بها أن يعرف مجادليه بالحق، ويقبض في جدالهم على مغامز الشبهات منهم، ثم يقنعهم بأقرب طريق، وألين حوار[٣].

وقال د. عمر سليمان الأشقر: (إن الأنبياء أعطوا العقول الراجحة، والذكاء الفذ، واللسان المبين، والبديهة الحاضرة، وغير ذلك من المواهب والقدرات التي لابدَّ منها لتحمل الرسالة، ثم إبلاغها ومتابعة الذين تقبلوها بالتوجيه والتربية.

لقد كان الرسول ﷺ يحفظ ما يلقى إليه ولا ينسى من كلمه شيئًا: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[٤].

وكان رسل الله عليهم الصلاة والسلام يعرضون دين الله للمعارضين، ويفحمونهم في معرض الحجاج، وفي هذا المجال أسكت إبراهيم خصمه: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥]. وقال الله معقبًا على محاججة إبراهيم لقومه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾[٦].

وموسى كان يجيب فرعون على البديهة حتى انقطع، فانتقل إلى التهديد بالقوة:

---

(١) سورة الأعلى، آية: ٦.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٥.

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها ٣٧٩، ٣٨٠.

(٤) سورة الأعلى، آية: ٦.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٨٣.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[1])[2].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحكم بين الناس بالعدل:

حيث جاء في الحديث "... فقضى به للصغرى" وهذا يدل على ضرورة الحكم بين الناس بالعدل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4]، قال النسفي: (والمراد أن الله يأمركم بالتسوية في الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه)[5]. وقال الماوردي: (إن مما تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل، الذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان، وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق، من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل)[6].

قال السيد سابق: (يحرص الإسلام أشد الحرص على المحافظة على حقوق الناس ودمائهم وأعراضهم وأموالهم، كما يعنى أشد العناية بصيانة حرياتهم وكراماتهم، ويتخذ لذلك جميع الوسائل التي تحفظ هذه الحقوق وتصونها، ومن هذه الوسائل إقامة

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٣-٢٩.

(٢) الرسل والرسالات ٨٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٦٠٦.

(٦) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ١٤١.

الحق والعدل بين الناس، ذلك أن إقامة الحق والعدل، هي التي تشيع الطمأنينة، وتنشر الأمن، وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوي الثقة بين الحاكم والمحكوم، وتنمي الثروة، وتزيد في الرخاء، وتدعم الأوضاع، فلا تتعرض لخلخلة أو اضطراب، ويمضي كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته في العمل والإنتاج وخدمة البلاد، دون أن يقف في طريقه ما يعطل نشاطه، أو يعوقه عن النهوض، وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية داعية إلى العدل، ومحذرة من الظلم ومحرمة له، والله سبحانه وتعالى من أسمائه العدل، وما أنزل كتبه ولا أرسل رسله، ولا كلف الناس بالشرائع، إلا لأجل إقامة الحق والعدل)[1].

قال د. أكرم ضياء العمري: (لم تكن الأوامر الإلهية، والتوجيهات النبوية بالتزام العدل المطلق في الحكم بين الناس مجرد نظرية، بل إنها منذ عصر الرسالة أخذت أبعادها في الحياة العملية سواء في دائرة القضاء أو الحكومة أو العلاقات الدولية، وفي نطاق حياة الأفراد والجماعات والدول، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾[2] وقال ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا))[3]. والظلم هو وضع الأشياء في غير مواضعها، وهو ضد العدل الذي جاء به الإسلام وحث عليه نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام. ومن الظلم ظلم العبد لنفسه، وذلك بالإشراك بالله وارتكاب المعاصي، وفي القرآن: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4] فإن المشرك يجعل المخلوق في منزلة الخالق فيعبده ويتخذه إلهًا، ومرتكب المعاصي يسخر حواسه -المخلوقة لطاعة الله وعبادته- في غير ما خلقت له، فيستحق بذلك وصف الظالم لنفسه، قال عبدالله بن مسعود: لما نزلت:

---

(١) عناصر القوة في الإسلام ١٤٧.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

(٤) سورة لقمان، آية: ١٣.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[١] قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾[٢]. قال الخطابي: (إنما قالت الصحابة هذا القول، لأنهم اقتضوا من الظلم ظاهره، الذي هو الافتيات بحقوق الناس، أو الظلم الذي ظلموا به أنفسهم من ركوب معصية أو إتيان محرم، كقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾[٣]، وذلك حق الظاهر فيما كان يصلح له هذا الاسم، ويحتمله المعنى عندهم، ولم تكن الآية نزلت بتسمية الشرك ظلمًا، وكان الشرك عندهم أعظم من أن يلقب بهذا الاسم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزل قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾، فسمى الشرك ظلمًا، وعظم أمره في الكذب والافتراء على الله عز وجل، وذلك أن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أشرك بالله وجعل الربوبية مستحقة لغيره، أو عدل به شيئًا، واتخذ معه ندًا، فقد أتى بأعظم الظلم، ووضع الشيء في غير موضعه ومستقره).

ومن الظلم ظلم الإنسان لغيره، وقد وضح الرسول ﷺ حرمة ذلك في خطبته في حجة الوداع بقوله: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا))[٤].

إن إقرار العدل وتحريم الظلم، كفيل بحلول الأمن في المجتمع، مما يحقق الرخاء والسعادة للإنسان.

ومن أجل الحفاظ على حق الحياة للأفراد والجماعات، شرع الله تعالى القصاص لذلك، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٥]. وقد أدى

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٢.
(٢) أخرجه البخاري ٣٢.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.
(٤) أخرجه البخاري ١٧٣٩، ومسلم ١٦٧٩.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

تطبيق الحدود الإسلامية في القرون الأولى إلى تحقيق الأمن وتقليص الجريمة، فالعقوبة الرادعة والتوجيه الراشد تعاونا على تحصين المجتمع من الجرائم، بإزالة البواعث على الجريمة وسيادة الشريعة وتطبيق الحدود، وتوجيه المجتمع نحو عبادة الله وطاعته، وإقرار التكافل الاجتماعي بين الناس، والحث على العمل وطلب الرزق الحلال، والحرص على نظافة العلاقات الاجتماعية، بالحث على الزواج وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحقيق تكافؤ الفرص في السعي لطلب الرزق أو تحقيق الذات، وما تصبو إليه من مطامح مشروعة، وضمان الحريات العامة التي تحقق كرامة الإنسان ورفعته، وضمان حدود الاكتفاء الدنيا لكل إنسان في المأكل والملبس والمسكن والتنقل، فإذا حقق المجتمع الإسلامي ذلك، فإنه يقضي على دوافع الجريمة، إلا بالنسبة للمنحرفين الشاذين، فإنه قد لا يفلح معهم التوجيه والضمان والتطمين الاجتماعي والاقتصادي، فهؤلاء لا تردعهم إلا العقوبة اللائقة، والقصاص المناسب: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وقد تطول الحياة بالظالم، ولا ينال القصاص العاجل، ولا يحل به غضب الله وعقوبته سريعًا، ولكن مآله إلى ذلك حتمًا، كما في الحديث الشريف: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[2]))[3]، وأما في الآخرة فقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إن الظلم ظلمات يوم القيامة))[4])[5].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٨.

(٢) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ٤٦٨٦، ومسلم ٢٥٨٣.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٩ واللفظ له.

(٥) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام ٢٦٤-٢٦٦.

الحديث رقم (١٨٣٠)

١٨٣٠ - وعن مِرداس الأسلمي رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: ((يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أو التَّمْرِ لاَ يُبَالِيهِمُ اللهُ بَالَةً)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

مرداس الأسلمي: هو مرداس بن مالك الأسلمي، شارك في المغازي وجاهد في سبيل الله، فقد شهد بيعة الرضوان، وكان من الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة.

نزل الكوفة، وهو من الصحابة الذين لهم حديث واحد، وهو الحديث المشروح[2].

غريب الألفاظ:

الحثالة: الردئ من كل شيء[3].

لا يباليهم الله بَالةً: لا يرفع لهم قدرًا ولا يقيم لهم وزنًا[4].

الشرح الأدبي

حين نتأمل أسرار الجمال التعبيري والتصويري في هذا الحديث، نجد المبنى متسقًا مع المعنى، فالجملة الأولى فعليه، وفعلها مضارع، وهي في إطار الأسلوب الخبري.

وصيغة المضارع تفيد الاستمرار، والمعنى أن الصالحين يذهبون، وأن خيار الناس

---

(١) برقم ٦٤٣٤.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٨٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ١٣٦/٥، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٢٢٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٦٧/٧، والتهذيب ٤٧/٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ث ل).

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٧/١١.

يعجل بهم، وهذا واقع مشاهد، وقوله: الأول فالأول.. يفصح عن تكرار هذا الواقع.. واللفظان في محل الحال: بالنصب على تأويل مترتبين، والفاء تفيد التتابع، ومعنى: "يذهب الصالحون"، أي: تفيض أرواحهم، وهؤلاء الصالحون مثل النبات المثمر، والشجر المبارك، وحينما تذهب الثمار اليانعة، وتتهاوى الأشجار الباسقة، لا تبقى إلا الثمار المعطوبة.

والصورة في القسم الثاني من الحديث ترصد طبيعة هؤلاء الباقين، وهم الطالحون الذين لا نفع لهم في الحياة.

ومصدر الصورة هو عالم النبات، ولكن الطبيعة النباتية هنا أقرب إلى الطبيعة النامية التي هي من صفات النبات والحيوان، والحثالة هي البقية الرديئة من كل شيء، والنفاية من الحب والثمر وغيره، وتشبع الصورة تقبيح المتبقين بأن المذكور ليس الشعير النافع الجيد، بل حثالة الشعير التي لا تنفع، وربما دل منظرها على تقزيز وتنفير، إن عبثت به شفاه الحمار، أو يد الإنسان، وهكذا اقترن القبح بعدم النفع، كما يقترن الجمال بالنفع في المفهوم الإسلامي[1]، ومما يزيد من تحقير هذه الصورة قول رسول الله ﷺ في شأن هذه الطائفة التي شبهها بحثالة الشعير أو التمر، "لا يباليهم الله بالة"، والمعنى: أن الله لا يرفع لهم قدرًا، ولا يقيم لهم وزنًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ بموت الصالحين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من أشراط الساعة موت الصالحين وبقاء من لا يعبأ الله بهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستقامة على أمر الله.

أولاً - من دلائل النبوة: إخبار النبي ﷺ بموت الصالحين:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "يذهب الصالحون الأول فالأول... إلخ".

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد ياروف ص ٢٣٢، ٢٣٣.

قال ابن حجر نقلاً عن ابن بطال: (وذلك من الغيب الذي لا يعلم بالرأي، إنما يعلم بالوحي)[١].

وقد استثنى الحق تبارك وتعالى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[٣] فتلخص من ذلك، أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالغيبات، فبوحي من الله تعالى، وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته)[٤]، وهذا ما ورد في الحديث من إخباره ﷺ بموت الصالحين الأول فالأول، وبقاء من لا يبالي الله بهم.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من أشراط الساعة موت الصالحين وبقاء من لا يعبأ الله بهم:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ: "يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله بالةً".

قال ابن حجر: "قال ابن بطال: في الحديث أن موت الصالحين من أشراط الساعة...، وفيه أنه يجوز انقراض أهل الخير في آخر الزمان، حتى لا يبقى إلا أهل الشر"[٥]، وقوله ﷺ: "يذهب الصالحون الأول فالأول"، (أي: تقبض أرواحهم، وقوله ﷺ: "ويبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر"، قال الخطابي: "الحثالة بالفاء

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣/١٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٣) سورة الجن، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٤٢/١-٥٤٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٥٧/١١.

وبالمثلثة الرديء من كل شيء، وقيل: آخر ما يبقى من الشعير والتمر وأرداه، وقال ابن التين: الحثالة سقط الناس، وأصلها ما يتساقط من قشور التمر والشعير وغيرهما، قال الداودي: ما يسقط من الشعير عند الغربلة، ويبقى من التمر بعد الأكل، وقوله ﷺ: "لا يباليهم الله بالةً"، أي لا يرفع لهم قدرًا ولا يقيم لهم وزنًا)[1].

وقال ابن عثيمين: (أي: لا يبالي بهم ولا يرحمهم ولا ينزل عليهم الرحمة، فالصالحون يذهبون الأول فالأول)[2].

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستقامة على أمر الله

هذا ما يستفاد من نص الحديث، قال ابن حجر نقلاً عن ابن بطال: (وفيه الندب إلى الاقتداء بأهل الخير، والتحذير من مخالفتهم، خشية أن يصير من خالفهم ممن لا يعبأ الله به)[3].

وقال ابن عثيمين: (يجب الحذر من أن يكون الإنسان من الحثالة التي كحثالة الشعير أو التمر، وأن يحرص على أن يستقيم على أمر الله)[4]، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالاستقامة على أمره فقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]، وقد رغب الحق تبارك وتعالى في الاستقامة فقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[6].

قال ابن كثير: : "قال العوفي عن ابن عباس يعني بالاستقامة: الطاعة، وقوله تعالى: (لأسقيناهم ماء غدقًا) أي: كثيرًا، والمراد بذلك سعة الرزق"[7].

---

(١) المرجع السابق ١١/٢٥٦ -٢٥٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٦٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٢٥٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٦٦.

(٥) سورة هود، آية: ١١٢.

(٦) سورة الجن، آية: ١٦.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٢٤٢ - ٢٤٣.

وقال ابن القيم: : "فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين؛ وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله"[1].

(والمطلوب من العبد الاستقامة؛ وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ قال: ((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْتَ؟ قَالَ: ((وَلاَ أَنَا. إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ))[2]، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة، وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال)[3].

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩، ٥٦٧٣، ومسلم ٢٨١٦.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣٢٨.

الحديث رقم (١٨٣١)

١٨٣١- وعن رفاعة بن رافع الزُّرَقِيِّ رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: مَا تَعُدُّونَ أهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قال: ((مِنْ أفْضَلِ المُسْلِمِينَ)) أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا. قال: وَكَذلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلائِكَةِ. رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

رفاعة بن رافع الزُّرقي: هو رفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري، أمه أم مالك بنت أبي بن سلول، شهد بدرًا، وأُحُدًا، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شهد مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الجمل وصفين، وقال رضي الله عنه في نصرته له (إن الله لما قبض رسوله صلى الله عليه وسلم ظننَّا أنَّا أحق الناس بهذا الأمر، لنصرتنا الرسول، ومكاننا من الدين، فقلتم: نحن المهاجرون الأولون، وأولياء رسول الله الأقربون، وإنا نذكركم الله أن تنازعونا مقامَه في النّاس، فخليناكم والأمر، فأنتم أعلم، وما كان بينكم، وغير أنا رأينا الحق معمولاً به، والكتاب متَّبعًا، والسنَّة قائمة، رضينا، ولم يكن لنا إلا ذلك، فلما رأينا الأثرة أنكرنا لرضا الله عز وجل، ثم بايعناك ولم نألُ، وقد خالفك من أنت في أنفسنا خير منه وأرضى، فمُرْنا بأمرك.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم جُلَّة أحاديث بلغت ٢٤ حديثًا.

وتوفي في أول إمارة معاوية رضي الله عنه سنة ٤١هـ، وقيل ٤٢هـ[٢].

غريب الألفاظ:

أهل بدر: هم الذين شهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة بدر[٣].

---

(١) برقم (٣٩٩٢).

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥٩٦/٣-٥٩٧، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٤١٥، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٢٣٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢٧٩/٢-٢٨١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٤٨٦/٢، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٦٠٨/١-٦٠٩، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢٩/٣.

(٣) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٦٥.

الشرح الأدبي

ما أجمل هذا الحوار! وما أعظمه، وكيف لا يكون جليلاً، ولا يكون عظيمًا.. وهو بين ملك الوحي: جبريل عليه السلام وخاتم الأنبياء محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، إن الكلمات هنا تشع بالبهاء والجلال، وتتضوء بالجمال والكمال، وتبدأ المحاورة بسؤال من جبريل: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ والسؤال هنا ليس ناشئًا عن جهل، فذلك في حق جبريل محال، ولكنه لتقرير الكمال، وتأكيد الفضل لمن هم القدوة والمثال، ويجيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بما هم أهله من الفضل والتكريم فيقول: من أفضل المسلمين.

ويؤيد جبريل عليه السلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول: وكذلك أي ومثل ذلك الفضل: الملائكة التي شهدت بدرًا، وفي هذا تأكيد لأفضلية أهل بدر، وتعظيم شأنهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1].

وما أصدق هذا الدعاء، وذلك الابتهال والرسول صلى الله عليه وسلم يناجي ربه ويدعوه أن يحفظ هذه الجماعة المؤمنة أهل بدر، ويستجيب الله له إكرامًا لنبيه، ونصرة لدين الإسلام، وإعزازًا لهؤلاء المؤمنين ومن بعدهم .

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة بدر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: عظم فضل ومكانة أهل بدر.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: شهود الملائكة غزوة بدر.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة بدر:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قول الراوي "جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١٢.

تعدون أهل بدر فيكم؟ ... إلخ" (وغزوة بدر هي الغزوة والمعركة الفاصلة الأولى في تاريخ الإسلام، وهي أول مراحل الكفاح الجدي الدامي الذي خاضه الإسلام ضد الشرك)[١]، (فأعز الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك وخرب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فَرَسان وسبعون بعيرًا، والباقون مُشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ مابين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائدة، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيّض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان، من سنة سنتين من الهجرة، ولهذا قال تعالى ممتنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٢] أي قليل عددكم، ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعُدد)[٣].

ولم يقصد النبي ﷺ في خروجه بادئ الأمر بجيش المسلمين إلا عير قريش، قال ابن إسحاق: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم وقال (هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله ينفلكموها)[٤] وذلك لقاء ما تركوا من أموالهم في مكة، فخف بعضهم لذلك وتثاقل آخرون، فعن عبدالله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يقول: ((لم أتخلَّفْ عن رسولِ الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلاّ في غزوةِ تَبوكَ، غيرَ أني تَخلَّفتُ عن غزوةِ بَدرٍ ولم يُعاتَبْ أحدٌ تخلَّفَ عنها، إنما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ يُريد عِيرَ قريشٍ، حتى جمعَ اللهُ بينهم وبينَ عَدُوِّهم على غير مِيعاد))[٥].

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، ٧٧/١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١١١/٢.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٥٦/٥.

(٥) أخرجه البخاري ٣٩٥١، ومسلم ٢٧٦٩.

(فالتقى الظلام بالنور، والكفر بالإيمان، والباطل بالحق، والتقت الجاهلية بالإسلام، فجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا)[1].

قال د. محمود شيت خطاب: (ولست أعرف معركة حاسمة من معارك الحرب الحاسمة، كيوم بدر، انتصرت فيه العقيدة السليمة على العقيدة الفاسدة...، بعد أن بدل الإسلام العقول والنفوس من حال إلى حال، وكيف لا!! وقد كان النبي ﷺ هو القدوة والأسوة لأصحابه بأعماله لا بأقواله، فكان ﷺ مثالاً شخصيًا رائعًا لأصحابه في التضحية والفداء[2]. وفي المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة! خالفت بينهم المبادئ، ففصلت بينهم السيوف! وفي يوم بدر تسابق المسلمون إلى الشهادة، وكان كل واحد منهم يتمنى أن يموت قبل صاحبه، وكان كل واحد من المشركين يتمنى أن يموت صاحبه قبله، وكان الشهيد يردد وهو يحتضر: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[3].

هكذا كان جنود الرسول القائد عليه الصلاة والسلام يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، ويؤثرون عقيدتهم على آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم وأموالهم، بل يؤثرون عقيدتهم على أنفسهم، فيتسابقون إلى الشهادة، فيقول أحدهم للآخر: "هنيئًا لك الشهادة"، وتقول الأمهات والأخوات والزوجات حين يعلمن باستشهاد ذويهن: "الحمد لله الذي أكرمهم بالشهادة".

وهؤلاء قادةً وجنودًا، يبنون للمستقبل، فيعتبرون العلم فريضة لا نافلة، ويعتبرونه عبادة لا تجارة، ويعتبرونه غاية لا وسيلة!

كانوا إخوة في الله يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، وكانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وكانوا كالجسد السليم المعافى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى!

---

(١) مقدمة موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، بقلم محمود شيت خطاب.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٦١٣/١، والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٦٦/١.

(٣) سورة طه، آية: ٨٤.

هؤلاء قادة وجنودًا، كانوا يبنون ولا يهدمون، ويعمرون ولا يخربون، ويفعلون ولا يقولون.

كان انتصار المسلمين في بدر، إيذانًا بمولد دولة الإسلام عمليًا، فقاد المسلمون بعدها العالم إلى الخير والصلاح، والمدنية والنور قرونًا طويلة.

وكان انتصارهم بالإسلام، ولن ينتصروا بغيره، وتاريخ المسلمين خير دليل على ذلك.

كان العرب في الجاهلية متفرقين فتوحدوا بالإسلام، وكانوا أعداءً فألف الإسلام بين قلوبهم، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الإسلام منها، فأصبح العرب بالإسلام "وحدة" رصينة، و"دولة" عظيمة و"أمة" متماسكة و"قوة" ضاربة وجدت لها متنفسًا بالفتح الإسلامي العظيم، فسارت رايات العرب المسلمين تهدي الدنيا وتحضر العالم وتمدن الناس، فامتدت دولة الإسلام من سيبريا شمالاً إلى فرنسًا غربًا إلى الصين شرقًا إلى المحيط جنوبًا.

كانوا ضعفاء فأصبحوا بالإسلام أقوياء، وكانوا أعداء فأصبحوا إخوة، وكانوا مستعبدين فأصبحوا فاتحين!"[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: عظم فضل ومكانة أهل بدر:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي رضي الله عنه: "جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها"، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على عظم فضل ومكانة أهل بدر؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ((بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ. فَقَالَ: ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ. فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ. فَخُذُوهُ مِنْهَا. فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا. فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ. فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ. فَقَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ. فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا. فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: يَا حَاطِبُ مَا هذَا؟ قَالَ: لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ امْرأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ قَالَ سُفْيَانُ: كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ

---

(١) مقدمة موسوعة الغزوات الكبرى، محمد أحمد باشميل، بقلم محمود شيت خطاب، بتصرف يسير.

الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ. فَأَحْبَبْتُ، إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي. وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي. وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ : صَدَقَ. فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ. فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ))[1].

قال النووي: (وقوله ﷺ "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم" معناه: الغفران لهم في الآخرة)[2]، وقال ابن حجر: (والمراد من -الحديث هنا- الاستدلال على فضل أهل بدر بقوله ﷺ المذكور، وهي بشارة عظيمة لم تقع لغيرهم)[3].

قال ابن القيم في بيان مغفرة الله تعالى لأهل بدر: (قال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، أشكل على كثير من الناس معناه؛ فإن ظاهره إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاؤوا منها، وذلك ممتنع.

فقالت طائفة، منهم ابن الجوزي: ليس المراد من قوله "اعملوا" الاستقبال، وإنما هو للماضي، وتقديره: أي عمل كان لكم فقد غفرته.

قال: ويدل على ذلك شيئان:

أحدهما: أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله: فسأغفر لكم.

والثاني: أنه كان يكون إطلاقًا في الذنوب ولا وجه لذلك. وحقيقة هذا الجواب: إني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم.

لكنه ضعيف من وجهين:

أحدهما: أن لفظ "اعملوا" يأباه؛ فإنه للاستقبال دون الماضي. وقوله: "قد غفرت لكم" لا يوجب أن يكون اعملوا مثله؛ فإن قوله "قد غفرت" تحقيق لوقوع المغفرة في

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩٨٣، ومسلم واللفظ له ٢٤٩٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٥١١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٥٦/٧.

المستقبل كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾[١]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[٢]، ونظائره.

الثاني: أن نفس الحديث يردّه؛ فإن سببه قصة حاطب وتجسُّسه على النبي ﷺ، وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها، وهو سبب الحديث، فهو مراد منه قطعًا.

فالذي نظن في ذلك، والله أعلم، أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون على الإسلام، وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرِّين عليها، بل يوفِّقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك. ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم، لأنه قد تحقق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم. ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم، كما لا يقتضي ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة. فلو كانت قدحصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر، لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد، وهذا محال.

ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب؛ فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة، ونظير هذا قوله في الحديث الآخر: ((إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَب أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَب أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْ لِي، قَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا فقال: رَب أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْ لِي قَالَ: أَعَلِمَ عبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ))[٣]، فليس في هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم، وإنما يدل على أن يغفر له ما دام كذلك، إذا أذنب تاب. واختصاص هذا العبد بهذا؛ لأنه قد علم أنه لا يصرُّ على ذنب، وأنه كلما أذنب تاب، حكم يعمّ كل ما كانت حاله حاله، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر.

---

(١) سورة النحل، آية: ١.

(٢) سورة الفجر، آية: ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم ٦٩٨٦.

وكذلك من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له، ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلها، كالعشرة المشهود لهم بالجنة. وقد كان الصدِّيق شديد الحذر والمخافة، وكذلك عمر. فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيَّدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيّدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق، الإذن فيما شاؤوا من الأعمال)[1].

وفي تأكيد عظم فضل أهل بدر رضي الله عنهم أخرج البخاري في صحيحه: عن قيس أنه قال: ((كان عطاءُ البدريين خمسةَ آلافٍ ، خمسةَ آلاف، وقال عمرُ: لأُفضلنَّهم عَلَى مَن بعدَهم))[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((فأقبَلْتُ أنا وأمُّ مِسطح فعثرتْ أُمُّ مسطحٍ في مِرْطِها فقالت: تَعِسَ مِسطحٌ، فقلتُ: بئس ما قلتِ، تَسُبِّينَ رجلاً شهد بدرًا))[3].

وعن ابن معقل: ((أن عليًا كبر على سهل بن حنيف فقال: إنه شهد بدرًا))[4] قال ابن حجر: (... وقد أورده أبو نعيم في المستخرج من طريق البخاري بهذا الإسناد فقال فيه: كبر خمسًا...، وقول علي رضي الله عنه لقدشهد بدرًا، يشير إلى أن لمن شهدها فضلاً على غيرهم في كل شيء، حتى في تكبيرات الجنازة)[5].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

هذا ما ورد في الحديث من سؤال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في قوله: "ما تعدون أهل بدر فيكم؟" وإجابته ﷺ بقوله: "من أفضل المسلمين".

فالسؤال والجواب من أساليب الأداء البياني، لما له من قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين

---

(١) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٣٤-٣٦.

(٢) أخرجه البخاري ٤٠٢٢.

(٣) أخرجه البخاري ٤٠٢٥.

(٤) أخرجه البخاري ٤٠٠٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٩/٧.

الآخرين، وذلك لعدة أسباب منها: أن طارحي الأسئلة إذا كانوا لا يعانون من مشكلة، ولكن يريدون اكتساب معرفة، حول ما طرحوا من أسئلة، فهم في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، فيجب على الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن"[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: شهود الملائكة غزوة بدر:

(لقد انطوت غزوة بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد والنصر للمسلمين الصادقين، فقد أمد الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم، وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة)[٢]، في نص الحديث من قول جبريل عليه السلام "وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة" وفي بيان إثبات ذلك بنص الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٣].

قال ابن كثير: (نقلاً عن عباد بن منصور عن الحسن أن هذا يوم بدر، وقال الشعبي: إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرز بن جابر يمد المشركين، فشق ذلك عليهم فأنزل الله: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)، إلى قوله: (مسومين)، أي: معلمين بالسِّيما، وقيل: أي: مُحذَّقة أعرافها، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل)[٤].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ٢٤٢.

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله ٥٨ - ٥٩.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣ - ١٢٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/١١٢ - ١١٣.

قال د. البوطي: (ومن أوضح الأدلة القاطعة على أن التعبير بالملائكة في بيان الله عز وجل، ليس المقصود به ما يتوهمه بعضهم من المدد الروحي، أو القوة المعنوية، أو نحو ذلك -أقول من أوضح الأدلة القاطعة على بطلان هذا الوهم- ضبط البيان الإلهي للملائكة بعدد محدود وهو الألف، في قوله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1] إذ العدد من مستلزمات الكم المنفصل في الأشياء، ولا يكون ذلك إلا في الأشياء المادية المحسوسة.

ومن هنا نعلم أن تقييد البيان الإلهي للملائكة بعدد معين، ينطوي على حكم باهرة، من أجلّها قطع السبيل على من يريد أن يتناول الآية، ويفسر الملائكة بالمعنى الذي يروق له، وهو مجرد الدعم المعنوي.

ثم إن نزول الملائكة للقتال مع المسلمين - إنما هو مجرد تطمين لقلوبهم، واستجابة حسية لشدة استغاثتهم، اقتضاها أنهم يقفون مع أول تجربة قتال في سبيل الله، لأناس يبلغون ثلاثة أضعافهم في العدة والعدد. وإلا فإن النصر من عند الله وحده، وليس للملائكة أي تأثير ذاتي في ذلك. ومن أجل هذه الحقيقة قال الله تعالى معللاً نزول الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2])[3].

وقد أكد الصحابة رضي الله عنهم على شهود الملائكة بدرًا، ولقد شهد الصحابة رضي الله عنهم بذلك، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضًا قد أرسلوها على ظهورهم، ويوم حنين عمائم صفراء، وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة رضي الله عنه، وكان شهد بدرًا، قال: بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى، وعن أبي داود

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٩.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١٠.

(٣) فقه السيرة النبوية، د. محمد بن عيد رمضان البوطي ٢٤٣.

المازني ﵁، وكان شهد بدرًا، قال: إني لاتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري)[١]، (وعن الربيع بن أنس ﵁ قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم؛ بضرب فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أحرق به)[٢].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٢٧٥/٢.

(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ٥٦/٣.

الحديث رقم (١٨٣٢)

١٨٣٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((إذَا أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِقَومٍ عَذَابًا، أصَابَ العَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أعْمَالِهِمْ)) متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث وعدًا من رسول الله ﷺ لكل مؤمن بأن الله سيدخر له يوم القيامة ما قدمه في دنياه من عمل صالح، إذا عم البلاء، واجتاحت ريح الكوارث الصالح والطالح، فالعذاب الذي يلحق بالأمم من الطوفان والجراد والقمل والزلازل... والحرائق.. والأوبئة، والحروب يعم ويصيب القوم أجمع: البر والفاجر، فالنقمة تعم، والنعمة تخص، ولكن الناس يبعثون على حسب مراتبهم، ويبعثون على نياتهم.

وصياغة الحديث اللغوية تؤكد نزول العذاب ببعض الأقوام، لأن أسلوب الشرط والجواب هو الإطار النحوي لمضمون الحديث، وأداة الشرط "إذا"، وهي تفيد التحقق فالعذاب يلحق ببعض الأمم، وقد حدث ذلك مع قوم عاد، وقوم ثمود، وأهل الطوفان زمان نوح عليه السلام، وكثير من الكوارث تحدث في العالم ومنها الزلازل، والبراكين، والأعاصير، والطوفان، والأوبئة، والأمراض الفتاكة، والحروب المدمرة، والانهيارات الأرضية.

والتعبير بـ"إذا" يكشف عن واقعية هذه الكوارث، وقوله: "عذابًا" من الألفاظ الموجزة المشعة بكل ما يقع من أنواع العذاب، ولذلك جاءت الكلمة في صيغة النكرة للشيوع والعموم، ولم يقل العذاب، حتى لا ينصرف الذهن إلى نوع محدد من العذاب، ونكر كلمة "قوم" لإفادة التنويع والتكثير، فكثيرًا ما نزل العذاب بأقوام قديمًا وحديثًا، فالتنكير هنا أفاد العموم والتنوع والكثرة، والتعبير بقوله: "أنزل الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٠٨، ومسلم ٢٨٧٩/٨٤ ولفظهما سواء.

بقوم عذابًا، يفيد التمكن والاستعلاء، والمعنى: بعث عليهم عذابًا والبعث فيه: معنى الجيش والهلاك، فكأن هذا العذاب جيوش مهلكة مدمرة للأمم الطاغية الباغية، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾(١).

وجواب الشرط: يفيد العموم: "أصاب العذاب من كان فيهم": أي يعم الكافر والمؤمن، وكذلك العاصي والطائع، ولكن يوم القيامة يبعثون على أعمالهم: ولا يظلم ربك أحدًا، فالمؤمن من أهل الجنة، والكافر من أهل النار، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٢).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: المعاصي وأثرها في غضب الله وإنزال عقابه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تعذيب العامة بذنوب الخاصة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بعث الناس على أعمالهم يوم القيامة.

أولاً- المعاصي وأثرها في غضب الله وإنزال عقابه:

هذا ما يستفاد جليًا من نص الحديث، وفي بيان ذلك قال ابن القيم: (فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولابد، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟ فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه...، وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟ وما الذي سلط الريح على قوم عادٍ حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية...، وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت

---

(١) سورة المدثر، آية: ٣١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٤٧.

قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟ وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، فأهلكم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟ ... وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر...؟ وما الذي خسف بقارون وداره وماله؟ ... وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرًا؟ وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[1]. فالمعاصي والذنوب هي أمراض، متى استحكمت قتلت ولابد، وهي سبب غضب الله وإنزال عقابه)[2].

وهذا ما أكده النبي ﷺ فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: ((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))[3].

وقال ﷺ: ((لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يَعْذِرُوا -أَوْ يُعْذِرُوا- مِنْ أَنْفُسِهِمْ))[4]. قال

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦٧.

(٢) انظر الداء والدواء ١/٨٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤٠١٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٤٦).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٣٤٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٦٥٣).

الخطابي: (فسره أبو عبيدة في كتابه، وحكي عن أبي عبيدة أنه قال: معنى "يعذروا" أي تكثر ذنوبهم وعيوبهم)[١]، وقال ابن الأثير: (يقال أعْذَر فلان من نفسه، إذا أمكن منها، يعني: أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم، فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم عذر، كأنهم قاموا بُعذره في ذلك، ويروى -بفتح الياء-، من عَذَرْته وهو بمعناه، وحقيقته عذرت: محوتُ الإساءة وطمستها)[٢].

وقد حذر من ذلك السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، فعن جبير بن نضير عن أبيه قال: (لما فتحت قبرص ففرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء! ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جُبير؛ ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره! بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى)[٣] وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء؛ قال: (ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدري ممَّ هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيُلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر)[٤].

(وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلّته)[٥].

(فكم أهلكت المعاصي والذنوب من الخلق؟ وكم أزالت من النعم؟ وكم جلبت من النقم؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلاً عن الجهّال! ولم يعلم المغترُّ أن الذنب ينقضُ ولو بعد حين كما ينقُضُ السمُّ، وكما ينقضُ الجرحُ المندملُ على الغش والدَّغلِ)[٦].

---

(١) معالم السنن ١٩١/٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥٩٩.

(٣) الزهد ٨٦/١ بسند صحيح.

(٤) الحلية ٢١٥/١.

(٥) الداء والدواء، ابن القيم، ٨٥.

(٦) المرجع السابق ٨٤-٨٥.

وفي ذلك بيان على قبح المعاصي وأثرها في إنزال غضب الله ومقته، فعلى المرء أن يجتهد في تركها، إرضاءً للرحمن وبغضًا للشيطان، وطلبًا لعظيم الفلاح في الدنيا والآخرة، قال ابن القيم: (سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبةُ الخلق وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفسّاق والفجّار، وقلة الهم والغم والحزن، وعزُّ النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحَمِيّتهم له إذا أُوذي وظُلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودّته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على المُلك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور، لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا. فإذا مات تلقّته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، وينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحرِّ والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أُخذ به ذات اليمين مع

أوليائه المتقين وحزبه المفلحين ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١)"(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تعذيب العامة بذنوب الخاصة:

هذا ما أشار إليه الحديث من قوله ﷺ: "إذا أنزل الله تعالى بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم".

قال ابن حجر: (في قوله ﷺ: "إذا أنزل الله بقوم عذابًا"، أي: عقوبة لهم على سيئ أعمالهم، "أصاب العذاب من كان فيهم"، والمراد من كان فيهم، ممن ليس هو على رأيهم"(٣)، وقد أكد الحق تبارك تعالى على ذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٤)، قال السعدي: "بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتتقى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن"(٥)، هذا ما أكده النبي ﷺ في حديث سفيان بن عيينة عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: ((لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ. وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ. فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هذِهِ)) وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: ((نَعَمْ. إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ))(٦).

قال النووي: "في قوله: أنهلك وفينا الصالحون، قال: إذا كثر الخبث: وفسره الجمهور بالفسوق والفجور... ومعنى الحديث: أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك

---

(١) سورة الجمعة، آية: ٤.

(٢) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم ٢٢١-٢٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٦٤- ٦٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٢٨٠.

(٦) أخرجه البخاري ٣٣٤٦، ومسلم ٢٨٨٠.

العام، وإن كان هناك صالحون"[١].

(فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٣]، وقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٤]، وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب.

فالجواب: أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر، فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عليه فكلهم عاصٍ، هذا بفعله، وهذا برضاه، وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم في العقوبة)[٥].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ، لاَ يُغَيِّرُونَ، إِلاَّ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ))[٦]، وعن قيس قال: ((قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكم تَقْرَأُونَ هذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾[٧] قالَ عن خَالِدٍ: وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: إِنّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُم الله بِعِقَابٍ. وَقَال عَمْرٌو عن هُشَيْمٍ: وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمِ بالمَعَاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ثُمَّ لا يُغَيِّرُوا إِلاَّ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله مِنْهُ بِعِقَابٍ... إلخ))[٨].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٧٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

(٣) سورة المدثر، آية: ٣٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٥) أحكام القرآن، ابن العربي، ٢/٨٣٦.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٤٠٠٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٢٣٨).

(٧) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٨) أخرجه أبو داود ٤٣٣٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٦٤٤).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بعث الناس على أعمالهم يوم القيامة:

هذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: (ثم بعثوا على أعمالهم)، قال ابن حجر: "أي: بعث كل واحد منهم على حسب عمله، إن كان صالحًا فعقباه صالحة وإلا فسيئة، فيكون ذلك العذاب طهرة للصالحين ونقمة على الفاسقين، وفي ذلك قالت عائشة رضي الله عنها: ((عَبِثَ رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله صنعت شيئًا في منامك لم تكن تفعله، فقال: العَجَبُ إن ناسًا من أمتي يَؤُمُّون البيت برجل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيدا خسف بهم، فقلنا: يا رسول الله! إن الطريق قد يجمع الناس، قال: نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يَهْلِكون مَهْلِكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم))[1].

قال النووي: (في قوله ﷺ: "فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، أما المستبصر فهو المستبين لذلك القاصد له عمدًا، وأما المجبور فهو المكره ...، وأما ابن السبيل فالمراد به سالك الطريق معهم وليس منهم، وقوله ﷺ: ويهلكون مهلكًا واحدًا، أي: يقع الهلاك في الدنيا على جميعهم، وقوله ﷺ: ويصدرون يوم القيامة مصادر شتى أي: يُبعثون مختلفين على قدر نياتهم فيجازون بحسبها)[2].

قال ابن حجر: (والحاصل أنه لا يلزم من الإشراك في الموت، الاشتراك في الثواب أو العقاب، بل يُجازى كل أحد بعمله على حسب نيته)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٢١١٨، ومسلم واللفظ له ٢٨٨٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٧٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٥/١٣.

الحديث رقم (١٨٣٣)

١٨٣٣- وعن جابر ﷺ قال: كَانَ جِذْعٌ يَقُومُ إِلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ (يَعْنِي فِي الخُطْبَةِ)[١] فَلَمَّا وُضِعَ[٢] المِنْبَرُ سَمِعْنَا لِلجِذْعِ مِثْلَ صَوْتِ العِشَارِ، حَتَّى نَزَلَ النَّبيُّ ﷺ، فَوضَعَ يَدَهُ عَلَيهِ فَسَكَنَ[٣].

وَفِي رِوايَةٍ[٤]: فَلَمَّا كَانَ يَومُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ[٥]، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا حَتَّى كَادَتْ أنْ[٦] تَنْشَقَّ.

وفي رواية[٧]: فصَاحَتْ[٨] صِيَاحَ الصَّبيِّ، فَنَزَلَ النَّبيُّ ﷺ، حَتَّى أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبي الَّذِي يُسَكَّتُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قال: ((**بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ**)). رواه البخاري.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الجذع: ساق النخلة[٩].

صوت العشار: أي: الناقة الحامل التي مضت لها عشرة أشهر ولا يزال ذلك اسمها

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) عند البخاري زيادة: (له)، وهي ليست عند الحميدي في جمعه.

(٣) برقم ٩١٨ بدون قوله: (فسكن). وهذه الزيادة عند البخاري برقم ٣٥٨٥ بلفظ: (فسكنت) والمثبت لفظ الحميدي في جمعه ٢/٣٦٩ رقم ١٦٠٣.

(٤) برقم ٢٠٩٥.

(٥) عند البخاري زيادة: (الذي صنع).

(٦) (أن) لا توجد عند البخاري.

(٧) برقم ٢٠٩٥، و٣٥٨٤. والسياق للحميدي في جمعه ٢/٣٧ رقم ١٦٠٣.

(٨) عند البخاري زيادة: (النخلة).

(٩) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ج ذ ع).

إلى أن تلد، وقيل: العشار الحوامل من الإبل التي قاربت الولادة[1].

أنَّ الصبي أَنًّا وأنينًا: أي: تَأَوَّه وتألم[2].

الشرح الأدبي

من معجزات النبي ﷺ الحسية: حنين الجذع، وهي معجزة ثابتة بالأدلة القطعية، والروايات الصحيحة، وهذا الحديث من الشواهد والأدلة اليقينية على هذه المعجزة، ويروي جابر ذلك، ويفصل القول في هذا المشهد، ويقول "كان جذع" ويصفه بأنه: يقوم إليه النبي ﷺ في الخطبة: وهذا الوصف فيه تشريف لذلك الجذع، وهو أيضًا من أسرار حنين الجذع لرسول الله ﷺ وأنينه شوقًا إليه: لأن رسول الله ﷺ كان يميل إلى الجذع وقت الخطبة، وللنبات نفس أودعها الله الإدراك، فهي تتغذى، وتنمو وتتكاثر، ولكنها لا تتحرك ولا تلد، مثل الحيوان أو الإنسان، فالنفس الحيوانية لها خصائص، والنفس الإنسانية لها خصائص، كذلك النفس النباتية لها خصائص، فللنبات إحساس وإدراك لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والنفس الإنسانية تتغذى وتتكاثر وتنمو وتلد وتنطق وتعقل، أما النفس الحيوانية فهي تتغذى وتنمو وتتكاثر وتلد ولكنها لا تنطق ولا تعقل.

والتكلم بلسان الجمع في رواية جابر يدل على أن صوت الجذع كان حقيقيًا: حيث يقول: فلما وضع المنبر سمعنا للجذع: مثل صوت العشار، وهذه الصورة التشبيهية مشتقة من البيئة وهي صورة دقيقة مؤثرة، والعشار هي الناقة التي انتهت في حملها إلى عشرة أشهر.

والصورة تزداد دقة وتأثيرًا وتشخيصًا في رواية أخرى: حيث يقول جابر: اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج، أي التي انتزع منها ولدها، فتأمل رقة إحساس هذا الجذع وشوقه وحنينه للنبي ﷺ، وحين وضع النبي عليه الصلاة والسلام يده على الجذع سكن وهدأ وامتثل !!!، وفي رواية ثم أمر به فدفن، وكان الحسن إذا حدث

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٦٥/٢.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (أ ن ن).

بهذا الحديث يقول: يامعشر المسلمين: الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه، ﷺ تسليمًا كثيرًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حنين الجذع شوقًا إلى رسول الله ﷺ.

ثانيًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

أولاً- من دلائل النبوة: حنين الجذع شوقًا إلى رسول الله ﷺ:

قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه ما يدل على صحة نبوة نبينا ﷺ)[1].

(وقد أجرى الله تبارك وتعالى على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات، ما يدل على صدق دعواهم أنهم رسل الله، وكي تقوم الحجة البالغة على الناس، فلا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم)[2] فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[3] (وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ماجاؤوا به)[4].

والمعجزة على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر، فعجزوا عنه، فتعجيزهم عنه فعل لله دل على صدق نبيه، كتحدي اليهود أن يتمنوا الموت، وضرب خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله[5]، وذلك كحنين الجذع شوقًا إلى رسول الله ﷺ وشفقةً من فراقه، قال ابن حجر: (ونقل ابن أبي حاتم في "مناقب الشافعي"، عن أبيه عن عمرو بن سواد عن الشافعي قال: "ما أعطى الله نبيًا ما أعطى محمدًا، فقلت: أعطى عيسى عليه السلام إحياء الموتى، قال: أعطى محمدًا ﷺ حنين الجذع حتى سمع

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٣٧/٤.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٢٠/١.

(٣) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ٧٨١.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٢٠/٢.

صوته، فهذا أكبر من ذلك)[١].

وقد بيّن ابن هبيرة (أن حنين الجذع الذي سمعه أصحاب رسول الله ﷺ على كونه، كان آية صادعة وبينة ظاهرة على نبوته ﷺ؛ فإنه فيه تنبيه لأصحابه على زيادة حبهم له، وحنينهم لفراقه، واستيحاشهم لتخلفهم ساعة واحدة عن صحبته، ولَمَّا كان رسول الله ﷺ يطلب وقت التذكير على الجذع، كان الجذع موطئًا يطلب منه ويعرف به حالة التذكير، فكان في ذلك الدولة للجذع، فلما رأى الجذع أن دولته قد تغيرت بانتقال رسول الله ﷺ إلى المنبر حنّ)[٢].

وفي ذلك قال ابن حجر: (وقد كان الحسن إذا حدث بحديث حنين الجذع يقول: يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إلى لقائه فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه ...)[٣].

ثانيًا- من وسائل الدعوة: الخطبة :

هذا ما أشار إليه الحديث من قول الراوي: فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها (والخطبة هي أداة الدعوة الإسلامية الأولى لاستنهاض الهمم، والحث على الفضائل وجمع الشمل فهي من أقوى وسائل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس)[٤]، (وقد استعمل النبي ﷺ هذا النوع من الوسائل في نشر دعوته، لكثرة فائدته وعظيم جدواه، ذلك أن الخطابة علم من العلوم الهامة التي تساعد على الاتصال الجماعي)[٥]، (فضلاً عن أن الخطابة في الدعوة إلى الله واجبة، لأنها لازمة لتبليغ الدعوة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالدعوة يلزمها صوت قوي وفكر ذكي وبيان ناصع وصوت داو، والخطابة رسول ذلك وبلاغه وحامل هذا وسلطانه، والخطابة للداعية كالمصباح

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٦٩٨.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٨/٣٤٨-٣٤٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٦٩٧.

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان، ١٠٦.

(٥) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد أحمد غلوش، ٤١٩.

ينير الطريق ويكشف الدرب ويهدي الضال، وهي السلاح الذي يدافع به عن دعوته فيرد به كيد الكائدين وجحود الجاحدين، وعنت الضالين، فكم من منافق عليم اللسان، ومنحرف صاحب بيان، وفاسق يحمل فكرًا، وشيطان يلوح بحجة، فيأتي الداعية الفصيح صاحب الحجة، فيدفع الركب الضال، والموكب اللعين، وينسف الباطل المنتفخ، ويرفع الحق الأبلج والحجة المضيئة، وصدق الله العظيم: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1]، والخطابة وسيلة لصياغة المبادئ، وإظهار جلالها ورفعة شأنها، فضلاً عن أنها صلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لصيانة جسد الأمة من الهدم والتحلل، كما أنها لازمة لطرد الأهواء وإزالة الشياطين، وعلاج الأمراض الدخيلة والمتوطنة)[2]، يقول علي محفوظ: (إن الأمراض والعلل تعرض للأجساد فتذهب بجمالها، وكثيرًا ما تودي بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها واشتداد خطرها، والقلوب كالأجساد يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفئ نورها، وما يفقدها حياتها ...، ولا دواء لها إلا مراهم الشريعة الغراء، المركبة تركيبًا علميًا كيماويًا دقيقًا من أجزاء الخطب والمواعظ)[3].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(٢) انظر: الخطابة والخطيب، د. توفيق الواعي، ٣٠-٣١.

(٣) هداية المرشدين ٧٣.

الحديث رقم (١٨٣٤)

١٨٣٤- وعن أبي ثعلبة الخُشَنِيِّ جُرثومِ بنِ ناشر ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا)) حديث حسن. رواه الدارقطنيُّ[1] وغيره.

ترجمة الراوي:

أبو ثعلبة الخُشَنِّي: صحابي مشهور، معروف بكنيته، أختلف في اسمه اختلافًا كثيرًا وكذلك في اسم أبيه، قيل اسمه جُرْثُوم، وقيل جُرْهم بن ناشب، وقيل: ابن ناشم وقيل: ابن لاشر. تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٦٦).

غريب الألفاظ:

فلا تنتهكوها: فلا تخرقوا سترها بالوقوع فيها[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين وفروعه، كما يقول أبو بكر السمعاني، وليس في حديث رسول الله ﷺ حديث واحد أجمع بانفراده لأصول الدين وفروعه من حديث أبي ثعلبة.

وهذا الحديث قسم أحكام الله أربعة أقسام: فرائض ومحارم وحدود ومسكوت عنه، وذلك يجمع أحكام الدين كلها، وهكذا يكون بيان المصطفى ﷺ في شموليته وبلاغته، وفي سموه وحكمته، وفي عمقه ودقته، ولا غرو فقد أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم.

---

(١) السنن ١٨٣/٤. وحسنّه المؤلف أيضًا في أربعينه ٣٠، وقال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٢٩٣٤: رجاله ثقات لكنه منقطع، وقال البوصيري في الإتحاف ٤٢٣/١: إسناده صحيح.

(٢) مختار الصحاح في (ن هـ ك)، ومعجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٦٣.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجده يفيض بظواهر فنية وأسلوبية متعددة ومنها:

أ- البداية بالتأكيد في قوله عليه الصلاة والسلام، "إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها"، وهذا التأكيد يتكرر في كل الجمل بعد ذلك ولكنه محذوف للإيجاز، ولأنه معلوم من الدين بالضرورة فلا داعي لتكراره، فلا يحد الحدود إلى الله، ولا يحرم ولا يحلل إلا الله، والتقدير، وإن الله حد حدودًا، وإن الله حرم أشياء، وإن الله سكت عن أشياء، والتأكيد الظاهر والمضمر، يجعل الالتزام بما جاء في الحديث واجبًا، والخروج عنه معصية وإثمًا ومغاضبة لله عز وجل.

ب- ومن جماليات الأسلوب في هذا الحديث: حسن التنسيق، والتوازي والتوازن في بناء الجمل، فالجمل في الحديث متناسقة البناء، تتشابه في مكوناتها، وتتوازن في تراكيبها، وكأن ذلك التوازن، وهذا التناسق صورة لموقف الأمة الواجب اتخاذه من الفرائض والحدود والمحرمات، وهو الاعتدال، والتوازن، وعدم المغالاة أو التفريط.

ج- ومن أسرار الجمال في لغة الحديث، هذا الإيقاع الصوتي المؤثر المتمثل في نهايات الجمل المسجوعة، في غير تكلف أو عنت، وهي إلى جانب هذه النهايات الإيقاعية التي ترسخ في الذهن، وتثبت في الوجدان -بعد أن يتلقاها السمع ويتقبلها قبولاً حسنًا- نجد التماثل يوحد بين الجمل، حيث البداية بالأفعال الماضية، والفاعل هو الضمير العائد على لفظ الجلالة في كل الجمل، والمفعول به يتجانس مع الفعل الماضي في الجملتين الأوليين: "فرض فرائض"، وحدَّ حدودًا.

وختام كل جملة من جمل هذا الحديث يبدأ بفاء التعليل ولا الناهية والفعل المضارع المسند إلى واو الجماعة، وهذه الصياغة توحي بأن هذه النواهي، على الأمة كلها أن تلتزم باجتنابها.

د- ومن مظاهر الجمال التعبيري، التزاوج والامتزاج بين الأسلوبين الخبري والإنشائي في كل جمل الحديث، فالجملة تبدأ بالخبر المؤكد، وتنتهي بالنهي الجماعي عن التفريط في كل ما حث عليه رسول الله ﷺ من أوامر، أو نواهٍ.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على أداء فرائض الله تعالى وعدم إضاعتها.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من انتهاك حدود الله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الأسئلة التي تكون سببًا في جلب المشقة.

خامسًا: من آداب الداعية: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

(إن التوكيد من الأساليب الدعوية المهمة في تقوية الكلام وإثبات صحته وبيان أهميته لدى المدعوين)[1]، وهذا ما ورد في الحديث من تأكيده ﷺ على أداء فرائض الله، وعدم إضاعتها، وعدم انتهاك حرماته، واجتناب السؤال عما سكت عنه تبارك وتعالى، ويظهر ذلك في الحديث من قوله ﷺ إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها.. إلخ.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على أداء فرائض الله تعالى وعدم إضاعتها:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها)، (والفرائض هي ما فرضه الله على عباده وألزمهم القيام بها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج)[2]، وقد حث الحق تبارك وتعالى على أدائها وعدم إضاعتها، فقال في حديثه القدسي: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ))[3]، قال ابن حجر: (يجوز في "أحب" الرفع والنصب ويدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية، وظاهره الاختصاص بما ابتدأ الله فرضيته، وفي دخول ما أوجبه المكلف على نفسه نظر للتقييد بقوله: افترضت عليه، إلا إن أخذ من جهة المعنى الأعم، ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله. قال

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العلوم الشرعية والعربية، العدد الأول ص ٢٧٣.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٥٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

الطوفي: الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النفل في الأمرين، وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب فكانت الفرائض أكمل، فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى وأشد تقربًا، وأيضًا فالفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به، امتثال الأمر واحترام الآمر، وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية، وذل العبودية، فكان التقرب بذلك أعظم العمل)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من انتهاك حدود الله:

هذا ما أشار إليه النبي ﷺ في الحديث من قوله ﷺ: "وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها"، (والحدود جمع حد، وهو في اللغة المنع، ومنه سمي كل من البواب والسجان حدادًا، لمنع الأول من الدخول، والثاني من الخروج)[2]، (وحدود الله التي نهى عن اعتدائها، هي جملة ما أذن في فعله، سواء كان على طريق الوجوب، أو الندب، أو الإباحة، واعتداؤها: هو تجاوز ذلك إلى ارتكاب ما نهى عنه)[3]، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بعدم انتهاك حدوده فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[4] (وقوله تعالى: "فلا تقربوها" أبلغ من قوله "فلا تفعلوها" لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه. والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليهما، وأما الأمر فيقول الله فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[5] فنهى عن مجاوزتها)[6]، وقد رهب

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٥٠ - ٣٥١.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/١٢٩.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/١٦٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٢٩.

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ٧٠.

تعالى وحذر من تجاوز حدوده فقال: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١] وقال: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[٢] وقال: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[٣] أي (بخسها حقها وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة)[٤].

وقد أكد النبي ﷺ على حفظ حدودالله وعلى عدم انتهاكها فقال: ((ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاه، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعرُجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق: واعظ الله في قلب كل مسلم))[٥].

(أما المحارم، فهي التي حماها الله تعالى، ومنع من قربانها وارتكابها وانتهاكها)[٦] وقد حث الله تبارك وتعالى على اجتناب حرماته فقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾[٧] قال جماعة من المفسرين ("حرمات الله" هاهنا مغاضبه، وما نهى عنه، و(تعظيمها)، ترك ملابستها، قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات هي الأمر والنهي، وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٩.

(٢) سورة النساء، آية: ١٤.

(٣) سورة الطلاق، آية: ١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ٨٠٦.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٨٥٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٩٥).

(٦) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٥٧/٢.

(٧) سورة الحج، آية: ٣٠.

القيام به، وحرم التفريط فيه، وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك ومشاعر الحج زمانًا ومكانًا"[١]، وقال ابن القيم: "والصواب أن الحرمات تعم هذا كله. وهي جمع "حرمة" وهي ما يجب احترامه، وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها وحفظها من الإضاعة"[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: اجتناب الأسئلة التي تكون سببًا في جلب المشقة:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: "وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها"، قال ابن رجب: (وأما المسكوت عنه، فهو ما لم يُذكر حكمه بتحليل، ولا إيجاب، ولا تحريم، فيكون معفوًا عنه، لا حرج على فاعله...، وقوله ﷺ: "فلا تبحثوا عنها" يحتمل اختصاص هذا النهي بزمن النبي ﷺ؛ لأن كثرة البحث والسؤال عما لم يذكر قد يكون سببًا لنزول التشديد...، ويحتمل أن يكون النهي عامًا، فإن كثرة البحث والسؤال عن حكم ما لم يذكر في الواجبات ولا في المحرمات، قد يوجب اعتقاد تحريمه، أو إيجابه، لمشابهته لبعض الواجبات أو المحرمات، فقبول العافية فيه، وترك البحث والسؤال عنه خير)[٣]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[٤] قال ابن كثير: (هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في سماعها)[٥] وقال ﷺ: ((أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته))[٦] قال ابن رجب: (والتحقيق في هذا المقام -والله أعلم- أن البحث عما لم يوجد فيه نص خاص أو عام على قسمين: أحدهما: أن يبحث عن دخوله في دلالات

---

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٥٣/١٧.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٧٤/٢.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٦٣/٢، ١٧٠.

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٠٣/٣.

(٦) أخرجه البخاري ٧٢٨٩، ومسلم ٢٣٥٨.

النصوص الصحيحة من الفحوى، والمفهوم والقياس الظاهر الصحيح، فهذا حق، وهو مما يتعين فعله على المجتهدين في معرفة الأحكام الشرعية، والثاني: أن يدقق الناظر نظره وفكره في وجوه الفروق المستبعدة، فيفرق بين متماثلين بمجرد فرقٍ لا يظهر له أثر في الشرع مع وجود الأوصاف المقتضية للجمع، أو يجمع بين متفرقين بمجرد الأوصاف الطردية التي هي غير مناسبة ولا يدل دليل على تأثيرها في الشرع، فهذا النظر والبحث غير مرضي ولا محمود ....، ومما يدخل في النهي عن التعمق والبحث عنه: أمور الغيب الخبرية التي أمر بالإيمان بها، ولم يبين كيفيتها، وبعضها قد لا يكون له شاهد في هذا العالم المحسوس، فالبحث عن كيفية ذلك هو مما لا يعني، وهو مما نهى عنه، وقد يوجب الحيرة والشك، ويرتقي إلى التكذيب)[1]. ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هذَا خَلَقَ اللَّه الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللّهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللّهِ))[2].

خامسًا- من آداب الداعية: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ "وسكت عن أشياء رحمة لكم" (يعني أنه إنما سكت عن ذكرها رحمة بعباده، ورفقًا، حيث لم يحرمها عليهم حتى يعاقبهم على فعلها، ولم يوجبها عليهم حتى يعاقبهم على تركها، بل جعلها عفوًا، فإن فعلوها، فلا حرج عليهم، وإن تركوها فكذلك)[3]، وفي ذلك بيان عظيم على رحمة الله وليس أدل على ذلك من قول عمر بن الخطاب ﷺ: قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللّهِ ﷺ بِسَبْيٍ. فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ. فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هٰذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟)) قُلْنَا: لاَ. وَاللّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: ((لله أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هٰذِهِ

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٧١/٢، ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٢٧٦، ومسلم واللفظ له ١٣٤، ١٣٥.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١٧٠/٢.

بوَلَدِهَا))[١]، وفي بيان الداعية لرحمة الله تعالى بعباده المؤمنين (تكن معرفته تعالى معرفةً توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلُّقَ القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه، وفي ذلك لذة الدنيا والآخرة)[٢].

(١) أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤.

(٢) انظر: الفوائد، ابن القيم، ٢٤٥.

الحديث رقم (١٨٣٥)

١٨٣٥- وعن عبد الله بن أبي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنهما، قال: غَزَوْنَا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأكُلُ الجَرَادَ[1].

وَفِي رِوَايةٍ[2]: نَأكُلُ مَعَهُ الجَرَادَ. متفق عليه.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن أبي أوفى: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٣).

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث الموجز بعض اللمحات والإشارات التي تفيد حرص صحابة رسول الله ﷺ على أن يكونوا مع رسول الله ﷺ في العسر واليسر، والضيق والفرج، والشدة والرخاء، وأول اختبار للإنسان في مواجهته للشدائد، هو قدرته على تحمل الجوع، والاكتفاء بما يسد الرمق، فمن كثر تفكره قل مطعمه، ومن قل تفكره كثر مطعمه وقسا قلبه، وقالوا: لاتدخل الحكمة معدة ملئت طعامًا، ومن قل طعامه قل شرابه، وخف منامه، ومن خف منامه ظهرت بركة عمره، فإذا اكتفى الإنسان بدون الشبع حسن طيب بدنه، وصلح حال نفسه وقلبه.

وفي ضوء هذه الخصائص والسلوكيات، التي أشرقت في حياة الصحابة وهم يقتدون برسول الله ﷺ في منهجهم الحياتي، وفي بعدهم عن الإسراف في الطعام والشراب: نقرأ ما يشع به هذا الحديث الشريف من دلالات وموحيات، ونقتبس منه الفوائد والدروس والعظات النيرات، فالحديث يبدأ بصيغة الجمع المتكلم على لسان الراوي الأعلى عبدالله بن أبي أوفى، حيث يقول غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد، فالسلوك جماعي وليس سلوكًا فرديًا، وهم في جهاد وكر وفر، وإقبال وإدبار، ومجاهدة، ومغالبة، وعلى الرغم من ذلك لا يشغلون أنفسهم بألوان

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٥٢/٥٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٤٩٥.

الطعام، ولا أصناف الشراب، وإنما يكتفون بأكل الجراد، وهو يقيم الأود، ولكنه لا يدل على الترف والتنعم، وقوله، مع رسول الله ﷺ يفيد شرف الصحبة، وسمو القدر في ظلال هذه المعية، مع القدوة المثلى واستمدادهم العزم والشجاعة، والحمية، والعزيمة من إقدام رسول الله ﷺ، وشجاعته وزهده، وعدله، وورعه، وثباته في ساحات الوغي، وموقع جملة : نأكل الجراد، يحدد المراد، ويجلي الدرس المقصود فالجملة: في موقع الحال، وصيغة المضارع والتحدث بلسان الجمع، يفصح عن استمرار هذا الحال في هذه الغزوات، وهم راضون، صامدون، موحدون، مستبشرون، محصنين بقول الله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- حكم أكل الجراد: أجمع المسلمون على إباحة أكل الجراد[2].

٢- حكم أكل الجراد الميت: ذهب الحنفية، والشافعية، والحنابلة والجماهير إلى أنه يحل أكل الجراد، سواء مات بذكاة أو باصطياد مسلم أو مجوسي، أو مات حتف أنفه، سواء قطع بعضه أو أحدث فيه سبب[3].

وذهب مالك في المشهور عنه، وأحمد في رواية إلى أنه لا يحل إلا إذا مات بسبب، فإنه يقطع بعضه أو يسلق، أو يلقى في النار حيًا، أو يشوى فإن مات حتف أنفه أو في

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٢) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣١٥/٩، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٠٣/١٢، والموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٢/٥.

(٣) المبسوط، السرخسي ٢٢٩/١١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٦/٥، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٧٨/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣١٥/٩، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٠٣/١٢.

وعاء لم يحل[١].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء، لإطلاق الحديث إباحة أكل الجراد المذكى وغير المذكى، والميت والحي.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الغزو والجهاد في سبيل الله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: جهاد الصحابة رضي الله عنهم في سبيل الله وصبرهم على الشدائد.

أولاً- من وسائل الدعوة: الغزو والجهاد في سبيل الله تعالى:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قول عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، (والجهاد في سبيل الله هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والدعاء إلى دين الحق)[٢] (وهو من كمال الإيمان وحسن الإسلام، فيه تمحيصٌ للقلوب واختبارٌ للنفوس، وبه ينال العبد أعلى الجنان، ويقرب من عرش الرَّب الرَّحمن، وهو دليل على حسن الظن بالله وقوة اليقين)[٣]، حث عليه الحق فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤] (أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة)[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦۚ

---

(١) المدونة الكبرى، مالك الأصبحي ٥٣٧/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٣١٥/٩، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٠٣/١٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني ص ١٠١، التعريفات، أبو الحسن الجرجاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، ١١٢.

(٣) انظر: نضرة النعيم ١٥٠٥.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٥٨/٤.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١] (وأصل الشراء بين الخلق أن يُعَوَّضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم، أو مثلَ ما خرج عنهم في النفع، فاشترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته، وإهلاكها في مرضاته، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضًا عنها إذا فعلوا ذلك. وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوَّض ولا يقاس به)[٢]، (فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء، فمن العبد تسليم النفس والمال، ومن الله الثواب والنَّوال، فسمَّى هذا شراءً، وقوله تعالى "فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به" أي: أظهروا السرور بذلك ... قال الحسن: والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة "وذلك هو الفوز العظيم" أي: الظفر بالجنة والخلود فيها)[٣].

(وقد وضع الجهاد المسلمين أمام واجب مفروض، وهو الدعوة إلى الله وقتال من يصد الدعوة أو يقف في طريقها، وفي ذلك دعامة مؤثرة، لأن الحق إذا لم تسنده القوة تغلب الباطل عليه، بل إن الحق القوي يجعل الناس ينظرون إليه بفهم وإعجاب ...، وقد تعرضت الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، بادعاء أن جهادها كان ظالمًا قائمًا على الاعتداء والغدر،وهذا افتراء واضح، لأن الجهاد الإسلامي لمن يكن إلا ردًا لظلم ودفعًا لعدوان، وحماية للدعاة في حياتهم وعملهم، والجهاد الإسلامي في جملته يخضع للمبدأ العام الذي يتفق مع الفطرة، ذلك هو مبدأ الدفاع وهو مبدأ ثابت)[٤]، يقول تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٥]، فقد كان الجهاد ولا يزال من أهم وسائل الدعوة إلى الله.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: جهاد الصحابة رضي الله عنهم في سبيل الله وصبرهم على الشدائد:

هذا ما يستفاد من نص الحديث في قول الراوي: (غزونا مع رسول الله ﷺ سبع

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ٢/١٠٠٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠/٣٩٠.

(٤) الدعوة الإسلامية "أصولها ووسائلها"، د. أحمد غلوش ص ٢٦٢.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

غزوات نأكلُ الجراد)، وفي بيان جهادهم وصبرهم رضي الله عنهم على ذلك قال أبو الزبير عن جابر رضي الله عنهما: ((بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ. نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ. وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ. فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً. قَالَ فَقُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ. ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ. فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ. وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ. ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ...))[1].

قال النووي: (وفي هذا بيان ما كان الصحابة رضي الله عنهم عليه من الزهد في الدنيا، والتقلل منها، والصبر على الجوع وخشونة العيش، وإقدامهم على الغزو مع هذه الحال)[2]، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: ((وَاللَّهِ إِنِّي لأَوَّلُ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا لَنَا طَعَامٌ نَأْكُلُهُ إِلاَّ وَرَقُ الْحُبْلَةِ، وَهذَا السَّمُرُ. حَتَّى إِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ. ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي عَلَى الدِّينِ. لَقَدْ خِبْتُ، إِذًا، وَضَلَّ عَمَلِي))[3].

قال النووي: (في قوله "الحبلة"، و"السمر"، وهما نوعان من شجر البادية، وقيل: الحبلة: ثمر العضاة..، وفي هذا بيان في طاعة الله تعالى على المشاق الشديد)[4].

ومما لا شك فيه أن جهاد الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم على القيام به، مع ما كان بهم من ضيق عيش، لدليل على استجابتهم لأمر الله ورسوله، فضلاً عن تمثيلهم للقدوة الحسنة التي تشرئب إليها النفوس، وتقتدي بها الأجيال في نصرة ربهم وإعزاز دينهم.

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٣٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٢٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٢٨، ومسلم ٢٩٦٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧١١.

الحديث رقم (١٨٣٦)

١٨٣٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الإيجاز: هو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وهو كما يقول الأديب أحمد حسن الزيات غالب على أسلوب الرسول ﷺ، لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح، وقوة الشعور، وقوة الذهن، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون في الرسول ﷺ ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه وأحاديثه، حتى عدت من خصائصه ﷺ.

وهذا الحديث يجري مجرى المثل، وهو حكمة نبوية تصدر عنها أضواء الخبرة الحياتية، وتلقى بظلالها على سلوك كل مؤمن ليكتسب الوعي الراشد، والبصيرة النافذة، والفراسة المؤمنة، والفطانة الراصدة، والكياسة الناقدة.

والحديث يجسد صورة تتكرر في الحياة وتنبئ عن الغفلة التي يقع فيها السُّذَّج، ولا يتعلمون الدروس والخبرات السابقة، وفي إطار الكناية تأتي الصورة التعبيرية في هذا الحديث، فالصورة الكنائية يسكت فيها عن المعنى الحقيقي، ولا تأتي إلا بتذوق الطبقة الحسية في الكناية، حتى تتسنى معرفة المومأ إليه خلف الستار اللغوي الجمالي، والكناية ضرب من الغموض الفني الذي تحصل بعد كشفه متعة كبرى، وهي جزءٌ من الاستعارة كما يقول ضياء الدين بن الأثير، وفي هذا الحديث: استعيرت لدغة الأفعى للشر المفاجئ والصدمة العنيفة مما صار يتمثل مرئيًا في جحر الأفعى،

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٣٣، ومسلم ٢٩٩٨/٦٣ ولفظهما سواء.

والمستعار له هو الإنسان الذي ينبغي أن يظل حذرًا، وهذه الصورة الحسية الاستعارية بطرفيها "الشر والأفعى" يراد بها الحذر، ولا يراد ما بالألفاظ الظاهرة، بل هي جسر مادي لغوي إلى الفكرة المقصودة"[١].

وقيل المراد بالمؤمن الكامل، أي الذي أوقفته معرفته على غوامض الأمور حتى صار يحذرها، وقال ابن بطال: فيه أدب شريف أدب به النبي ﷺ أمته، ونبههم كيف يحذرون مما يخافون من سوء عاقبته، والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فطنة المؤمن وكياسته وعدم انخداعه مرتين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: اتخاذ الحيطة والحذر.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

النفي من الأساليب الدعوية المهمة في إيقاف المدعوين على الحقائق، وتوجيههم إلى فعل ما غاب عنهم، وهذا ما ورد في الحديث من نفيه ﷺ في أن يخدع المؤمن من جحر واحد مرتين، وما ذلك إلا لكياسته وفطانته.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فطنة المؤمن وكياسته وعدم انخداعه مرتين:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

قال ابن هبيرة: (يروى بضم الغين على معنى الخبر، وبكسرها على معنى الأمر، قال أبو سليمان الخطابي: وهو لفظ الخبر، ومعناه الأمر. يقول: ليكن المؤمن حازمًا حذرًا لا يؤتى من ناحية الغفلة في الدين والدنيا، ومبتغيات الأمر أن العبد المؤمن ينظر ما يجري له من حركاته وسكناته، أن كلها من الله سبحانه وتعالى، فإذا أيقظه مرة لشأن ما، فينبغي له أن يكون فطنًا، ولا يتعرض لإيقاظ في العذر له مرة أخرى)[٢].

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٦٩.

(وقد كان سبب هذا الحديث أن النبي ﷺ أسر أبا عَزَّة الشاعر يوم بدر، فمنّ عليه، وعاهده أن لا يحرض عليه ولا يهجوه، وأطلقه، فلحق بقومه، ثم رجع إلى التحريض والهجاء، فأسره النبي ﷺ يوم أحد فسأله المنّ، فقال له النبي ﷺ: ((لاَ أَدَعُكَ تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ، وَتَقُولُ خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ))، اضرب عنقه يا زبير فضرب عنقه، قال ابن هشام: وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال له رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لاَ يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ))[1].

قال النووي: (وفيه أنه ينبغي لمن ناله الضرر من جهة أن يتجنبها، لئلا يقع فيها ثانية فالكيس الحازم الذي لا يستغفل، فيخدع مرة بعد أخرى ولا يفطن لذلك)[2]، (ومما لا شك فيه أن الإيمان لا يتفق والغفلة، بل يقتضي الحذر والحيطة، وأن أولئك الذين يضحك عليهم ولا يتعظون بالماضي، ولا يستفيدون من التجارب، لم يكمل الإيمان بعد في نفوسهم وإن كانوا قائمين برسوم العبادة، فالمؤمن كيس حذر، من خلقه الاعتبار بكل بلاء، ولعلّ مستمد هذا الحديث من القرآن في قوله تعالى حكاية عن يعقوب: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[3]، وقوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾"[4][5].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: اتخاذ الحيطة والحذر:

هذا مما أكد عليه نص الحديث وسياقه. واتخاذ الحيطة والحذر هو توجيه إلهي للرسول ﷺ، وواجب يأثم المسلمون بتركه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٣/١١٠ - ١١١.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٢٠.

(٣) سورة يوسف، آية: ٦٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٦.

(٥) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي ص ١٥٧.

حِذۡرَكُمۡ﴾[1]، قال السعدي في ذلك: (يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، هذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي يستعان على قتالهم، ويستدفع بها مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم، ومخارجهم ومكرهم، والنفير في سبيل الله)[2]، وقال القرطبي: (وهذا يدل على تأكيد التأهب والحذر من العدو في كل الأحوال)[3].

وقال تعالى تأكيدًا لأهمية الحيطة والحذر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾[4].

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: "ود الذين كفروا" (أي: تمنّى وأحبّ الكافرون غفلتكم عن أخذ السلاح ليصلوا إلى مقصودهم، وفي هذه الآية أدلُّ دليل على تعاطي الأسباب واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب، ويوصل إلى السلامة، ويبلغ دار الكرامة)[5].

(وقد كان النبي ﷺ هو القدوة والأسوة في اتخاذ الحيطة والحذر، وذلك في جوانب الدعوة المختلفة وبكفاءة عالية كعادته، وكان ﷺ يتخذ من التدابير الأمنية والتحوطات العسكرية، ما يتفادى به إتاحة الفرصة للعدو لينال من المسلمين، أو

---

(١) سورة النساء، آية: ٧١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٥٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٠٩/٧.

(٤) سورة النساء، آية: ١٠٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٧٢/٥/٣.

يباغتهم، وكان ﷺ يقظًا حذرًا قد حسب لكل شيء حسابه، ولم يقتصر في حيطته على الحذر من أعدائه وتحركاتهم العسكرية وغيرها، بل احتاط في تربية أصحابه والحفاظ على سلامتهم الفكرية والعقيدية، يشير إلى ذلك غضبه على عمر رضي الله عنه عندما رأى في يده صحيفة من التوراة وقوله له: ((أَمُتَهَوِّكُونَ[1] فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتْبَعَنِي))[2]. واحتاط ﷺ أيضًا من أن تتسرب إلى سلوكيات أصحابه بعضُ المنهجيات الخاطئة، والتصرفات المبتدعة، فنهى الثلاثة الذي عقدوا العزم على ترك الزواج والنوم والطعام، فخطَّ لهم منهجًا صحيحًا وقال لهم: ((هَذِهِ سُنَّتِي فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))[3].

واحتاط أيضًا في مواقف متعددة، من أن يتسرب إلى نفوس أصحابه ما يسبب انهيار معنوياتهم الجهادية والقتالية، فكان يريد إيصال الخبر السيء لهم عن طريقه، وبصياغته صياغة لا تَفُتُّ في عَضُدِ المسلمين، أو تُوهِنُ قوتهم وتخلخل صفهم. ففي غزوة الأحزاب أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة إلى بني قريظة ليتأكدوا له من صحة الخبر الذي مفاده: نقضهم العهد وانضمامهم إلى الأحزاب فقال لهما: ("الحنوا لي لحنًا أعرفه"[4] ولا تفتوا في أعضاد المسلمين، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. فلما رجعوا من عند اليهود بعد تأكدهم من غدرهم قالوا له: عَضَلٌ والقارةُ. أي كغدرهم بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: ((اللهُ أكبر، أَبْشِرُوا يَا

---

(١) قال ابن الأثير: التهوك كالتهور، وهو: الوقوع في الأمر بغير رويّة. والمتهوك: الذي يقع في كل أمر. وقيل: هو التحير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ و ك).

(٢) أخرجه أحمد ٣٨٧/٣، رقم ١٥١٥٦، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لضعف مجالد ٣٤٩/٢٣، انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٤٥٨/١.

(٣) أخرجه البخاري ٥٠٦٣.

(٤) قال ابن الأثير: الحنوا لي لحنًا أعرفه: أي أشيروا إليّ ولا تفصحوا، وعَرِّضوا بما رأيتم، النهاية في غريب الحديث والأثر في (ل ح ن).

مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ))[١])[٢].

بل كان من عظيم حيطته ﷺ وحذره في ذلك، أن أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم خبر قريش، فعن إبراهيم التيمي عن أبيه، قال: ((كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ. فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ. فَقَالَ حُذَيْفَةُ : أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ[٣]. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا. فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا. فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. فَقَالَ: قُمْ. يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا، إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي، أَنْ أَقُومَ. قَالَ: اذْهَبْ. فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ[٤]، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ. فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ : وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ. فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، ... إلخ))[٥].

قال النووي: (وفي هذا الحديث أنه ينبغي للإمام وأمير الجيش بعث الجواسيس والطلائع لكشف خبر العدو والله أعلم)[٦]، وما ذلك إلا لكمال الحيطة والحذر.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٦/٢٧-٣٨، السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٢/٢٢٢.

(٢) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٩٢-٩٣.

(٣) قر: بضم القاف هو البرد، انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/١٤٥.

(٤) كأنما أمش في حمام: يعني أن حذيفة رضي الله عنه لم يجد البرد الذي يجده الناس ولا من تلك الريح الشديدة شيئًا، بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه به فيما وجهه له، انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/١٤٦.

(٥) أخرجه مسلم ١٧٨٨.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٥٨.

(وكان من حيطته ﷺ وحذره أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود وخطهم، من أجل أن يكتب له كتبه التي يوجهها إليهم، ويقرأ عليه كتبهم التي يرسلونها له، لأنه ﷺ لا يطمئن لترجمة اليهود ولا لكتابتهم له، خشية إضافتهم ما لا يرضاه أو تحريفهم لما يقرأونه عليه.

فعن زيد بن ثابت ((أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَهُ أن يتعلمَ كتابَ اليهود ، حتى كتبتُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم كتبَهُ، وأقرَأتُهُ كتبهم إذا كتبوا إليه))[1] وفي رواية: ((أمرني رَسُولُ الله ﷺ فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ، وقَالَ: إنّي والله مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي فَتَعَلَّمْتُهُ فلَمْ يَمُرُّ بي إلاَّ نِصْفَ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ فَكُنْتُ أكْتُبُ لَهُ إذَا كَتَبَ، وَأُقْرَأُ له إذَا كُتِبَ إلَيْهِ))[2].

وهناك أمثلة كثيرة غير ما ذكرنا. والذي نستفيده مما تقدم أن الرسول ﷺ استخدم جانب الحيطة والحذر كسبب من أسباب النصر والنجاح، وسبب من أسباب تجنب ضرر العدو، حيث لم يُفاجأ بحادثةٍ أو غارة لشدة حذره ويقظته، كما وإن هذا الأسلوب هو سبب مباشر في نجاح خطته وتحركاته، وعامل من عوامل إفشال خطط العدو وإجهاضها)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٩٥.

(٢) أخرجه أبوداود ٣٦٤٥، وقال الألباني حديث حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٠٩٨).

(٣) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٩٥-٩٦.

الحديث رقم (١٨٣٧)

١٨٣٧- وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالفَلاَةِ يَمْنَعُهُ مِنِ ابْنِ السَّبيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلاً سِلْعَةً بَعْدَ العَصْرِ فَحَلَفَ[1] بِاللهِ لأَخَذَهَا بِكذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذلِكَ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إلاَّ لِدُنْيَا فَإنْ أعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى وَإنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ)) متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فضل ماء: زائد عن حاجته[3].

الفلاة: الأرض التي لا أنيس بها[4].

بايع إمامًا: عاهده وعاقده على طاعته وإخلاصه له[5].

الشرح الأدبي

إن المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، وكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وهذا الحديث ينزع إلى ترسيخ العلاقة بين أبناء الأمة الإسلامية.

لذلك نراه يعرض ثلاثة نماذج سلبية تنأى عن منهج الإسلام الصحيح، والصياغة اللغوية تفصح عن إدانة هذه النماذج التي عرض لها رسول الله ﷺ في أسلوب عربي مبين، وبيان جمالي فائق.

---

(١) عند مسلم زيادة: (له).

(٢) أخرجه البخاري ٢٣٥٨، ومسلم واللفظ له ١٠٨/١٧٣. أورده المنذري في ترغيبه ٢٦٦٦.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ض ل).

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي ع).

فمطلع الحديث فيه تشويق وبراعة استهلال وإيجاز وإيحاء وذلك في قوله: "ثلاثة" ، ثم وصف هؤلاء الثلاثة بأربع صفات تحدد مصيرهم، وملامح عقابهم يوم القيامة، وهذه الصفات تشد المستمع وتؤثر في المتلقي، وتدفعه للسؤال: مَنْ هؤلاء الثلاثة؟، وما هي السيئات التي اقترفوها؟.

وفي قوله: ثلاثة: إيجاز، والتقدير: أصناف ثلاثة من الناس.

والجمل التي وصف بها هؤلاء تتسم بالتوازي الأسلوبي، والتنسيق التركيبي، فكلها يتصدرها حرف النفي "لا" وكلها أفعال مضارعة تبدأ بالياء، وكلها متصلة بضمير الجمع الغائب: هم، والفاعل ضمير مستتر وجوبًا.

وهذا التوافق في الصياغة يحدث إيقاعًا وانسجامًا وتأثيرًا صوتيًا ودلاليًا ونفسيًا ينتبه له السامع.

والجملة الرابعة، صيغت في قالب الجملة الاسمية "ولهم عذاب أليم" للدلالة على ثبات العذاب ورسوخه.

وتقديم الجار والمجرور "لهم" يفيد وقوع العذاب عليهم، وأنهم يستحقون ذلك، ولن يتجاوزهم، والمراد من قوله "لا يكلمهم الله"، أي: كلام بر وإلطاف، وكذلك "لا ينظر الله إليهم"، نظر رحمة وإسعاف، والمراد من قوله: "ولا يزكيهم" أي: لا يطهرهم من الذنوب.

والنموذج الأول: وصف بأنه يمنع الماء عن ابن السبيل وهو ظامئ بالصحراء، وهذا الماء زائد عن حاجة صاحبه، وقوله: "فضل ماء"، وتحديده بالفلاة، ووصفه بالمنع، والممنوع عنه تائه لا زاد له ولا ماء: وهو ابن السبيل، هذه المحددات تضاعف من حجم الجرم، وتصور الشح والبخل، وبالتالي يتضاعف العقاب المنصوص عليه.

وكذلك في النموذج الثاني: الذي يتصف بالكذب والخداع، نجد مؤثرات لغوية: وذلك في قوله: "بايع" للدلالة على المشاركة، والباء في "بسلعة" مزيدة للتأكيد، وقوله: "بعد العصر" تحديدًا لهذا الوقت لشرفه باجتماع ملائكة الليل والنهار فيه، وخص لعظم الإثم فيه، وأسلوب القصر في النموذج الثالث في قوله "لا يبايعه إلا لدنيا"، يؤكد

عدم الإخلاص في البيعة، فقد قصرها على المطامع والمكاسب الدنيوية، وأسلوب الشرط في الجملتين الأخيرتين يجلى هذه البيعة المرذولة، ويكشف نية المبايع المدخولة، حيث يقول: "فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف"، وكرر مادة العطاء، ولفظ: "منها" للإفصاح عن رغبة المبايع وطمعه في العطاء الدنيوي، وهذه النماذج المرفوضة جزاؤها: أن الله لا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- بيان غلظ تحريم منع فضل الماء من ابن السبيل وشدة قبحه، فإذا كان من يمنع فضل الماء للماشية عاصيًا، فكيف بمن يمنعه الآدمي المحترم، فلو كان ابن السبيل غير محترم كالحربي، والمرتد لم يجب بذل الماء له[١].

٢- فيه دلالة على أن صاحب البئر أولى من ابن السبيل عند الحاجة، فإذا أخذ حاجته لم يجز منع ابن السبيل[٢].

٣- في الحديث وعيد شديد في نكث البيعة، والخروج على الإمام لما في ذلك من تفرق الكلمة، ولما في الوفاء من تحصين الفروج والأموال وحقن الدماء[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من منع الناس الماء وخطر ذلك يوم القيامة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف الكاذب والخداع في البيع.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من مبايعة الإمام لغرض دنيوي.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٩١٧/٢، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٦/١٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٣/٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤٦/١٣.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل:

الإجمال والتفصيل من الأساليب الدعوية المهمة في لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم، لمعرفة ما يعقب الإجمال من تفصيل، وهذا ما ورد في الحديث من إجماله ﷺ في قوله: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم"، ثم إعقابه ﷺ بتفصيل ذلك في قوله: "رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل... إلخ". (وقد ورد الإجمال والتفصيل كأسلوب بلاغي رفيع في القرآن الكريم في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾[1] فتتشوق النفوس، وتتطلع الأفئدة لمعرفة ذلك الميثاق، وسرعان ما يأتي البيان والتفصيل في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2])[3].

وفي ذلك بيان لأهمية الإجمال والتفصيل، كأسلوب دعوي في إيصال المعنى كاملاً إلى أذهان المدعوين بعد لفت انتباههم.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من منع الناس الماء وخطر ذلك يوم القيامة:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم -ثم ذكر ﷺ من ذلك-: "رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل"، قال النووي: (معنى لا يكلمهم، أي: لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات وبإظهار الرضى، بل بكلام أهل السخط والغضب. وقيل: المراد: الإعراض عنهم. وقال جمهور المفسرين: لا يكلمهم كلامًا ينفعهم ويسرهم، وقيل: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية، ومعنى لا يزكيهم: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم، وقال الزجاج وغيره: معناه: لا يثني عليهم، ومعنى عذاب أليم: مؤلم، قال الواحدي: هو

---

(١) سورة البقرة، آية: ٦٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٨٣.

(٣) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر، ٥٣.

العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم وجعه، قال: والعذاب كل ما يعي الإنسان ويشق عليه. قال وأصل العذاب في كلام العرب من العذب وهو المنع، يقال: عذبته عذبًا إذا منعته، وعذب عذوبًا أي امتنع، وسمى الماء عذبًا لأنه يمنع العطش، فسمي العذاب عذابًا لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله، والله أعلم)[١].

وقد كان هذا الترهيب والعذاب العظيم لثلاثة أصناف من المدعوين، منهم "رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل".

قال ابن هبيرة: (يعني أنه بالفلاة التي هي غير مملوكة، لأن حكم ما في الأرض المملوكة يخالف حكم غيره؛ لأن لصاحب الأرض المملوكة أن يمنع الدخول إليها، فإذا كان في فلاة فليس لأحد أن يتخصص به، وعلى هذا لم يمنع هذا بأن يأخذ حاجته من ابن السبيل المحتاج إليه؛ فكان هذا قد منع فاضلاً عن حاجته إنسانًا محتاجًا إلى ذلك الفاضل)[٢].

(والمراد بابن السبيل: المسافر المحتاج إلى الماء)[٣]، قال النووي: (ولاشك في غلظ تحريم ما فعل وشدة قبحه، فإذا كان من يمنع فضل الماء للماشية عاصيًا فكيف بمن يمنعه الآدمي المحترم؟)[٤] (لكن يستثنى منه الحربي والمرتد إذا أصرا على الكفر فلا يجب بذل المال لهما)[٥]، وقد حث النبي ﷺ على بذل المال وعدم منعه، فقال ((الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْمَاءِ وَالْكَلَأِ وَالنَّارِ. وَثَمَنُهُ حَرَامٌ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: يَعْنِي الْمَاءَ الْجَارِيَ))[٦] وعنه ﷺ أنه قال: ((ثَلَاثٌ لَا يُمْنَعْنَ: الْمَاءُ وَالْكَلَأُ وَالنَّارُ))[٧] (والناظر في هذه الأشياء يجد أن النبي ﷺ يجمع بينها من أجل أنها أشياء ضرورية

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦١.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٤٧/٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٢١٥/١٣.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، ٢١٥/١٣.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٢٤٧٢، وصححه الألباني دون قول وثمنه حرام (صحيح سنن ابن ماجه ٢٠٠٤).

(٧) أخرجه ابن ماجه ٢٤٧٣، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٠٠٥).

لجميع الناس في عهده ﷺ وأنه لا يتوقف وجودها ولا الانتفاع بها على مجهود خاص، وإذا كانت الضرورات في حياة الناس تختلف باختلاف الزمان وباختلاف المجتمعات، فإنه لا يوجد ما يمنع من أن يقاس على هذه الأشياء أشياء أخرى، تتوافر فيها صفاتها، وهذا ما فعله الأئمة المجتهدون في الأمة الإسلامية، عندما قاسوا على هذه الأشياء أمورًا أخرى من أهمها المعادن - سواء أكانت صلبة أم سائلة- والنفط "البترول" والقار والكبريت والياقوت وأشياء أخرى)[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف الكاذب والخداع في البيع:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: "ورجل بايع رجلاً سلعة بعد العصر فحلف بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك"، (واليمين الكاذبة التي تهضم بها الحقوق، هي اليمين الغموس التي يقصد بها الغش والخيانة، فصاحبها يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب، وهي كبيرة من الكبائر، ولا تنعقد هذه اليمين، ولا كفارة فيها؛ لأنها أعظم من أن تكفر، ولأنها يمين غير منعقدة، فلا توجب الكفارة كاللغو. وتجب التوبة منها، ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع الحقوق وسميت هذه اليمين غموسًا لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في نار جهنم عياذًا بالله. ودليل حرمتها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[2] ولحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((الكبائرُ الإشراك بالله، وعقوق الوالدَين، وقتلُ النفسِ، واليمين الغموسُ))[3])[4].

وفي بيان اختصاص وقت العصر بحرمة الحلف الكاذب في البيع قال ابن هبيرة: (وقوله: "رجل بايع رجلاً بعد العصر"، وتلك هي الصلاة الوسطى التي أمر بالمحافظة

---

(١) النظام الاقتصادي في الإسلام، د. فتحي أحمد عبدالكريم، د. أحمد العسال، ٦٦-٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٢٩٨.

(٤) الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، إعداد نخبة من العلماء، ٣٨٨.

عليها، وذلك الوقت وقت فراغ أصحاب الأعمال، واجتماع الأندية وشهود الناس، فإذا حملت إنسانًا جرأته على الله تعالى أن يحلف به كاذبًا في مشهد من المسلمين؛ فقد تعرض لسخط الله)[١].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: خص وقت العصر بتعظيم الإثم فيه، وإن كانت اليمين الفاجرة محرمة في كل وقت، لأن الله عظّم شأن هذا الوقت بأن جعل الملائكة تجتمع فيه وهو وقت ختام الأعمال، والأمور بخواتيمها، فغلظت العقوبة فيه لئلا يقدم عليها تجرؤًا، فإن تجرأ عليها فيه اعتادها في غيره، وكان السلف يحلفون بعد العصر)[٢].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من مبايعة الإمام لغرض دنيوي:

(الإمام هو من يؤم الناس ويقتدى به في أمور الدين والدنيا، والمراد به هنا إمام المسلمين وحاكمهم)[٣]، قال الماوردي: (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا... وهي نظام واجب بالإجماع، يقيمه بعضهم على العقل، وذلك لأنه لولاه لكان الناس فوضى مهملين، وهمجًا ضائعين، ويقيمه بعضهم على الشرع دون العقل، وذلك لأن أول اختصاص للخليفة حفظ الشرع، فتعيّن الإمام واجب حتم على الجماعة الإسلامية)[٤]، ومبايعته من أجل مال ودنيا دون ملاحظة المقصود الأسمى والغاية العظمى في ذلك، يكون به إثارة الفتنة، وتفريق وضياع الأمة، واستحق من يفعل ذلك شدة العذاب وبؤس العقاب، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم". ثم ذكر ﷺ من ذلك "ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها وفى وإن لم يعطه منها لم يف".

قال ابن هبيرة: (وقوله: "بايع إمامًا لدنيا" يعني: لأجل دنيا، فهو ينوي وقت بيعه أنه إن أعطاه من الدنيا وفى له، وإن لم يعطه منها لم يف له؛ فذلك الذي لا ينظر الله إليه، فأما

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٦/٢٤٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٢١٥ - ٢١٦.

(٣) القيادة والجندية في الإسلام، القسم الأول: "القيادة"، د. محمد السيد الوكيل، ص ٢٤.

(٤) انظر: الأحكام السلطانية ٥.

إذا بايعه قاصدًا بذلك الحق، وجمع كلمة الإسلام؛ فإنه لم يبق له خيار أعطاه أو منعه.

وفي هذا الحديث ما يدل على أن مبايعة الإمام ينبغي ألا تكون راجعة إلى الدنيا؛ بل إلى مصلحة الدين.

وفيه أيضًا: أنه لا يحل لأحد أن يغدر بمن يُبايعه؛ لأن المبايعة مفاعلة لا تكون إلا بين الاثنين؛ فإذا بايع الإنسان فقد بايع طاعته ونصره بثواب الله عز وجل، والمبايعة كحبل له طرفان: أحدهما في الدنيا، والآخر في الآخرة. فالإمام نائب عن رسول الله ﷺ، فإذا بايعه الناس فقد باعوه أنفسهم، يجاهدون بها في سبيل الله بين يديه، وأعطوه مقادتهم، وولوه أمرهم، وكان ثمن ذلك الجنة من الله سبحانه وتعالى، فعلق الرهن، وانعقد العقد، ولم يبق لعاقده فكاك منه في هذه الحياة الدنيا)[1].

وفي بيان سبب استحقاق الوعيد لمن بايع إمامًا لدنيا قال النووي: (وأما الذي بايع الإمام بالصفة المذكورة، فمستحق هذا الوعيد، لغشه المسلمين وإمامهم، وتسببه إلى الفتن بينهم بنكثة بيعته، لا سيما إن كان ممن يقتدى به والله أعلم)[2].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: وفي الحديث وعيد شديد في نكث البيعة والخروج على الإمام، لما في ذلك من تفرق الكلمة، ولما في الوفاء من تحصين الفروج والأموال وحقن الدماء، والأصل في مبايعة الإمام أن يبايعه على أن يعمل بالحق، ويقيم الحدود، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فمن جعل مبايعته لمال يعطاه دون ملاحظة المقصود في الأصل، فقد خسر خسرانًا مبينًا، ودخل في الوعيد المذكور، وحاق به إن لم يتجاوز الله عنه، وفيه أن كل عمل لا يقصد به وجه الله، وأريد به عرض الدنيا، فهو فاسد، وصاحبه آثم)[3].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٤٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٣٦/١٣.

الحديث رقم (١٨٣٨)

١٨٣٨- وعنه، عن النبيِّ ﷺ قال: ((بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أربَعُونَ)) قالوا: يَا أبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قال: أَبَيْتُ. قالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قالَ: أَبَيْتُ. ((وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإنْسَانِ إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ، (ثُمَّ يُنَزِّلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ)[1])). متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أبيت: امتنعت عن القول بتعيين ذلك[3].

البقل: نباتٌ يتغذى به الإنسان[4].

عجب الذنب: العظم الذي في أسفل الظهر عند العجز[5].

الشرح الأدبي

يجيء هذا الحديث في قالب حواري مشوق، والحوار بين أبي هريرة ﷺ وبعض الصحابة، ولم يحددهم الحديث لأن العبرة هنا بمعرفة بعض أخبار إرهاصات يوم القيامة، وهذا شأن يهم كل مسلم للاتعاظ والعبرة، والاستعداد ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون: إلا من أتى الله بقلب سليم، والتقديم والتأخير في قوله: بين النفختين أربعون، للتنبيه والإيقاظ: وللتساؤل عن النفختين ما هما: وما هي الأربعون: وكل ذلك لإيقاظ الحاسة الإيمانية لدى كل مسلم: حتى يتعرف على مشاهد يوم القيامة، ففي ذلك عبرة

---

(١) هذه الزيادة عند البخاري برقم ٤٩٣٥.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ٤٨١٤، و٤٩٣٥، ومسلم ٢٩٥٥/١٤١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤١٤/٨.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب ق ل).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ج ب).

لأولي الألباب، والنفختان هما: نفخة الصعق، ونفخة البعث، وفي ذلك إشارة إلى الآية التي وردت في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1].

ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الحواري: النداء والاستفهام في قول الصحابة يا أبا هريرة: أربعون يومًا أي أأربعون يومًا، وحذفت الهمزة للإيحاء باللهفة والتسرع والتشوق لمعرفة نوعية الأربعين.

والتكرار في صيغة السؤال مع تكرار إجابة أبي هريرة رضي الله عنه: حيث قال: أبيت، ثلاث مرات، وهم يعيدون عليه السؤال: أربعون يومًا، أربعون شهرًا، أربعون سنة، هذا التكرار يكشف عن حرص الصحابة على معرفة حقيقة تمييز العدد، ومعرفة الزمن الذي يكون بين النفختين، ولكن أبا هريرة رضي الله عنه يقول: أبيت، ومادة أبى اللغوية تفيد الامتناع والإصرار على ذلك بدافع الورع والخشية: لأنه لا يعلم ذلك إلا الله، وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون، وقال بعض العلماء: إنها أربعون سنة.

والجزء الثاني من الحديث: يسيطر عليه الأسلوب الخبري: للتوضيح والتفصيل، وقدم الفعل يبلى، للإفادة بأن البلى والفنا هما مصير الإنسان، حتى لا يتوهم أنه من الخالدين، وتغره الأماني، ويغره الشيطان الرجيم، والاستثناء في قوله: إلا عجب ذنبه: للإفادة بأنه سيبقى: أول ما يخلق من الآدمي، وهو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب: وهو رأس العصعص.

والصورة التشبيهية في ختام الحديث لتقريب الحقيقة إلى الأفهام.. وهي توضح كيف يعيد الله الخلق: يقول تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[2]، فرأس العصعص هو الخلية التي تبقى ليعود الإنسان من خلالها كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[3].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٩.

(٣) سورة نوح، الآيتان: ١٧، ١٨.

وما أدق هذه الصورة وما أوفاها: ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، قال ابن فارس: البقل: هو كل نبات: اخضرت به الأرض.

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: البيان والإيضاح وعدم الخوض فيما لا يعلم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ للنفختين وما بينهما.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن فناء كل جسم الإنسان إلا عجب الذنب ثم إنباته ثانية.

أولاً- من صفات الداعية: البيان والإيضاح وعدم الخوض فيما لا يعلم:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في بيانه ﷺ لما بين النفختين من أربعين، وأن كل إنسان يبلى منه كل شيء إلا عجب الذنب، فيه يركب الخلق، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، (وقد أمر الله تعالى الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس وأن يقولوا لهم في أنفسهم قولاً بليغًا، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]، قال الطبري: (هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئًا فليعلمه وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به فيخرج من دين الله، فيكون من المتكلفين، كان يُقَالُ: مَثَلُ علم لا يقال به، كمثل كنز لا ينفق منه، ومثل حكمة لا تخرج، كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب. وكان يقول: طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واع، هذا رجل علم علمًا فعلمه، وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيرًا فحفظه ووعاه، وانتفع به)[2].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[3]، ولا يكون البيان على كماله إلا بالإيضاح الوافي، ولا يكون الكلام بليغًا إلا إذا كان واضحًا للنفوس المخاطبة[4]،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٩٦/٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٣.

(٤) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٢٦ - ٢٧.

ويجب على الداعية عدم الخوض فيما لا يعلم وامتناعه عن الكلام فيه، وهذا ما ظهر في الحديث من (امتناع أبي هريرة ﷺ من تفسير الأربعين بسنة أو شهر أو يوم، وقوله "أبيت" عند سؤالهم إياه عن ذلك في المرات الثلاث؛ فإن قوله "أبيت" إخبار عن نفسه بالإباء، ولعله: أبيت أن أخبر بشيء أنا على غير يقين منه، وليس هذا مما خصصتكم به الآن، وإنما هو عادتي من قبل ألا أذكر إلا بما أتيقنه)[1]، وقال ابن حجر: (أي: امتنعت عن القول بتعيين ذلك لأنه ليس عندي في ذلك توقف)[2]، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[3]، قال ابن كثير: (قال قتادة: أي: لا تقل: رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله)[4].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ للنفختين وما بينهما:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "بين النفختين أربعون" قال القرطبي: (يعني: نفختي الصعق والبعث، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[5])[6] (والصور: قرن من نور ينفخ فيه، النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء ...، والأمم مجمعة على أن الذي ينفع في الصور إسرافيل ﷺ)[7] وقد أكد النبي ﷺ على نفختي الصعق والبعث فقال: ((ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ. فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا. قَالَ وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ. قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ. ثُمَّ يُرْسِلُ

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٤٩/٦.
(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٤/٨.
(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٥/٥.
(٥) سورة الزمر، آية: ٦٨.
(٦) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٠٦/٧.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٧٩/١٥/٨.

اللّهُ -أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللّهُ- مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ (نُعْمَانُ الشَّاكُّ) فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ))[1]. وقال القرطبي في قوله تعالى "فإذا هم قيام ينظرون" (أي: فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون. وقيل: قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به، وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي ينتظرون ما يفعل بهم)[2].

وقد بيّن النبي ﷺ أن بين النفختين أربعين، فقالوا: يا أبا هريرة! أربعون يومًا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، وفي بيان ذلك قال النووي: (معناه: أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يومًا أو سنة أو شهر، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة)[3].

وقال ابن هبيرة: (فإن الأظهر في قوله ﷺ "ما بين النفختين أربعون" أن تكون سنين لا أيامًا ولا شهورًا، فإن النفخة من جملة آيات الله سبحانه؛ لأن أضعف ما يكون من بطش الآدمي هو النفخ، فأعلمنا رسول الله ﷺ بما نعرفه فيما بيننا أن أضعف ما ترون من بطش الآدمي أن ينفخ، فهذه النفخة يموت بها الخلق كلهم، ثم ينفخ أخرى في الموتى بأسرهم، ردًا بذلك على من زعم أن الموت أو الإحياء يكون من تأثيرات الطبع، فلما أميت الخلائق بالنفخ، وأحيوا بالنفخ، استدل بذلك المؤمنون على بطلان ما زعمه الطبائعيون، وهذا أمر يراه الكفار يوم القيامة رؤيا عين، فيصدقون به حين لا ينفعهم تصديقهم.

... إلا أنا إن صرفنا ما بين النفختين إلى أربعين سنة؛ فإنه من حيث إن بلوغ الإنسان أشده يكون في أربعين سنة كما قال الله عز وجل[4]، وإن قدرناه باليوم فالحديث

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣١٢/١٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠٦.

(٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [سورة الأحقاف، آية: ١٥].

الصحيح: ((يُجمَعُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثم عَلَقةً مِثلَ ذلك))[1] فكل طور من الأطوار أربعون يومًا)[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن فناء كل جسم الإنسان إلا عجب الذنب ثم إنباته ثانية:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: "ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب الذنب فيه يركب الخلق ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل"، قال ابن هبيرة: (وأما عجب الذنب، فهو العظم الذي يجد اللامس سنه في وسط الوركين، وهو العصص)[3]، وقال النووي: (أي: العظم اللطيف في أسفل الصلب وهو: رأس العصعص ويقال له عجم بالميم وهو أول ما يخلق من الآدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه)[4]، وقد أكد النبي ﷺ على ذلك فقال: ((كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ. مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ))[5]، قال النووي: (وهذا مخصوص فيخص منه الأنبياء عليهم السلام فإن الله حرم على الأرض أجسادهم)[6].

وقد ألحق "القرطبي"[7] بهم المؤذن المحتسب لقوله ﷺ ((المُؤذِّنُ المحتَسِبُ كالشَّهيدِ المُتَشَحِّطِ في دَمِهِ، وإنْ ماتَ لم يُدَوَّدْ في قَبْرِهِ))[8].

وقد اجتهد العلماء في معرفة الحكمة من إبقاء عجب الذنب. فقال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: قال ابن عقيل: لله في هذا سر لا يعلمه إلا الله، لأن من يظهر الوجود من

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٢١، ٣٠٣٦، ٧٠١٦، ومسلم ٢٦٤٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٤٨/٦-٣٤٩.

(٣) المرجع السابق ٣٢٨/٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠٦.

(٥) أخرجه مسلم ٢٩٥٥.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٠٦.

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٠٧/٧.

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير ١٣٥٥٤/١٢. قال الهيثمي في المجمع ٣/٢. وفيه محمد بن الفضل القسطاني ولم أجد من ذكره.

العدم لا يحتاج إلى شيء يبني عليه، ويحتمل أن يكون ذلك جعل علامة للملائكة على إحياء الإنسان بجوهره، ولا يحصل العلم للملائكة بذلك إلا بإبقاء عظم كل شخص، ليعلم أنه إنما أراد بذلك إعادة الأرواح إلى تلك الأعيان التي هي جزء منها، ولولا إبقاء شيء منها لجوزت الملائكة أن الإعادة إلى أمثال الأجساد لا إلى نفس الأجساد، وقوله في الحديث: "ويبلى كل شيء من الإنسان"، يحتمل أن يراد به يفنى أي تعدم أجزاؤه بالكلية، ويحتمل أن يراد به يستحيل فتزول صورته المعهودة فيصير على صفة جسم التراب، ثم يعاد إذا ركبت إلى ما عهد)[1].

وهذا ما بينه النبي ﷺ في نص الحديث من قوله ﷺ: "ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل" قال القرطبي: (وقوله: "ثم يُنزل الله من السماء ماءً" يعني به بعد نفخة الصعق ينزل هذا الماء الذي هو "كمني الرجال"[2]، فتتكون فيه الأجسام بقدرة الله تعالى، وعن ذلك عبّر بقوله: فينبتون كما ينبت البقل، فإذا تهيَّأت الأجسام، وكملت، نفخ في الصور نفخة البعث، فخرجت الأرواح من المحال التي هي فيها. قال بعضهم: فتأتى كل روح إلى جسده فيحييها الله تعالى، كل ذلك في لحظة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[3])[4].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤١٥/٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٩٤٠.

(٣) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٠٦/٧.

الحديث رقم (١٨٣٩)

١٨٣٩- وعنه، قال: بَيْنَمَا النَّبيُّ ﷺ في مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَومَ، جَاءَ أَعْرَابيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رسولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقالَ بَعْضُ القَومِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إذَا قَضَى حَدِيثَهُ قالَ: **((أيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟))** قال: هَا أنا يَا رسُولَ اللهِ. قال: **((إذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))** قال: كَيفَ إضَاعَتُهَا؟ قال: **((إذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))** رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

وُسِّدَ: أسند[2].

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث حوارًا في مجلس من مجالس رسول الله ﷺ وقد كانت مجالسة ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله وترغيب وترهيب، ولذلك كانت تلك المجالس توجب أصحابه رقة القلوب، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

وهذا المجلس مشهد من مشاهد السيرة النبوية الجليلة، والمشهد يبدأ بوصف الراوي لمجيء الأعرابي وقت حديث رسول الله ﷺ للقوم، وانشغاله بذلك، ولم يستأذن الأعرابي لبداوته وغلظته: وكلمة: "أعرابي": توحي بذلك، ولم يقل جاءه رجل، لأن الأعرابي لم يألف عادات الحضر، ولم يتعود على الاستئذان والانتظار، وقد اقتحم المجلس وقال: متى الساعة؟ ومن أدب الحوار، وأدب السؤال أن يظل المرء صامتًا مصغيًا حتى ينتهي المتحدث من حديثه، ثم يسأل، والأعرابي لم يفعل ذلك، ومن هنا ندرك سر

(١) برقم ٥٩.

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (و س د).

إعراض الرسول ﷺ عنه، وهذا يتضح جليًا في قوله الراوي في صيغة إخبارية فمضى رسول الله ﷺ يحدث، وجملة يحدث: في موقع الحال: وهي كذلك في بداية الحديث: "يحدث القوم" تصف حالة الرسول ﷺ وهو في مجلسه مشغول بحديث الذكر والعبادة، وتعليم المسلمين ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم.

وينبثق حوار جانبي بين الجالسين من خلال هذا المشهد تفسيرًا لهذا الإعراض، فقال بعضهم: سمع ما قال: فكره ما قال: وفي هذا الكلام إيجاز حيث حذف الفاعل من الأفعال الأربعة، والتقدير سمع رسول الله ﷺ ما قال الأعرابي، وكره رسول الله ﷺ ما قال الأعرابي، والحذف هنا يقتضيه المقام للعلم بالسامع والقائل، وكذلك لأن المقام لا يناسب كثرة الكلام، فالإصغاء إلى رسول الله ﷺ واجب شرعي، وقال بعضهم بل: وهي للإضراب عن التفسير السابق، وقالوا: لم يسمع، ويطل المشهد الثالث في هذا المجلس العامر: ويتأكد لدى الصحابة أن رسول الله ﷺ سمع، ولذلك قال بعد أن انتهى من حديثه: أين السائل عن الساعة، وفي ذلك تلطف من رسول الله ﷺ، وحسن معاملة، وقوله: ها أنا: للتنبيه عن نفسه، والنداء في قوله: يارسول الله للإفصاح عن تقديره لرسول الله ﷺ والاعتراف والإقرار بالرسالة، وعدم تشككه، ولكن السؤال حقيقي حتى يعرف ويفهم ما استغلق عليه.

وتأتي إجابة رسول الله ﷺ شافية كافية: فهو لم يحدد زمن قيام الساعة لأن ذلك علمه عند الله، وإنما ذكر بعض أمارات قيام الساعة، ومنها: تضييع الأمانة، وجاء ذلك في قالب الشرط والجواب، وأداة الشرط "إذا" وهي للتحقق، أي وقت أن تضيع الأمانة تضييعًا حقيقيًا، وقوله: "فانتظر" يوحي بأن ذلك من أمارات قيام الساعة، ويتسع صدر رسول الله ﷺلمزيد من تساؤل الأعرابي، حين يقول: كيف إضاعتها؟ ويعيد رسول الله ﷺ الأسلوب الشرطي في إجابته مع أداة الشرط إذا فيقول: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة، وتكرار قوله "فانتظر الساعة"، للتأكيد على أن هذه الأمارات من الإرهاصات والنذر الحقيقية لقيام الساعة، والله أعلم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- التنبيه على أدب العالم والمتعلم، أما العالم فلما تضمنه من ترك زجر السائل، بل أدبه بالإعراض عنه أولاً حتى استوفى ما كان فيه، ثم رجع إلى جوابه، فرفق به لأنه من الأعراب وهم جفاة، وأما المتعلم فلما تضمنه من أدب السائل أن لا يسأل العالم وهو مشتغل بغيره، لأن حق الأول مقدم[١].

٢- أخذ الدروس على السبق وكذا الفتاوى والحكومات وغيرها[٢].

٣- مراجعة العالم إذا لم يفهم ما يجيب به حتى يتضح[٣].

٤- فيه إشارة إلى أن العلم سؤال وجواب[٤].

٥- أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عبادة وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلدوا غير أهل الدين، فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياها[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من ميادين الدعوة: المجالس.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان آداب العالم والمتعلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: من أشراط الساعة تضييع الأمانة.

أولاً- من ميادين الدعوة: المجالس:

هذا ما ورد في الحديث من قول أبي هريرة رضي الله عنه: (بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم)، فالمجالس من أهم الميادين الدعوية، في تحقيق الاتصال بين المسلمين

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٧٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٧٨.

(٤) المرجع السابق ١/١٧٩.

(٥) المرجع السابق ١١/٣٩١.

بعضهم بالبعض الآخر، لتوثيق الأخوة الإسلامية، وتقوية روابطها بين أفراد الأمة الواحدة، فضلاً عن إمكانية استغلالها في الدعوة من خلال التذكير بقيم الدين وشرعه، والتذكير بنعم الله سبحانه وتعالى[1]، فحري بالدعاة أن يجعلوها طريقًا للإرشاد والدعوة إلى الله، وفي ذلك عظيم الأجر والفلاح.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان آداب العالم والمتعلم:

يستفاد هذا من قول أبي هريرة ﷺ: "بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث ...، حتى إذا قضى حديثه قال: أين السائل عن الساعة؟ .. إلخ"، وقد أفرد البخاري لهذا الحديث "باب مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وهو مُشتغلُ في حديثه فأتمَّ الحديثَ ثُمَّ أجابَ السائلَ". قال ابن حجر: (وذلك محصلة التنبيه على أدب العالم والمتعلم، أما العالم فلما تضمنه من ترك زجر السائل، بل أدبه بالإعراض عنه أولاً حتى استوفى ما كان فيه، ثم رجع إلى جوابه فرفق به لأنه من الأعراب وهم جفاة. وفيه العناية بجواب سؤال السائل ولو لم يكن السؤال متعينًا ولا الجواب، وقد بين ابن حجر أن السؤال إن كان من الأمور التي ليست معرفتها على الفور مهمة فيؤخر الجواب كما في هذا الحديث، ولا سيما إن كان ترك السؤال عن ذلك أولى ...، أما إن كان السائل به ضرورة ناجزة فتقدم إجابته، كما في حديث أبي رفاعة عند مسلم ((أنه قال للنبي ﷺ وهو يخطب: رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ. لاَ يَدْرِي عنْ دِينُهُ، فتَرَكَ خُطْبَتَهُ وأتى بِكُرْسِيَ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ فَجَعَلَ يُعَلِّمُه، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا))[2].

أما المتعلم فقد بين ابن حجر أن من آدابه أن لا يسأل العالم وهو مشتغل بغيره لأن حق الأول مقدم)[3]، وكان من الآداب المتعينة على المتعلم والمستنبطة من نص الحديث هو تعظيم (العالم وتوقيره، فقد قيل: ما وصل من وصل إلا بالحرمة، وما سقط من

---

(١) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، الهجاري ص ٢١٦ - ٢٢٨.

(٢) أخرجه مسلم ٨٧٦.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٧١-١٧٢.

سقط إلا بترك الحرمة - أي احترام العالم والعلم، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنت عبد من علمك حرفًا واحدًا، إن شاء باع، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرق ثم أنشد:

رأيتُ أحقَّ الحقِّ حقَّ المعلِّمِ وأوجبهُ حفظًا على كلِّ مسلمِ

لقد حَقَّ أنْ يُهدَى إليه كرامةً لِتَعْليمِ حَرْفٍ واحدٍ ألفُ درهمِ

ومن توقير العالم ألا يمشي أمامه، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده، قال الشاعر:

إنَّ المعلمِ والطبيبَ كلاهُما لا يَنصحانِ إذا هُما لم يُكرمَا

فاصبرْ لدائِكَ إنْ جفوتَ طبيبهُ واقنعْ بجهْلِكَ إن جفوت معلمًا

وحكى أن الخليفة هارون الرشيد: بعث ابنه إلى الأصمعي ليعلمه العلم والأدب، فرآه يومًا يتوضأ ويغسل رجله، وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعاتب الأصمعي في ذلك بقوله: إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه، فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه، ويغسل بالأخرى رجلك؟"[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: من أشراط الساعة تضييع الأمانة:

هذا ما ورد في نص الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"، والأمانة لغة: ضد الخيانة[2]، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[3]، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم كيف ترفع الأمانة من القلوب، وأنه لا يبقى منها في القلب إلا أثرها: فعن حذيفة رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيتُ

---

(١) انظر: تعليم المتعلم طرق التعليم، الزرنوجي، ١٠٦-١٠٧.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٢/٢١ - ٢٢ مختصرًا.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

أحدَهما وأنا أنتظرُ الآخر، حدَّثنا أن الأمانةَ نزلت في جَذر[1] قلوبِ الرجال، ثمَّ علموا منَ القرآن، ثم علموا من السُّنَّة، وحدَّثنا عن رفعِها قال: ((يَنامُ الرجلُ النَّومة فتُقبضُ الأمانةُ من قَلبهِ، فيَظلُّ أثرُها مثل أثرِ الوَكت[2]. ثم ينام النومة فتُقبضُ، فيبقى أثرُها مثلَ المجْل[3]، كجمْر دَحْرجتَهُ على رِجلكَ فنَفِط[4]، فتَراهُ مُنتَبرًا وليسَ فيه شيء. فيُصبحُ الناسُ يَتبايعون، فلا يكادُ أحدُهم يُؤدِّي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجُلاً أمينًا. ويقال للرَّجل ما أعقلَهُ وما أظرفَهُ وما أجلدَه، وما في قلبهِ مثقالُ حبةِ خَرْدَلٍ مِن إيمان. ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أُبالي أيُّكم بايعتُ، لئنْ كان مسلمًا ردَّهُ عليَّ الإِسلام، وإن كان نصرانيًا ردَّه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنتُ أُبايعُ إلا فلانًا وفلانًا))[5].

(ففي هذا الحديث بيان أن الأمانة سترفع من القلوب، حتى يصير الرجل خائنًا بعد أن كان أمينًا، وهذا إنما يقع لمن ذهبت خشيته لله، وضعف إيمانه، وخالط أهل الخيانة، فيصيرُ خائنًا؛ لأن القرين يقتدي بقرينه. ومن مظاهر تضييع الأمانة إسناد أمور الناس من إمارة وخلافه وقضاء ووظائف على اختلافها إلى غير أهلها القادرين على تسييرها، والمحافظة عليها؛ لأن في ذلك تضييعًا لحقوق الناس، واستخفافًا بمصالحهم، وإيغارًا لصدورهم، وإثارة للفتن بينهم)[6]، فإذا ضيّع من يتولى أمر الناس الأمانة -والناس تبع لمن يتولى أمرهم-؛ كانوا مثله في تضييع الأمانة، فصلاح حال الولاة صلاح لحال الرعية، وفساده فساد لهم، ثم إن إسناد الأمر إلى غير أهله دليل واضح على عدم اكتراث الناس بدينهم، حتى إنهم ليولون أمرهم من لا يهتم بدينه، وهذا إنما يكون

---

(١) الجَذْر: الأصل من كل شيء، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٤١.

(٢) الوَكْت: أثر الشيء اليسير منه، انظر: المرجع السابق.

(٣) المجْل: أثر العمل في الكف إذا غلظ، انظر: المرجع السابق.

(٤) فَنَفِط: أي صار منتفطًا وهو المنتبر، يقال انتبر الجرح وانتفط، إذا ورم وامتلأ ماء، انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٤٣.

(٥) أخرجه البخاري ٦٤٩٧.

(٦) انظر: قبسات من هدي الرسول ﷺ في العقائد، على الشربجي، ط/١ دار القلم، دمشق: ١٣٩٨هـ، ص ٦٦، نقلاً عن أشراط الساعة، يوسف الوابل ص ١٣٠.

عند غلبة الجهل، ورفع العلم)[1]، ولهذا ذكر البخاري حديث أبي هريرة ﷺ -الذي قال فيه النبي ﷺ: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة .. إلخ - في كتاب: العلم؛ إشارة إلى هذا، وفي ذلك قال ابن حجر: "ومناسبة هذا المتن لكتاب العلم أن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عن غلبة الجهل، ورفع العلم، وذلك من جملة الأشراط"[2].

---

(١) أشراط الساعة، يوسف الوابل ص ١٣٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٧٣/١.

الحديث رقم (١٨٤٠)

١٨٤٠- وعنه: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال: ((يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ)). رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الإيجاز هو السمة التي تتجلى في هذا الحديث الشريف، فهو يتكون في بنائه اللغوي من ثلاث جمل ويعتمد على صيغة الغائب والمخاطب، فالجملة الأولى إخبارية فعلية فعلها مضارع حيث يقول: يصلون لكن، وهذه الصيغة تدعو للتساؤل: مَنْ هؤلاء الذين يصلون لنا، والمخاطبون هم المسلمون: ففي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير لكم أيها المسلمون، والمصلون هم الأئمة، وهم قادة الأمة وساستها، لأن الإمام في الإسلام، هو الراعي والقائد والمسؤول عن تدبير أمر الأمة والقيام على شؤونها، وصيغة المضارع تفيد الاستمرار، فهذه الصيغة توحي بوجوب استمرار الرعاية والقيادة والإمامة، ولكن هذا الوجوب قد تنقصه المواقف وعدم الاستجابة أو الخلل في الأداء، وعندما يتسرب الخلل إلى الصلاة، فإن أضراره لا ينجو منها أحد: الأئمة والأمة.

ولذلك جاءت الجملتان الباقيتان في صيغة: الشرط والجزاء، لتفصح عن المصير الذي ينتظر الذين يقومون بالعمل الصحيح، ويصيبون، ومصيرهم النجاة والفوز، "فإن أصابوا فلكم"، أي فلكم الأجر، وحذف للتعميم حتى يعم الفضل الشامل، وأداة الشرط هنا: "إن"، وهي ليست للتحقق، وفي ذلك إشارة إلى أن الصواب قد يجانب الأئمة فيحيدون عنه، فهم يصيبون ويخطئون، والشرط في الجملة الثالثة، يعرض لموقف مقابل للموقف الأول، وهو الخطأ، حيث يقول: وإن أخطئوا فلكم وعليهم، فضرر

---

(١) برقم ٦٩٤. أورده المنذري في ترغيبه ٦٧٧.

الخطأ يلحق بالأمة والأئمة، والمقابلة بين الموقفين في هاتين الصورتين المتضادتين مع تعميم العقاب في الصورة الثانية: فيها حث للمسلمين على حسن اختيار أئمتهم، وعدم نفاقهم، وعدم التغاضي عن أخطائهم، لأن صلاح الأمة من صلاح الأئمة، وكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: لزوم أمر الحاكم وعدم الخروج عليه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: البعد عن الخلاف وتفريق الأمة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: لزوم أمر الحاكم وعدم الخروج عليه:

مما لاشك فيه أن الخروج على الحاكم من أعظم المفاسد، فهو ثلمة لا تسد وفتنة لا ترد، به يكون تفريق الجماعة وشق عصا الطاعة، فتضعف شوكة المسلمين، وتزول وحدتهم، ومن أجل ذلك حث النبي ﷺ على لزوم أمر الحاكم وعدم الخروج عليه، وهذا ما يستفاد من نص الحديث في قوله ﷺ "يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم" قال ابن حجر: (وقوله ﷺ "يصلون" أي "الأئمة" وقوله ﷺ "فإن أصابوا فلكم" أي: ثواب صلاتكم)[1] وقال ابن عثيمين: (أي: فإن أحسنوا في الصلاة وأتوا بها على ما ينبغي؛ فذلك لكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم -يعني ليس عليكم أنتم من إساءتهم من شيء- وفي هذا إشارة إلى أنه يجب الصبر على ولاة الأمر- وإن أساءوا في الصلاة...، فضلاً عن أن الشذوذ عن الناس، وعن ولاة الأمور والبعد عنهم، وإثارة الناس عليهم، ونشر مساوئهم، مجانب لدين الله)[2].

وقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[3] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٢٢٠.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/ ١٨٧٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٩.

قال: ((مَن أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصاني فقد عَصى اللهَ، ومَن يُطِعِ الأميرَ فقد أطاعَني، ومَن يَعصِ الأميرَ فقد عصاني))[1] وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ((إنَّ خَلِيلي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الأَنْفِ))[2] وعند البخاري: ((وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))[3] وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من رأى من أميرِه شيئًا يكرَهه فلْيصبرْ عليه، فإنه من فارقَ الجماعةَ شبرًا فمات إلا مات ميتةً جاهليةً))[4] وعن حذيفة رضي الله عنه قال: ((كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم. وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: نعم! هم قومٌ من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتا، قلت: يا رسول الله: فما ترى؟ وفي رواية: ما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم؟ قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك.

وفي رواية: وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع وإن ضُرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع))[5].

قال ابن هبيرة: (وفي الحديث أن المؤمن إذا بُلي بذلك في وقت أمير جائر من ضرب

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٣٧، ومسلم ١٨٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٦٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٩٣، ٦٩٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧٠٥٣، ٧٠٥٤.

(٥) أخرجه البخاري ٦٦٧٣، ومسلم ١١٤٧.

ظهره وأخذ ماله، فإنه لا يخرج عليه ولا يحاربه، بل يسمع ويطيع، فإنه بخروجه يزيد الفتن شرًا)[١].

وقال ابن أبي العز: (وفي ذلك دليل على وجوب طاعة أولي الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، فتأمل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢] كيف قال: "وأطيعوا الرسول"، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؟ لأن أولي الأمر لا يُفرَدُونَ بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله، وأعاد الفعل مع الرسول، لأنه من يطع الرسول، فقد أطاع الله، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر، فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يطاع إلا فيما هو طاعة الله ورسوله، وأما لزوم طاعتهم وإن جارُوا، فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلّطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل)[٣].

(وواجب المسلم عندما يرى معصية الله ورسوله، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يقدم النصح ما وسعه ذلك، ولا يشق عصا الطاعة ويفرق الجماعة)[٤].

وقال ابن تيمية: (إن ما أمر به النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم، هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وأن من خالف ذلك متعمدًا أو مخطئًا؛ لم يحصل بفعله صلاح، بل فساد، ولهذا أثنى الرسول ﷺ على الحسن عليه السلام بقوله: ((إِنَّ ابني هذا سَيِّد، وسيُصلِحَ الله بِهِ بين فِئَتَينِ عظيمتَين منَ المسلمين))[٥] ولم

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٩٩/٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ٥٤٠/٢-٥٤١.

(٤) انظر: القيادة والجندية في الإسلام، القسم الأول "القيادة"، د. محمد السيد الوكيل ص ٣٧.

(٥) أخرجه البخاري ٣٧٤٦.

يُثنِ على أحد لا بقتال في فتنة، ولا بخروج على الأئمة، ولا نزع يد من طاعة ولا بمفارقة الجماعة)[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: البعد عن الخلاف وتفريق الأمة:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالاجتماع والألفة وعدم الفرقة فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٢].

(فالله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة، ورحم الله ابن المبارك حيث قال:

إنَّ الجماعةَ حبلُ اللهِ فاعتصِمُوا ... منه بعُرْوَتِهِ الوُثْقَى لِمَن دَانا

وقوله تعالى "ولا تفرقوا يعني في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم، ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانًا، فيكون ذلك منعًا لهم عن التقاطع والتدابر)[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤] قال ابن كثير: (فالله تعالى ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين في تفرقهم واختلافهم)[٥].

وقد رهب النبي ﷺ فيمن خالف ذلك، وسعى في تفريق وحدة الأمة، فقال: ((إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ، وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ

---

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ٥٤٣/٤ وما بعدها، نقلًا عن رفع الاشتباه عن معنى العباد والإله، عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ت: الداني بن منير آل زهوي، ط/١، المكتبة العصرية، بيروت: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ١٠٤-١٠٥.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٤١/٥.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ٩١/٢.

بِالسَّيْفِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ))[1]، قال النووي: (فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام وأراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك وينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدرًا)[2]، وقال ﷺ: ((مَنْ أَتَاكُمْ، وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ، عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ))[3]، قال النووي: (في قوله ﷺ "يرد أن يشق عصاكم"، معناه: يفرق جماعتكم كما تفرق العصاة المشقوقة وهو عبارة عن اختلاف الكلام وتنافر النفوس، وقوله ﷺ "فاقتلوه"، معناه: إذا لم يندفع إلا بذلك)[4]. (وقد أفرد الإمام مسلم في صحيحه باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة)[5]، وفي ذلك قال ابن تيمية: (وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة وفي غيرها وهو التفريق والاختلاف فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها، من ملوكها ومشايخها، وغيرهم من ذلك ما الله به عليم، وإن كان بعض ذلك مغفورًا لصاحبه لاجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه، أو لحسناته الماحية، أو توبته أو لغير ذلك، لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة)[6]، وفي ذلك بيان على أهمية الجماعة والبعد عن شر الخلاف وتفريق الأمة.

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٥٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٩٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٥٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٩٧.

(٥) انظر: صحيح مسلم ٧٧١.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٥٦٨/١١.

الحديث رقم (١٨٤١)

١٨٤١- وعنه رضي الله عنه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ١١٠] قالَ: خَيْرُ النَّاسِ للنَّاسِ يَأْتُونَ بِهِمْ في السَّلاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا النص: من كلام أبي هريرة رضي الله عنه، ولم يقل فيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن قال العلماء إن هذا موقوف عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢]. ولذلك تصدر هذا الجزء من الآية الكريمة: هذا النص الذي استمد أبو هريرة رضي الله عنه معناه من الحديث التالي، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عجب الله عز وجل: من قوم يدخلون الجنة في السلاسل.

والحديث في صياغته الأسلوبية يعتمد على ما يسمى في تحليل النص ونقده بـ "لغة المفارقة" وهي الجمع بين الشيء وضده في سياق واحد، فالحديث يبدأ بتقريره الخيرية، بل الأفضلية في الخير، والسامع يتوقع ثمار هذا الخير، متمثلة في عطاء جميل، وعمل نبيل، وفعل مرغب، ونصيحة رقيقة سديدة، وتعاون في المواقف العصبية، ولكن المفارقة الموضوعية والأسلوبية، تتجلى في هذا المشهد المثير، الذي يوحي ظاهره بالتحكم والتسلط "يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم" فهذا مشهد يوحي بالعذاب: وهو مشهد أسرى الحروب، ولكن ختام الحديث يضيء هذا الموقف، ويفك أغلال هذا التناقض الظاهري، حيث يقول: حتى يدخلوا في الإسلام، فهؤلاء الأسرى لا يقادون لحتفهم، ولكن ينعمون بالحرية في ظلال الإسلام، ويمن الله عليهم بالأمن والأمان،

---

(١) برقم ٤٥٥٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

لأنهم انتقلوا بعد الأسر من حياة الكفر إلى حدائق الإيمان، وقال العلماء: في قوله: يأتون بهم في السلاسل: بيان لكمال لطف الله بهم، وأنهم يؤسرون على ما يحوزون به الشرف في الدارين، فأسرهم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة: لأنه قادهم إلى قضاء الحرية في ظل عزة الإسلام، وحلاوة الإيمان.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من مصادر الدعوة: القرآن الكريم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان فضل دعوة الناس للإسلام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين وفضله في إدخالهم الجنة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: هداية الناس وإصلاحهم.

أولاً- من مصادر الدعوة: القرآن الكريم:

هذا ما ورد في الحديث من ذكر قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

والقرآن الكريم هو (كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة المختتم بسورة الناس)[3]، (وهو الرباط بين السماء والأرض، وعهد بين الله وبين عباده، وهو منهاج الله الخالد وميثاق السماء الصالح لكل زمان ومكان، وهو أشرف الكتب السماوية، وأعظم وحي نزل من السماء لا يدانيه كلام، وحديث لا يشابهه حديث)[4]. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[5] ولقد رفع الله شأنه ونوه بعلو منزلته فقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾[6] كما وصفه سبحانه

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٨٤١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٤٢).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٨٨/١، التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، ٦.

(٤) ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، د. حمد بن ناصر العمار ص ٣.

(٥) سورة النساء، آية: ٨٧.

(٦) سورة طه، آية: ٤.

وتعالى بعدة أوصاف، مبينًا فيها خصائصه التي ميزه بها عن سائر الكتب، فقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] (فهو المعجز للناس بلفظه، ونظمه، وأسلوبه، وهدايته، وتأثيره، وعلومه، أعجز الفصحاء البلغاء، وأخرس الأدباء والشعراء، وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يجد أحد منهم جوابًا، ولاذوا بالصمت والفرار)[2]، فالقرآن الكريم هو المصدر الأصيل والنبع العظيم في الدعوة إلى الله.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان فضل دعوة الناس للإسلام:

هذا ما ورد في الحديث من قول "خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلون الجنة"، قال ابن حجر: (أي: خير بعض الناس لبعضهم، أي أنفعهم لهم، وإنما كان ذلك لكونهم كانوا سببًا في إسلامهم)[3]، وقد بين الحق تبارك وتعالى عظم فضل الداعي إلى الله بأنه من أحسن الناس قولاً، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4] (وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلامًا وطريقة، وحالة "ممن دعا إلى الله" بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها)[5] (وكل من يقوم بالدعوة إلى الله، فإنما يستحق هذه البشرى، ويستحق المدح

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥-١٦.

(٢) ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، د. حمد بن ناصر العمار ص ٤.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧٣/٨.

(٤) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ٦٩٤.

المذكور فيها، أيامًا كانت طريقته في قيامه بهذه الدعوة)[1] وذلك فضلاً عن عظم جزاء وثواب من كان سببًا في هداية غيره إلى الإسلام، وهذا ما ظهر جليًا من قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في فتح خيبر: ((انفُذْ على رِسْلِكَ حتى تنزلَ بساحَتهم، ثم ادْعهم إلى الإسلام، وأخبِرْهم بما يَجِبُ عليهم من حقّ اللّهِ فيه، فواللّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بكَ رجُلاً واحدًا خيرٌ لكَ مِن أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَم))[2]. قال النووي في قوله ﷺ: ("حمر النعم" هي: الإبل الحمر، وهي: أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه...، وتشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا، إنما هو للتقريب من الإفهام، وإلا فذرة من الآخرة الباقية خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها لو تصورت)[3]. وقال ابن حجر في بيان قوله ﷺ "حمر النعم" (وهو من ألوان الإبل المحمودة، قيل المراد خير لك من أن تكون لك فتتصدق بها، وقيل تقتنيها وتملكها، وكانت مما تتفاخر العرب بها)[4]. وفي ذلك بيان لفضل دعوة الناس للإسلام.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين وفضله في إدخالهم الجنة:

هذا ما ورد في قوله ﷺ "عجب اللّهُ من قوم يدخلون الجنة في السلاسل" قال الطيبي: (وقيل أراد بالسلاسل ما يرادون به من قتل الأنفس، وسبي الأزواج والأولاد، وتخريب الديار، وسائر ما يلجئهم إلى الدخول في الإسلام، الذي هو سبب دخول الجنة، فأقام المسبب مقام السبب. ويحتمل أن يكون المراد بها جذبات الحق، التي يجذب بها خالصة عباده من الضلالة إلى الهدى، ومن الهبوط في مهاوي الطبيعة، إلى العروج بالدرجات إلى جنة المأوى)[5]، وهذا ما بينه ابن هبيرة في قوله: (إن الله تعالى لو وكل الناس إلى نهضاتهم لأبطأوا جدًا، ولكنه سبحانه يدخلهم الجنة في السلاسل، أي:

---

(١) فضائل الدعوة إلى الخير والتبليغ لدين الله، محمد يحيى الكاندهلوي ص ٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٤٢، ومسلم ٢٤٠٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤٧١.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥٤٦/٧.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٥/٨.

يسلكهم طرق الجنة على كره منهم)[١]، وما ذلك إلا لعظيم رحمته تعالى بعباده المؤمنين، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «وَلاَ أَنَا. إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فسددوا وقاربوا... إلخ))[٢]، قال النووي: (ومعنى يتغمدني برحمته: يلبسنيها ويغمدني بها، ومنه أغمدت السيف وغمدته، إذا جعلته في غمده وسترته به)[٣]، وقال الطيبي: (قال التوربشتي: ليس المراد بهذا الحديث نفي العمل، وتوهين أمره، بل توقيف العباد على أن العمل إنما يتم بفضل الله ورحمته، لئلا يتكلموا اغترارًا بها، فإن الإنسان ذا السهو والنسيان، وعرضة الآفات، قلما يخلص له عمل من شائبة رياء، أو فساد نية، ثم إن سلم له العمل عن ذلك، فلا يسلم إلا برحمة من الله، ثم إنَّ أَرْجَى عمل من أعماله لا يفئ بشكر أدنى نعمة من نعم الله، فَأَنَّى له أن يستظهر بعمل، لم يهتد إليه إلا برحمة من الله وفضل منه!)[٤]. وهذا ما أكده القاضي نصر الدين في قوله: (إن النجاة من العذاب، والفوز بالثواب، بفضل الله ورحمته، والعمل غير مؤثر فيهما على سبيل الإيجاب، بل غايته أنه يعد العامل لأن يُتَفضل عليه، وتقرب إليه الرحمة، ومعنى قوله "إلا أن يتغمدني الله برحمته" يحفظني بها كما يحفظ السيف في غمده، ويجعل رحمته محيطًا بي إحاطة الغلاف بما يحفظ)[٥].

رابعًا- من أهداف الدعوة: هداية الناس وإصلاحهم:

هذا ما يستفاد من نص الحديث الأول حيث أخبر ﷺ: "أن خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام"، قال د. الحسيني هاشم: (فيه أن نفع المسلمين للناس إرشادهم إلى الإسلام ودعوتهم إليه، وأن إكراههم على

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٣٦٦/٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٧٣، ومسلم ٢٨١٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٤٩.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ١٢٨/٥-١٢٩.

(٥) المرجع السابق، ١٢٨/٥.

الإسلام نافع، لهم ومن خير الأعمال التي توجه إليهم والخيرات التي تقدم لهم، وإن كان الإكراه على الدين غير مطلوب) [١].

وفي الحديث الثاني قال ﷺ: "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل"، قال د. الحسيني هاشم: (فيه الحديث عن الأسرى الذين يدخلون في الإسلام فيزحزحون عن النار إلى الجنة، ورضا الله تعالى عن إسلامهم بعد كفرهم العنيد) [٢].

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالحرص على هداية الناس وإصلاحهم فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٣] قال ابن كثير: (يقول تعالى "ولتكن منكم أمة" أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...، والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه) [٤].

وقال السعدي: (في قوله تعالى "يدعون إلى الخير" وهو الدين، وأصوله، وفروعه، وشرائعه، وقوله تعالى: "يأمرون بالمعروف" وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلاً، وقوله تعالى "وينهون عن المنكر" وهو ما عرف قبحه شرعًا وعقلاً، وقوله تعالى "وأولئك هم المفلحون" أي المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب، ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عمومًا وخصوصًا، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات، فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة) [٥].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٨٢٧.

(٢) المرجع السابق ٨٢٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ٨/٩١.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١١٢.

وقد كان النبي ﷺ أشد الناس حرصًا على هداية الناس وتعليمهم وتزكيتهم، وقد بين الحق تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[(١)] وقال: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[(٢)] وقال تعالى مسليًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[(٣)] وقوله تعالى: "باخع". أي مهلك نفسك بحزنك عليهم...، وقوله تعالى: "أسفا" أي: لا تهلك نفسك أسفًا)[(٤)].

(وقد استمر ﷺ في أداء هذه المهمة الجليلة مشمّرًا عن ساعديه، باذلاً كل ما في وسعه، مستخدمًا جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له في سبيل ذلك بتوفيق الله تعالى، حتى لحق بالرفيق الأعلى. صلوات ربي وسلامه عليه. وما أكثر المواقف في سيرته المطهرة، التي يتجلى فيها حرصه الشديد على إخراج البشرية من الظلمات إلى النور)[(٥)]، ومنها إرساله ﷺ الرسائل والرسل إلى الملوك والأمراء؛ فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الإسلام. وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ)[(٦)]. وقد كانت دعوته ﷺ بمكارم الأخلاق وحسن البيان والصبر على الإيذاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: ((هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٧.

(٣) سورة الكهف، آية: ٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣٧/٥.

(٥) الحرص على هداية الناس، د. فضل إلهي، ط/٤، مكتبة الملك فهد، الرياض: ١٤١٩هـ، ١٩.

(٦) أخرجه مسلم ١٧٧٤.

بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليكم ملك الجبال لتأمره، بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا"[1]. فقد كان ﷺ يحرص أشد الحرص على هداية الناس أجمعين، بلا فرق بين قريب وبعيد، وعربي وعجمي، وأحمر وأسود، فهو الإمام الأول، والقدوة الكبرى، التي يستضيء بها الدعاة ويسترشدون طريق الهدى.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٢٣١، ومسلم ١٧٩٥.

الحديث رقم (١٨٤٢)

١٨٤٢- وعنه، عن النبيِّ ﷺ قال: ((عَجِبَ اللهُ ﷻ مِنْ قَومٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلاسِلِ)) رواهما البخاري[١].

معناه: يُؤْسَرُونَ وَيُقَيَّدُونَ ثُمَّ يُسْلِمُونَ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يدخلون الجنة في السلاسل: معناه: يُؤْسرون ويقيدون ثم يسلمون فيدخلون الجنة[٢].

الشرح الأدبي

يتفق هذا الحديث مع نص الحديث السابق في مفهومه وغايته، والعجب من الله تعالى هو: الرضا والإكرام، وإذا كان العجب من الله تعالى في هذا الموقف له دلالته التي تتفق مع جلال الله وكبريائه، فالعجب من البشر يكون حقيقيًا، وهذا هو سر المفارقة التي يتجلى عنها هذا الموقف، حيث يتساءل كل من يعلم بذلك كيف يدخلون الجنة في السلاسل؟، والكلام فيه إيجاز ويحتاج إلى توضيح عندما نفكك المعنى، ونرده إلى تفصيلاته، والمعنى كما جاء في توضيح لغة الحديث، يؤسرون، ويقيدون، ثم يسلمون فيدخلون الجنة، والفعل "يدخلون" مبني للمجهول: والمراد أنهم يفعلون المقتضى لدخول الجنة بالوعد الصادق وهو الإيمان: ففيه مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب، والفاء في قوله: في السلاسل: قيل: إنها تعليلية أي لوضع السلاسل في أعناقهم حال الأسر، ثم يسلمون فيدخلون الجنة بسبب هذه السلاسل التي نشأت بسبب أسرهم، وقيل الفاء: ظرفيه: أي أن هؤلاء الأسرى يسلمون وهم مازالوا أسرى في

---

(١) برقم ٣٠١٠.

(٢) رياض الصالحين ٦٢٣.

السلاسل، فالأسر كما قال العلماء: باعتبار ما كانوا يرونه نقمة، وباعتبار ما تجلى عنه من نعمة، والتعبير بالمضارع في قوله: يدخلون الجنة في السلاسل، يوحي باستمرار هذه الظاهرة وتجددها، في كل عصر يمن الله فيه على المسلمين بالفتوحات، والانتصار، ويمن فيه على الأسرى بالدخول في دين الله أفواجا، وكم من شعوب دخلت في دين الله بعد حروب وصراعات، وأصبحت هذه الشعوب من أكثر بلاد الله تمسكًا بالإسلام، ودفاعًا عن العقيدة. ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٨٤٣)

١٨٤٣- وعنه، عن النبيّ ﷺ قال: ((أَحَبُّ البِلادِ إلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأبْغَضُ البِلاَدِ إلَى اللهِ اسْوَاقُهَا)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن المسجد في الإسلام له دَوره ومكانته، وله جلاله وهيبته، وبيوت الله في الأرض المساجد ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[2].

وهذا الحديث يتكون من جملتين لغويتين تقدمان صورتين لمكانين أحدهما يحبه الله، وهو المسجد، والآخر يبغضه الله وهو السوق، لأن كل مكان له متعلقاته التي تفيض بالحب أو البغض، وحين نتأمل هذه الصياغة في ضوء التحليل الأدبي والأسلوبي نجد أن الجملتين تتفقان في البناء اللغوي، ولكنهما تتضادان في المضمون، فهما اسميتان، واسمية الجملة يدل على ثبات الدلالة فيها، وحقيقة حب الله للمساجد لا يشوبها شك أو مراء، وكذلك بغضه للأسواق حقيقة ثابتة لا تتبدل، والصياغة الاسمية هي التي أعلنت عن هذا الثبات الراسخ.

وتتسم الجملتان بالتوازن والتوازي الأسلوبي، فبناؤهما اللغوي متشابه: فالجملة الأولى تبدأ بأفعل التفضيل "أحب" وهو مبتدأ، وكذلك الجملة الثانية تبدأ بأفعل التفضيل: "أبغض"، وهو مبتدأ كذلك، وبين الاسمية، طباق، فهما متفقتان صياغة ووظيفة نحوية ولكنهما يختلفان في المعنى، والمضاف إليه متحد في الجملتين، وهو لفظ البلاد، لأن الحب أو البغض يقع على المكان، نظرًا لما فيه من ظواهر ومعالم إيجابية أو

(١) برقم ٢٨٨/٦٧١. أورده المنذري في ترغيبه ٤٨٢.

(٢) سورة النور، آية: ٣٦.

سلبية، وقوله: "إلى الله" كرر مرتين للتأكيد على أن الحب من الله، وفي الله، وكذلك البغض من الله، ولذلك يجب على كل مسلم أن يحب المساجد، وأن يحذر ما في الأسواق من زيف وخداع وتحايل وكذب، والخبر في الجملة الأولى "مساجدها"، وهي جمع تكسير، وفي الجملة الثانية: "أسواقها"، وهو جمع تكسير كذلك، فالجملتان متناظرتان متوازيتان، وفي هذا التناظر حث على الموازنة والتأمل والاتعاظ، والطباق واضح بين: أحب وأبغض، وبين مساجد وأسواق.

وقيل في اللغة: البلد أو البلدة، كل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة.

والسوق اسم لكل مكان وقع فيه التبايع ممن يتعاطى البيع، وسبب بغض الله لها أنها محل للفحش، والخداع والربا والأيمان الكاذبة، واختلاف الوعد، والمساجد محل نزول الرحمة والأسواق ضدها.

والحب والبغض من الله، ليس كحب البشر وبغضهم، ولكن: إرادته الخير والشر، وفعل ذلك لمن أسعده وأشقاه، نسأل الله الفوز والنجاة.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من صفات الداعية: البيان والإيضاح لأحب البلاد إلى الله وأبغضها إليه سبحانه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل المساجد ودورها في الدعوة إلى الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الأسواق ومن الغفلة فيها عن ذكر الله وطاعته.

رابعًا: من أساليب الدعوة: النهي.

خامسًا: من آداب الداعية: الحرص على مصلحة ونفع المدعوين.

أولاً- من صفات الداعية: البيان والإيضاح لأحب البلاد إلى الله وأبغضها إليه سبحانه:

هذا ما ورد في الحديث من بيانه ﷺ لذلك في قوله ﷺ "أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها"، وقد أمر الحق تبارك وتعالى الأنبياء

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٨٤٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٤٤).

وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[١] قال السعدي: (والميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى، على كل من أعطاه الله الكتب، وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم، يجب عليه في تلك الحال، أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل)[٢]، (فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتمون منه شيئًا)[٣]، (وقد كان عليه الصلاة والسلام سيد الدعاة يوضح للناس ولأتباعه، ويكرر كلامه ثلاثًا ليتحقق الإيضاح)[٤]، فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في بيان وإيضاح ما خفي عن المدعوين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل المساجد ودورها في الدعوة إلى الله:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "أحب البلاد إلى الله مساجدها" قال النووي: (لأنها بيوت الطاعات وأساسها على التقوى)[٥]، (وقد أضافها الله إلى نفسه فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٧] (فالمساجد أحب البقاع إلى الله؛ لأنها محل ذكره وعبادته وقراءة شرعه

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ١٢٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/١٨١.

(٤) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٢٧.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٤٧٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١١٤.

(٧) سورة النور، الآيتان، ٣٦-٣٧.

وغير ذلك من مصالح الدنيا والدين)[١]، (فالمسجد قلعةُ الإيمان، وحصن الفضيلة، وهو المدرسة الأولى التي يتخرج منها المسلم، فهو بيت الأتقياء، ومكان اجتماع المسلمين كلَّ يوم خمس مرات، ومحلُّ تناصحهم وتشاورهم، ومن المسجد خرجت الجيوش الإسلامية ففتحت مشارق الأرض ومغاربها، ومن عناية الرسول ﷺ بالمسجد ((أنه كان إذا قدِمَ من سفرٍ بدأ بالمسجدِ فيركع فيه ركعتَينِ))[٢])[٣].

ووظائف المسجد ودوره في الإسلام أكثر من أن تحصى، إلا أنه يمكن الإشارة إلى (أن دور المسجد عظيم، فهو الأساس الأول في تكوين شخصية المسلم، وتكوين خُلُقه وعبادته وعلاقته بربه وبنفسه وإخوانه المسلمين، فالمسجد في صورته الاجتماعية وارتباط المسلمين به مركز إشعاعٍ وتوجيهٍ وتربيةٍ لهم، وكان النبي ﷺ إذا أهمه أمر جمع الناس في المسجد، وكان يجهز الجيوش الإسلامية في المسجد مما يدل على عناية الإسلام بالمسجد)[٤]، (فمكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي، فهو ساحة للعبادة، ومدرسة للعلم، وندوة للأدب)[٥]، وفي ذلك بيان على فضل المساجد ودورها في الإسلام والدعوة إلى الله.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الأسواق ومن الغفلة فيها عن ذكر الله وطاعته:

هذا ما ورد في قوله ﷺ "وأبغض البلاد إلى الله أسواقها" وأيضًا من قول سلمان رضي الله عنه لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته" وفي رواية "لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منه فيها باض الشيطان وفرَّخ". وفي بيان ذلك قال النووي: (في قوله ﷺ "وأبغض البلاد إلى الله أسواقها" لأنها محل الغش والخداع والربا والأيمان الكاذبة

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٨٧٧/٢.

(٢) أخرجه البخاري، ٢٧٦٩.

(٣) رسالة إلى أئمة المساجد والمؤذنين والمأمومين، عبدالله بن جار الله، ١٩.

(٤) المرجع السابق ٢١.

(٥) فقه السيرة، محمد الغزالي، ١٧٨.

وإخلاف الوعد والإعراض عن ذكر الله وغير ذلك مما في معناه)[١]، وفي قول سلمان رضي الله عنه "إنها معركة الشيطان" قال النووي: (قال أهل اللغة: المعركة بفتح الراء موضع القتال لمعاركة الأبطال بعضهم بعضًا فيها ومصارعتهم، فشبه السوق وفعل الشيطان بأهلها ونيله منهم، بالمعركة، لكثرة ما يقع فيها من أنواع الباطل، كالغش والخداع، والأيمان الخائنة، والعقود الفاسدة، والنجش، والبيع على بيع أخيه والشراء على شرائه، والسوم على سومه، وبخس المكيال والميزان، وقوله "وبها ينصب رايته" إشارة إلى ثبوته هناك واجتماع أعوانه إليه للتحريش بين الناس، وحملهم على هذه المفاسد المذكورة ونحوها، فهي موضعه وموضع أعوانه)[٢]، وقال ابن عثيمين: (أما الأسواق فإنها مأوى الشياطين؛ فيها باض الشيطان وفرّخ -والعياذ بالله- ونصب رايته وخيمته؛ لأن أسواق البيع والشراء الغالب فيها -إلا ما شاء الله- الكذب والغش والخيانة والحلف وما أشبه ذلك، فلهذا كانت أبغض البلاد إلى الله عز وجل...، وينبغي على المرء ألا يكون أول من يدخلها ولا آخر من يخرج منها)[٣]، ومن أجل ذلك حث النبي ﷺ على عدم الغفلة فيها وحض على التمسك بذكر الله في الأسواق فقال: ((مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فقالَ لا إِلَهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ بِيَدِهِ الخَيرُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير. كَتَبَ الله لَهُ أَلْفَ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَمَحا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفَ سَيِّئَةٍ ورَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ))[٤]، وفي رواية ((وَبَنَى لَهُ بَيْتًا في الجَنَّةِ))[٥].

رابعًا- من أساليب الدعوة: النهي:

قد ورد النهي كأسلوب من أساليب الدعوة في الحديث من قول سلمان الفارسي رضي الله عنه "لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق... إلخ" والنهي من الأساليب

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٤٧٢-٤٧٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤٩١.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٧٧.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٤٢٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٢٦).

(٥) أخرجه الترمذي ٣٤٢٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٧٢٦).

الدعوية المهمة في إرشاد وتوجيه المدعوين إلى اجتناب ما يخالف الشرع (وهو أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر، ولا تلكؤ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه)[1]. وقد أفاد النهي في نص الحديث عدم إطالة المكث في الأسواق، وأهمية اتخاذ الحيطة والحذر من الغفلة فيها، وذلك يكون بذكر الله، والتزام حدوده واجتناب نواهيه.

خامسًا- من آداب الداعية: الحرص على مصلحة ونفع المدعوين:

هذا ما ظهر جليًا في الحديث من حرص سلمان رضي الله عنه على تحقيق مصلحة ونفع المدعوين، وذلك في قول: "لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق... إلخ".

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]. وقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم -وهو الأسوة والقدوة- يرشد أمته إلى ما فيه صلاحهم حتى فاضت روحه، فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: ((الصلاة، وما ملكت أيمانكم))[3] فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه، وقد اهتم سلف الأمة الصالح بذلك، فها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرص على إرشاد ونفع المدعوين وهو على فراش الموت؛ فعن عمرو بن ميمون قال: ((جاء رجل شاب إلى عمر رضي الله عنه بعد ما طعن وعرف الناس أنه ميت، فقال له: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. قال: وددت أن ذلك كفاف لا عليّ ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا على الغلام. قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك))[4].

وفي الاقتداء بحرص النبي صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة الصالح على إرشاد المدعوين وتحصيل

---

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمر ص ٥٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه ١٦٢٥، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٣١٧).

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٠٠.

الخير لهم، لعظيم الأجر وجزيل الثواب، لقوله ﷺ: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[1] وقوله: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا))[2]، فعلى الداعية أن يحرص على تحقيق مصلحة ونفع المدعوين، لما في ذلك من الخير العميم، والفضل العظيم في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

الحديث رقم (١٨٤٤)

١٨٤٤- وعن سلمان الفارسي ﷺ من قوله قال: لاَ تَكُونَنَّ إن اسْتَطَعْتَ أوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ، وَلاَ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا، فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ. رواه مسلم[١] هكذا.

ورواه البرقاني في صحيحهِ[٢] عن سلمان، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **((لاَ تَكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ، وَلاَ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا. فِيهَا بَاضَ الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ))**.

ترجمة الراوي:

سلمان الفارسي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤٢٠).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتلاقى في دلالته مع الحديث السابق، وأشعتهما تنبع من مشكاة واحدة، وتضيء للمسلم طريقه، وتضع أمامه إشارات حمراء حتى ينتبه لما في السوق من أخطار، والحديث هنا صريح في توجيه الإنذار، حيث يبدأ بالنهي الجازم وبالفعل المؤكد بنون التوكيد الثقيلة، "لا تكونن"، والنهي موجه لكل مسلم يغشى الأسواق ولكنه يتجنب هوشاياتها، والهوشات هي اختلاط الأمور، وفساد التصورات، والجملة الشرطية: "إن استطعت"، هي جملة اعتراضية وتتضمن إيجازًا حيث حذف جواب الشرط والتقدير: فلا تكونن أول داخل فيها، ولا خارج منها، حتى تضمن النجاة من مكائد الشيطان، وحبائله الغواية والشرور، وأتى بالجملة الاعتراضية بين كان واسمها، وخبرها الذي وقع بعد الجملة وهو أول من يدخل السوق، للتنبيه على أن التكاليف على هذه الأمة حسب طاقتها وقدر استطاعتها، والجملة الثانية معطوفة على الأولى، وتتضمن كذلك إيجازًا، والإيجاز من أسرار بلاغة النبوة: وبلاغة الحذف من

---

(١) برقم ٢٤٥١/١٠٠.

(٢) أورده الحميدي في جمعه ٣٦١/٣ رقم ٢٨٤٠، وقال: رواه عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ، من رواية عاصم، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان.

سمات قوة الأسلوب، والتقدير، "ولا تكونن...... آخر من يخرج منها".

والفاء في قوله: "فإنها" للتعليل، حيث يوضح الحديث سبب النهي عن دخول السوق مبكرًا أو التأخر في الخروج منه، والسبب هو أن السوق معركة الشيطان، والتأكيد هنا لشدة التحذير، وما أدق هذه الصورة الأدبية حيث شبه السوق بالمعركة، وهي معركة الشيطان، لأن الصراع فيها ليس من أجل إقامة الحق، أو نشر الفضائل، ولكن بدافع التكسب عن طريق التحايل، واتخاذ الوسائل المنكرة ومنها الغش والخداع، والأيمان الكاذبة، والأفعال المنكرة.

والشيطان هو الذي يدير هذه المعركة الاقتصادية، وقوله: "وبها ينصب رايته" كناية عن تحكم الشيطان واستيلائه على عقول التجار السماسرة، والبائعين والمشترين.

وفي رواية أخرى توحي بكثرة أعوان الشيطان وكثرة أنصاره وذريته، وكأن الشرور تتكاثر، والمفاسد والرذائل تتناسل، حيث يقول رسول الله ﷺ مصورًا فساد مناخ الأسواق "فيها باض الشيطان وفرخ"، ولذلك كانت الأسواق أبغض البلاد إلى الله سبحانه.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٨٤٥)

١٨٤٥- وعن عاصمٍ الأحولِ، عن عبدِ اللهِ بن سَرْجِسَ ﵁ قال: قلتُ لرسولِ اللهِ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، غَفَرَ اللهُ لَكَ، قال: ((وَلَكَ)). قال عاصمٌ[1]: فَقُلْتُ لَهُ: أستغفرَ لَكَ رسُولُ اللهِ ﷺ؟ قال: نَعَمْ وَلَكَ، ثُمَّ تَلاَ هذِهِ الآيةَ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[محمد: ١٩]. رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن سرجس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٧٤).

الشرح الأدبي

حينما نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجده قد صيغ في قالب حواري جميل شائق وممتع ومقنع، يكشف عن حسن معاملة الرسول ﷺ لأصحابه ﵃، وحرصه عليهم.

والحوار في هذا الحديث توزع بين رسول الله ﷺ، وعبدالله بن سرجس ﵁، وكذلك بين عاصم الأحول وعبدالله، وكان رسول الله ﷺ مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب يتسم بسعة الصدر، ودوام البشر، وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه.

ويبدأ الحديث بالنداء والدعاء، في قول عبدالله ﷺ: "يارسول الله، غفر الله لك"، والنداء فيه تعظيم لرسول الله ﷺ وتعظيم لرسالته، وتمهيد بأن الدعاء هو للتشرف لأن رسول الله معصوم من الخطأ، وقوله: "غفر الله لك" قد يكون إخبارًا، وليس دعاءً، كما جاء في القرآن الكريم، وحُذف معمول غفر، للتعميم، ولمزيد من الأدب مع رسول الله ﷺ فلم يقل: غفر الله لك ذنوبك أو ذنبك، لأنه لا ذنب أصلاً لرسول الله ﷺ: فهو معصوم من الخطأ.

---

(١) هذه الزيادة لا توجد في طبعات صحيح مسلم، وهي عند الحميدي في جمعه ٥٥٤/٣ رقم ٣١٣١.

(٢) برقم ٢٣٤٦/١١٢.

ولنتأمل كيف أجابه رسول الله ﷺ: إنه قال في تلطف وبشر وإيناس وإيجاز، "ولك"، أي: غفر لك.

ثم ينشأ المشهد الحواري الآخر بين عاصم الأحول، وعبدالله: ويبدأ باستفهام تعجبي واستبشاري ونظيري في قوله "استغفر لك رسول الله"، وحذفت همزة الاستفهام للدلالة على الإسراع في تقرير الحقيقة، والبشارة بذلك، ويقتدى عبدالله برسول الله ﷺ ويقول ما قاله رسول الله ﷺ: بعد أن قال: "نعم"، قال لصاحبه: "ولك"، والكلام فيه إيجاز أي: نعم: استغفر لي رسول الله واستغفر لك أيضًا.

ويسوق عبدالله الدليل على أن استغفار رسول الله ﷺ ليس محددًا لفرد واحد، وإنما للأمة كلها: حيث تلا قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1]. وهذا الاستشهاد لمزيد من البشرى والطمأنينة التي يزرعها في نفس صاحبه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: دعاء الأدنى للأعلى، والأعلى للأدنى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار.

ثالثا: من واجبات المدعو: الدعاء والاستغفار للمسلمين.

أولاً- من موضوعات الدعوة: دعاء الأدنى للأعلى، والأعلى للأدنى:

هذا ما ورد في الحديث من قول عبدالله بن سرجس رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يا رسول الله، غفر الله لك، فقال له النبي ﷺ "ولك"، وفي ذلك قال ابن تيمية: (والدعاء مشروع، أن يدعو الأعلى للأدنى، والأدنى للأعلى، فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي ﷺ في الاستسقاء، ويطلبون منه الدعاء، بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء، ومحمد ﷺ وهو سيد الشفعاء، وله شفاعات يختص بها، ومع هذا فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ

---

(١) سورة محمد، آية: ١٩.

مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهِ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ له الشَّفَاعَةُ))[١]، وقد قال ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه-: ((يا أخي لا تنسني من دعائك))[٢]؛ فالنبي ﷺ قد طلب من أمته أن تدعو له، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون عليها. مع أنه ﷺ له مثل أجورهم في كل ما يعملونه، فإنه قد صح عنه أنه قال: ((مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا. وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا))[٣]، وهو داعي الأمة إلى كل هدى، فله مثل أجورهم في كل ما اتبعوه فيه. وكذلك إذا صلوا عليه، فإن الله يصلي على أحدهم عشرًا، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه، وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه)[٤].

وما يؤكد دعاء الأدنى للأعلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأويس بن عامر ((سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ، ثم من قَرَنٍ، كان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل" فاستغفر لي فاستغفر له...))[٥] قال النووي: (وفيه استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح وإن كان الطالب أفضل منهم)[٦].

---

(١) اخرجه مسلم ٣٨٤.

(٢) اخرجه أبو داود ١٤٩٨، وضعفه الألباني (ضعيف سنن ابي داود ٣٢٢).

(٣) اخرجه مسلم ٢٦٧٤.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١/١٠٠-١٠١.

(٥) اخرجه مسلم ٢٥٤٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٥٢٧.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستغفار:

قد ورد ذلك في الحديث من قوله تعالى "واستغفر لذنبك" (والاستغفار من طلب الغفران، والغفران: تغطية الذنب بالعفو عنه، وهو أيضًا طلب ذلك بالمقال والفعال)[١].

وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالاستغفار فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] قال ابن كثير: (أي: أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره)[٥]، وقال القرطبي: (واستغفروا الله، أي: سلوه المغفرة لذنوبكم "إن الله غفور" لما كان قبل التوبة "رحيم" بكم بعدها)[٦]، قال ابن تيمية: (فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم، وأكبر طاعاتهم، وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب)[٧]، وقد حث النبي ﷺ على ذلك فقال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فوَالذي نفسي بيدِهِ، إني لأستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعينَ مرَّة))[٨] وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: ((إِنَّهُ لَيُغَانُ[٩] عَلَىٰ قَلْبِي. وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ، فِي الْيَوْمِ، مِائَةَ مَرَّةٍ))[١٠]، (فهو ﷺ لكمال عبوديته لله، وكمال محبته له، وافتقاره إليه، وكمال توبته واستغفاره، صار أفضل الخلق عند الله، فإن

---

(١) له الأسماء الحسنى، للشرباصي ٢٦٣/٢، نقلاً عن نضرة النعيم، ٢٥٣/٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٠٦.

(٤) سورة المزمل، آية: ٢٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٦٠/٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٥٩/١٩/١٠.

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٦/٨.

(٨) أخرجه البخاري ٦٣٠٧.

(٩) الغَيْنُ: هو شيء يعتري القلوب الصافية مما تتحدث به النفس، انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ٢٤/١٧.

(١٠) أخرجه مسلم ٢٧٠٢.

الخير كله من الله، وليس للمخلوق من نفسه شيء، بل هو فقير من كل وجه، والله غني عنه من كل وجه، محسن إليه من كل وجه، فكلما ازداد العبد تواضعًا وعبودية، ازداد إلى الله قربًا ورفعة، ومن ذلك توبته واستغفاره)[١].

ثالثًا- من واجبات المدعو: الدعاء والاستغفار للمسلمين:

هذا ما ورد في الحديث من قوله تعالى "واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات" وهذا ما نص عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٢]، قال القرطبي: (وقيل: الخطاب له، والمراد به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين)[٣]، وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: ((مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الغَيْبِ بِدَعْوَةٍ إِلاَّ وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ مَلَكًا كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِدَعْوَةٍ قَالَ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ))[٤]، قال ابن تيمية: (فالدعاء للغير ينتفع به الداعي، والمدعو له، وإن كان الداعي دون المدعو له، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له. فمن قال لغيره: ادع لي وقصد انتفاعهما جميعًا بذلك، كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى، فهو نبه المسؤول وأشار عليه بما ينفعهما، والمسؤول فعل ما ينفعهما، بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى، فيثاب المأمور على فعله، والآمر أيضًا يثاب مثل ثوابه؛ لكونه دعا إليه، لا سيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٥] فأمره بالاستغفار ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٦].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٣٨/٨.

(٢) سورة محمد، آية: ١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٦٨/١٩، ط/ مؤسسة الرسالة.

(٤) أخرجه مسلم ٢٧٣٢.

(٥) سورة محمد، آية: ١٩.

(٦) سورة النساء، آية: ٦٤.

فذكر -سبحانه- استغفارهم، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك، مما أُمِر به الرسول، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولم يأمر الله مخلوقًا أن يسأل مخلوقًا شيئًا لم يأمر الله المخلوق به، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب؛ ففعله هو عبادة لله، وطاعة وقربة إلى الله، وصلاح لفاعله وحسنة فيه، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه، وإنعامه عليه، بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده، أن هداهم للإيمان)[1]. فعلى المسلم أن يدعو للمسلمين ويستغفر لهم، لما في ذلك من الامتثال لأمر الله تعالى، فضلاً عن عظيم الثواب في دعاء الملك له بقول "ولك مثل ذلك".

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٠١/١.

الحديث رقم (١٨٤٦)

١٨٤٦- وعن أبي مسعودٍ الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ((**إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأولَى: إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**)) رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

الشرح الأدبي

قال القاضي عياض وغيره: جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزةً، لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وتعلم، وقال القرطبي: الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع له النوعان، فكان في الغريزي أشد حياءً من العذراء في خدرها.

والحياء في اللغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وفي الشرع خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي حق، والحب يُنطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق[2].

وفي ضوء هذه الدلالات والمفاهيم نقرأ جماليات اللغة في هذا الحديث: فهو في غاية الإيجاز لأنه يتكون من جملة لغوية واحدة مكونة من إن واسمها وخبرها، والخبر قوله: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة" وهو مقدم، واسمها هو قوله: إذا لم تستح فاصنع ما شئت" وهو مؤخر.

والحديث يبدأ بالتأكيد بإن وهي ترتبط بالحديث كله، فنصفه الأول خبرها وهو متقدم، والنصف الثاني اسمها وهو مركز الدلالة في الحديث: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت".

---

(١) برقم ٣٤٨٣.

(٢) انظر: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للقسطلاني.

وهذه الجملة صيغت في قالب الشرط والجواب، وهي توحي بالمعنى المنبثق عنها، لأن الجزاء من جنس العمل.

والدلالة في هذا الحديث تتعدد وتحتمل عدة أوجه، وذلك في ضوء دلالة فعل الأمر في قوله: فاصنع ما شئت، فإذا كان الأمر للإباحة والاختيار فالمراد من هذا التوجيه أنه: إذا أردت فعل شيء فإن كان مما لا يستحي فيه من الله ولا من الناس لإباحته، فافعل وإلا فلا، ويمكن أن يكون الأمر في قوله: فاصنع ما شئت للتهديد، أي إذا نزع منك الحياء فافعل ما شئت، فإنك مجازى عليه: وفي ذلك وعيد وسخرية وتهديد.

ويمكن أن يكون الأمر هنا بمعنى الخبر: فهو أسلوب إنشائي يتضمن الإخبار: أي إذا نزع منك الحياء فعلت ما شئت من حرام وحلال إذ لا رادع يردعك[1]. وفي ذلك إنذار وتحقير ولوم وتقريع.

والحياء لا يأتي إلا بخير، وهو من الإيمان، ومن كلام النبوة الأولى.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل خلق الحياء.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

التوكيد من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على تقوية كلامه وإثباته في أذهان المدعوين، فضلاً عن أهمية وتأكيد الأمر المدعو إليه، وهذا ما ورد في الحديث من تأكيده ﷺ على أهمية الحياء وبيان أنه مما اتفق عليه الأنبياء. وذلك في قوله ﷺ "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل خلق الحياء:

مما لا شك فيه أن الحياء من خصال الإيمان وحسن الإسلام، وهو دليل على كرم

---

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ٤.

السجية وطيب المنبت، وهذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت" قال ابن حجر: (أي مما بلغ الناس ومما اتفق وندب إليه الأنبياء ولم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم -إذا لم تستح فاصنع ما شئت-، لأنه أمر أطبقت عليه العقول، وقوله ﷺ "فاصنع ما شئت" هو أمر بمعنى الخبر، أو هو للتهديد أي اصنع ما شئت فإن الله يجزيك، أو معناه انظر إلى ما تريد أن تفعله، فإن كان مما لا يستحى منه فافعله، وإن كان مما يستحى منه فدعه، أو المعنى أنك إذا لم تستح من الله من شيء، يجب أن لا تستحي منه من أمر الدين فافعله، ولا تبال بالخلق، أو المراد الحث على الحياء والتنويه بفضله)[1].

(والحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق)[2]، وقد حث النبي ﷺ على التخلق بالحياء وأمر به، فعن ابن عمر رضي الله عنهما ((أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مَرَّ برجُلٍ -وهُوَ يَعِظُ أخاهُ في الحياء- فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «دَعْهُ، فإنَّ الحَياءَ مِنَ الإيمان»))[3]، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ))[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ))[5].

وقد أمر ﷺ به فقال: ((استَحيُوا منَ اللهِ حقَّ الحَياءِ. قالوا: إنَّا نستحيْي منَ اللهِ يا رسول اللهِ! قال: ليسَ ذلكُم؛ ولكنْ من استَحْيى منَ اللهِ حَقَّ الحَياءِ، فلْيحفظِ الرأسَ وما وَعى، ولْيحفظِ البَطنَ وما حَوى، ولْيذكرِ الموتَ والبِلى، ومنْ أرادَ الآخرةَ تركَ زينةَ الدنيا، فمنْ فعلَ ذلكَ فقد استَحيْى منَ اللهِ حقَّ الحَياءِ))[6]. (فالحياء من الحياة، وعلى

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦٠٥/٦.

(٢) رياض الصالحين، النووي، ٢٩٥.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤، ومسلم ٣٦.

(٤) أخرجه البخاري ٦١١٧، ومسلم ٣٧.

(٥) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥.

(٦) أخرجه الترمذي ٢٤٥٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٠٠).

وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم)[١]، (فعن الشعبي قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بعض طريق المدينة فسمع امرأة تقول:

دعتني النفس بعد خروج عمرو ... إلى اللذات فاطّلَعَت تلاعا[٢]

فقلت لها: عجلتِ فلن تطاعي ... ولو طالت إقامته رُباعا

أحاذرُ -إن أُطيعُكِ- سَبَّ نفسي ... ومخزاةً تُجلِّلُني قِنَاعا

فقال عمر: وأُتيَ بالمرأة: أي شيء منعك؟ قالت: الحياء وإكرام عرضي.

فقال عمر رضي الله عنه: (إن الحياءَ ليدلّ على هَنَاتٍ ذاتِ ألوان، مَن استحيا استخفى ومن استخفى اتقى ومن اتقى وُقّي، وكتب عمر إلى صاحب زوجها فأقفله إليها)[٣].

فالحياء أصل كل خير. قال ابن القيم: (وخلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخُلُقُ لم يُقْرَ الضيف، ولو يُوفَ بالوعد، ولم تؤد أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثَرَهُ والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة. وكثير من الناس لولا الحياءُ الذي فيه لم يُؤدِّ شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًا، ولم يصل له رحمًا، ولا بَر له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيويٌّ علوي، وهو حياء فاعلها من الخلق. فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. ثم قال: إنَّ للإنسان آمرين وزاجرين، آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله آمر وزواجر من جهة الهوى والطبيعة، فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره،

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٦٠١/٢.

(٢) التِّلاَعُ: قيل هي: مسايل الماء، وقيل ما انحدر من الأرض وأشرف منها، انظر: لسان العرب، ابن منظور في (ت ل ع).

(٣) مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا ٨٣.

أطاع آمر الهوى والشهوة ولا بد)[١].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "فاصنع ما شئت" قال ابن حجر: (هو أمر بمعنى الخبر، أو هو التهديد أي اصنع ما شئت فإن الله يجزيك...)[٢]، (والترهيب من الأساليب الدعوية المهمة في إخافة المدعو، وتحذيره من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله)[٣]، (ولما كان الترهيب هو أحد أساليب الدعوة المهمة في إنقاذ معظم الناس من عقوبة الله في الدنيا والآخرة، وجب التأكيد عليه، والحرص على العمل به في مجال الدعوة، خاصة وأن سور القرآن الكريم مملوءة بهذا الأسلوب وكذلك السنة الصحيحة، ليكون ذلك بمشيئة الله قاطعًا للنفوس عن غيها وفسادها وخيبتها، وباعثًا لها على المسارعة إلى رشادها وسلامتها وفلاحها)[٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ١/٢٧٧-٢٧٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/٦٠٥.

(٣) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، على بن صالح المرشد، ١٦٠.

(٤) الترهيب في الدعوة، د. رقية نياز، ١٣.

الحديث رقم (١٨٤٧)

١٨٤٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **((أوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الدِّمَاء))** متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

إن الأسس الاجتماعية في الأحكام القرآنية، وفي الأحاديث النبوية: تقوم على المصلحة لأكبر عدد ممن يظلهم المجتمع بأكبر مقدار من السعادة الحسية والروحية، ودفع بوائق البشر.

والمصالح الاجتماعية تتمثل في المحافظة على خمسة حقوق، وعدم الاعتداء على أي منها: وهي حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ الدين، وحفظ المال.

والحديث الشريف هنا يحذر من التعدي على النفس، والنفوس بصفة عامة، وعبر عنها بالدماء، لأن الدم الجاري في العروق معيار حياة الإنسان، وعنوان بقائه حيًا، والجناية على النفس، تكون بالقتل أو إتلاف عضو منها، والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة تنذر الناس وترهبهم من الاعتداء على الغير بالقتل أو نحوه، والإنذار لم يأت مباشرًا، ولكنه قدم في أسلوب إيحائي، حيث قال رسول الله ﷺ: "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء"، وقوله: "أول": للإفادة بأن: حق النفس مقدم على جميع الحقوق في الحفاظ عليه، وقوله: "ما يقضى بين الناس"، يشير إلى أن المرء الذي لحق به إيذاء في نفسه أو ماله أو عرضه أو دينه لن يُظلم، ولن يضيع حقه سدى يوم القيامة، وكذلك المعتدي والقاتل، إذا أفلت من القصاص في الدنيا، فلن يفلت من عقاب الله يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥٣٣، ومسلم ١٦٧٨/٢٨ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٣٥٨٥.

ومادة القضاء توحي بجو المحاكمة والإدانة، والإنصاف، والعدالة، ولا غرو فالقاضي هو الله العزيز العادل المنتقم، ولا يظلم ربك أحدا.

وقوله في الدماء يتضمن إيجازًا حيث حذف متعلق الجار، وتقديره: في الأمر المتعلق بالدماء، وقال العلماء البداءة تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظيم المفسدة، وتفويت المصلحة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- عظم تغليظ أمر الدماء، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وكثير خطرها[2].

٢- حكم القتل: اتفق الفقهاء على حرمة القتل[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الاعتداء على النفس الإنسانية وإزهاقها.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس الإنسانية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الاعتداء على النفس الإنسانية وإزهاقها:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء" قال النووي: (فيه تغليظ أمر الدماء وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وكثير خطرها، وليس هذا الحديث مخالفًا للحديث

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١١/١٦٧، وفتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٤٦٥، ١٢/٢٢٦.

(٣) المبسوط، السرخسي ٢٧/٥٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي ٦/٢٣١، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٥/٥٠٣، ٥٠٤.

المشهور في السنن ((أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ القيامة صَلاَتُهُ))[١] لأن هذا الحديث الثاني فيما بين العبد وبين الله تعالى، وأما حديث الباب فهو فيما بين العباد)[٢]، وقد رهب النبي ﷺ من الاعتداء على النفس الإنسانية وإزهاقها فقال: ((لن يَزالَ المؤمنُ في فُسحةٍ من دِينه ما لم يُصِبْ دَمًا حَرامًا))[٣]، قال ابن حجر: (في قوله ﷺ "في فسحة" أي سعة، وقوله "من دينه" وفي رواية الكشميهني "من ذنبه" فمفهوم الأول أن يضيق عليه دينه، ففيه إشعار بالوعيد على قتل المؤمن متعمدًا بما يتوعد به الكافر، ومفهوم الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه، ففيه إشارة إلى استبعاد العفو عنه لاستمراره في الضيق المذكور، وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبول الغفران بالتوبة، حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول)[٤] وفي ذلك قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ((إنَّ من وَرْطاتِ الأمور التي لا مَخرَجَ لِمَن أوقعَ نَفْسَه فيها سفكَ الدَّم الحرام بغير حِلِّه))[٥]، قال ابن حجر: (في قوله "إن من ورطات" وهي جمع ورطة بسكون الراء وهي الهلاك يقال وقع فلان في ورطة أي في شيء لا ينجو منه، وقد فسرها في الخبر بقوله التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها)[٦].

ثانيًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس الإنسانية:

هذا ما يستفاد من نص الحديث وسياقه، وفي بيان ذلك نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أوجب القصاص لحفظ النفس الإنسانية، (فإن الإنسان إذا دخل في دين الله فإنه يصبح في مأمن، لقوله ﷺ: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللّهِ، ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنّي

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١٤٢٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١١٧٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٠٧٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٨٦٢.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/١٩٥.

(٥) أخرجه البخاري ٦٨٦٣.

(٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/٩٦.

دماءَهُم وأموالَهُم إلاّ بحَقِّ الإسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه))[1] فإذا دخل الإنسان في دين الله ونطق بالشهادتين فإنه يعصم دمه وماله حتى يتبين منه ما يناقض ذلك من أنواع الردة، فيقام عليه حدُّ المرتد، فدم المسلم حرام، رتب الله عليه وعيدًا في الآخرة لمن استباحه، ووعيدًا في النار، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2])[3].

قال ابن كثير: (وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5])[6] (وذلك لحرمة المؤمن عند الله سبحانه وتعالى وعظيم منزلته، ومن أجل ذلك فرض تعالى القصاص فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾[7] وقال تعالى مبينًا الحكمة من ذلك ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[8] لأنه بالقصاص تحصل حياة المجتمع، فإذا قتل القاتل فإن الناس يأمنون على دمائهم وأنفسهم، وأما إذا لم يقتل القاتل، فإن هذا يصبح خطرًا على المجتمع، وقد جعل الله القصاص حياة؛ لأنه يسبب الحياة وإن كان موتًا للمقتص منه لكنه حياة للبقية)[9] وفي ذلك بيان على أن الحفاظ على النفس الإنسانية من أهداف الدعوة الإسلامية.

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٩٩، ومسلم ٢١.

(٢) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٣) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان، ٢/١٢١.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٣٧٦.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٧٨.

(٨) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

(٩) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان، ٢٥/١٢١-١٢٢.

الحديث رقم (١٨٤٨)

١٨٤٨- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((خُلِقَتِ المَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ من نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

ام المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

مارج من نار: اللهب المختلط بسواد النار[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث في صيغته الإخبارية، وصيغ المبني للمفعول، يتضمن إخبارًا من رسول الله ﷺ عن أصناف الخلق العقلاء، وهم الملائكة والجن والإنس، ويقدم الرسول ﷺ توضيحًا لعناصر الخلق المتعددة، فالملائكة خلقت من نور، والجان خلق من مارج من نار، وآدم خلق من الطين، والأفعال التي تدل على مادة الخلق، جاءت كلها في صيغة المبني للمجهول: وذلك لأن الخالق معلوم ولا يحتاج إلى بيان وهو الله عز وجل، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، وقدم خلق الملائكة: لأنها من نور: والنور أصفى من الطين، وأبهى وأنقى من النار، وفيه بشرى لأن الله نور السماوات والأرض، وأن الله ولي الذين آمنوا، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ولأن الملائكة عباد مقربون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وجبلوا على الطاعة، وقدم خلق الجان على خلق الإنس: لأن الجان له قدرات أقوى من الإنس، والنار لها خصائص وقدرات من الانتشار والإحراق، واللهب أكثر من التراب، وكذلك لقدرة الجن على التخفي، والملائكة خلق من خلق الله، وجزء من عالم الغيب الذي أمر الإنسان بالإيمان به، ولفظ: الملائكة من الألفاظ التي لها علاقة بخصوصية المعجم الإسلامي وأثر الإسلام في لغة العرب.

---

(١) برقم ٦٠/٢٩٩٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م ر ج).

ولفظ: الملائكة ليس مشتقًا من المُلك بل هو من الألُوك، بمعنى الرسالة: وهذا الاشتقاق اللغوي يفسر وظيفة الملائكة فهم رسل الله إلى الناس، فالتسمية تفصح عن مهمة هذا الصنف من الخلق، ثم غلبت عليه حتى صارت علمًا له.

والجن: أو الجان: كلمة عربية الاشتقاق مأخوذة من جنَّ الشيء يجنه جنًا: أي ستره، وكل شيء ستر عنك، فقد جنَّ عنك، والجن من عالم الغيب، لأنه عالم مغيب عن الإنسان، ويمثل الملائكة عند المؤمنين جانب الخير والرشد، في مقابل الشياطين وهم من الجن الكافر، الذين يمثلون جانب الغي والضلال، ولفظ الملائكة تكرر في القرآن الكريم في ثمان وستين مرة، وهو العدد نفسه الذي تكرر فيه لفظ الشيطان، وعدد ما ورد من الآيات الشريفة في مختلف صور الملائكة: وملكًا، وملكين، وملائكة هو ثمان وثمانون مرة، وهو العدد نفسه الذي تكرر فيه مختلف صور الشيطان كالشيطان وشياطينهم[1].

وابن آدم من التراب: ولكن الله يهديه إلى نور طاعته، وطريق هدايته، والشيطان يزين له طرق الغواية، وعليه أن يقاوم همزات الشياطين، ويعوذ برب الناس: من الوسواس الخناس: الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، وكلمة مارج من نار، تفيد قدرة الجن على التشكل والتلون، لأن مرج معناها: اضطرب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما المارج: اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض، أحمر وأصفر وأخضر، وقال المبرد: المارج: النار المرسلة التي لا تُمنع، والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان ماهية خلق الملائكة والجن والإنسان.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: وجوب الإيمان بالغيبيات من الملائكة والجن.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان ماهية خلق الملائكة والجن والإنسان:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من

---

(١) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة.

مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"، قال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ أخبر عن بدء الخلق، فذكر ﷺ أن الملائكة خلقوا من النور، ولذلك كانوا كلهم خير، لا يعصون الله، ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون)[١]، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[٢] قال ابن كثير: (أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهارًا؛ فقال "وله من في السماوات والأرض ومن عنده" يعني: الملائكة، "لا يستكبرون عن عبادته" أي: لا يستنكفون عنها ...، وقوله "لا يستحسرون" أي: لا يتعبون ولا يملُّون "يسبحون الليل والنهار ولا يفترون" فهم دائبون في العمل ليلاً ونهارًا، مطيعون قصدًا وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[٣])[٤].

أما الجن فقد خلقوا من نار، وقد صرح القرآن الكريم بذكر ذلك فقال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾[٦] قال ابن كثير نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أي من لهب النار، من أحسنها، وفي رواية من خالص النار)[٧]، وقال النووي: (الجان: الجن والمارج اللهب المنخلط بسواد النار)[٨]، (وإذا تساءل أناس: وكيف يعقل خلق الجن من نار؟ فالجواب: أن الله قادر على إيجاد العقل والحياة في الجسم الحار كما أوجدها في الإنسان المخلوق من طين، على أن الجن لم

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٨٧٩/٢.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٩-٢٠.

(٣) سورة التحريم، آية: ٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٣٦/٥.

(٥) سورة الحجر، آية: ٢٧.

(٦) سورة الرحمن، آية: ١٥.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٩٢/٧.

(٨) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٧٢٠.

يبق على صورة النار، بل استحال بقدرة الله إلى نوع آخر، يكون قابلاً للحياة، كما هو الشأن في الإنسان)[1]. قال ابن عثيمين: (أما الإنسان فقد خلق من طين، من تراب، من صلصال كالفخار؛ لأن التراب صار طينًا ثم صار فخارًا، فخلق منه آدم عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2])[3].

(وبناء على ما تقدم فإن الجن خلق يغاير طبيعة البشر من حيث الشكل وأصل المادة التي خلقوا منها، إذ أنهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان الذي خلق من الطين، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[4])[5].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: وجوب الإيمان بالغيبيات من الملائكة والجن:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾[6]

(والإيمان بالملائكة يعني: التصديق بوجودهم، والتصديق بأعمالهم التي يقومون بها في هذا الكون، فالملائكة: خلق من خلق الله، خلقهم لعبادته، وتنفيذ أوامره في الكون، فالله يرسل الملائكة لتنفيذ أوامره، فهم خلق من عالم الغيب لا نراهم، ولكن نؤمن بهم إيمانًا جازمًا لا يتطرق إليه شك؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبر عنهم، كما أخبر عنهم رسول الله ﷺ، إخبارًا قطعيًا يجعلنا نؤمن به)[7].

(وقد جعلهم الله أقسامًا، منهم الموكل بأداء الوحي إلى الرسل، وهو الروح الأمين

---

(١) انظر: التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران، إيران، ١٨١/١٩.

(٢) سورة طه، آية: ٥٥.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٨٧٩.

(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ١٤-١٥.

(٥) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، د. عبدالكريم نوفان عبيدات، ط/٣، دار إشبيليا، الرياض: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ص ٩.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

(٧) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح بن فوزان، ٢٦٧/١.

جبريل عليه السلام. ومنهم الموكل بقبض الأرواح، وهو ملك الموت وأعوانه، ومنهم الموكل بالصور، وهو إسرافيل، ومنهم الموكل بالمطر، وهو ميكائيل، ومنهم الموكل بأعمال العباد. وهم الكرام الكاتبون، ومنهم الموكل بحفظ العبد من بين يديه ومن خلفه وهم المعقبات. قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[1]. ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه، ومنهم الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه من الزبانية، ورؤساؤهم تسعة عشر، ومنهم الموكل بفتنة القبر وهم منكرٌ ونكير، ومنهم حملة العرش، ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام من تخليقها إلى إلى كتابة الخير والشر، ومنهم ملائكة يدخلون البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون، ومنهم ملائكة سياحون يتتبعون مجالس الذكر، ومنهم صفوف قيام لا يفترون، ومنهم ركع وسجد لا يرفعون، ومنهم غير ما ذكر ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾[2].

ونصوص هذه الأقسام من الكتاب والسنة كثيرة معروفة عند العلماء)[3]. أما (الجن فقد أفاض القرآن والسنة في الحديث عنهم وبيان أحوالهم في مواضع كثيرة، فقد ورد ذكرهم في القرآن في مواضع متعددة تقرب من أربعين موضعًا، عدا عن الآيات التي تحدثت عن الشيطان وهي كثيرة، وانفردت سورة كاملة للحديث عن أحوال النفر الذين استمعوا للقرآن من الرسول ﷺ وهو بمكة، وهي سورة الجن، إذ ورد في مطلعها إخبار الله لنبيه باستماع هذا النفر للقرآن، فقال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾[4])[5] وفي ذلك بيان على وجوب الإيمان بهم، قال ابن تيمية: (لم يخالف أحد من

---

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣١.

(٣) الإيمان، عبدالمجيد الزنداني وآخروه، ١٥٤-١٥٥.

(٤) سورة الجن، آية: ١-٢.

(٥) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبدالكريم عبيدات، ٧٩.

طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم، ... وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالاضطرار، ومعلوم بالاضطرار أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون ومنهيون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعم بعض الملاحدة)[1].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٩/ ٩.

الحديث رقم (١٨٤٩)

١٨٤٩- وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان خُلُقُ نَبِيِّ اللهِ ﷺ القُرآن. رواهُ مسلم[1] في جملة حديث طويل.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن القرآن الكريم كما يقول الرافعي سر السماء، فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول، وألفاظ القرآن إذا اشتدت فأمواج البحار الزاجرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها، وهو آيات لا يجانس كلامها البديع غير كمالها، وحقيقة في الوجود لم يكن يعرف غير ظلالها.

وفي ضوء هذا التصوير الأدبي البليغ لقدر القرآن الكريم ومكانته، نقرأ هذا الحديث البليغ الموجز الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي ترصد أخلاق رسول الله ﷺ وسلوكياته في الحياة، ولم تجد صورة أكمل ولا أبلغ ولا أجمل من أن تقول: "كان خلق نبي الله ﷺ القرآن"، وكان في هذا الحديث لا تحصر دلالتها في إطار الزمن الماضي فقط، ولكنها تفيد التمكين والثبات وتأكيد هذا الخُلق الذي تمثل آيات القرآن الكريم نسيجه المتكامل، فهو الخلق القدوة والمثال، وهو الخُلق الذي يعد تاج الكمال، ويؤكد القاضي عياض: أن الخصال الجمالية الكمالية التي ينبع منها المنطق الجميل، والفعل الجميل، والأسلوب الجميل: كان لنبينا ﷺ شرف التحلي بها جميعًا، فهو الأسوة الحسنة في الأقوال والأفعال، وفي الخَلق والخُلق، فالمصطفى ﷺ لا مرية أنه: كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أَمْرَ بواطن

---

(١) برقم ٧٤٦/١٣٩.

الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقدمه من الشرع، دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه: لم يمتر أحدٌ في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهية، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققُه[١].

ويقول العلماء في سر الربط بين خلق النبي والقرآن، فكما أن معاني القرآن لا تتناهى، فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على عظم أخلاقه لا تتناهى، ولنتأمل ما تشع به هذه الأبيات من محبة لرسول الله ﷺ ولأخلاقه الكريمة وسجاياه الحميدة:

هو الفقير ويأبى أن تكون له ... جبال مكة في دنيا الورى ذهبا
فنفسه من صفاء الطهر معدنها ... والله أغناه بالقرآن حين أبى
فإن مشى كان قرآنًا جوانبه ... تفيض بالذكر للقلب الذي نضبا
وإن تحدث فالآيات منطقهُ ... ترد للكل حقًا كان قد سُلبا
ففي تواضعه أسرار حكمته ... هو النبي ولكن يجمع الحطبا
وفي تسامحه أسرار هيبته ... والحب في الله قد أحنى له الشهبا
وفي تعاطفه أسرار قوته ... قد أخضع العجم بالقرآن والعربا[٢]

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: كمال خلق النبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التأسي بالنبي ﷺ في تخلقه بأخلاق القرآن.

ثالثًا: من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ في أخلاقه.

أولاً - من موضوعات الدعوة: كمال خلق النبي ﷺ:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله عائشة رضي الله عنها "كان خلق نبي الله ﷺ

---

(١) انظر الشفا: للقاضي عياض، وانظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية: د. صابر عبدالدايم

(٢) انظر: ديوان مدائن الفجر شعر د. صابر عبدالدايم: إصدار مكتبة العبيكان الرياض.

القرآن"، قال النووي: (معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته)[١]، وقال ابن كثير: (ومعنى هذا أنه، عليه السلام، صار امتثالُ القرآن أمرًا ونهيًا، سجيةً له، وخلقًا تَطَبّعه، وترك طبعه الجبلّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه - هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل)[٢]، وقد مدحه الحق تبارك وتعالى في كمال خلقه ﷺ قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: ((خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ عَشْرَ سِنِينَ فَما قَالَ لِي أُفٍّ قَط، وَمَا قَالَ لِشَيءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَه؟ وَلاَ لِشَيءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وكَانَ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا))[٤] قال النووي: (وفي هذا الحديث بيان كمال خلقه ﷺ وحسن عشرته وحلمه وصفحه)[٥].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: التأسي بالنبي ﷺ في تخلقه بأخلاق القرآن:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وفي بيان ذلك قال د. القرضاوي: (ومن حسن حظ المسلمين: أن الله جعل لهم قدوة يقتدون بها، تتجسد فيها مكارم الأخلاق التامة، التي أخذت من ميراث جميع الرسل وزادت عليه. وذلك هو رسول الله ﷺ الذي أثنى عليه ربه تعالى فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٦] وقال ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٧] وفي قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إن خلقه القرآن، تعني أن سيرته كانت تجسيدًا حيًا للقرآن، فكما بين القرآن للناس

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٥١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٨٩/٨.

(٣) سورة القلم، آية: ٤.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٤٨، ومسلم ٢٣٠٩.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤٢٧.

(٦) سورة القلم، آية: ٤.

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

بقوله، بينه لهم بسيرته ومن فضل الله علينا، أن سيرته عليه الصلاة والسلام لم تضع كما ضاعت سير الرسل السابقين...، ولا يوجد امرؤ من الناس إلا وجد في هذه السيرة الشاملة الجامعة ما يأخذ منه الأسوة والهدي الأكمل، يستوي في ذلك الشاب والشيخ، والعزب والمتزوج، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والمسالم والمحارب، ولا يعرف من اجتمعت له هذه الأوصاف إلا محمد ﷺ، فشمول سيرته مكافئ لشمول رسالته)[١].

ثالثًا- من آداب الداعية: التأسي بالنبي ﷺ في أخلاقه:

هذا ما يستفاد من نص الحديث (والنبي ﷺ هو المثل الأعلى للدعاة في حياتهم الخاصة والعامة، يترسمون خطاه، ويستضيئون بهديه، ويقتفون أثره، ...)[٢]، (وعلى الإجمال فالتأسي بالنبي ﷺ مطلب أساس في حياة الدعاة، ولا يقف التأسي به عليه الصلاة والسلام عند حد معين ينتهي إليه من الطاعات في باب تهذيب النفس وترويضها، وتربيتها، وتزكيتها، بل يشمل كل مشروع متعبد به...، فالدعوة أمانة عظيمة، ولا تؤدى على أتم وجهها إلا بعد أن تمرَّس النفس على الانضباط بأخلاق الدعاة الصادقين، وصفات المصلحين المخلصين، ويتبوأ إمام الدعاة قدوتنا رسول الله ﷺ مكان الذروة من ذلك، فهو ذو الخلق الكريم، الخلق العظيم بشهادة رب العالمين)[٣]، فعلى الداعية أن يقتدي ويتأسى بالنبي ﷺ في أخلاقه، لما في ذلك من عظيم الفلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة ٢٥٨.

(٢) صفات الدعاة، د. عبدالرب نواب الدين، ٥٩.

(٣) المرجع السابق، ٧٠.

الحديث رقم (١٨٥٠)

١٨٥٠- وعنها، قالت: قال رسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ أحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقَاءهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءهُ)) فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أكَرَاهِيَةُ المَوتِ، فَكُلُّنَا نَكْرَهُ المَوتَ؟ قال: ((لَيْسَ كَذَلِكَ، ولكِنَّ المُؤْمِنَ إذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أحَبَّ لِقَاءَ اللهِ فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءهُ، وإنَّ الكَافِرَ إذَا بُشِّرَ بِعَذابِ اللهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقَاءهُ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجد أنه يتضمن كثيرًا من أسرار الجمال التعبيري، التي ترغب العبد وتشده إلى محبة الله عز وجل، ويبدأ الحديث الشريف بجملتين شرطيتين، ولكن الدلالة فيهما على النقيض، فبين الجملتين تقابل في المعنى، وتضاد في الدلالة: حيث يقول في الجملة الأولى: "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه"، وألفاظ جملة فعل الشرط هي نفسها ألفاظ جملة الجواب، وهذا التكرار لمزيد من الترغيب في الإقدام على محبة الله، وعدم الخوف من الموت وما بعده، لأن المؤمن ثوابه النعيم المقيم ولذلك تكرر الفعل "أحب" مرتين، ولفظ الجلالة "الله" تكرر مرتين ولفظ "لقاء" تكرر مرتين وفي ذلك غاية الترغيب، وذروة الإكرام الإلهي، ومعنى محبة لقاء الله كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام والخطابي، إيثار العبد الآخرة على الدنيا، وعدم محبة استمراره فيها شوقًا لنعيم الآخرة.

والجملة الثانية تُرسي قاعدة مغايرة وهي تحدد موقف الله عز وجل من الذين

---

(١) برقم ٢٦٨٤/١٥. أورده المنذري في ترغيبه ٥١١٧.

يخشون العذاب يوم القيامة، لبعدهم عن الإيمان، وتوغلهم في دروب العصيان "ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه".

ومن سمات الجمال التعبيري: هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها، وهي تسأل الرسول ﷺ وتناديه يارسول الله أكراهية الموت؟ ثم تقول ملقية على سؤالها السابق ظلالاً من التعجب، فكلنا نكره الموت !!.

ويلجأ رسول الله ﷺ إلى أسلوب الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، وهذا من عناصر التشويق والترغيب في أسلوب الحديث النبوي: فيقول: ليس كذلك، أي ليس الأمر كما قلت: فكراهية الموت ليست مقصودة لذاتها، ولكن لمتعلقاتها وما ينتج عنها، ومسبباتها.

والاستدراك في قوله: "ولكن" ينفي ما توهم السامع ثبوته، ويثبت ما توهم السامع نفيه، وجاء التوضيح مصدرًا بالتوكيد في قوله: "ولكن" فهي تؤكد المعنى اللاحق، وصاغ الرسول ﷺ توضيحه في أسلوب الشرط والجواب، وأتى بأداة الشرط "إذا" في الجملتين، وأكد الجملة الثانية "بإن" حتى تتضح معالم الحديث ومقاصده، والجملتان الشرطيتان بينهما مقابلة في الموقف، وطباق بين الألفاظ، وتضاد في علاقة الإنسان بربه، فمنهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم من يبشر برحمة الله، ومنهم من يبشر بعذاب الله وسخطه، ومنهم من يحب لقاء الله فيحب الله لقاءه، ومنهم من يكره لقاء الله فيكره الله لقاءه.

وهذه المقابلات تضع المسلم في دائرة النجاة، وتبشره برحمة الله ورضوانه وجنته.

وتأمل هذه السخرية من الكافر في قوله: "وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه"، وجاءت البشرى هنا على سبيل المشاكلة اللفظية مع ما سبق، وذلك لمزيد من السخرية من الكفار الذين يتوهمون أن شياطينهم، وأعوان الشياطين من الإنس سيأخذون بيدهم إلى النجاة، ولكن هيهات هيهات: إن ربك لبالمرصاد.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حب المؤمن للقاء الله وكراهية الكافر لذلك.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن كراهية الموت لا تعني كراهية لقاء الله.

ثالثًا: من واجبات الداعية: الإجابة على سؤال المدعو وتصحيح التصور الخاطئ وبيان الصواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن الجزاء من جنس العمل.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حب المؤمن للقاء الله وكراهية الكافر لذلك:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه".

وفي بيان ذلك قال النووي: (هذا الحديث يفسر آخره أوله ويبين المراد بباقي الأحاديث المطلقة؛ "من أحب لقاء الله ومن كره لقاء الله" ومعنى الحديث: أن الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند النزع في حالة لا تقبل توبته ولا غيرها، فحينئذ يبشر كل إنسان بما هو صائر إليه وما أعد له ويكشف له عند ذلك، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعد لهم ويحب الله لقاءهم أي: فيجزل لهم العطاء والكرامة)[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2] قال ابن كثير: (وقوله "تتنزل عليهم الملائكة" يعني عند الموت قائلين "الا تخافوا" أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة "ولا تحزنوا" أي: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه "وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون" فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٥٨٦.

(٢) سورة فصلت، آية: ٣٠.

الخير)[1]، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله ((إذا حُضِرَ المؤمن؛ أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا، حتى يأتون به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض... إلخ))[2]. قال النووي: (وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره لقاءهم أي: يبعدهم عن رحمته وكرامته ولا يريد ذلك بهم)[3]، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[4]. وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: ((... وإن الكافر إذا حُضِرَ؛ أتته ملائكة العذاب بمسحٍ، فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك إلى عذاب الله عز وجل فتخرج كأنتن ريح جيفةٍ، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح! حتى يأتون به أرواح الكفار))[5].

قال النووي: (وهذا معنى كراهته سبحانه لقاءهم، وليس معنى الحديث أن سبب كراهة الله تعالى لقاءهم، كراهتهم لذلك، ولا أن حبه لقاء الآخرين حبهم ذلك، بل هو: صفة لهم)[6].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن كراهية الموت لا تعني كراهية لقاء الله:

هذا ما ورد في الحديث من قول عائشة رضي الله عنها "فقلت: يا رسول الله، أكراهية الموت، فكلنا نكره الموت؟ قال: "ليس كذلك"، وفي بيان ذلك قال ابن حجر: (قال ابن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٧٧/٧.

(٢) أخرجه النسائي ١٨٣٤ ، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ١٧٢٩).

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٥٨٦.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٩٣.

(٥) أخرجه النسائي ١٨٣٤، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ١٧٢٩).

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٥٨٦.

الأثير في النهاية "المراد بلقاء الله هنا المصير إلى الدار الآخرة وطلب ما عندالله، وليس الغرض به الموت لأن كلا يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء الله، ومن آثرها وركن إليها كره لقاء الله، لأنه إنما يصل إليه بالموت، وقول عائشة رضي الله عنها ((والموت قبل لقاء الله))[1] يبين أن الموت غير اللقاء، ولكنه معترض دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه، ويحتمل مشاقه، حتى يصل إلى الفوز باللقاء)[2].

وفي تأكيد ذلك قال الطيبي: (إن قول عائشة رضي الله عنها "إنا لنكره الموت" يوهم أن المراد من لقاء الله في الحديث الموت وليس كذلك لأن لقاء الله غير الموت بدليل قوله في الرواية الأخرى "والموت قبل لقاء الله" لكن لما كان الموت وسيلة إلى لقاء الله عبر عنه بلقاء الله)[3].

وقال ابن حجر: (وقد سبق ابن الأثير إلى تأويل لقاء الله بغير الموت، أبو عبيد القاسم ابن سلام فقال: ليس وجهه عندي كراهة الموت وشدته، لأن هذا لا يكاد يخلو عنه أحد، ولكن المذموم من ذلك إيثار الدنيا والركون إليها وكراهية أن يصير إلى الدار الآخرة. قال: ومما يبين ذلك أن الله تعالى عاب قومًا بحب الحياة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾[4]، وقال الخطابي: معنى محبة العبد للقاء الله إيثار الآخرة على الدنيا، فلا يحب استمرار الإقامة فيها، بل يستعد للارتحال عنها، والكراهة بضد ذلك)[5].

ثالثًا- من واجبات الداعية: الإجابة على سؤال المدعو وتصحيح التصور الخاطئ وبيان الصواب:

هذا ما ورد في الحديث من قول عائشة رضي الله عنها فقلت: يا رسول الله، أكراهية الموت، فكلنا نكره الموت؟ قال: "ليس كذلك... إلخ"، وقد أمر الحق تبارك وتعالى

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٨٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٦٧/١١.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٢٥/٣-٢٢٦.

(٤) سورة يونس، آية: ٧.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، ٣٦٧/١١.

أنبياءه وأتباعهم بذلك فقال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾(١) وخير دليل على الإجابة على سؤال المدعو وتصحيح التصور الخاطئ وبيان الصواب، قول عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(٢)، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾(٣))(٤)، فعلى الداعية أن يمتثل لأمر الله تعالى ويقتدي بالنبي ﷺ في بيان وإيضاح ما استشكل وخفي عن المدعوين، حتى يكونوا على بصيرة من أمر ربهم وسنة نبيهم، فيعبدوا الله على علم، وفي ذلك عظيم الأجر والفلاح.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن الجزاء من جنس العمل:

هذا ما أشار إليه الحديث من قوله ﷺ من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقائه" قال ابن حجر: (وفي الحديث أن المجازاة من جنس العمل، فإنه قابل المحبة بالمحبة، والكراهة بالكراهة)(٥)، وقد بين الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن الجزاء يكون من جنس العمل، فقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾(٦) قال ابن كثير: (أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة)(٧). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٨) قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عن

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٠.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٤) أخرجه الترمذي ٣١٧٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٥٣٧).

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/٣٦٨.

(٦) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧/٥٠٥.

(٨) سورة المرسلات الآيات: ٤١-٤٤.

عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات: أنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون، "وفواكه مما يشتهون" أي من سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا "كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون" أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثم قال تعالى مخبرًا مستأنفًا: "إنا كذلك نجزي المحسنين" أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل)[1].

وقال تعالى في بيان جزاء المسيئين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾[2] قال ابن كثير: (وقوله: "جزاء وفاقا" أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا)[3]. وفي ذلك بيان على أن الجزاء من جنس العمل، حتى يقدم المرء لنفسه في دار العمل ما يجعله يبلغ حسن الجزاء في الآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٠١/٨.

(٢) سورة النبأ، الآيات: ٢١-٢٦..

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٣٠٧/٨.

الحديث رقم (١٨٥١)

١٨٥١- وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالتْ: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم **مُعْتَكِفًا**، فَأَتَيْتُهُ أزُورُهُ لَيْلاً، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ، فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي[1]، فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أسْرَعَا. فقال صلى الله عليه وسلم: **((عَلَى رِسْلِكُمَا، إنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ))** فَقَالاَ: سُبْحانَ اللهِ يَا رسولَ اللهِ، فقالَ: **((إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإنِّي خَشِيْتُ أنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا - أَوْ قَالَ: شَيْئًا -))** متفق عليه[2].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين صفية بنت حُييّ: وهي أم المؤمنين صفية بنت حييٍّ بن أخطب بن سَعْنَة بن ثعلبة، ويقال عامر بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير، من بني إسرائيل، من سبط هارون بن عمران أخي موسى بن عمران عليهما السلام، وكانت من ذوات الشرف، تدين باليهودية من أهل المدينة، وكانت قد تزوجت قبل إسلامها سَلاَّم بن مشْكم، وكان شاعرًا ثم فارقها فتزوجت كنانة بن الربيع النضري، وقتل عنها يوم خيبر، سباها النبي صلى الله عليه وسلم عام خيبر في شهر رمضان سنة (٧) من الهجرة وكانت قد ولدت بعد البعثة بثلاث سنين، فيكون عمرها يوم أن تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سبع عشرة سنة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أعتقها ثم تزوجها، وجعل عتقها صداقها، فعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر... فجاءه دحية فقال: ((يا رسول الله أعطني جارية من السبي، فقال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حييٍّ، فجاء رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أعْطَيْتَ دحية صفية بنت حييّ سيدة قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها، قال: فجاء بها، فلما نظر إليها النبي قال خذ جارية من السبي غيرها، قال وأعتقها وتزوجها....))[3] وكانت صفية قد رأت قبل أن يتزوجها

---

(١) عند مسلم زيادة: (وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد).

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٣٥، ومسلم واللفظ له ٢١٧٥/٢٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب النكاح، فضل إعتاق أمته ثم يتزوجها ص (٦٠٠)، حديث قم (١٣٦٥).

رسول الله ﷺ أن قمرًا من يثرب وقع في حجرها، فذكرت ذلك لأمها أو لزوجها فلطمها على وجهها، وقال إنك لتمدين عنقك إلى أن تكون عند ملك العرب، فلم يزل الأثر في وجهها حتى أُتيَ بها رسولَ الله ﷺ فأخبرته فكبُرت في نفسه حين سمع منها هذه البشارة التي زفها الله إليها في هذه الرؤيا الصالحة، وواس آلامها وخفف من مصابها، وأعلمها بأن الله قد حقق رؤياها.

روت عن النبي ﷺ، وروى لها الجماعة، ولها في كتب الأحاديث (١٠) أحاديث.

وكانت صفية رضي الله عنها شريفة حليمة فاضلة، ذات حسب وجمال ودين وتقوى، من أضوأ ما يكون من النساء، ولها الكثير من الفضائل والمناقب، روى ابن حجر في الإصابة أن جارية لها أتت عمر، فقالت: إن صفية تحب السبت وتَصِلُ اليهود، فبعث إليها عمر فسألها عن ذلك، فقالت أما السبت، فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رَحِمًا فأنا أصلها، فلم يجب عمر، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا: قالت الشيطان، فقالت: اذهبي فأنت حرة، وهي في هذا تتخلق بخلق رسول الله ﷺ الذي كان يعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه، ولا يَفْعَل هذا من الخلق بعده إلا من كان من الراسخين في العلم والتقوى والورع.

وتوفيت رضي الله عنها بالمدينة المنورة، في شهر رمضان، في سنة (٥٠) ودفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن جميعًا[١].

غريب الألفاظ:

معتكفًا: مقيمًا في المسجد بنية العبادة[٢].

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/١٢٠-١٣١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩١٦، ٩١٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٧/١٦٨-١٧٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٧١٩، ١٧٢٠، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢/٢٣١-٢٣٨، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٨/٥٤٥، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٤/٦٧٨، والأعلام، خير الدين الزركلي ٣/٢٠٦، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١/١٧٧-١٨٣.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ك ف).

لأنقلب: لأعود إلى بيتي[١].

ليقلبني: يردني إلى منزلي[٢].

على رسلكما: الرِّسل: التأني والتؤدة، أي: اتئد وتمهلا[٣].

الشرح الأدبي

إن الشيطان تتعدد طرق سيطرته على الإنسان، وأبلغ تعبير يصور مدى تغلغل الشيطان واستحواذه على الإنسان، هو هذا البيان النبوي الدقيق الذي ختم به هذا الحديث الشريف وجاء في صيغة التوكيد، وتكرر التوكيد "بإن" مرتين حيث شبه رسول الله ﷺ وسوسات الشيطان ونفاذ مغرياته إلى النفس بالدم الذي يجري في العروق، فكأنه لا يفارق الدم، وجاء هذا التصوير الذي يحذر من إغراء الشيطان في إطار مشهد واقعي من مشاهد السيرة النبوية، حيث تروي أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها وقائع هذا المشهد وأحداثه، وأدوات الربط بين الأفعال في الحديث تفيد سرعة الأحداث وتلاحقها، فالأفعال تتوالى في إيقاع سريع حيث العطف بالفاء، وهي تفيد الترتيب والتعقيب: أي الإسراع، ولنتأمل هذا الشريط الذي تتعاقب أحداثه من خلال أفعاله "كان النبي معتكفًا... فأتيته... فحدثته ، فقام معي فمر رجلاً، فلما رأيا النبي ... فقال النبي... فقالا... فقال..."

ولم يأت العطف بـ"ثم" إلا في حالة واحدة، وهي بعد أن أقامت معه صفية رضي الله عنها تقول: ثم قمت لأنقلب أي أرجع والعطف هنا يدل على التريث والمكث عند رسول الله ﷺ: لأنها زيارة من زوجته له، ولو قالت فقمت: لفقد الكلام بلاغته، وفقد السياق دلالته، وقولها: فلما رأيا النبي أسرعا كناية عن الحياء، وعدم النظر إلى رسول الله ﷺ وهو مع زوجته، وهذا من أدب الصحابة، وقول النبي ﷺ "على رسلكما"،

---

(١) لسان العرب، ابن منظور في (ق ل ب)، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ٣٢٧/٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ٣٢٧/٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر س ل).

أمر بالتمهل وتوجيه لهما بأن يمشيا المشي المعتاد لأنه ليس في الأمر ما يكرهانه، كأنه يقول لهما: امشيا على هيئتكما، والتأكيد في قوله: "إنها صفية بنت حيي"، يشير إلى أنه ليس في الأمر شبهه، وأنه يجب نزع أي خاطر أو وهم غير صائب: وهذا لإزالة الشبهة التي قد تطرأ وتطوف بالذهن، وهذا من باب اتقاء الشبهات، وقولهما: سبحان الله يارسول الله فيه تعجب، ونداء.. وتنزيه لرسول الله ﷺ عن كل ما يشين، وفي رواية أخرى "يا رسول الله وهل يظن بك إلا خيرًا"، ويصدر الرسول ﷺ هذا التوجيه النبوي الحكيم وهو منبثق من هذه التجربة العملية الواقعية: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم"، وهذا تعبير إيحائي تصويري مقنع يظل نبراسًا يضيء المواقف والأحداث، ويزيل الشبه ويقضي على همزات الوسواس الخناس.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الاعتكاف.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: كمال شفقة النبي ﷺ بأمته.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: التحرز من التعرض لسوء الظن والتحفظ من كيد الشيطان.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الاعتكاف:

هذا ما يستفاد في الحديث من قول صفية أم المؤمنين رضي الله عنها "كان النبي ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلاً" قال ابن حجر: (والاعتكاف لغة لزوم الشيء وحبس النفس عليه، وشرعًا المقام في المسجد من شخص مخصوص على صفة مخصوصة، وليس بواجب إجماعًا إلا على من نذره)[١]، وقد كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إنّ النبيَّ ﷺ كانَ يَعتَكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ مِن رمضانَ حتّى تَوَفّاهُ اللّهُ تعالى، ثمَّ اعتكَفَ أزواجُهُ من بَعدِه))[٢] وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كان رسولُ اللهِ ﷺ يَعتَكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ مِن رمضانَ))[٣].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٢٦.

(٣) أخرجه البخاري ٢٠٢٥.

وللاعتكاف مقصود عظيم وفضل جليل بينه ابن القيم في قوله: (لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى، متوقفًا على جمعيته على الله ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام، مما يزيده شعثًا ويشتته في كل واد، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يُذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب من أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرّع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والانشغال به وحده سبحانه وتعالى، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كلُّه به والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه والتقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك، لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم)[1]. وهذا ما أكده جلّ الفقهاء في قولهم: (إن الاعتكاف فيه تسليم المعتكف نفسه بالكلية إلى عبادة الله تعالى وطلب الزلفى، وإبعاد النفس من شغل الدنيا التي هي مانعة عما يطلبه العبد من القربى، وفيه استغراق المعكتف أوقاته في الصلاة إما حقيقة أو حكمًا، لأن المقصد الأصلي من شرعية الاعتكاف انتظار الصلاة في الجماعات، وتشبيه المعتكف نفسه بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار ولا يفترون)[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: كمال شفقة النبي ﷺ بأمته:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "على رسلكما، إنها صفية بنت حيي" وفي بيان

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٢/٨٦-٨٧.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٥/٢٠٧.

ذلك قال النووي: (وفي الحديث فوائد منها بيان كمال شفقته ﷺ على أمته ومراعاته لمصالحهم وصيانة قلوبهم وجوارحهم ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1] فخاف ﷺ أن يلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكا، فإن ظن السوء بالأنبياء كفر بالإجماع، والكبائر غير جائزة عليهم)[2]، وفي ذلك بيان عظيم على كمال شفقته ﷺ بأمته، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] قال ابن كثير: (في قوله تعالى "عزيز عليه ما عنتم" أي: يعز عليه الشيء الذي يعنتُ أمته ويشق عليها، وقوله تعالى "حريص عليكم" أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم)[4]، وقوله تعالى "بالمؤمنين رؤوف رحيم قال السعدي: (أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم)[5].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: التحرز من التعرض لسوء الظن والتحفظ من كيد الشيطان:

هذا ما يستفاد من الحديث في قوله ﷺ "إنها صفية بنت حيي" وقوله ﷺ إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شرًا - أو قال شيئا - وفي بيان ذلك، قال ابن هبيرة: (في هذا الحديث دليل على أنه يجب على كل مسلم أن يتباعد عن مواقف الريب، وأن لا يقنع ببراءة نفسه عند نفسه، حتى يكون دليله على ذلك برهانًا واضحًا ينوب عنه مقاله ولا يحوجه إلى بسط عذره، فإن رسول الله ﷺ لم يكن يظن به الشر مسلم إلا أنه ﷺ أراد بذلك أن يسلم ذلك الشخص الناظر من أن يعرض له الشيطان في تخييل ما لم يكن، وأن يقتدي به كل

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٦١.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٢٤١.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٣١٣.

مؤمن إلى يوم القيامة، فلا يخلون رجل بامرأة ليست له بمحرم فرؤي خاليًا بها، عرف الناظر إليه ذلك)[1].

وهذا ما أكده ابن حجر في قوله: (وفي الحديث التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار، قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص، لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم، ومن ثم قال بعض العلماء ينبغي للحكم أن يبين للمحكوم عليه وجه الحكم إذا كان خافيًا نفيًا للتهمة. ومن هنا يظهر خطأ من يتظاهر بمظاهر السوء ويعتذر بأنه يجرب بذلك على نفسه، وقد عظم البلاء بهذا الصنف، والله أعلم)[2]، وفي بيان الاحتفاظ من كيد الشيطان قال النووي: (وفي الحديث الاستعداد للتحفظ من مكايد الشيطان، فإنه يجري من الإنسان مجرى الدم، فيتأهب الإنسان للاحتراز من وساوسه وشره، وفي قوله ﷺ إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم، قال القاضي وغيره: قيل: هو على ظاهره وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجري في باطن الإنسان ومجاري دمه، وقيل: هو على الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه، وقيل: يلقي وسوسته في مسام نظيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب)[3]، فعلى المرء أن يتحرز ويتحفظ من كيد الشيطان ووساوسه.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٥/٣٧٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/٣٢٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٦١، إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٧/٦٥.

الحديث رقم (١٨٥٢)

١٨٥٢- وعن أبي الفضل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَومَ حُنَيْن، فَلَزِمْتُ أنا وأبو سُفْيَانَ بن الحارثِ بن عبد المطلب رَسُول الله ﷺ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرسُولُ اللهِ ﷺ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ[١]، فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ[٢]، وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبلَ الكُفَّارِ[٣]، وأنا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أكُفُّهَا إرَادَةَ أنْ لاَ تُسْرِعَ، وأبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: **((أيْ عَبَّاس، نَادِ أصْحَابَ السَّمُرَةِ))**. قالَ العَبَّاسُ (وَكَانَ رَجُلاً صَيِّتًا) فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أيْنَ أصْحَابُ السَّمُرَةِ، فَوَاللهِ لَكَأنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ البَقَرِ عَلَى أوْلاَدِهَا، فقالوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ، فَاقْتَتَلُوا هُمْ وَالكُفَّارُ، وَالدَّعْوَةُ فِي الأنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، ثُمَّ قَصُرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ: **((هَذَا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ))**، ثُمَّ أخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: **((انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ))**، فَذَهَبْتُ أنْظُرُ فَإذَا القِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيما أرَى، فَواللهِ مَا هُوَ إلاَّ أنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أرَى حَدَّهُمْ كَلِيلاً وَأمْرَهُمْ مُدْبِرًا. رواه مسلم[٤].

"الوَطِيس": التَّنُّور، ومعناه: اشتدت الحرب، وقوله: "حَدَّهُمْ" هو بالحاء المهملة، أي: بأسهم.

ترجمة الراوي:

العباس بن عبد المطلب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٤٩٠).

---

(١) عند مسلم زيادة: (أهداها له فروة بن نفاثة الجذاميّ).

(٢) لفظ مسلم: (والكفار).

(٣) عند مسلم زيادة: (قال عباس).

(٤) برقم ١٧٧٥/٧٦.

غريب الألفاظ:

يوم حنين: حنين واد بين الطائف ومكة المكرمة وفيه وقعت غزوة حنين في شوال ٨هـ[١].

يركض بغلته: أي: يحرك رجله حثا لبغلته على العَدْو[٢].

السمُرة: هي: الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، ومعناه: ناد أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية[٣].

صيِّتًا: مرتفع الصوت[٤].

عطفتهم: ميلهم وشفقتهم[٥].

يا لبيك: لزومًا لطاعتك، ومعناه اتجاهي إليك وقصدي وإقبالي على أمرك[٦].

المتطاول: أي: تمدد قائمًا لينظر إلى الحرب، أو مد عنقه ليراه أو يطلع إليه[٧].

الوطيس: أي: التَّنُّور، ومعناه: اشتدت الحرب[٨].

حدهم كليلا: أي: بأسهم ضعيفًا[٩].

وأمرهم مدبرًا: أي: ولوا مدبرين لفسادٍ لحق بهم[١٠].

الشرح الأدبي

إن أحداث غزوة حنين جاءت بعد فتح مكة: حيث أقام المسلمون بمكة فرحين

---

(١) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل، ١٥٦.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي في (ر ك ض).

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١١٤٦.

(٤) لسان العرب، ابن منظور في (ص و ت).

(٥) انظر الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، ٦١٠.

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ل ب ى).

(٧) المرجع السابق في (ط و ل).

(٨) رياض الصالحين، ٦٢٦.

(٩) رياض الصالحين ٦٢٦، وانظر شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٤٦.

(١٠) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (د ب ر).

بنصر الله إياهم، مغتبطين أنه لم يسفك في هذا النصر العظيم إلا الدم القليل، وبعد أسبوعين من مقامهم بمكة: وبعد أن تألبت هوازن وثقيف بإمرة مالك بن عوف النصري، سار المسلمون لردعهم، والقضاء على هؤلاء الذين يبغون القضاء على من أتم الله عليهم نعمة الفتح المبين، وسار المسلمون في جيش لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله، حتى أعجب بعض المسلمين بكثرتهم وقالوا: لن نغلب اليوم لكثرتنا، وكانوا اثنى عشر ألفًا من الأبطال المقاتلين.

وهذا الحديث يصور مشهد المواجهة بين المسلمين والمشركين.. وهو ليس مشهدًا عاديًا، ولكنه مشهد إدبار المسلمين وبوادر هزيمتهم، حيث يقول العباس ﵁: "ولي المسلمون مدبرين لأنهم، أعجبتهم كثرتهم، ولكنها لم تغن عنهم شيئًا، وتتجلى شجاعة رسول الله ﷺ في إقباله وعدم إدباره، حيث أراد أن يندفع ببغلته البيضاء في صدر هذا السيل الدافق من رجال العدو هوازن وثقيف، ونضر وجشم، وما أدق هذا التعبير في رصد حركة الرسول وشجاعته، وغيرته وحميته، حيث يقول: فطفق رسول الله ﷺ يركض ببغلته قبل الكفار"، ولكن العباس بن عبدالمطلب ﵁ يمسك بخطام البغلة، ويحول دون تقدمها خوفًا على رسول الله ﷺ من غدر الأعداء، وأمر الرسول ﷺ العباس ﵁ أن يصيح في الناس وأن يستنهض أهل بيعة الرضوان، وكنى عنهم بقوله: يا أهل السمرة أي الشجرة، وقيل كان العباس ﵁ جَهْوَرِيَّ الصوت يسمع صوته من نحو ثمانية أميال، وكأنه نفير الحرب أو البوق في العصر الحديث، وأقبل أهل البيعة، وأقبل الأنصار، وأقبل بنو الحارث، وكُسرت شوكة المشركين، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بجند من عنده.

ولنتأمل هذه الصورة البيانية التي ترصد حركة أهل البيعة في إقبالهم بعد أن سمعوا النداء، يقول العباس ﵁ "فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها"، وهذا تصوير دقيق يفصح عن تشوقهم لنصرة رسول الله ﷺ ونصرة الدين وحمايته، حيث قالوا: يالبيك يالبيك، وبعدها اقتتلوا هم والكفار، ونادى رسول الله ﷺ بأعلى صوته مستبشرًا: "الآن حمى الوطيس"، والوطيس حجارة مدورة إذا

حميت لم يقدر أحد أن يطأ عليها، وقيل هو التنور، وهذا التعبير الجديد البليغ لم يسمع في كلام العرب من قبل، ورسول الله ﷺ أفصح العرب، وقالوا: هذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يسمع من واحد قبل رسول الله ﷺ: ومعناه: اشتدت الحرب، وقال القرطبي: الوطيس موضع وقود النار واستعارته هنا لشدة الحرب، وهذه الاستعارة العجيبة لايعرف من تكلم بها قبله ﷺ من العرب، وأتم الله نعمته على المسلمين، وهُزِم المشركون وولوا مدبرين، بعد أن استجاب الله لنبيه ﷺ وثبت فؤاده، حين نادى في قلب المعركة: "أنا النبي لا كذب: أنا ابن عبدالمطلب"، وقال: "انهزموا ورب محمد ورماهم بحصياته، يقول العباس: فما زلت أرى حدهم، أي بأسهم كليلاً وأمرهم مدبرًا" فلله درك يا رسول الله:

قد تمهل الأقدار غِرًا[1] حاقدًا	لكنها لا تتصر الإشراكا
وأنا النبي لا كذب وأنا	ابن عبدالمطلب تتحديان عداكا
تتكاثران مع الزمان فكلنا	حرب على من يستبيح حماكا
هي صيحة لك في حنين حطمت	جيش الضلال وخلدت دعواكا
كانت بسيف ابن الوليد مضاءة	والنصر ظل مَحَاريًا تهواكا
وعلى الأسنة كان نور لهيبها	حمما تشل طريق من آذاكا
وتنقلت عبر القرون صواعقا	سحقت حصون البغى وهي صداكا[2]

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة حنين.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على حضور الغزوات مع النبي ﷺ.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: قوة وشجاعة وثبات رسول الله ﷺ.

---

(١) الغِرُّ: الأبله الذي لم يجرب الأمور، انظر: لسان العرب، ابن منظور في (غ ر ر).

(٢) انظر: ديوان مدائن الفجر، د. صابر عبدالدايم، قصيدة: اين الطريق إليك.

رابعًا: من تاريخ الدعوة: بيعة الرضوان.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التشبيه.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل ومكانة الأنصار رضي الله عنهم.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان معجزتي النبي ﷺ في غزوة حنين.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة حنين:

هذا ما ورد في الحديث من قول أبي الفضل العباس بن عبدالمطلب: "شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين... إلخ" (وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والنَّعم، وجاؤوا بقضِّهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضًا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين"، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1].

وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب آخذ بركابها

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٥.

الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: "أين يا عباد الله؟ إليَّ أنا رسول الله"، ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبوبكر، وعمر رضي الله عنهما، والعباس وعلي، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم رضي الله عنهم، ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة -يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما رجعت شرذمة منهم، أمرهم عليه السلام، أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: "اللهم أنجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ)[1].

(وكان من أعظم العبر والعظات المتخذة من غزوة حنين، أنها درسٌ في العقيدة الإسلامية، وقانون الأسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذي أوحت به غزوة بدر، بل متممًا له؛ فإذا كانت وقعة بدر قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئًا في جنب كثرة أعدائهم، إذا كانوا صابرين ومتقين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضًا لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين. وكما نزلت آيات من كتاب الله تعالى في تقرير العبرة من "بدر"، فقد نزلت آيات منه أيضًا في تقرير العبرة التي ينبغي أن تؤخذ من "حنين".

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢٥/٤-١٢٦، وانظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٨١/٤.

كان المسلمون في بدر أقل عددًا منهم في أي موقعة أخرى، ومع ذلك فلم تضرهم القلة شيئًا، بسبب صدق إسلامهم، ونضج إيمانهم، وشدة ولائهم لله ولرسوله.

وكان المسلمون في حنين أكثر عددًا منهم في أي موقعة أخرى خاضوها من قبل. ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئًا، بسبب تلك الجماهير التي لم يتمكن الإيمان بعد في نفوسها، ولم يتغلغل معنى الإسلام في أعماق أفئدتها.

لقد انضمت تلك الجماهير إلى الجيش بجسومهم وأشكالهم، بينما لا تزال الدنيا وأهواؤها تتخطف أفئدتهم وتستولي على نفوسهم. وهيهات أن يكون لتعداد الجسوم والأشكال أي أثر في النصر والتوفيق.

فمن أجل ذلك أدبرت هذه الجماهير وارتدت على أعقابها متفرقة في متاهات وادي حنين، حينما فوجئوا بكمائن العدو تخرج في وجوههم، وربما امتدت ظلال هذا الهلع إلى أفئدة كثيرة من المؤمنين الصادقين أيضًا بادئ الأمر.

ولكن ما هو إلا أن سمع الأنصار والمهاجرون صيحات رسول الله ﷺ ونداءه لهم حتى كرُّوا عائدين، يلتفون حول رسول الله ﷺ، ويخوضون معه معركة حامية الوطيس، ولم يكن هؤلاء يزيدون على المائتين!

ولكن بهؤلاء المائتين عاد النصر إلى المسلمين، ونزلت السكينة على قلوبهم، وهزم الله عدوهم شر هزيمة، بعد أن كانوا اثني عشر ألفًا فيهم كثير من الأمشاج الذين لم يغنوا عن أنفسهم شيئًا!

وأنزل الله تعالى هذه العظة البليغة في كتابه الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1][2].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٢٥-٢٧.

(٢) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ٤٢٤-٤٢٥.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على حضور الغزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم:

هـذا مـا ورد في الحـديث مـن قـول الـراوي: شـهدت مـع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يـوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم نفارقه. وليس أدل على حرصهم رضي الله عنهم على حضور الغزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم من فعل أبي خيثمة رضي الله عنه في ترك نعيم الدنيا والخروج في سبيل الله، وذلك ما ذكره ابن إسحاق في قوله: (إن أبا خيثمة رجع - بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أيامًا - إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين[1] لهما في حائطه[2]، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح[3] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصف! ثم قال والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهيئا لي زادًا، ففعلتا. ثم قدّم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أدركه حين نزل بتبوك. وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خيثمة؛ فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أولى[4] لك يا أبا خيثمة". ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا، ودعا له بخير)[5].

---

(١) العريش: ما يستظل به، انظر: لسان العرب، ابن منظور في (ع ر ش).

(٢) الحائط: البستان، انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١٢١/٤ ها مش.

(٣) الضح: الشمس، انظر: المرجع السابق نفسه.

(٤) أولى لك: كلمة تهديد معناه: الويل لك، انظر: المرجع السابق نفسه

(٥) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ١٦٠/٤، والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ١٥٦/٧-١٥٧.

وها هو ذا أبوذر رضي الله عنه يقطع الفيافي والقفار حرصًا منه على الغزو في سبيل الله مع رسوله ﷺ؛ فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان. فيقول: دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه. حتى قيل: يا رسول الله، تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره. فقال: دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه "وتلوَّم"[١] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره، ثم خرج يتَّبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ "كن أبا ذر". فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده. قال: "فضرب الدهر من ضربه"[٢] وسُيِّر أبوذر إلى الربذة في عه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه فقال: إذا مت فاغسلاني وكفناني من الليل، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به كذلك، فاطلع ركب، فما علموا به حتى كادت ركابهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر. فاستهل ابن مسعود يبكي، وقال: صدق رسول الله ﷺ: يرحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده. فنزل فوليه بنفسه حتى "أجنه"[٣])[٤]. وفي بيان ما سبق دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله مع رسوله ﷺ.

---

(١) أي: انتظر وتمهل، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٨٤٦.

(٢) أي: مر من مروره وذهب بعضه، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٥٤١.

(٣) أي: دفنه وستره، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ١٦٩.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٧/١٥٨-١٥٩، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي ٥/٢٢٧.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: قوة وشجاعة وثبات رسول الله ﷺ:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي رضي الله عنه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والمشركون، ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض ببغلته قبل الكفار، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، أكفها إرادة أن لا تسرع" قال ابن كثير: (وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع ذلك على بغلة ليست سريعة الجري، ولا تصلح لكرٍ ولا لفرٍ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها على وجوههم، وينوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان)[1]. وقال النووي قال العلماء: (ركوبه ﷺ البغلة في موطن الحرب وعند اشتداد البأس، هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه أيضًا يكون معتمدًا يرجع المسلمون إليه وتطمئن قلوبهم به وبمكانه، وإنما فعل هذا عمدًا وإلا فقد كانت له ﷺ أفراس معروفة، ومما ذكر في هذا الحديث من شجاعته ﷺ تقدمه يركض بغلته إلى جمع المشركين وقد فر الناس عنه. وفي الرواية الأخرى: ((أنه نزل إلى الأرض حين غشوه))[2]، وهذه مبالغة في الثبات والشجاعة والصبر، وقيل فعل ذلك مواساة لمن كان نازلاً على الأرض من المسلمين، وقد أخبرت الصحابة رضي الله تعالى عنهم بشجاعته ﷺ في جميع المواطن)[3]، فعن الْبَرَاءُ رضي الله عنه أنه قال: ((كُنَّا، وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ))[4]، قال النووي: (احمرار البأس كناية عن شدة الحرب، واستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة، أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر كما في الرواية السابقة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٢٨/٤.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٧٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٤٥.

(٤) أخرجه البخاري ٤٣١٧، مسلم ١٧٧٦.

حمي الوطيس، وفيه بيان شجاعته ﷺ وعظم وثوقه بالله تعالى)[١]، وعن أنس ﷺ قال: ((كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، وقد فزع أهل المدينة ليلة، سمعوا صوتًا، فتلقاهم النبي ﷺ على فرس لأبي طلحة عُري، وهو متقلد سيفه، فقال: لم تراعوا، ثم قال رسول الله: وجدته بحرًا يعني الفَرَسَ))[٢].

رابعًا- من تاريخ الدعوة: بيعة الرضوان:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ "أي عباس، ناد أصحاب السمرة" قال النووي: (هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، ومعناه ناد أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية)[٣]، (وقد كانت بيعة الرضوان في السادس من الهجرة من ذي القعدة حيث خرج رسول الله ﷺ في ألف وأربعمائة رجل، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت، ومعظمًا له)[٤]، (وقد أراد النبي ﷺ بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكًا لقبيل يحتكر القيام عليه ويمكنه الصد عنه، فهو ميراث الخليل إبراهيم...، وإحرام النبي ﷺ وصحبه بالعمرة فحسب -وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة، وتأسيس علاقة أهدأ وأرق، ولكن أبت قريش وتعاهدت ألا يدخل عليهم رسول الله ﷺ مكة أبدًا)[٥]، (وبعد أن أرسلت قريش بديل بن ورقاء الخزاعي، ثم مكرز بن حفص بن الأخيف، ثم الحليس بن علقمة "سيد الأحابيش"، ثم عروة بن مسعود الثقفي، وبعد هذه الوفود كانت "بيعة الرضوان")[٦].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٤٨.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠٤٠، ومسلم واللفظ له ٢٣٠٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٤٦.

(٤) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٣٠٨/٢، البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢٠٧/٦.

(٥) فقه السيرة، محمد الغزالي، ٣٢٢-٣٢٤.

(٦) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٣١٣/٢، والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢١٠/٦-٢١٤.

حيث كان سبب هذه البيعة العظيمة أن النبي ﷺ (دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبدالله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: "لا نبرح حتى نناجز القوم". ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبدالله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألا نفر.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل)[1].

وقد أخرج البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((قال لنا رسول الله ﷺ يوم

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ٢/٣١٥-٣١٦، والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٦/٢١٤-٢١٥.

الحديبية: أنتم خير أهل الأرض[١] وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة).

خامسًا- من أساليب الدعوة: التشبيه:

هذا ما ورد في الحديث من قول العباس رضي الله عنه "فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، والتشبيه من الأساليب الدعوية المهمة (في تقريب المعنى إلى الأفهام؛ فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية)[٢]، فعلى الداعية أن يستعين بهذا الأسلوب المهم في تقريب المعنى لأفهام المدعوين لما في ذلك من عظيم الفائدة.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل ومكانة الأنصار رضي الله عنهم:

هذا ما يستفاد من الحديث من قول الراوي "والدعوة في الأنصار يقولون: "يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار" وفي بيان عظيم فضل الأنصار رضي الله عنهم وعلو مكانتهم (قال تعالى مادحًا لهم، ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة)[٣]: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٤])[٥]، قال القرطبي: (لا خلاف أن الذين تبوؤوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها)[٦]، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم عظم فضلهم ومكانتهم فقال: ((لو أنَّ الأنصارَ سلكوا واديًا أو شِعبًا لَسَلكتُ في وادي

---

(١) أخرجه البخاري ٤١٥٤، ومسلم ١٨٥٦.

(٢) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ٣٣١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٨/٨.

(٤) سورة الحشر، آية: ٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٨/٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٣٥٨/٢٠.

الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرءًا منَ الأنصار. فقال أبو هريرةَ: ما ظَلَمَ - بأبي وأُمي - آوَوهُ ونصروهُ. أو كلمةً أخرى))[1] قال ابن حجر: (قال الخطابي: أراد ﷺ بذلك استطابة قلوب الأنصار، حيث رضي أن يكون واحدًا منهم لولا ما منعه من سمة الهجرة، وأطال بذلك بما لا طائل فيه، وقول أبو هريرة رضي الله عنه "ما ظلم"، أي ما تعدى في القول المذكور ولا أعطاهم فوق حقهم، ثم بين ذلك بقوله "آووه ونصروه"، وقوله رضي الله عنه "أو كلمة أخرى" لعل المراد وواسوه وواسوا أصحابه بأموالهم، وقوله "لسلكت في وادي الأنصار" أراد بذلك حسن موافقتهم له لما شاهده من حسن الجوار والوفاء بالعهد، وليس المراد أنه يصير تابعًا لهم، بل هو المتبوع المطاع المفترض الطاعة على كل مؤمن)[2]، وقد جعل النبي ﷺ حب الأنصار من الإيمان فقال: ((الأنصارُ لا يُحبُّهم إلاّ مؤمن، ولا يُبغضُهم إلاّ منافق. فمن أحبَّهم أحبَّهُ الله، ومَن أبغضهم أبغضَه الله))[3]، وقال ﷺ: ((آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنْصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنْصار))[4] وفي ذلك بيان على عظيم فضلهم وعلو مكانتهم رضي الله عنهم.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان معجزتي النبي ﷺ في غزوة حنين:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي: ((ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: "انهزموا، ورب محمد!" قال: فذهبت انظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبرًا))، قال النووي: (هذا فيه معجزتان ظاهرتان لرسول الله ﷺ: إحداهما فعلية والأخرى خبرية، فإنه ﷺ أخبر بهزيمتهم ورماهم بالحصيات فولوا مدبرين)[5] وذكر مسلم في رواية أخرى: ((أنه ﷺ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ

---

(١) أخرجه البخاري، ٣٧٧٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٤٠/٧.

(٣) أخرجه البخاري، ٣٧٨٣.

(٤) أخرجه البخاري، ٣٧٨٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٤٦.

بِهِ وُجُوهَهُمْ. فَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ فَمَا خَلَقَ اللَّهِ مِنْهُمْ إِنْسانًا إلاَّ مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا، بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ))[1] (وهذا أيضًا فيه معجزتان خبرية وفعلية، ويحتمل أنه أخذ قبضة من حصى وقبضة من تراب فرمى بذا مرة وبذا مرة، ويحتمل أنه أخذ قبضة واحدة مخلوطة من حصى وتراب)[2].

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٧٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٤٦.

الحديث رقم (١٨٥٣)

١٨٥٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((أيُّهَا النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّبًا ، وإنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ. فقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[البقرة: ١٧٢]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعثَ أغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، ومَلبسُهُ حرامٌ، وَغُذِّيَ بالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أشعث: متسخ[2].

أغبر: علاه الغبار[3].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يضيء لكل مسلم طريق الكسب الحلال، ويهديه إلى دروب الكمال، واتباع القدوة المثال، والابتعاد عن مواطن الريبة، ومنافذ الشيطان التي تلقى بالعبد في جب التهلكة والخسران، ولنتأمل سمات الجمال الأسلوبي التي تجسم المعاني وتوضحها، ومن هذه السمات الجمالية:

أ- البدء بالنداء في قوله: "أيها الناس"، وقد حذف حرف النداء اختصارًا وإيجازًا، وهو يوحي بالسرعة والرغبة في الاستجابة والإصغاء، وقال: "أيها الناس"، ولم يقل: أيها

---

(١) برقم ١٠١٥/٦٥. أورده المنذري في ترغيبه ٢٥٦١.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ش ع ث).

(٣) المرجع السابق في (غ ب ر).

المؤمنون: لأن لفظ الناس يتسق مع سياق الحديث بعد ذلك، حيث قال: إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وقوله الناس: فيه تعميم يشمل كل أصحاب الأنبياء واتباعهم من قبل: وقال الزمخشري: ناداهم وإن كانوا في أزمنة مختلفة للإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك، ليعتقد السامع أن ما نودوا به جميعًا حقيق بالأخذ والعمل.

ب- تكرار التأكيد في بداية الجملتين التاليتين للنداء، للإشعار بأهمية المنادى به وضرورة اتباع ما أمر به رسول الله ﷺ وما أوصى به، حيث قال: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا"، ومعنى طيبا: أي منزه عن النقائص مقدس عن الآفات والعيوب، وأسلوب الاستثناء في قوله: "لا يقبل إلا طيبًا" تأكيد لما سبق، وتنبيه على الكسب الحلال، وإرهاص لما سيأتي في ختام الحديث، حيث لا يقبل الله دعاء ولا رجاء ولا إنفاق من كان مطعمه حرامًا، ومشربه حرامًا، لأنه لم يقدم الطيب من القول ولا الطيب من الفعل ولا الطيب من الصدقات.

ج- التأكيد في قوله: إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين لتقرير الحقيقة الشرعية، حيث لا فرق بين الرسل والأمم في أمر كلٍّ بطلب الحلال، واجتناب الحرام.

د- الاقتباس من القرآن الكريم، والاستشهاد بآياته للإقناع، ولإفحام المغرضين والمبتدعين وأصحاب الأهواء.

هـ - صورة المسافر وهو أشعث أغبر... ويمد يديه إلى السماء، ويكرر النداء والدعاء: "يارب يارب"، هذه الصورة تتضمن مفارقة سلوكية حيث التناقض بين الأفعال والأقوال: فهو في مظهره وقوله: يبدو مؤمنًا محتاجًا إلى ربه، ولكنه في مخبره غير ذلك، فمطعمه حرام، ومشربه حرام، وحتى في نشأته وطفولته غذى بالحرام، وكأنه ورث هذا السلوك المعوج... وتدرج في هذه البيئة الفاسدة، والتعبير بالمصدر في قوله: "مطعمه ومشربه" إيحاء بأن مصدر الكسب حرام، ومنبعه، من الكسب الخبيث، وليس الكسب الطيب، والبناء للمجهول في قوله: "وغذي بالحرام": إشارة إلى أنه كان يجهل هذا الغذاء لعدم إدراكه، وكان عليه في الكبر أن يتدارك ذلك ، وأن يصغى

إلى رسول الله ﷺ في قوله: أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة.

و - الاستفهام في قوله: فأنى يستجاب له يفيد الإنكار والاستبعاد، أي كيف يستجاب الدعاء لمن خبث مصدر مطعمه ومشربه، وقيل: إن للدعاء جناحين، أكل الحلال، وصدق المقال.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الإنفاق من الطيب الحلال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على كسب الطيب من الرزق وأكل الطيبات.

رابعًا: من مصادر الدعوة: القرآن الكريم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من أكل أو شرب الحرام.

أولاً- من أساليب الدعوة: النداء:

النداء من أساليب الدعوة المهمة في لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لبيان أهمية الأمر المدعو إليه، وهذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "يا أيها الناس".

ثانيا - من موضوعات الدعوة: الحث على الإنفاق من الطيب الحلال:

هذا ما أكد عليه نص الحديث في قوله ﷺ "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا".

قال ابن رجب: (والمعنى أنه تعالى مقدَّس منزه عن النقائص والعيوب كلها، وهذا كما في قوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾[1]

والمراد: المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها. وقوله: "لا يقبل إلا طيبًا" أي لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيبًا حلالاً.

وقد قيل: إن المراد في هذا الحديث الذي نتكلم فيه الآن بقوله: "لا يقبل الله إلا طيبًا" أعم من ذلك، وهو أنه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيبًا طاهرًا من المفسدات كلها، كالرياء والعجب، ولا من الأموال إلا ما كان طيبًا حلالاً، فإن الطيب توصف

(١) سورة النور، آية: ٢٦.

به الأعمال والأقوال والاعتقادات، فكل هذه تنقسم إلى طيب وخبيث)[١].

قال النووي: (وفي الحديث الحث على الإنفاق من الحلال والنهي عن الإنفاق من غيره)[٢].

وفي تأكيد ذلك قال ﷺ: ((مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ، إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمنُ بِيَمِينِهِ. وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً. فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ. كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ))[٣]، قال النووي: (والمراد بالطيب هنا الحلال)[٤]، وبين ابن هبيرة: (أن الله تعالى إنما يثيب العبد على ما أنفق من ماله، وإذا أنفق من مال مغصوب لم يكن قد أنفق ماله؛ إنما أنفق من مال غيره؛ فلم يكن من المنفقين أموالهم كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾[٥]؛ فإذا أنفق من ماله فهو الذي يأجره الله عليه، وذلك هو الكسب الطيب، وهو الذي يكسبه بالشرع، فقد طابت طرق حصوله، وينبغي له ألا يزدري النذر من الإنفاق؛ فإنه سيربو في التضعيف أضعاف ما يأمل المتصدق به)[٦].

وهذا ما أكده النبي ﷺ في نص الحديث من قوله "... إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربوا في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيلة".

قال ابن حجر: (وقوله: "فلوَّه" بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، وهو المهر لأنه يفلى أي يفطم...، وضرب به المثل لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيمًا، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال،

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٨٥/١-٢٥٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٤١٠، ومسلم ١٠١٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٤٤.

(٥) سورة البقرة، من آية: ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٧٤.

(٦) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٥٧/٦.

وكذلك عمل ابن آدم -لا سيما الصدقة- فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب، لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال، حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل)[١]. والفصيل: (هو ولد الناقة إذا فصل عن أمه، وأصله من القطع)[٢]. وفي بيان ما سبق لكمال الحث والترغيب على الإنفاق من الطيبات.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على كسب الطيب من الرزق وأكل الطيبات:

هذا ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٤]، قال ابن رجب: (وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، فإنه قال بعد تقريره: إن الله لا يقبل إلا طيبًا. إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا"، وقال: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم".

والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالاً، فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولاً؟)[٥]. (فينبغي أن يكون المشروب والمأكول والملبوس حلالاً خالصًا لا شبهة فيه)[٦]، قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[٧] (يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣٢٨/٣.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد ٢٥٧/٦.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢٦٠/١.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٤٤.

(٧) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام، بهذا أتم القيام وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحًا، فجزاهم الله على العباد خيرًا)[1]، وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[2] (هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه)[3]، وفي ذلك بيان في الحث على كسب الحلال من الرزق وأكل الطيبات.

رابعًا – من مصادر الدعوة: القرآن الكريم:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[4] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[5]، فالقرآن الكريم هو مصدر الدعوة الأول (وهو حجة الداعية التي لا تضل، وبينته التي لا تزول، ورايته التي لا تتوارى، يعطيه طلاوة وحلاوة، ويزيده بهاء ووضاءة، ويمنحه إقناعًا وهداية واتباعًا... لسان من لا لسان له، وفصاحة من لا فصاحة عنده، وطريق من ضل الدرب وتاه عن الصراط المستقيم، كما هو عقل وصواب، وعزم ومضاء، وإرادة وحكم، واستقامة وتقدم، وعدالة واستقرار، وأمن وطمأنينة، ورحمة ورأفة، ومبدأ وفكرة، كما هو حياة بغير ضلال أو عوج، أو شرور وآثام، وفتن وأهواء)[6].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٧٧/٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ٦٤.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٦) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ١١٦.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من أكل أو شرب الحرام:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي ((ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك)) (والحرام: ما استحق الذم على فعله، وقيل: ما يثاب على تركه بنية التقرب إلى الله تعالى. وقيل: الحرام عام فيما كان ممنوعًا عنه بالقهر والحكم وقيل: هو: ما ثبت المنع عنه بلا أمر معارض له)[1]، وبين النبي ﷺ أن أكل الحرام هو طريق مؤدٍ إلى النار وغضب الجبار فقال: ((إنهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِن سُحْتٍ إلاَّ كانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ))[2] (والسحت بضم السين وسكون الحاء أي: الحرام)[3]، فضلاً عن إحباطه للعمل الصالح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((مَنْ جَمَعَ مالا حَرَامًا، ثمَّ تَصَدَّقَ بِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فيهِ أَجْرٌ، وكانَ إصْرُهُ عليهِ))[4].

وفي ذلك قال أبو عبدالله النباجي الزاهد: (خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال، فإن فقدت واحدة، لم يرتفع العمل، وذلك أنك إذا عرفت الله عز وجل، ولم تعرف الحق، لم تنتفع، وإذا عرفت الحق، ولم تعرف الله، لم تنتفع، وإن عرفت الله، وعرفت الحق، ولم تخلص العمل، لم تنتفع، وإن عرفت الله، وعرفت الحق، وأخلصت العمل، ولم يكن على السنة، لم تنتفع، وإن تمت الأربع، ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع)[5]. والحرام مانع من إجابة الدعاء، وهذا ما بينه النبي ﷺ في قوله من الحديث "فأنى يستجاب لذلك" قال النووي: (أي: من أين يستجاب لمن هذه صفته وكيف

---

(١) انظر: الكليات معجم المصطلحات والفروق الفردية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري ص ٢٠٠، ٤٠٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٦١٤ ص حجه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٥٠١).

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، ٨٥٩/١.

(٤) صحيح ابن حبان، ٣٣٦٧، وقال محقق الصحيح، إسناده حسن.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣١٠/٩.

يستجاب له)[1] وقال ابن رجب: (فقد أشار ﷺ إلى أن التوسع في الحرام أكلاً وشربًا ولبسًا وتغذية، مما يمنع إجابة الدعاء، وروى عكرمة بن عمار: حدثنا الأصفر، قال: قيل لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: تستجاب دعوتك من بين أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ما رفعت إلى فمي لقمة إلا وأنا عالم من أين مجيئها، ومن أين خرجت)[2]، وفي ذلك بيان على الترهيب من أكل أو شرب أو التعذي بالحرام.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٤٤.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٧٤-٢٧٥.

الحديث رقم (١٨٥٤)

١٨٥٤- وعنه رضي الله عنه ، قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : ((ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ)) رواه مسلم[1].

(العَائِلُ): الفَقِيرُ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يبدأ الحديث بالتشويق وبراعة الاستهلال، ومع التشويق والبراعة نجد الترهيب لأصناف من الناس الذين أشار إليهم بالعدد المذكور: أي ثلاث أصناف، ولم يحددهم بعد العدد، ولكن حدد عقابهم، وما أدراك ما هذا العقاب، إنه غضب أحكم الحاكمين عليهم يوم القيامة، وهو الرحيم الرحمان، فهو رحمان الدنيا يعم الصالح والطالح برحمته، ولكنه رحيم الآخرة، أي لا يفوز برحمته إلا من يستحقها، وهؤلاء لا يستحقون أن يستظلوا بظلال رحمته، ولا أن يفيئوا إلى بساتين عطفه ومنته، ولذلك توالت الجمل الثلاث التي تحدد معالم العقاب: وهي كلها تتلاقى في آن واحد، لأن الواو ليست للترتيب ولكنها لمطلق الجمع، فهم لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم، وتكرار أداة النفي "لا" ثلاث مرات يفيد ثبات هذا العقاب، وذلك الحرمان وأي عقاب أشد وأنكى من ذلك؟؟ وأي حرمان يفوق حرمان هؤلاء من نعيم وفيوضات كلام الله لهم، وتزكيته وتطهيره لهم، ونظره إليهم نظرة بر واشفاق، إنهم حرموا من هذه النعم الإلهية، والمنح الربانية، وتأكيدًا لهذا الحرمان وذلك العقاب يقدم الضمير العائد عليهم في قوله "ولهم عذاب أليم"، وهذا من أنواع القصر، فالعذاب الأليم مقصور

---

(١) برقم ١٠٧/١٧٢، وتقدم برقم ٦١٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٣٤٥.

عليهم، إضافة إلى ما تقدم من نفي النعيم عنهم، ووصف العذاب بالأليم إشارة كما يقول الواحدي: إلى أنه هو العذاب الذي يخلص وصفه إلى القلب، والعذاب كل ما ينعت الإنسان ويشق عليه، وأصل العذاب في كلام العرب: المنع.

ويفصل الرسول ﷺ القول: ويوضح بعد الإجمال، والتشويق في أول الحديث، فالثلاثة هم شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر، والأوصاف التي تمثل المعاصي والذنوب، وكذلك الربط بين المعصية ونوعية العاصي يُحدث مفارقة واستغرابًا واستكثارًا، فكيف يزني من بلغ من العمر أرذله، وقد ضعفت شهوته عن الجماع الحلال فكيف الحرام؟ والشاعر العربي يقول:

عميرة ودع إن تجهزت غازيًا　　كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا

والكذب من حيل الضعفاء وقليلي المقدرة والجاه، ولكن حينما يكذب الرئيس أو الملك أو المسؤول على رعيته وعلى من حوله، فهو يخدعهم، وهو لا يرعى الله في رعيته، وهو يرتكب الحماقات وينأى عن الالتزام بمسؤوليات الملك، وأعباء الولاية، وتكاليف القيادة، فلا يستحق تكريم الله له، ولا يستحق طاعة الناس وموالاتهم.

وصيغة المبالغة في قوله: "كذاب" تفصح عن إيغال هذا المسؤول في صنعة الكذب والخداع والتمويه والاحتيال، ووصف العائل وهو الفقير المحتاج بالمستكبر، أي الذي يفتعل الكبر وهو ليس أهلاً له، فليس لديه ما يفخر به من مال وجاه وسلطان، إلا إذا كان مؤمنًا يفتخر بدينه، وعلمه وبتيه بأخلاقه، وهذا ليس استكبارًا، ولكنه إقرار بالفضل، وتحدث بالنعمة، وهي نعمة الإيمان والأخلاق.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦١٧).

الحديث رقم (١٨٥٥)

١٨٥٥- وعنهُ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

سيحان: نهر كبير بالثغر الشامي، من نواحي المصيصة، ينبع من شرق هضبة الأناضول من جبال (أنتي طوروس)، يمر بأدخنة (أدنة)، ويصب في بحر الروم (البحر المتوسط) شمال شرق خليج الإسكندرونة[٢].

جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي (شمال غرب بلاد الشام) مخرجه من بلاد الروم، من شرق هضبة الأناضول، ويصب في البحر المتوسط غرب خليج الإسكندرونة عند بكفريبيا[٣].

الفرات: نهر ينبع من شمال شرق تركية، ويخترق جبال طوروس، ثم يدخل سورية عند بلدة جرابلس، ويغادرها إلى العراق عند بلدة البوكمال، ليلتقي بنهر دجلة عند القرنة ليكوِّنا (شط العرب) الذي يصب في الخليج[٤].

النيل: هو: نهر النيل ينبع من هضبة البحيرات من أعالي أفريقيا ويتجه شمالاً، وعند القاهرة يتفرع إلى دمياط شرقًا ورشيد غربًا، طوله ٦٦٩٥ كم[٥].

---

(١) برقم ٢٨٣٩/٢٦.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٢٢٨.

(٣) المرجع السابق ١٣٢.

(٤) المرجع السابق ٢٩٣.

(٥) انظر: أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٦٤.

الشرح الأدبي

إن الماء مصدر الحياة، وسر بقائها على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]. وقال سبحانه في سورة الزخرف: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[2].

وهذا الحديث الشريف يتضمن خبرًا تقريريًا تعريفيًا، يوضح قيمة هذه الأنهار العذبة، التي تتجمع من مياه الأمطار التي تنزل من السماء فوق الجبال والهضاب، ثم تتحدر وتتخذ مجراها عبر الشعاب والأودية والجبال، حتى تستقر في هذه المجاري المائية التي تسقى الضرع، وتنبت الزرع، فتنشأ الحضارات على ضفاف الأنهار، وتعمر الحياة، وتتكاثر الأحياء.

والحديث في دلالته تتعدد آفاق معانية، فالأنهار المذكورة في الحديث حقيقية ولها دورها في حضارة الأمم التي تقطن حولها، وتستثمر مياهها في الزراعة والصناعة وكل متطلبات الحياة، فسيحان، وقيل سيحون نهر بالهند، وجيحان نهر وراء خراسان، وسميت هذه البلاد ببلاد ما وراء النهر، وهي الآن من بلاد الإسلام القوية ذات الحضارات والثروات الهائلة، والفرات: نهر بالعراق، وعلى ضفافه قامت حضارة بلاد الرافدين، وما زال يفيض بمياهه ويروي الهلال الخصيب.

والنيل شريان الحياة في مصر، ومصر كما يقول المؤرخون هبة النيل، فأسباب الحياة واستمرار الحضارة في مصر، مرتبط بما يفيض به النيل من المياه التي تغمر الحقول بالخصوبة، وتعمل على ازدهار الحضارة في وادي النيل، مصر والسودان، وغيرهما من بلدان أفريقيا.

وقوله: "كل" أي كل هذه الأنهار من أنهار الجنة، يحتمل أن يكون على ظاهره، أي أنها حقيقة تنبع من الجنة، والله أعلم بكيفية ذلك، ويحتمل أن يكون المراد هو

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

(٢) سورة الزخرف، آية: ١١.

لازم المعنى: أي أن هذه البلاد التي تنعم بخيرات هذه الأنهار سيمنّ الله عليها بنعمة الإيمان، وينتشر فيها الإسلام، ويعم الرخاء، وقد حدث ذلك في الواقع حيث امتدت الفتوحات الإسلامية، ورفرفت راية الإسلام والتوحيد في أجواء هذه البلاد في الشام، والعراق، والهند، ومصر، وخراسان، وكأن هذه البلاد أصبحت تسقى من أنهار الجنة، وكل من استشهد من الفاتحين أو من أهل هذه البلاد دفاعًا عن الإسلام فهو في الفردوس الأعلى من الجنة، فالحديث في ضوء هذه الدلالة يعد من معجزات وبشارات النبي ﷺ لأنه إخبار واستبشار بدخول أهل هذه البلاد التي تضم هذه الأنهار في دين الله أفواجا. والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل أنهار سيحان وجيحان والفرات والنيل.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار:

يظهر في قوله ﷺ: (سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة)، حيث أخبر رسول الله ﷺ المدعوين أن هذه الأنهار من أنهار الجنة.

"قال القاضي عياض: (كون هذه الأنهار من الجنة أن الإيمان عمّ بلادها، وأن الأجسام المتغذية بمائها صائرة إلى الجنة، والأصح أنها على ظاهرها، وأن لها مادة من الجنة مخلوقة، لأنها موجودة اليوم عند أهل السنة، وقد ذكر مسلم في كتاب الإيمان في حديث الإسراء أن الفرات والنيل يجريان من الجنة، وفي البخاري من أصل سدرة المنتهى)[1]".

وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في الإخبار عن الحقائق للمدعوين.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٧٢/٨.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل أنهار سيحان وجيحان والفرات والنيل:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة)، قال الطيبي: (قال القاضي ناصر الدين: خصّ الأنهار الأربعة بالذكر لعذوبة مائها، وكثرة منافعها، كأنها من أنهار الجنة، ويحتمل أن يكون المراد بها الأنهار الأربعة التي هي أصول الجنة، وسماها بأسامي الأربعة التي هي أعظم أنهار الدنيا وأشهرها وأعذبها وأفيدها عند العرب، على سبيل التشبيه والتمثيل ليعلم أنها في الجنة بمثابتها، وأن ما في الدنيا من أنواع المنافع والنعائم فنموذجات لما يكون في الآخرة، وكذا ما فيها من المضار المردية والمستكرهات المؤذية"[1].

وأنهار الجنة أربعة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[2].

وقال كعب الأحبار: "نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر"[3].

وقال ابن عثيمين: "هذه أربعة أنهار في الدنيا وصفها النبي ﷺ بأنها من أنهار الجنة، فقال بعض أهل العلم: إنها من أنهار أهل الجنة حقيقة، لكنها لما نزلت إلى الدنيا غلب عليها طابع أنهار الدنيا وصارت من أنهار الدنيا؛ لأن أنهار الآخرة أربعة -أنهار الجنة أربعة- ذكرهم في الآية السابقة.

وهذه الأنهار الأربعة في الجنة لا نعلم كيفيتها ولا طعمها؛ لأن النبي ﷺ قال عن الجنة عن ربه في الحديث القدسي: ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))[4].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي، تحقيق: المفتي عبدالغفار ٢٤٦/١٠.

(٢) سورة محمد، آية: ١٥.

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٢٨٣/٧.

(٤) أخرجه البخاري ٣٢٤٤، ومسلم ٢٨٢٤.

لكن سيحون وجيحون[1] والنيل والفرات معلومة وهي تأسن -تتغير- مع طول المدة، فللعلماء فيها تأويلان:

(١) أنها من أنهار الجنة حقيقة لكن لما نزلت إلى الأرض صارت لها حكم أنهار الدنيا.

(٢) أنها ليست من أنهار الجنة حقيقة لكنها أطيب الأنهار وأفضلها، فذكر النبي ﷺ هذا الوصف لها من باب رفع شأنها والثناء عليها، والله أعلم بما أراد رسوله ﷺ"[2].

وفي كل الأحوال يتأكد فضل هذه الأنهار لقول رسول الله ﷺ عنها ذلك.

---

(١) قال النووي: سيجون وجيجون غير سيحان وجيجان باتفاق الناس، شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٦٥٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٨٦.

الحديث رقم (١٨٥٦)

١٨٥٦- وعنه، قال: أخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: ((خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَومَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فيهَا الجِبَالَ يَومَ الأحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَومَ الاثْنَينِ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَومَ الثُّلاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأربِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوابَّ يَومَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ ﷺ، بَعْدَ العَصْرِ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ في آخِرِ الخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ[1] فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إلَى اللَّيْلِ)) رواه مسلم[2].

قال ابن عثيمين: (أما حديث "خلق الله التربة يوم السبت إلى آخر الحديث..." فهذا الحديث رواه مسلم وقد أنكره العلماء عليه فهو حديث ليس بصحيح ولا يصح عن النبي ﷺ؛ لأنه يخالف القرآن الكريم، وكل ما خالف القرآن الكريم فهو باطل، لأن الذين رووا نقله بشر يخطئون ويصيبون والقرآن ليس فيه خطأ، كله صواب منقول بالتواتر، فما خالفه من أي حديث كان فإنه يحكم بأنه غير صحيح وإن رواه من رواه؛ لأن الرواة هؤلاء لا يتلقون عن رسول الله ﷺ مباشرة ولكن بواسطة الإسناد: حدثنا فلانا عن فلان إلى رسول الله ﷺ وهؤلاء قد يخطئون. لكن القرآن ليس فيه خطأ.

فهذا الحديث مما أنكره أهل العلم - رحمهم الله - على الإمام مسلم ولا غرابة في ذلك؛ لأن الإنسان بشر "مسلم وغير مسلم" كلهم بشر يخطئون ويصيبون، فعلى هذا لا حاجة أن نتكلم عليه، ما دام ضعيفاً فقد كُفيناه - والله الموفق)[3].

---

(١) لفظ مسلم: (من ساعات الجمعة) بدل: (من النهار).

(٢) برقم ٢٧/٢٧٨٩.

(٣) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ للإمام النووي، شرحه وأملاه: فضيلة الشيخ محمد ابن صالح العثيمين، ضبط نصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: د. محمد حسن، محمود حسن محمود ٤/٤٧٨، ط/٣ دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

الحديث رقم (١٨٥٧)

١٨٥٧- وعن أَبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه قَالَ: لَقَدِ انْقَطَعتْ فِي يَدي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ فِي يَدي إِلاَّ صَفيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ. رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

خالد بن الوليد: هو أبو سليمان القرشي المخزومي.

سيف الله تعالى، وفارس الإسلام، وليث المشاهد، وقائد المجاهدين، كان من أشراف قريش في الجاهلية، وكانت إليه أعنة الخيل، أسلم قبل فتح مكة سنة ٧هـ، وهاجر مسلمًا هو وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: ((رمتكم مكةُ بأفلاذ كبدها))[٢]، وسُرَّ به النبي صلى الله عليه وسلم، ثم سار غازيًا فحمل الراية وانتصر في مؤتة، بعد استشهاد "زيد" و"جعفر" و"ابن رواحة" رضي الله عنهم وقد اندقتْ في يده يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ، وما صَبَرتْ في يده إلا صفيحة يمانية[٣]، ثم شهد فتح مكة، فأبلى فيها وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى العُزَّى فهدمها، وجعل يقول:

كفرانك اليوم ولا سبحانك   إني رأيتُ الله قد أهانك

وشهد حُنَيْنًا، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه، وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم نِعْمَ عبدالله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله[٤]، وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم ((لا تؤذوا خالدًا، فإنه سيف من سيوف الله، صَبَّه الله على الكفار))[٥].

ولما ولّي أبوبكر رضي الله عنه وجّههُ لقيادة حروب الردة، ثم سيره إلى العراق ففتح الحيرةَ وجانبًا عظيمًا منه، وحّوله إلى الشام فاخترق البادية من العراق إلى الشام بجيشه

---

(١) برقم ٤٢٦٥.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٩٧/٥.

(٣) أخرجه البخاري ٤٢٦٥.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٨٤٦، وصححه الألباني.

(٥) صحيح ابن حبان ٧٠٩١، وقال محققو الصحيح: إسناده صحيح.

كالسهم في خمس ليالٍ، فحاصر دمشق، ولما ولّي رضي الله عنه عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام، فلم يُثني ذلك من عزمه، واستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة رضي الله عنه إلى أن تم لهما الفتح سنة ١٤هـ، وله الأثر المشهود في قتال الفرس والروم، وكان في قلنسوته التي يقاتل بها شعر من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنصر به، فلا يزال منصورًا.

وكان مظفرًا، خطيبًا، فصيحًا يشبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خَلْقه وصفته، وقد قال فيه أبوبكر رضي الله عنه: عجزت النساء أن يلدن مثله، وقد روى له المحدثون ١٨ حديثًا.

ولما حضرته الوفاة قال رضي الله عنه: لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبرٍ إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء وما من عمل أرجى من (لا إله إلا الله) وأنا متترس بها.

وتوفي في حمص "بسوريا" سنة ٢١هـ[1].

غريب الألفاظ:

مؤتة: بلدة من قرى البَلقاء في حدود الشّام، في جنوب الأردن حاليًا، فيها كانت المعركة المشهورة ٨هـ[2].

صفيحة يمانية: سيف يمني عريض[3].

الشرح الأدبي

هذه صفحة مشرقة من كتاب البطولة الإسلامية، ومن صفحات الإباء والشمم،

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٤/٢٥٢-٢٥٣، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ١٩٧-١٩٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ٢/١٤٠-١٤٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١/٣٦٦-٣٨٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين ٢/٢٧١-٢٧٢، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ١/٥٣٤-٥٣٥، والأعلام، خير الدين الزركلي ٢/٣٠٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٣٢٠-٣٢١، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك ١/٦٨٠-٦٩٠.

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ٣٥٤.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ص ف ح).

ومَن غير خالد يفتخر بهذا الصنيع، وتلك الشجاعة، إنه سيف الله المسلول، وفي هذه الغزوة استشهد ثلاثة من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة، وابن رواحة شاعر فارس: أخذ الراية بعد جعفر، وتقدم وهو على فرسه... فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال وأقسم:

أقسمت يا نفس لتنزلنّه لتنزلنّ أو لتكرهنّه

إن أجلب الناس وشدوا الرنّة[1] مالي أراك تكرهين الجنة

ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل؛ وبعده أخذ خالد الراية مع ما رأى من تفرق المسلمين وتضعضع قوتهم المعنوية، وكان قائدًا ماهرًا ومحركًا للجيوش قلّ نظيره، وأحكم تدبير خطته، وأدخل في روع عدوه أن مددًا جاءه من عند النبي ﷺ فتقاعس الروم عن مهاجمة جيش المسلمين، وسروا بعدم مهاجمته إياهم[2].

ويصف خالد بن الوليد بلاءه في المعركة قبل توليه إمارة الجيش، وقبل انسحابه بعد تفكير دقيق، وخطة محكمة، هذه المعركة كان عدد جيش الروم بين مائة أو مائتي ألف من جيوش هرقل، وعدد المسلمين ثلاثة آلاف، وهذا البلاء الحسن الذي قدمه خالد بن الوليد يؤيده التأكيد الذي يشعر بالقسم في بداية الحديث حيث يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، واللام تشعر بالقسم، وقد للتحقيق والتأكيد، وأي شجاعة تفوق هذه الشجاعة، والجملة الأخيرة في الحديث صيغت في أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء، لتفيد أن خالد لم يعد يملك إلا سيفًا يمانيًا على تلك الصفة: صفيحة يمانية، وتكسر السيوف التسعة يدل على قوة الضرب والقتال، وهكذا كان بقية أبطال الإسلام، واستجاب الله لدعاء نبيه ﷺ وردّ المسلمين إلى ديارهم سالمين مع أنهم لم ينتصروا، ولكن خطة خالد المحكمة أوقعت في قلوب أعدائهم الرعب منهم، وفي بداية المعركة قال عبدالله بن رواحة الشاعر الفارس

---

(١) الرنّة: صوت يشبه البكاء، انظر: السيرة النبوية ابن هشام ١٤/٤ هامش، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) انظر: حياة محمد، د. محمد حسين هيكل.

عندما رأي تخوف بعض المسلمين من كثرة عدد جيش الروم، وقلة جيش المسلمين قال: يا قوم والله إن التي تكرهون، لَلّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس: فوالله صدق ابن رواحة، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل وقوة وشجاعة خالد بن الوليد رضي الله عنه.

ثانيا: من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل وقوة وشجاعة خالد بن الوليد رضي الله عنه:

يظهر ذلك في قول خالد بن الوليد رضي الله عنه: (لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية).

وهذا يدل على فضل وقوة وشجاعة وإقدام خالد بن الوليد رضي الله عنه، فهو رضي الله عنه من أشجع الناس، قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((نِعْمَ عَبْدُ اللّهِ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللّهِ))[1].

قال المباركفوري: "قال القاري: أي: كسيف سله الله على المشركين وسلطه على الكافرين، أو ذو سيف من سيوف الله عز وجل، حيث يقاتل مقاتلة شديدة في سبيله مع أعداء دينه.

وقال المناوي: "أي: هو نفسه كالسيف في إسراعه لتنفيذ أوامر الله تعالى لا يخاف فيه لومة لائم"[2].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: ((أخذَ الرايةَ زيدٌ فأصيبَ، ثمَّ أخذَ جعفرٌ فأصيبَ، ثمَّ أخذَ ابنُ رَواحةَ

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٨٤٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣٠٢١).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢/٢٦٢٨، ٢٦٢٩.

فأصيبَ -وعيناهُ تَذرِفان- حتى أخذَها سيفٌ من سيوفِ اللهِ حتى فتحَ اللّهُ عليهم))[١].

قال ابن حجر: "وكان من فرسان الصحابة رضي الله عنهم... وشهد مع النبي ﷺ عدة مشاهد ظهرت فيها نجابته، ثم كان قتل أهل الردة على يديه ثم فتوح البلاد الكبار"[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الجهاد في سبيل الله:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، فقد ذكر خالد بن الوليد رضي الله عنه انقطاع السيوف في يده، وذلك في يوم مؤتة في جهاده في سبيل الله مع المسلمين، ولم يكن الجهاد في سبيل الله يومًا من الأيام حربًا استعمارية مبنية على القهر والغلبة، ولا لفرض فكرة معينة أو حكم إجباري، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[٣]، بل إنه شرع ليفتح الطريق أمام الدعوة إلى الحق والتوحيد الخالص"[٤].

إذن فالقتال كان للدعوة وليس للإكراه على الإسلام، إنما كان القتال لمنع الإكراه على البقاء على الكفر، ومنع الظلم والعدوان وإرهاق الشعوب من أمرهم عسرًا كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

ولم يكن القتال محبوبًا للنبي ﷺ إنما المحبوب المطلوب هو الدعوة إلى الحق مستشهدين في سبيله، ولذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٦].

كان المؤمنون كارهين للقتل وإزهاق الأرواح، ولكن كانوا راغبين في الدعوة إلى التوحيد، وأن يخلو وجه الناس للحق والحرية والعدل، والإيمان بالله وحده الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٥٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، ابن حجر ١٢٧/٧.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

(٤) الدعوة الإسلامية، محمد خير رمضان يوسف ص ١٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٩٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

شريك له[١].

(ولا شك أن الانتصارات التي أحرزها المسلمون في حروبهم الجهادية، كانت سببًا في دخول الناس إلى هذا الدين أفواجًا، وفتح مكة خير دليل على ما نقول.. وكذلك الفتوحات التالية في بلاد فارس والروم.

وإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ... فالقوة إلى جانب الدعوة لها أثر كبير في انتشارها.

وإن رحمة المسلمين في جهادهم بالمحاربين، والبلاد المفتوحة، كانت من الأسباب القوية التي جعلت الناس يقبلون على هذا الدين، وينضوون تحت لواء جهاده بعد أيام قليلة من الفتح)[٢]، وكل ذلك يدل على فضل الجهاد باعتباره عنصرًا مهمًا من عناصر نشر الدعوة الإسلامية.

(١) الدعوة إلى الإسلام، محمد أبو زهرة ص ٦٩.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، محمد خير يوسف ص ١٨ - ١٩.

الحديث رقم (١٨٥٨)

١٨٥٨- وعن عمرو بن العاص ﵁: أنَّه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: ((إذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أصَابَ فَلَهُ أجْرَانِ، وَإذَا حَكَمَ وَاجْتَهَدَ، فَأخْطَأَ، فَلَهُ أجْرٌ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٣٠).

الشرح الأدبي

إن الإسلام يدعو إلى التفكير والتعقل والتأمل والتدبر، والمسلم من سماته الفطنة والكياسة، والفراسة ودقة النظر، وحسن الفهم، وقوة الحجة، وهو بهذه السمات من أولي الألباب، الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض؛ وفي ضوء هذه الخصائص التي يتحلى بها المؤمن الصادق في إيمانه نقرأ هذا الحديث الشريف الذي حدد صنفًا من المسلمين وهو: "الحاكم والإمام" الذي بيده شؤون الرعية، أو القاضي الذي يتولى الفصل في أمور الناس ويحكم بينهم، أو كل من يتولى مسؤولية فضّ المنازعات، والفصل في الخصومات، ولفظ: الحاكم يشع بكل هذه الدلالات، وهذا من بلاغة الرسول ﷺ المحكمة: ألفاظ قليلة تتموج بالدلالات الكثيرة.

ويتكون الحديث من جملتين شرطيتين: الأولى: أداتها (إذا) وهي تفيد التحقق... وقد تصدرت الجملة التي تشع بالصواب في الاجتهاد. فالحكم نابع من الاجتهاد الصائب، والأجر مضاعف، ويوحي التعبير "بإذا" بالحث على الاجتهاد في الحكم، حيث يكون الحاكم من أهل الاجتهاد، ويجتهد فيما يسوغ الاجتهاد فيه، ولذلك جاء التعبير "بثم" ليفيد التأني في تلمس معالم الحكم وأدلته ومواطن صوابه.. "فاجتهد ثم أصاب، فله أجران"، أجر لاجتهاده، وأجر لإصابته، وأسلوب الشرط والجواب يناسب جو الحديث لأنه يعد بالأجر المضاعف، والجزاء من جنس العمل، والجملة الثانية

---

(١) أخرجه البخاري ٧٣٥٢، ومسلم ١٧١٦/١٥ ولفظهما سواء.

صيغت كذلك في قالب الشرط والجواب، ولكن أداة الشرط هي: (إن) لأن الخطأ بعيد عن اليقين. فالتعبير "بإن" هنا أنسب للسياق وللمقام، والعطف بالواو هنا في قوله: "واجتهد" يوحي بعدم التنسيق وبعدم ترتيب النتائج على المقدمات، لأن الواو لمطلق الجمع، أما في مقام الصواب: فقال: (إذا حكم الحاكم فاجتهد) حيث عطف بالفاء وهي توحي بالترتيب والمتابعة والتعقيب، وعدم التراخي في ترتيب الأمور والتفكر فيها.

وقوله: (فأخطأ) هنا يوحي بالسرعة وعدم التأني: لأن الاجتهاد يحتاج إلى مراجعة وموازنة وقياس. وإعمال للفكر، ومعرفة بالأدلة العقلية والنقلية، وأما في سياق الاجتهاد الصائب فقد عطف "بثم"، حيث قال: "ثم أصاب"، وهذا يوحي بالتأني والتدبروالاستقصاء والموازنة، والقياس... ومعرفة الأدلة والمسائل المشابهة والمناظرة، والأجر على محاولته الاجتهاد وهو أهل له.

وما أجمل هذا البيان النبوي، الذي يفيض بالأسرار التعبيرية والجمالية، ولا غرابة في ذلك فقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى الحكم التالي:

أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم للحكم، فإن أصاب فله أجران: أجر اجتهاده، وأجر إصابته، وإن أخطأ فله أجر باجتهاده. أما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم، فإن حكم فلا أجر له بل هو آثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا، لأن إصابته اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعي، فهو عاصٍ في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا، وهي مردودة كلها لا يعذر في شيء من ذلك[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الحاكم وأهمية وفضل اجتهاده وإصابته في الحكم.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/١٣، ١٤.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على الحاكم المجتهد في الوصول للحق وعدم حرمانه ثواب اجتهاده.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحث على إخلاص النية لله تعالى في الأعمال.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الحاكم وأهمية وفضل اجتهاده وإصابته في الحكم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم واجتهد فأخطأ فله أجر". المجتهد هو الذي يحصل منه الاجتهاد ويقوم به[١].

قال النووي: (أجمع العلماء على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم، فإن أصاب فله أجران، أجر باجتهاده وأجر بإصابته، وإن أخطأ فله أجر باجتهاده.. فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم، فإن حكم فلا أجر له، بل هو آثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا، لأن إصابته اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعي، فهو عاص في جميع أحكامه، سواء وافق الصواب أم لا، وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك، وقد جاء في السنن: ((الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ وَاثْنَانِ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ))[٢]"[٣].

فالحاكم عليه مسؤولية الحكم الصادر عنه، فلا بد أن يجتهد ويستفرغ وسعه في طلب الحق، حتى يكون مصيبًا في حكمه، فإن أصاب الحق كان له أجران، أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد.

قال ابن حجر: (قال القرطبي: قوله: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب" هكذا وقع في الحديث والأمر بالعكس، فإن الاجتهاد يتقدم على الحكم، إذ لا يجوز الحكم قبل الاجتهاد اتفاقًا، لكن التقدير في قوله: "إذا حكم"، إذا أراد أن يحكم

---

(١) انظر: أصول مذهب الإمام أحمد دراسة مقارنة، د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ص ٦٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٥٧٣، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠٥١).

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١١٠٤.

فعند ذلك يجتهد، قال: ويؤيده أن أهل الأصول قالوا: يجب على المجتهد أن يجدد النظر عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على ما تقدم له لإمكان أن يظهر له خلاف غيره)[١].

قال الإمام البغوي: (الاجتهاد هو رد القضية إلى معنى الكتاب والسنة من طرق القياس، فعلى الحاكم أن يحكم بما في كتاب الله سبحانه وتعالى، فإن لم تكن الحادثة التي يحتاج إلى الحكم فيها في كتاب الله، فيحكم بالسنة عن رسول الله ﷺ، فإن لم يجدها في السنة، فحينئذ يجتهد، والدليل عليه ما رُوي عن معاذ أن النبي ﷺ قال له لما أراد أن يبعثه إلى اليمن: ((كيف تقضي إذا عرض لك قضاءٌ؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي قال: فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يُرضي رسول الله))[٢].

(قوله: "أجتهد رأيي" لم يُرد به الرأي الذي يسنح له من قبل نفسه أو يخطر بباله على غير أصل من كتاب، أو سنة، بل أراد به رد القضية إلى معنى الكتاب والسنة عن طريق القياس)[٣].

واشترط الأصوليون في المجتهد أن يكون مسلمًا، صحيح الفهم، عالمًا بمصادر الأحكام، من كتاب وسنة وإجماع وقياس، وبالناسخ منها والمنسوخ، عالمًا باللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، عالمًا بأصول الفقه.

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١٦٦/٥، ١٦٧، وهذا ملخص ابن حجر، فتح الباري ٣٣١/١٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٣٦/٥، ٢٤٢، رقم ٢٢٠٠٧، وأبو داود ٣٥٩٢، والترمذي ١٣٢٧، وقال محققا شرح السنة: وقد ضعف بجهالة الحارث بن عمر، وبجهالة شيوخه الذين روي عنهم، لكن مال إلى القول بصحته غير واحد من المحققين منهم أبوبكر الرازي، وأبوبكر العربي والخطيب البغدادي وابن قيم الجوزية... انظر: شرح السنة (حاشية) ١١٦/١٠، ١١٧. وللاستزادة انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص ١٢٨، ١٣٩.

(٣) شرح السنة ١١٦/١٠.

والمراد بمعرفة الكتاب معرفة آيات الأحكام، وليس المراد حفظها بل معرفة مواقعها بحيث يستطيع الوصول إليها بيسر وسهولة، ويستطيع معرفة معانيها كذلك. والمراد بمعرفة السنّة معرفة ما ورد من الأحاديث في الأحكام، وليس المراد حفظها، وإنما يكفي أن يكون لديه أصل جامع لغالبية أحاديث الأحكام يستطيع أن يتعرف فيه بيسر وسهولة، مواقع كل باب منها ليرجع إليه عند الحاجة، ولابد أن يعرف المقبول منها من المردود. واشترطت معرفته بالناسخ والمنسوخ، لئلا يفتي بما هو منسوخ. واشترطت معرفته بالعربية لكي يتمكن من فهم القرآن والسنة على وجههما الصحيح، لأنهما وردا بلسان العرب، وجريا على أساليب كلامهم. واشترطت معرفته بأصول الفقه لكيلا يخرج في استنباطه للأحكام، وفي الترجيح عند التعارض، عن القواعد الصحيحة لذلك.

وهذه الشروط إنما هي للمجتهد المطلق المتصدي للاجتهاد في جميع مسائل الفقه)[1].

والاجتهاد عمل شرعي مهم للغاية. وتتمثل أهميته فيما يلي:

إيجاد الأحكام والحلول للمشكلات والنوازل المستجدة، وتسهيل حياة الناس وتيسير ظروفهم وأحوالهم، بجلب ما يصلحهم وينفعهم، ودفع ما يهلكهم ويضر بهم.

تأكيد خاصيات وسمات صلاحية الشريعة وواقعيتها ومرونتها، وقدرتها على التطبيق والتحقق في جميع الأعصار والأمصار.

فلولا الاجتهاد - بفضل الله تعالى- لبقيت العديد من المشكلات والقضايا دون حلول وأحكام شرعية، وهذا يعطل الشرع ويغيبه، ويترك المجال سانحًا لغزو الأفكار والمذاهب والتيارات غير الشرعية محل الفقه الإسلامي.

إعمال الفكر وإثراء العقل وتطوير البحوث النظرية والشرعية وتوسيع مدارك المتعلمين والمتفقهين، وتعميق الحوار البناء والمناظرات الأدبية الفاعلة والمفيدة.

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١/ ٢١٧.

تعميق الارتباط المتين بالكتاب والسنة، وبآثار وفتاوى وحياة السلف والخلف، وباللغة العربية وبجملة تراثنا وتاريخنا المجيد، ويتحقق هذا من خلال التعامل مع المعطيات الشرعية واللغوية والتاريخية أثناء عملية الاجتهاد واستخراج الأحكام وإيجاد الحلول الإسلامية.

ربط الإنسان بعصره وهمومه ونوازله، وجعله إنسانًا واقعيًا يفهم حياته وعصره، ويعمل على تقديم الحلول الإسلامية البناءة لما يحتاجه أهل عصره، بلا إفراط ولا تفريط، وبلا تسيب ولا مبالغة، وإنما وفق المنهج الوسطي الاعتدالي للشريعة الإسلامية الغراء.

تحقيق التعبد بالاجتهاد والنظر في الأدلة وفهمها وتمثلها وتكرارها، والموازنة والترجيح بينهما، وهذا كله يفضي إلى كسب الثواب والأجر، ويؤول إلى تحصيل مرضاة الله تعالى والظفر بجناته، بسبب طلب العلم والتماس طريق معرفة الأحكام، وإدراك الحلال والحرام، والترشح لمكانة العلماء الكرام في يوم يشتد فيه البأس والزحام"[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على الحاكم المجتهد في الوصول للحق وعدم حرمانه ثواب اجتهاده:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم واجتهد فأخطأ فله أجر).

قال ابن حجر: "قال ابن العربي: عندي في هذا الحديث فائدة زائدة وهي: أن الأجر على العمل القاصر على العامل واحد، والأجر على العمل المتعدي يضاعف، فإنه يؤجر في نفسه، وينجر له كل ما يتعلق بغيره من جنسه، فإذا قضى بالحق وأعطاه لمستحقه ثبت له أجر اجتهاده، وجرى له مثل أجر مستحق الحق، فلو كان أحد الخصمين ألحن بحجته من الآخرة فقضى له -والحق في نفس الأمر لغيره- كان له أجر الاجتهاد فقط. قلت: وتمامه أن يقال: ولا يؤاخذ بإعطاء الحق لغير مستحقه، لأنه لم يتعمد ذلك، بل

---

(١) تعليم أصول الفقه، د. نور الدين الخادمي ص ٤٠١-٤٠٢.

وزر المحكوم له قاصر عليه، ولا يخفى أن محل ذلك أن يبذل وسعه في الاجتهاد وهو من أهله، وإلا فقد يلحق به الوزر إن أخل بذلك. والله أعلم"[١].

قال ابن عثيمين: "المراد بالحاكم هنا القاضي، والظاهر أن المفتي مثله، يعني أن الإنسان إذا اجتهد في طلب الحق، وتبين له شيء من الحق ثم أفتى به - أو حكم به - فهو على خير: إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، ولا يضيع الله تبارك وتعالى أجر من أحسن عملاً، فدل ذلك على أن الإنسان إذا اجتهد وتحرى الحق وبذل وسعه في ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى يثيبه على هذا، إن أصاب فله أجران: الاجر الأول على إصابة الحق، والثاني على اجتهاده، وإن أخطأ فله أجر واحد، وهو الاجتهاد وبذل الوسع والطاقة في طلب الحق"[٢].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحث على إخلاص النية لله تعالى في الأعمال:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث بيّن رسول الله ﷺ أن الحاكم إذا اجتهد في حكمه فله من الله الأجر والثواب أصاب أو أخطأ، لأنه أخلص نيته في عمله لله تعالى.

قال ابن القيم: وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله ولا مجازيًا سواه.

وقال صاحب المنازل: الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب، أي: لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله كائنًا من كان"[٣].

فلا بد أن يكون العمل خالصًا لله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٣/٣٣٢.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٨٨.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣١٤ - ٣١٥.

صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[٢]، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه منثورًا.

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ))[٣]، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا؛ فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء"[٤].

فهدف الدعوة إلى الله إخلاص النية في العمل لله تعالى، وبذل الوسع والطاقة في تحصيل الحق.



---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) سورة النساء، آية: ١٢٥.

(٣) أخرجه البخاري ٢٦٩٧، ومسلم ١٧١٨.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/١٧٦.

الحديث رقم (١٨٥٩)

١٨٥٩- وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: ((الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الحُمَّى: هي: المرض الذي يصيب الإنسان بالحرارة في جسمه[2].

فيح جهنم: شدة حرها ولهبها وانتشارها[3].

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي يتضمن إرشادات طيبة تعالج الأمراض الحسية والعقلية، والروحية، والطب النبوي شاهد على ذلك، ولا تقتصر أحاديثه ﷺ الطبية على فرع من علم الطب دون غيره، بل إنه ﷺ تحدث في فروع الطب المتعددة، ومنها: الطب الوقائي، الطب العلاجي، الطب النفسي، أصول علم الصحة، علم الوراثة.

وهذا الحديث الموجز يتضمن علاجًا للحمى يناسب العصر والبيئة، ويظل صالحًا حتى في العصر الحديث، فالماء البارد هو العلاج السريع الوقائي لإيقاف ارتفاع درجة الحرارة، حتى لا تتعطل مدارك الحس في الإنسان، لأن الحمى الشديدة يمكن أن تؤدي إلى الوفاة.

ولذلك جاء تصوير الحمي الشديدة في هذا الحديث بأنها من فيح جهنم، وليس هناك تصوير أبلغ من هذا، ولا أكثر تعبيرًا عن حقيقة الحمى من هذا التعبير الدقيق

---

(١) أخرجه البخاري ٣٢٦٣، ومسلم ٨١/٢٢١٠ ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه ٥٠٥١ من رواية البزار بلفظ: (الحمى حظ كلّ مؤمن من النار).

(٢) الوسيط في (ح م ى).

(٣) شرح مسلم، ١٣٧٨.

وفيه: إيحاء بالهلاك، وكلمة (فيح) معناها: انتشار، والحمى تنتشر في الجسد كانتشار النار، وقوله: (فأبردوها بالماء) فيه أمر واجب التنفيذ من رسول الله ﷺ، وفي رواية: (فاطفئوها بالماء) وكأن الحمى نار مشتعلة في الجسد، والماء يطفئ هذه النار، وهذا الدواء ما زال يلجأ إليه الأطباء في علاج الحمى أو إيقافها، حتى تعرف أسبابها.

وفي الحديث إعجاز علمي طبي حيث يقول د. حسان شمس باشا: (وكثيرًا ما ترتفع درجة حرارة المريض حينما يصاب بالتهاب جرثومي، أو فيروسي، والأمراض الفيروسية لا تنفع معها المضادات الحيوية في حين أن المريض يتفصد عرقًا، ويتوهج بالحرارة، ويقول: ولقد استعملنا الكمادات الباردة في المشافي البريطانية، إضافة إلى استعمال المروحة الهوائية في تخفيض الحرارة عن المرضى المحمومين)[1].

والتعبير بصيغة الأمر في قوله(فأبردوها بالماء) يجعل هذا الأمر واجبًا، ويرشد إلى أن هذه هي أسرع طريقة لإنقاذ المريض من الحمى التي تشبه نار جهنم - وقانا الله عذاب الجحيم، ونفعنا بالإيمان والنعيم المقيم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- استحباب مداواة الحمى بالماء[2].

٢- حكم التطبب والتداوي: ذهب جمهور السلف وعامة الخلف إلى جواز التطبب واستحباب التداوي.

وذهب بعض غلاة الصوفية إلى إنكار التداوي[3].

والراجح هو رأي جمهور العلماء لدلالة الأحاديث في ذلك.

---

(١) انظر: الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا ج/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤/١٩١، ١٩٧، وطرح التثريب ٨/١٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٤/١٩١. ولمزيد من التفصيل انظر: الموسوعة الفقهية ١١/١١٦-١١٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ أن الحمى من فيح جهنم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: من الطب النبوي علاج الحمى بالماء البارد.

أولاً- موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ أن الحمى من فيح جهنم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "الحمى من فيح جهنم".

قال ابن القيم: وقوله "الحمى من فيح جهنم" هو شدة لهبها وانتشارها، ونظيره: قوله "شدة الحر من فيح جهنم" وفيه وجهان: أحدهما: أن ذلك أنموذج ورقيقة اشتقت من جهنم ليستدل بها العباد عليها، ويعتبروا بها، ثم إن الله سبحانه قدر ظهورها بأسباب تقتضيها، كما أن الروح والفرح والسرور واللذة من نعيم الجنة، أظهرها الله في هذه الدار عبرة ودلالة. وقدر ظهورها بأسباب توجبها.

والثاني: أن يكون المراد التشبيه، فشبه شدة الحمى ولهبها بفيح جهنم، وشبه شدة الحر به أيضًا، تنبيهًا للنفوس على شدة عذاب النار، وأن هذه الحرارة العظيمة مشبهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها[1].

قال الطيبي: أقول: "من" ليست بيانيه حتى يكون تشبيها كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[2] هي إما ابتدائية، أي: الحمى نشأت وحصلت من فيح جهنم، أو تبعيضية، أي بعض منها، ويدل على هذا التأويل ما ورد في الصحيح: ((اشتَكَتِ النارُ إلى ربِّها فقالت : ربِّ أكلَ بعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنَفَسينِ: نَفَسٍ في الشتاءِ ونفَسٍ في الصيف))[3] الحديث، فكما أن حرارة الصيف أثر من فيحها، كذلك الحمى[4].

---

(١) زاد المعاد، ابن قيم، ٤/٢٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٧، ومسلم ٦١٧.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٨/٢٩٠، ٢٩١.

قال ابن عثيمين: (الحمى: هي المرض الذي يصيب الإنسان بالحرارة في جسمه، هذه من فيح جهنم، كما قال النبي ﷺ. أما كيف وصل فيح جهنم إلى بدن الإنسان؟ فهذا أمره إلى الله ولا نعرفه ما ندري، لكن نقول كما قال النبي ﷺ الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء)[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: من الطب النبوي علاج الحمى بالماء البارد:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "الحمى من فيح جهنم فأبردوها[2] بالماء".

وذكر المازري: عن بعض أطباء عصره أنه حمل حديث الباب على الاغتسال، أو على الانغماس في الماء، وجعل يستهزئ بحديث الباب -والعياذ بالله- بأن (رأي أطباء ذلك العصر) مجموعون على أن اغتسال المحموم بالماء البارد مهلك[3].

وقال القرطبي في بيان ذلك: "وقد اعترض بعضُ سخفاء الأطباء على هذا الحديث، فقال: استعمال المحموم الاغتسال بالماء خطرٌ مقرب من الهلاك؛ لأنه يجمع المسامَّ، ويحقن البخار، ويعكس الحرارة لداخل الجسم، فيكون ذلك سببًا للتلف. وجوابه: أنَّ هذا إن صدر عمَّن ارتاب في صدق النبي ﷺ فجوابه بالمعجزات الدَّالة على صدقه ﷺ التي تدل قطعًا على صحة قوله، وصواب فعله، فإن حصل له التصديق والإيمان، وإلا، فقد يفعل الله بالسيف والسِّنان ما لا يفعل بالبرهان. وإن صدر عن مصدِّقٍ له ومؤمن برسالته - وما أقله فيمن يتعاطى صنعة الأطباء! - قيل له: تفهَّم مُرادَه من هذا الكلام؛ فإنَّه لم ينصَّ على كيفية تبريد الحمَّى بالماء، وإنما أرشد إلى تبريدها بالماء مطلقًا؛ فإن أظهر الوجودُ أو صناعة الطبِّ: أن غمس المحموم في الماء، أو صبَّه على جميع بدنه يضرُّه؛ فليس هو الذي قصد النبي ﷺ، وإنما قصد استعمال الماء على

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٨٨، ١٨٨٩.

(٢) قال القرطبي: "قوله: (فابردوها بالماء)، صوابه بوصل الألف؛ لأنه من قولهم: بَرَّد الماء حرارة جوفي، وهو ثلاثي معدًّي كما قال: وعطِّل قلوصي في الركاب فإنها ستبرد أكبادًا وتُبكي بواكيا. وقد أخطأ من قال: ابردوها - بقطع الألف، انظر: المفهم ٥/٥٩٩، وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٣٧٨.

(٣) انظر: كتاب المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٦٣، ٢٦٤.

وجهٍ ينفع، فيُبحثُ عن ذلك الوجه، وتُجرَّبُ الوجوهُ التي لا ضرر فيها، فإنَّه سيظهر نفعُه قطعًا. وقد ظهر هذا المعنى في أمره للعائن بالغسل، فإنه وإن كان قد أمره بأن يغتسل مطلقًا؛ فلم يكن مقصوده أن يغسل جميع جسده، بل بعض ذلك.

وإذا تقرَّر هذا؛ فلا يبعدُ أن يكون مقصوده أن يُرشَّ بعض جسد المحموم، أو يفعل كما كانت أسماءُ تفعل، فإنَّها كانت تأخذ ماءً يسيرًا ترشُّ به في جيب المحموم، أو ينضح به وجهه، ويداه، ورجلاه، ويذكرُ اسم الله تعالى، فيكون ذلك من باب النُشرة الجائزة. وقد يجوز أن يكون ذلك من باب الطبِّ، فقد ينفعُ ذلك في بعض الحميات، فإنَّ الأطباء قد سلموا: أن الحمى الصفروابة يُدبَّرُ صاحبها بسقي الماء الشديد البرودة، حتى يسقوه الثلج، وتُغْسَل أطرافه بالماء البارد. وعلى هذا: فلا بُعْدَ في أن يكون هذا المقصودُ بالحديث -والله أعلم-.

ولئن سلَّمنا: أنَّه أراد جميعَ جسد المجموع؛ فجوابه: أنه يحتمل أن يريد بذلك استعماله بعد أن تقلعَ الحمَّى، وتسكن حرارتها، ويكون ذلك في وقتٍ مخصوص، وبعددٍ مخصوص، فيكون ذلك من باب الخواصِّ التي قد اطلع عليها النبي ﷺ، كما قد روى قاسم بن ثابتٍ: أنَّ رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ الحُمَّى فقال له: ((اغتسل ثلاثًا قبل طلوع الشمس، وقل: بسم الله، اذهبي يا أمَّ ملدم؛ فإن لم تذهب؛ فاغتسل سبعًا))[1].

(والواقع أن استعمال الماء بصور مختلفة، حتى في صورة الاغتسال أو السباحة مما قد اعترف الأطباء قديمًا وحديثًا بأنه نافع في كثير من الحميات. قال جالينوس في المقالة العاشرة من كتاب "حيلة البراء": "ولو أن رجلاً شابًا حسن اللحم خصِب البدن - في وقت القيظ وفي وقت منتهى الحمى - وليس في أحشائه ورم، استحمَّ بماء بارد، أو سبح فيه، لانتفع بذلك" وقال: "ونحن نأمر بذلك بلا توقف" وقال أبو بكر الرازي الطبيب المعروف في كتابه الكبير: "إذا كانت القوة قوية، والحمى حادة جدًا، والنضج بيّن، ولا ورم في الجوف، ولا فتق، ينفع الماء البارد شربًا. وإن كان العليل

---

(١) المفهم ٥/٥٩٩-٦٠١، والحديث عزاه محققو المفهم إلى اللآلي المصنوعة، رواه سعيد بن منصور، وذكره ابن عبدالبر في التمهيد وعزاه لابن وهب، التمهيد والاستذكار ٢٢/٦٠٩، ٦١٠. موسوعة شروح الموطأ

خصب البدن، والزمان حارّ، وكان معتادًا لاستعمال الماء البارد من خارج، فليؤذن فيه"[١].

وقد حقق كثير من الأطباء القدامى أنّ الماء البارد ينفع في كثير من أنواع الحمّى، كحمى اليوم، وحمّى الدق، والحميات الصفراوية. وأما الطب الحديث، فقد أجمع خبراؤه اليوم على أن استعمال الماء البارد من أقوى الوسائل تأثيرًا في إزالة الحمّى، وإنّهم يصفون للمحموم أن يرشّ الماء على جيبه، أو توضع خرقان مبلولة على جبينه، بل وأن يمسح جميع بدنه بمناشف مبلولة بماء مثلوج، وقد ثبت أن هذه الطرق من أنفع المعالجات لإزالة فورة الحمّى[٢].

ولكن ينبغي أن لا يغفل هنا ما ذكره الإمام المازري حيث قال: "ولاشك أن علم الطب من أكثر العلوم احتياجًا إلى التفصيل، حتى أن المريض يكون الشيء داواءه في ساعة، ثم يصير داء له في الساعة التي تليها، لعارض يعرض له من غضب يحمي مزاجه مثلاً، فيتغير علاجه، ومثل ذلك كثير، فإذا فرض وجود الشفاء لشخص بشيء في حالة ما، لم يلزم منه وجود الشفاء به له أو لغيره في سائر الأحوال، والأطباء مجمعون على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السنّ والزمان والعادة والغذاء المتقدم والتأثير المألوف وقوة الطباع"[٣].

وحينئذ، فلا شك في صحة ما قاله ﷺ من أن الحمّى تعالج بالماء، ولكن الذي ينبغي لكل أحد في وقائع جزئية، أن يرجع إلى طبيب حاذق، فيعالج مرضه في ضوء مواصفاته الشخصية، لأن المعالجات تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص والأحوال)[٤].

فالماء البارد علاج فعال للحمى كما أثبت ذلك الطب الحديث.

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم، ص ٥٠-٥١.

(٢) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني ٣٠٠/١٠.

(٣) كتاب المعلم بفوائد مسلم ٢٦٥/٢.

(٤) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني ٣٠٠/١٠.

قال ابن عثيمين: (يعني صبوا على المريض ماء يبرده، وهذا من أسباب الشفاء لمن أصيب بالحمى، وقد شهد الطب الحديث بذلك، فكان من جملة علاجات الحمى أنهم يأمرون - أي الأطباء- المريض أن يتحمم بالماء، وكلما كان أبرد على وجه لا مضرة فيه أحسن، وبذلك تزول الحمى بإذن الله)[١].

وقال د. صالح رضا: (هذا دواء من رسول الله ﷺ فيمن شعر بارتفاع شديد في حرارة جسده، ووصل إلى الحمى التي تشعل النار في بدن الإنسان، أن يستعمل الماء البارد لتبريد ما يتأجج في جسده من الحمى الشديدة.

وإننا نعيش اليوم في أخريات القرن الميلادي العشرين، في عالم قد تقدمت فيه الأدوية، والمضادات تقدمًا لم يعرف له مثيل من قبل، وعرفت به الأمراض بصورة أدق مما كانت تعرف به في الأزمنة السابقة، ورغم ذلك، فإننا نرى أن كثيرًا من الأطباء عندما يخفق الدواء في تخفيض حرارة البدن يلجأون إلى الوصية باستعمال الماء البارد، وأحيانًا الثلج لتخفيض درجة الحرارة العالية التي وصل إليها بدن المريض، حتى تصبح قريبة من الحرارة الطبيعية للإنسان، ولا شك أن هذا يدل على سبق علمي لرسول الله ﷺ.

قال د. حسان شمسي باشا: (كثيرًا ما ترتفع درجة حرارة المريض حينما يصاب بالتهاب جرثومي، أو فيروسي، والأمراض الفيروسية، ومن أكثرها "الأنفلونزا والزكام" لا تنفع معها المضادات الحيوية في حين أن المريض يتفصد عرقًا، ويتوهج بالحرارة.

ويقول: ولقد استعملنا الكمادات الباردة في المشافي البريطانية، إضافة إلى استعمال المروحة الهوائية في تخفيض الحرارة عن المرضى المحمومين.

قال: وكم شاهدنا من حالات ترتفع فيها حرارة المريض، ولا تستجيب الحرارة فيها للأدوية الخافضة للحرارة، في حين أن الماء البارد يقوم بفعله الفوري في التبريد رغم أنه آني... انتهى. فصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أوضح لنا هذا الدواء من أجل إنزال الحرارة منذ أربعة عشر قرنًا، وجاءت نتائج تجارب الأطباء في القرن العشرين لتوافق ما جاء عن رسول الله ﷺ مثبتة السبق العلمي لهذا النبي صلوات الله وسلامه عليه)[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٨٩.

(٢) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح أحمد رضا، ٢/٨٢٦-٨٢٧.

فلقد تبين أنه عند الإصابة بالحمى ذات الحرارة الشديدة التي قد تصل إلى (٤١) درجة مئوية، والتي وصفها ﷺ بأنها من فيح جهنم، وقد يؤدي ذلك إلى هياج شديد ثم هبوط عام وغيبوبة تكون سببًا في الوفاة... ولذا كان لزامًا تخفيض هذه الحرارة المشتعلة بالجسم فورًا، حتى ينتظم مركز تنظيم الحرارة بالمخ، وليس لذلك وسيلة إلا وضع المريض في ماء أو عمل كمادات من الماء البارد والثلج، حيث إنه إذا انخفضت شدة هذه الحرارة عاد الجسم كحالته الطبيعية، بعد أن ينتظم مركز تنظيم الحرارة بالمخ ويقلل هذه الحرارة بوسائله المختلفة من تبخير وإشعاع وغيرهما، ولذا كان رسول الله ﷺ إذا حم دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه فاغتسل. ولما كانت الحمى يستلزمها حمية عن الأغذية الرديئة، وتناول الأغذية والأدوية النافعة. وفي ذلك إعانة على تنقية البدن وتصفيته من مواده الرديئة، التي تفعل فيه كما تفعل النار في الحديد في نفي خبثه وتصفية جوهره -كانت أشبه الأشياء بنار الكير التي تصفي جوهر الحديد.

وقد ثبت علميًا أنه عند الإصابة بالحمى تزيد نسبة مادة (الأنترفيرون) لدرجة كبيرة، كما ثبت أن هذه المادة التي تفرزها خلايا الدم البيضاء تستطيع القضاء على الفيروسات التي هاجمت الجسم، وتكون أكثر قدرة على تكوين الأجسام المضادة الواقية... فضلاً عن ذلك فقد ثبت أن مادة (الأنترفيرون) التي تفرز بغزارة أثناء الإصابة بالحمى، لا تخلص الجسم من الفيروسات والبكتريا فحسب، ولكنها تزيد مقاومة الجسم ضد الأمراض، وقدرتها على القضاء على الخلايا السرطانية منذ بدء تكوينها، وبالتالي حماية الجسم من ظهور أي خلايا سرطانية يمكن أن تؤدي إلى إصابة الجسم بمرض السرطان.

ولذا قال بعض الأطباء: إن كثيرًا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى كما يستبشر المريض بالعافية، فتكون الحمى فيها أنفع من شرب الدواء بكثير، مثل مرض الروماتيزم المفصلي الذي تتصلب فيه المفاصل وتصبح غير قادرة على التحرك، ولذلك من ضمن طرق العلاج الطبي في مثل هذه الحالات الحمى الصناعية، أي إيجاد حالة حمى في المريض بحقنه بمواد معينة، ومن هنا ندرك حكمة رسول الله ﷺ في رفض

سب الحمى، بل والإشادة بها بوصفها تنقي الذنوب، كما تنقي النار خبث الحديد، كما أشار الحديث الشريف الذي ورد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ، أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ. فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟» قَالَتِ: الْحُمَّى. لاَ بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا. فَقَالَ «لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى. فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ. كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))(١)(٢).

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٥.

(٢) موقع الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، المصدر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية، لمحمد كامل عبدالصمد ٢/٣.

الحديث رقم (١٨٦٠)

١٨٦٠- وعنها رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَومٌ، صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ)) متفق عَلَيْهِ[1].

وَالمُخْتَارُ جَوَازُ الصَّومِ عَمَّنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ لِهَذَا الحَدِيثِ، وَالمُرادُ بالوَلِيِّ: القَرِيبُ وَارِثًا كَانَ أَوْ غَيْرَ وَارِثٍ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

إن الصوم في الشرع الإسلامي هو: الإمساك عن الأكل والشرب والجماع في وقت مخصوص، وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية.

والصيام من حيث الاشتقاق اللغوي: كلمة عربية مألوفة متداولة، وكثيرًا ما وردت على ألسنة الشعراء والخطباء قبل نزول القرآن الكريم، والأصل اللغوي فيه: الإمساك عن الحركة فكل شيء سكنت حركته فقد صام، والخيل الساكنة خيل صائمة.

وقد تطور هذا المعنى إلى عدة معانٍ مجازية منها معنى: الامتناع، ومن ذلك الامتناع عن الأكل والشرب، والانقطاع عن النكاح أثناء الصوم، وصار الصيام مصطلحًا إسلاميًا خاص بمعنى محدد في شهر رمضان[2]، وهو الصوم المفروض.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة تتضمن حكمًا من أحكام الصيام، وهو صيام الفريضة.. والتعبير بقوله: "وعليه صوم" يفيد أن الصوم دين في عنق صاحبه حتى يؤدي عنه إما بالصدقة، أو يصوم وليه عنه: والولي هو القريب وارثًا كان أو غير وارث.

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٥٢، ومسلم ١١٤٧/١٥٣ ولفظهما سواء.

(٢) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. خليل أبو عودة.

وقوله: (وعليه صوم) يفيد أنه صوم واجب، والتعبير بعلى مع الإضافة للضمير العائد على من مات... يوحي بأن الصوم المتروك صوم واجبٌ: من قضاء عن رمضان، أو نذر، أو كفارة، وإضافة - لفظ - (ولي) إلى ضمير الغائب العائد على "من مات"، يوحي بالصلة والقرابة، والولي من الولاء والموالاة، وهو أغلب من التعبير بالصاحب أو الصديق.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- أجمع الفقهاء على أنه لا يصام عن أحد في حياته[1].

٢- حكم الصيام عن الميت: ذهب جمهور الفقهاء الحنفية، والمالكية والشافعي في الجديد، وعمر بن الخطاب، وابن عباس، وعائشة ورواية عن الحسن، والزهري إلى القول بأنه لا يصام عن الميت مطلقًا سواء كان الصوم من رمضان أو نذر أو غيره[2].

وذهب الشافعي في القديم واختاره المحققون من علماء الشافعية، وأصحاب الحديث إلى القول باستحباب أن يصوم الولي عن الميت ويصح صومه ويبرأ به الميت وبه قال طاووس والحسن البصري والزهري وقتادة وأبو ثور[3].

وذهب أحمد في رواية والليث وإسحاق وأبو عبيد إلى القول بأنه يصوم عنه في النذر دون رمضان وغيره[4].

والراجح هو رأي الشافعي في القديم وأصحاب الحديث القائل بصحة الصوم عن الميت لدلالة الحديث على جواز ذلك.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بيسر الشريعة في جواز صوم الولي

---

(١) شرح صحيح مسلم ٨/٢٦.

(٢) بدائع الصنائع ٢/١٠٣-١٠٤، وبداية المجتهد ١/٢٤٠، ومغني المحتاج ٢/١٧٢، وشرح صحيح مسلم ٨/٢٦، فتح الباري ٤/٢٣٦.

(٣) مغني المحتاج ٢/١٧٢، وشرح صحيح مسلم ٨/٢٥، ٢٦، وفتح الباري ٤/٢٣٦.

(٤) المغني ٣/٣٩-٤٠، وشرح صحيح مسلم ٨/٢٦، وفتح الباري ٤/٢٣٦.

عمن مات وعليه صوم.

ثانيًا: من صفات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً - من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بيسر الشريعة في جواز صوم الولي عمن مات وعليه صوم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من مات وعليه صوم صام عنه وليه".

قال ابن عثيمين: (يعني إذا مات الإنسان وعليه صيام فإنه يصوم عنه وليه، سواء كان نذرًا أو واجبًا في أصل الشرع. فإذا قدر أن رجلاً أفطر في رمضان، لأنه مسافر، ثم تهاون بعد رمضان ولم يقض، لأنه يجوز أن يؤخر القضاء إلى شعبان ولكنه مات قبل القضاء، فإن وليه -أي وارثه- يصوم عنه من أم أو أب أو ابن أو بنت، أو زوجة، وهذا ليس على سبيل الوجوب بل الاستحباب، فإنه لم يصم وليه أطعم عنه كل يوم مسكينًا. وكذلك لو كان عليه كفارة ومات قبل أن يؤديها مع تمكنه فإنه يصوم عنه وليه، وكذلك لو نذر أن يصوم ثلاثة أيام ومات قبل أن يصوم صام عنه وليه، فإن لم يفعل، فإنه يطعم عن كل يوم مسكينًا)[1].

وقال ابن حجر: (الأصل عدم النيابة في العبادة البدنية، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة في الحياة، فكذلك في الموت، إلا ما ورد فيه الدليل، فيقتصر على ما ورد فيه، ويبقى الباقي على الأصل)[2].

وورود الدليل على جواز صيام الولي عن الميت يدل على يسر الشريعة الإسلامية، وحرصها على خير الإنسان حيًا وميتًا. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: ((يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا))[4].

ثانيًا- من صفات الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين

يظهر ذلك في قوله ﷺ "من مات وعليه صوم صام عنه وليه".

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٨٨٨/٢.

(٢) فتح الباري ٢٢٨/٤، ٢٢٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٤) أخرجه البخاري ٦٩، ومسلم ١٧٣٤.

فيدل هذا على حرص النبي ﷺ على من مات وعليه صوم لم يصمه، فمن أجل حرصه على الخير له أرشد إلى إدراك ما فاته من صوم بصوم وليه عنه.

فإن حقيقة الدعوة حب الخير للغير، والحرص على تحقيق المصلحة له، وظهور هذا الحرص يجعل الدعوة محل قبول وامتثال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قال السعدي: (حريص عليكم، فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه "وبالمؤمنين رؤوف رحيم" أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم)[2]. فينبغي على الداعية أن يحرص على مصلحة المدعوين، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وخير ذويهم أحياءً وأمواتًا.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٣١٢.

الحديث رقم (١٨٦١)

١٨٦١- وعن عوف بن مالك بن الطُّفَيْلِ: أنَّ عائشة رضي الله عنها ، حُدِّثَتْ أنَّ عبدَ اللهِ بن الزبير رضي الله عنهما ، قَالَ في بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أعْطَتْهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها : واللهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا ، قالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا ! قالوا: نَعَمْ. قَالَتْ: هُوَ للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا ، فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِيْنَ طَالَتِ الهجْرَةُ. فَقَالَتْ: لاَ ، واللهِ لاَ أشْفَعُ فِيهِ أبدًا ، وَلاَ أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ ، وَعبدَ الرحْمَانِ ابْنَ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ[1] وقَالَ لَهُمَا: أَنْشُدُكُمَا اللهَ[2] لَمَا أدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها ، فَإِنَّهَا لاَ يَحِلُّ لَهَا أنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي ، فَأقْبَلَ بِهِ المِسْوَرُ ، وَعَبدُ الرحْمَانِ[3] حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ فَقَالاَ : السَّلاَمُ عَلَيْكِ وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أنَدْخُلُ؟ قالت عَائِشَةُ: ادْخُلُوا. قالوا: كُلُّنَا؟ قالتْ: نَعَمْ ادْخُلُوا كُلُّكُمْ ، وَلاَ تَعْلَمُ أَنَّ معَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ ، فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الحِجَابَ فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ رضي الله عنها ، وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي ، وَطَفِقَ المِسْوَرُ ، وَعَبدُ الرَّحْمَانِ يُنَاشِدَانِهَا إلاَّ[4] كَلَّمَتْهُ وَقَبِلَتْ مِنْهُ ، وَيَقُولانِ: إنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الهِجْرَةِ[5]؛ وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ ، طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا وَتَبْكِي ، وَتَقُولُ: إنِّي نَذَرْتُ وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ ، فَلَمْ يَزَالاَ بِهَا حَتَّى كَلَّمَتِ ابْنَ الزُّبَيْرِ ، وأعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أرْبَعِينَ رَقَبَةً ، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعدَ ذَلِكَ ، فَتَبكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا. رواه البخاري[6].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

---

(١) عند البخاري زيادة: (وهما من بني زهرة).

(٢) لفظ البخاري: (بالله).

(٣) عند البخاري زيادة: (مشتملين بأرديتهما).

(٤) عند البخاري زيادة: (ما).

(٥) عند البخاري زيادة: (إنه).

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٧٣ ، و٦٠٧٤ ، و٦٠٧٥.

غريب الألفاظ:

لأحجرن عليها: لأمنعنها من التصرف[١].

فاستشفع: سألها أن تشفع وتعفو[٢].

ولا أتحنث إلى نذري: أي: لا آثم فيه[٣]، والنَّذرُ: أن يُوجب المسلم على نفسه شيئًا تبرُّعًا؛ من عبادة أو صدقة[٤].

أنشدكما الله: أحلّفكما بالله[٥].

التحريج: التضييق، وقيل التخويف[٦].

خمارها: ثوب تغطى به رأسها[٧].

الشرح الأدبي

هذا الحديث مشهد مضيء من مشاهد سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الصديقة، وهي أم المؤمنين، وقد بلغت مكان الدالّة عند رسول الله ﷺ - كما يقول العقاد - بما لها من صفات كثيرة غير الصّباحة والجمال، وأول تلك الصفات فرط الذكاء، ولطافة الحس، وحسن التقدير، وكانت أكثر الناس دالة على النبي وأجرأهم على مراجعته، والتلطف في إبلاغه ما يتهيب القوم أن يبلغوه[٨].

وفي ضوء هذه المكانة التي حظيت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في كنف النبي ﷺ ولدى المسلمين جميعًا، ندرك سر تشددها في موقفها من عبدالله بن الزبير

---

(١) النهاية في (ح ج ر).

(٢) القاموس المحيط في (ش ف ع).

(٣) النهاية في (ح ن ث).

(٤) النهاية في (ن ذ ر).

(٥) القاموس المحيط ٣٢٢.

(٦) القاموس المحيط في (ح ر ج)، فتح الباري ٥١٠/١٠.

(٧) الوسيط في (خ م ر).

(٨) انظر: عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد، ص ١٥، طبعة دار المعارف، القاهرة.

حينما أقسم أن يحجر عليها إذا لم تقلع عن السماحة والكرم في بيعها، وهذا الموقف كان بعد وفاة الرسول ﷺ.

وهذا الموقف هو (العقدة) التي تتشابك من خلالها أحداث هذا المشهد القصصي الذي تكاملت عناصر بناء القصة فيه: ففيه الأحداث، والمواقف، والشخصيات: والعقدة، والحل، وهذا المشهد من القصص الواقعي الذي حدث في بيت الرسول ﷺ، وشخصيات القصة كلها شخصيات إيجابية لأنهم جميعًا من الصحابة، وهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والراوي: عوف بن مالك بن الطفيل: وهو أخو عائشة من الرضاع، وعبدالله بن الزبير، والمسوّر بن مخرمة، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث.

وحين تتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث القصصي، نجده مفعمًا بكثير من الظواهر الأسلوبية ومنها:

أ- التأكيد في بدء الحديث "بإن" ثم بناء الفعل (حُدثت) للمجهول ولم يحدد القائل منعا للشكوك أو الغيبة، وقيل الذي حدث ونقل الخبر هو: المسور بن مخرمة.

ب- القسم والتأكيد في كلام عبدالله بن الزبير. حيث يقول: (والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها) ونَذْر عائشة بهجر ابن الزبير وأن لا تكلمه نابع من جرأة ابن الزبير عليها، وهو ليس له صفة الولاية، فهي أم المؤمنين وهي لها مكانتها في الإسلام فكيف يقف ابن الزبير منها هذا الموقف؟

ج- الاستفهام الحقيقي المشوب بالدهشة في كلام أم المؤمنين عائشة: (أهو قال هذا؟) ثم كان القسم في كلامها وأسلوب القصر عن طريق التقديم والتأخير، لتأكيد موقفها وهجرها لعبدالله صونًا لكرامتها، حيث نذرت أن لا تكلم ابن الزبير فقالت: لله علي نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدًا.

د- الحوار الهادئ بين عائشة والوفد الذي استشفع لعبدالله بن الزبير يكشف عن حرص الصحابة على إشاعة المودة والرحمة، وقطع الخصومة والهجر بناء على رغبة عبدالله بن الزبير.

هـ- من وسائل إقناع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الاستشهاد بحديث رسول الله ﷺ،

وكذلك اعتذار عبدالله بن الزبير حيث طفق يناشدها ويبكي، وقبلت عائشة الاعتذار، وفي مقابل ذلك أعتقت أربعين رقبة مع أن الواجب رقبة واحدة، ولكنها كانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي، خوفًا من محاسبة الله لها، وذلك من شدة الورع والتقوى والإخلاص.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- حكم هجر المسلم: لا خلاف بين الفقهاء على تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال، وذهب جماهير الفقهاء إلى إباحة الهجر مدة الثلاث[١].

٢- حكم الوفاء بالنذر: أجمع الفقهاء على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان في طاعة، وفي ترك الوفاء به إذا كان في معصية[٢].

٣- حكم نذر المعصية: أجمع الفقهاء على تحريم النذر في المعصية[٣].

٤- حكم الكفارة في نذر المعصية: ذهب الحنفية وبعض الشافعية والحنابلة، وابن مسعود، وابن عباس، وجابر بن عبدالله، وعمران بن الحصين، وسمرة بن جندب، والثوري، وإسحاق إلى وجوب الكفارة[٤].

وذهب المالكية، والشافعية في المذهب، ورواية للحنابلة إلى عدم وجوب الكفارة[٥].

والراجح هو رأي الحنفية.

---

(١) غمز العيون ١/٩٧-٩٨، وحاشية العدوي ٢/٤٢٨، وأسنى المطالب ٤/٢٦٦، والآداب الشرعية والمنح المرعية ١/٢٤٢، وطرح التثريب ٨/٩٧-٩٨، وشرح صحيح مسلم ١٦/١١٧، وسبل السلام ٤/٢٩٠. هذا فيما كان لحظ الإنسان، أما أمر الدين فإن هجرة أهل الأهواء والبدع دائمة على مر الأوقات ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق. انظر: الموسوعة الفقهية ٤٢/١٦٦ ومصادرها ومراجعها.

(٢) المغني ١٠/٦٧، وفتح الباري ١١/٦٨٧.

(٣) المغني ١٠/٦٩، وفتح الباري ١١/٦٩٣.

(٤) الاختيار ٣/٢١٨، والمجموع شرح المهذب ٨/٤٣٦-٤٣٧، والمغني ١٠/٦٩، وفتح الباري ١١/٦٩٣.

(٥) المنتقى شرح الموطأ ٣/٢٤١، والمجموع شرح المهذب ٨/٤٣٦-٤٣٧، وفتح الباري ١١/٦٩٣، والمغني ١٠/٦٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب النميمة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على عدم الهجر فوق ثلاث.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: هجر عائشة رضي الله عنها لعبدالله بن الزبير رضي الله عنه.

رابعًا: من أساليب الدعوة: القسم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحنث في النذر من أجل مصلحة شرعية.

سادسًا: من آداب المدعو: الشفاعة الحسنة لأهل الفضل لإصلاح ذات البين.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: الاستئذان.

ثامنًا: من آداب المدعو: الاعتذار وطلب الصفح.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: قبول عذر المعتذر.

عاشرًا: من موضوعات الدعوة: رقة قلوب الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً - من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب النميمة:

يظهر ذلك في قول عوف بن مالك بن الطفيل: أن عائشة رضي الله عنها: حُدِّثَتْ أن عبدالله ابن الزبير رضي الله عنهما قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة رضي الله عنها: والله لتنتهين عائشة، أو لأحجرن عليها، قالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: هو لله علي نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدًا.

قال ابن عثيمين: (حديث عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين وأفضل زوجاته بعد موته، وكانت من كانت في العلم والعبادة والرأي والتدبير، وكان عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وهو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما سمع عنها أنها تبرعت وأعطت عطايا كثيرة فاستكثر ذلك منها وقال: لئن لم تنته لأحجرن عليها، وهذه كلمة شديدة بالنسبة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ لأنها خالته، وعندها من الرأي والعلم والحلم والحكمة ما لا ينبغي أن يقال فيها ذلك القول، والحجر عليها يعني منعها من التصرف في مالها أو التبرع الكبير من مالها، فسمعت بذلك، وأخبرت به، أخبرها بذلك الواشون الذين يشون بين الناس ويفسدون بينهم بالنميمة -والعياذ بالله- والنميمة من كبائر الذنوب، وقد حذر

الله من النمام وإن حلف فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾[1] ومر النبي ﷺ بالمدينة على قبرين من قبور المسلمين فقال: "إنهما يعذبان في قبورهما وما يعذبان في كبير" يعني لا يعذبان في أمر شاق وأمر صعب بل يسهل بالنسبة للقيام به لا بالنسبة لعظمه عند الله: (أما أحدهما: فكان لا يستنزه من البول) يعني لا يستنجي استنجاءً تامًا وإذا أصاب البول ثوبه أو بدنه لا يبالي به: ((وأمّا الآخَرُ فكانَ يَمشي بالنَّميمةِ))[2] يأتي للناس فيخبر بما قال البعض في البعض الآخر من أجل أن يفرق بينهم - والعياذ بالله- فالنميمة من كبائر الذنوب يعذب عليها النمام في قبره، ولا يدخل الجنة نمام، نسأل الله العافية.

المهم أن هذه الكلمة وصلت إلى عائشة رضي الله عنها فنذرت ألا تكلمه، وذلك لشدة ما حصل لها من الانفعال على ابن أختها وهجرته[3].

فهذا الهجر كان سببه النميمة، وهذا يدل على خطورة النميمة وأهمية اجتنابها وعدم إخبار الإنسان بما يغضبه من كلام الآخرين، لما يسببه من هجر وخصام بين الأقارب وبين المسلمين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على عدم الهجر فوق ثلاث:

يظهر ذلك في قول عوف بن مالك: وطفق المسور، وعبدالرحمن يناشدانها إلا كلمته، وقبلت منه، ويقولان: إن النبي ﷺ نهى عما علمت من الهجرة، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال...".

فالمؤمن لأخيه ودود متودد، آلف متآلف، محب متحبب لا يعرف الهجر والعداء، والنفور والخصام، لأن ذلك يضعف المنة ويوجب الفرقة، ويمزق الوحدة، لهذا حرم عليه الرسول ﷺ أن يهجر أخاه فوق ثلاث[4]. فعن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ

---

(١) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) انظر: ما أخرجه البخاري ١٣٦١، ومسلم ٢٩٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٩٠.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٤٤.

قال: ((لا يحلُّ لرجلٍ أن يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاث ليال، يَلتقيانِ فيُعرِض هذا ويُعرض هذا، وخيرُهما الذي يَبدأُ بالسلام))[١].

قال النووي: (قال العلماء: تحرم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال بالنص وتباح في الثلاث بالمفهوم، وإنما عفي عنه في ذلك لأن الآدمي مجبول على الغضب، فسومح بذلك القدر ليرجع ويزول ذلك العارض[٢].

وقال ابن حجر: (قال العلماء: تزول الهجرة بمجرد السلام ورده. وقال أحمد: لا يبرأ من الهجرة إلا بعوده إلى الحال التي كان عليها أولاً.

وقال ابن عبدالبر: أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يفسد عليه دينه أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مضرة، فإن كان كذلك جاز الهجر، ورب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: هجر عائشة رضي الله عنها لعبدالله بن الزبير رضي الله عنه:

يظهر ذلك في قول عوف بن مالك بن الطفيل أن عائشة رضي الله عنها قالت: هولله علي نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدًا، فاستشفع إليها حين طالت الهجرة فقالت: لا، والله لا أشفع فيه أبدًا، ولا أتحنث إلى نذري فلما طال ذلك على ابن الزبير... إلخ الحديث.

وهذا يدل على هجر عائشة رضي الله عنها لعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: وقد ذكر ابن حجر: أن عائشة رضي الله عنها رأت أن ابن الزبير ارتكب بما قال أمرًا عظيمًا وهو قوله لأحجرن عليها، فإن فيه تنقيصًا لقدرها، ونسبه لها ارتكاب ما لا يجوز من التبذير الموجب لمنعها من التصرف فيما رزقها الله تعالى، مع ما انضاف إلى ذلك من كونها أم المؤمنين، وخالته أخت أمه ولم يكن أحد عندها بمنزلته ... فكأنها رأت أن في ذلك الذي وقع منه نوع عقوق، والشخص يستعظم ممن يلوذ به، ما لا يستعظمه من الغريب، فرأت أن مجازاته على ذلك بترك مكالمته، كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلام كعب بن

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٧٧، ومسلم ٢٥٦٠.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٥٣٦.

(٣) فتح الباري ١٠/٥١١، ٥١٢.

مالك وصاحبيه عقوبة لهم لتخلفهم عن غزوة تبوك بغير عذر، ولم يمنع من كلام من تخلف عنها من المنافقين مؤاخذة للثلاثة لعظيم منزلتهم وازدراء بالمنافقين لحقارتهم، فعلى هذا يحمل ما صدر عن عائشة رضي الله عنها. وقد ذكر الخطابي أن هجر الوالد ولده والزوج زوجته ونحو ذلك لا يتضيق بالثلاث، واستدل بأنه ﷺ هجر نساءه شهرًا. وكذلك ما صدر من كثير من السلف في استجازتهم ترك مكالمة بعضهم بعضًا مع علمهم بالنهي عن المهاجرة، ولا يخفى أن هنا مقامين أعلى وأدنى، فالأعلى اجتناب الإعراض جملة فيبذل السلام والكلام والموادة بكل طريق، والأدنى الاقتصار على السلام دون غيره، والوعيد الشديد إنما هو لمن يترك المقام الأدنى، وأما الأعلى فمن تركه من الأجانب فلا يلحقه اللوم، بخلاف الأقارب فإنه يدخل فيه قطيعة الرحم، وإلى هذا أشار ابن الزبير في قوله (فإنها لا يحل لها قطيعتي) أي إن كانت هجرتي عقوبة على ذنبي فليكن لذلك أمد، وإلا فتأبيد ذلك يفضي إلى قطيعة الرحم، وقد كانت عائشة علمت بذلك لكنها تعارض عندها هذا والنذر الذي التزمته، فلما وقع من اعتذار ابن الزبير واستشفاعه ما وقع رجح عندها ترك الإعراض عنه، واحتاجت إلى التكفير عن نذرها بالعتق الذي تقدم ذكره، ثم كانت بعد ذلك يعرض عندها شك في أن التكفير المذكور لا يكفيها فتظهر الأسف على ذلك. إما ندمًا على ما صدر منها من أصل النذر المذكور وإما خوفًا من عاقبة ترك الوفاء به"[1].

رابعًا- من أساليب الدعوة: القسم:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: "والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها".

وأسلوب القسم من الأساليب الدعوية: التي يستخدمها الداعية لبيان أهمية الأمر ولفت انتباه المدعوين إليه.

والقسم أسلوب إقناع لأنه يعمل على (ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا)[2].

---

(١) فتح الباري ٥١٢/١٠.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٢٩١ نقلاً عن الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله ابن محمد نياز، ص ١٣٢.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الحنث في النذر من أجل مصلحة شرعية:

يستنبط ذلك من رجوع عائشة رضي الله عنها عن نذرها بهجر عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وذلك لأن نذرها من قبيل النذر المحرم فلا ينعقد، قال ابن التين: إنما ينعقد النذر إذا كان في طاعة كَلِلّه عَلَيَّ أن أعتق أو أن أصلي، وأما إذا كان في حرام أو مكروه أو مباح فلا نذر، ترك الكلام يفضي إلى التهاجر وهو حرام أو مكروه[1].

فينبغي لمن نذر أو حلف على معصية أن يرجع عنها، والأصل في ذلك قوله ﷺ: ((إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ الْيَمِينِ، فَرَأَىٰ خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيُكَفِّرْهَا، وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ))[2]. فأساس الشريعة اليسر ومراعاة المصالح الشرعية. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه))[3].

سادسًا- من آداب المدعو: الشفاعة الحسنة لأهل الفضل لإصلاح ذات البين

يظهر ذلك في شفاعة المسور بن مخرمة، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما عند عائشة رضي الله عنها ومناشدتهما لعائشة رضي الله عنها أن تكلمه وتصفح.

والشفاعة الحسنة للإصلاح بين الناس لها ثوابها عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾[4].

قال القرطبي: (قيل الشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة) فمن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر[5]. وأما الشفاعة بأهل الفضل فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يذهبون إلى رسول الله ﷺ ليشفع لهم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: ((اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا. وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ)) وفي رواية ((ما شاءَ))[6].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٥١٢/١٠.

(٢) أخرجه مسلم برقم ١٦٥١.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٩٦، ٦٧٠٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٨٥.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، مج٢٩٥/١٥/٣.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٢٧، ومسلم ٢٦٢٧.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة بريرة وزوجها، قال لها النبي ﷺ: ((فَقَالَ لَهَا النَّبِيَّ: «لَوْ رَاجَعْتِيهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ))[١].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: الاستئذان:

يظهر هذا في قول عوف فأقبل به المسور، وعبدالرحمن حتى استأذنا على عائشة، فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ والاستئذان من الآداب الإسلامية التي أقرها المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز وفي سنة نبيه الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

قال ابن كثير: (هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاثًا، فإن أذن له، وإلا انصرف)[٣]، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله رضي الله عنه يقول: ((إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ عَلَى صَاحِبِهِ ثَلاثَةً فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَنْصَرِفْ))[٤].

ثامنًا - من آداب المدعو: الاعتذار وطلب الصفح:

يظهر هذا في اعتذار عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما إلى عائشة رضي الله عنها والاعتذار أدب اجتماعي في التعامل الإسلامي، وقد كان خلق الاعتذار صفة مميزة لمجتمع الصحابة رضي الله عنهم. فهذا أبو بكر رضي الله عنه عندما حدث بينه وبين عمر شيء أسرع إليه بالاعتذار، فعن أبي الدرداء قال: ((كنتُ جالسًا عندَ النبيِّ ﷺ، إذ أقبَلَ أبو بكر آخِذًا بطرَفِ ثوبه حتى أبْدى عن ركبتِهِ، فقال النبيُّ ﷺ: "أمّا صاحبكُم فقد

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢٨٣.

(٢) سورة النور، آية: ٢٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٦/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٦٢٤٥، ومسلم ٢١٥٣.

غامَرَ"، فسلَّم وقال: يا رسولَ الله، إني كان بيني وبينَ ابن الخطاب شيءٌ، فأسرَعْتُ إليه ثمَّ نَدِمتُ، فسألته أن يَغفِرَ لي))[١]، فالاعتذار يزيل الحقد والبغضاء من قلب من أخطأ في حقه.

ومع الاعتذار بهذا المعنى حسن، فالأحسن منه أن تحذر من الوقوع فيما يجعلك مضطرًا للاعتذار، فقد جاء في الوصية الموجزة، من رسول الله ﷺ لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: ((ولا تَكَلَّمْ بكلام تعتذر منه غدًا))[٢] فإن زلت قدمك مرة فإنه من التواضع ألا تكابر في الدفاع عن نفسك، بل إن الاعتراف بالخطأ أطيب للقلب، وأدعى إلى العفو. ومعلوم أن توبة الصحابي الكريم كعب بن مالك إنما أنجاه فيها الصدق، فقد كان يقول: ((يا رسول الله! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني اخرج من سخطته بعذر... والله ما كان لي عذر))[٣] ولن ينقص من منزلتك أن تعترف بخطئك، وهذا رسول الله ﷺ لما كان يظن أنه لا ضرورة لتأبير النخل أشار بعدم تأبيرها -ثم قال بعد ذلك: ((إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًا، فلا تؤاخذوني بالظن))[٤].

ولا تنتظر من نفسك أن تسيء لتعتذر، بل يمكن أن يكون الاعتذار توضيحًا للموقف، أو بيانًا للقصد. فقد كان الأنصار عند فتح مكة، قد توقعوا ميل النبي ﷺ، للإقامة مع قومه في مكة بعد الفتح، فقالوا: "أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته" فقال النبي ﷺ: "... كلا. إني عبدالله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم" فأقبلوا إليه يبكون، ويعتذرون بأنهم قالوا ما قالوه لحرصهم على إقامته معهم في المدينة، فقالوا: "والله ما قلنا الذي

---

(١) اخرجه البخاري برقم ٣٦٦١.

(٢) اخرجه ابن ماجه ٤١٧١، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٦٣).

(٣) اخرجه احمد في مسنده ٤٥٧/٣ رقم ١٥٧٨٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين ٨٠/٢٦.

(٤) اخرجه مسلم ٢٣٦١.

قلنا إلا الضن[1] بالله ورسوله"، فقال رسول الله ﷺ: ((فإن الله ورسوله يصدقانكم، ويعذرانكم))[2][3].

فإن الاعتذار شأن صاحب الخلق الرفيع الذي يحرص على حسن علاقته بإخوانه؛ فينبغي على المسلم إذا صدر منه ما يوجب الاعتذار أن يبادر إليه دون تكبر أو تأخير.

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: قبول عذر المعتذر:

يظهر ذلك في قبول عائشة رضي الله عنها اعتذار عبدالله بن الزبير رضي الله عنه بعدما أبدى أسفه وندمه على ما بدر منه في حقها.

ولما كانت مخالطة الناس ومعاشرتهم -لا بد- وأن يعتريها شيء من التقصير والتفريط والتعدي من بعضهم على بعض إما بقول أو فعل، استحب لمن ظلم أن يكظم غيظه ويعفو عمن ظلمه[4].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾[5].

وقد عد ابن القيم قبول عذر المعتذر من التواضع ويقول في ذلك (من أساء إليك ثم جاء يعتذر عن إساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته[6].

وتلقي الأعذار بطيب نفس، وبالعفو والصفح، يحض الناس على الاعتذار[7].

وإن دواعي الإعذار -أي قبول الاعتذار- كثيرة، على رأسها أن الله سبحانه يحب أن يعذر ولذلك لا يعذب عباده، حتى يقيم عليهم الحجة، بحيث لا يبقى لهم عذر، وقد

---

(١) الضن برسول الله ﷺ: أي بخلاً وشحًا أن يشاركنا فيه غيرنا، انظر: لسان العرب مادة (ض ن ن).

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨٠.

(٣) أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص ٤٤٣-٤٤٤.

(٤) كتاب الآداب، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ص ٢٣٥.

(٥) سورة الشورى، آية: ٣٧.

(٦) مدارج السالكين، ابن القيم ١٢٧/٣.

(٧) هذه أخلاقنا، محمد محمد الخزندار، ص ٤٤٧.

صرح بذلك رسول الله ﷺ بقوله: ((... ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين...))[١]. وكل واحد منا لابد أن يهفو، ويحب عندئذ أن يجد من يعذره، ولذلك جاء في الحديث: ((من أقال مسلمًا أقاله الله عثرته))[٢]. فتجاوز عن عثرة أخيك تجده في تجاوز الله عن عثرتك.

إن بعض جوانب الخير في شخصية أخيك المسلم لتدعوك أن تعذره، لأن الشر ليس أصيلاً في نفسه.

فالإعذار يكون بلمسة الحنان والرفق، والإعانة على الشيطان، فيما عدا الحد، فإنه حق الله ولا رأفة فيه إذا ثبت، يقول ابن القيم: (الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر... والثابت أنه لا عذر لأحد البتة في معصية الله ومخالفة أمره، مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل والترك)[٣] فإنه لا تعارض بين وجوب الإعذار، ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكم تكون ظالمًا حين تتهم النوايا! وكم تكون متكبرًا حين تستعلي على عذر أخيك. بالإعذار تستطيب القلوب، وتقضي على بذرة الشر، وتستأصل الضغينة، وتعين على التوبة، فلنخذل الشيطان ولنعذر[٤].

عاشرًا- من موضوعات الدعوة: رقة قلوب الصحابة رضي الله عنهم:

يظهر ذلك في بكاء عبدالله بن الزبير رضي الله عنه عند طلبه من عائشة رضي الله عنها العفو والصفح عنه، وكذلك بكاء عائشة رضي الله عنها بعد دخولهم عليها وحين تذكر نذرها بعد ذلك.

قال ابن عثيمين: (وهذا دليل على لين القلب وخشيته لله، وكلما كان قلب الإنسان أقسى كان من البكاء أبعد - والعياذ بالله- ولذلك نرى الناس لما كانوا أقرب للآخرة من اليوم نجد فيهم الخشوع والبكاء وقيام الليل واللجوء إلى الله

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤١٦.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٤٦٠، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٩٥٤).

(٣) مدارج السالكين ١/٣٥٠-٣٥١.

(٤) انظر: هذه أخلاقنا ٣٨٤-٣٨٨.

والصدقة وفعل الخير، لكن لما قست القلوب صارت المواعظ تمر عليها مرور الماء على الصفا لا تنتفع به إطلاقًا نسأل الله لنا ولكم العافية[١].

والبكاء من الخشوع والخوف، من أحب اللحظات والصفات عند الله تعالى، وذكره القرآن بألفاظ مليئة بالمعاني والإيحاءات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٢].

وهو مشهد موحٍ يلمس الوجدان، مشهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن فيخشعون، ثم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون ولكن يخرون للأذقان سجدًا، ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده "سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا"، ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ "ويخرون للأذقان يبكون"، "ويزيدهم خشوعًا" فوق ما استقبلوه به من خشوع وهو الأمر المفضل عند الله تعالى. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم))[٣].

وقد كان ﷺ يعلم أصحابه البكاء من خشية الله والبكاء بعد تلاوة القرآن؛ عن عبدالله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ عليَّ فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[٤] فقال: حسبك الآن. فإذا عيناه تذرفان))[٥].

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٢/١٨٩١، ١٨٩٢.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.

(٣) أخرجه الترمذي ١٦٣٣، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٣٣).

(٤) سورة النساء، آية: ٤١.

(٥) أخرجه البخاري ٥٠٥٠، ومسلم ٨٠٠.

وكأنه ﷺ يدرب أصحابه على البكاء من خشية الله والتأثر بعد تلاوة القرآن حتى يدخل في زمرة "رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه"[١] وحتى يدخل في ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٢]. أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين، فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدًا وبكيًا.

وهو ﷺ يربي أصحابه على البكاء بالتطبيق العملي وبالانفعال بتلاوة القرآن مرة وبالحديث مرة أخرى. عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله))[٣]. وكأنه ﷺ يحث خيرة أمته أن يكونوا من أولئك الأتقياء الحساسين الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله. عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: "ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله"[٤].

هذه التربية النبوية تركت أثرًا جميلاً في نفوس أصحابه، فكانوا يتلون القرآن بكل الخشوع والخضوع، حتى كانت تفيض أعينهم من الدموع وتقشعر أبدانهم من الخوف والعظمة، وأولهم أبوبكر رضي الله عنه وكان له مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقًا إذا قرأ القرآن استبكى. قالت عائشة: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيأته[٥])[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٩، ومسلم ١٠٣١.

(٢) سورة مريم، آية: ٥٨.

(٣) أخرجه الترمذي ١٦٣٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٣٨).

(٤) أخرجه الترمذي ١٦٦٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣٦٣).

(٥) السيرة النبوية، ابن هشام ٣٧٣/١.

(٦) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي، ص ٣٥٢-٣٥٤.

الحديث رقم (١٨٦٢)

١٨٦٢- وعن عُقْبَةَ بن عامرٍ رضي الله عنه: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى قَتْلَى أُحُدٍ، فَصلَّى عَلَيْهِمْ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ كَالمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: ((إنِّي بَيْنَ أيْدِيكُمْ فَرطٌ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وإنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وإنِّي لأَنْظُرُ إلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، ألاَ وإنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنْ أخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أنْ تَنَافَسُوهَا)).

قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. متفق عَلَيْهِ[1].

وفي رواية[2]: ((وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أنْ تَنَافَسُوا فِيهَا، وَتَقْتَتِلُوا فَتَهْلِكُوا كما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)). قَالَ عُقْبَةُ: فكَانَ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ.

وفي روايةٍ[3] قَالَ: ((إنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وإنِّي واللهِ لأَنْظُرُ إلَى حَوْضِي الآنَ، وإنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ، أَوْ مَفَاتِيحَ الأرْضِ، وإنِّي واللهِ مَا أخَافُ عَلَيْكُمْ أنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا)).

والمراد بالصلاة على قتلى أحد: الدعاء لهم لا الصلاة المعروفة.

ترجمة الراوي:

عقبة بن عامر الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠١٥).

عوف بن مالك بن الطفيل: هو تابعي مختلف في اسم أبيه، والأصح أنه: عوف بن الحارث بن الطفيل بن سخبرة الأزدي، رضيع عائشة وابن أخيها لأمها، أصله من اليمن، فقد قدم الحارث بن سخبرة الأزدي مكة ومعه امرأته أم رومان بنت عامر الكنانية، فحالف أبا بكر الصديق، ثم مات فخلف أبو بكر على أم رومان فولدت له عبدالرحمن وعائشة. وكان لها من الحارث، الطفيل بن الحارث فهو أخو عائشة لأمها، وولد الطفيل بن الحارث عوفًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٢) واللفظ له، ومسلم (٣١/٢٢٩٦).

(٢) أخرجها البخاري (١٣٤٤).

(٣) أخرجها البخاري (١٣٤٤) واللفظ له، ومسلم (٣١/٢٢٩٦).

وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم: عائشة والمسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو هريرة وعبدالله بن الزبير ابن عمته أسماء بنت أبي بكر.

وقد ذكره ابن حبان في الثقات من التابعين[١].

غريب الألفاظ:

أحد: الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد التي وقعت ٣هـ[٢].

فصلى عليهم: أي: الدعاء لهم، لا الصلاة المعروفة[٣].

فرط: سابق ومتقدم[٤].

الشرح الأدبي

إن ظفر المسلمين في صبيحة يوم أحد كان معجزة من معجزات الحرب، وهذا النصر تحقق للمسلمين بما لديهم من يقين وإيمان بأنهم على الحق، ومن آمن بالحق لم تزعجه قوة مادية مهما عظمت، ولم تضعضع من عزمته كل قوات الباطل وإن اجتمعت، ولكن نتيجة المعركة كانت بعد ذلك في غير صالح المسلمين، وسقط كثير من الشهداء في ميدان المعركة بعد تخلي الرماة عن موقعهم... وتبدَّل الموقف، واستشهد حمزة بن عبدالمطلب وكثير معه، وحزن رسول الله ﷺ وقال مخاطبًا عمه حمزة: (لن أصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت موقفًا قط أغيظ إلي من هذا) ثم قال: (والله لئن أظهرنا الله عليهم يوما من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب)، ولكن رسول الله ﷺ عفا وصبر ونهى عن المثلة، وسجي حمزة ببرده وصلى عليه[٥].

إن هذا الموقف العصيب لم يُمح من ذاكرة رسول الله ﷺ بل ظل يدعو لشهداء

---

(١) الثقات لابن حبان (٣٩٧/٤)، وتهذيب الكمال (٥٠٨/٥)، وتهذيب التهذيب (٣٣٦/٣) وفتح الباري (٥٠٨/١٠).

(٢) أطلس الحديث النبوي، ٢٣. وأطلس السيرة النبوية ١١٩.

(٣) رياض الصالحين، ٦٢٩.

(٤) الوسيط في (ف ر ط).

(٥) انظر: حياة محمد، د. محمد حسين هيكل.

أحد ويترحم عليهم، وبعد ثمان سنين خرج إلى قتلى أحد، فصلى عليهم، أي دعا لهم: فالصلاة في اللغة الدعاء، وكأنه يودع الأحياء والأموات، وبقية الحديث جزء من خطبة له ألقاها على المنبر بعد أن أعاد الناس إلى يوم أحد، وما حدث فيه من عبر ودروس... ومن نصر ثم هزيمة ثم الثبات والاستشهاد.

ومن مظاهر الجمال التعبيري في هذاالحديث تكرار التوكيد في بدايات الجمل أربع مرات، والتوكيد بإن المضاف إلى ياء المتكلم (اسمها) والمتكلم هو رسول الله ﷺ، وهذا التوكيد المتكرر لترسيخ الوصايا والقيم في نفوس السامعين، فأسلوب الخطابة يعتمد على التكرار، وتلوين الصوت، والخطاب المؤثر المقنع، ومع التأكيد يتكرر الخطاب في صيغة الجمع في قوله: (أيديكم، عليكم، موعدكم)والجمل كلها اسمية يبدأ أغلبها "بإني"، وبعضها بـ (أنا) و(لكن) وهذه الصياغة اللغوية للجمل في قالب: (الاسمية) يفصح عن ثبات المواقف، وعدم التغير والتبدل، ولفظ (فرط) يؤدي وظيفته بكل موحياتها، فهو لفظ مختصر ولكن في سياق الجملة يصور كثيرا من المعاني والمواقف، ومعناه: هو من سبق الركب إلى المنزل لتهيئة المصالح من تقريب الحطب، وإصلاح الحياض، وكأن الرسول ﷺ يقول: (وهكذا أنا بين أيدي أمتي مهيئ لهم لمصالحهم الأخروية بالشفاعة للعصاة والشهادة للمطيعين) ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: دعاء النبي ﷺ لقتلى أحد بعد ثمان سنوات.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الموعظة.

ثالثًا: من خصوصيات النبي ﷺ اطلاعه ونظره إلى حوضه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ ببقاء الإسلام وانتشاره.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الزهد في الدنيا والتحذير من التنافس فيها.

سادسًا: من صفات الداعية: الخوف والشفقة على المدعوين.

أولاً – من موضوعات الدعوة: دعاء النبي ﷺ لقتلى احد بعد ثمان سنوات:

يظهر ذلك في قول عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ خرج إلى قتلى أحد، فصلى عليهم بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات.

قال النووي: معناه: خرج إلى قتلى أحد ودعا لهم دعاء مودع ثم دخل المدينة فصعد المنبر فخطب الأحياء خطبة مودع[1].

وقال ابن عثيمين: إن النبي ﷺ خرج إلى أحد فصلى على الشهداء هناك – أي دعا لهم – وليس المراد الصلاة المعروفة؛ لأن الصلاة المعروفة إنما تكون قبل الدفن لا بعده، إلا من فاته الصلاة عليه قبل الدفن يصلي عليه بعده، لكن هذه الصلاة الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[2] يعني ادع لهم[3].

ثانيًا– من أساليب الدعوة: الموعظة:

يظهر ذلك في قول عقبة بن عامر رضي الله عنه: ثم طلع إلى المنبر فقال ﷺ "إني بين أيديكم فرط وأنا شهيد عليكم وإن موعدكم الحوض... إلخ. الحديث، وباقي الروايات.

حيث وعظ المسلمين بكثير من المواعظ الحسنة في هذه الخطبة، ولا ريب أن للموعظة الحسنة أهمية كبرى في مجال الدعوة إلى الله تعالى، سواء اتخذت صفة النصح أو التذكير، أو الترغيب والترهيب، أو غير ذلك من صفات وأساليب الموعظة الحسنة.

وتتضح أهمية الموعظة في احتفاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بها، و اعتناء سلف الأمة الصالح وأخذه بها.

فمن القرآن الكريم نجد قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٤٢٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين ١٨٩٢/٢.

(٤) سورة النحل، آية: ١٢٥.

ومن السنة: فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يباشر الموعظة ويقوم بأدائها وكان يتخول أصحابه بها مخافة السآمة عليهم، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ((كانَ النبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها، مَخافَةَ السَّآمَةِ علينا))[١].

وأما اعتناء السلف الصالح بالموعظة فلا يحتاج إلى برهان، وذلك لما زخر به تاريخهم من مواعظ ونصائح وتذكير تعد غررًا في جبين التاريخ. ومن أولئك الوعاظ المشهورين والنصحاء الموفقين صحابة رسول الله ﷺ كأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومصعب ابن عمير[٢].

وأسلوب الموعظة من الأساليب الدعوية التي لها فوائد عديدة في مجال الدعوة إلى الله.

ثالثًا- من خصوصيات النبي ﷺ اطلاعه ونظره إلى حوضه:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وإن موعدكم الحوض وإني لأنظر إليه من مقامي هذا" قال ابن حجر: (هو على ظاهره، وكأنه كشف له عنه في تلك الحالة)[٣]. وقال العيني: (قال الخطابي: وفي الحديث أن الحوض مخلوق موجود اليوم وأنه حقيقي، وفيه معجزة النبي ﷺ حيث نظر إليه في الدنيا وأخبر عنه)[٤]. وقال ابن عثيمين: (الرسول ﷺ يقول: "إنه ينظر إلى حوضه الآن" كشف له عنه في الدنيا كما كشف عنه حين رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف، وهذه أمور غيبية لا نعرف كيف كذلك ولكن الله ورسوله أعلم)[٥].

فمن معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده. وقد أضافه إلى

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠.

(٢) انظر: وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي، ص ٧١، ٧٢.

(٣) فتح الباري ٣/٢٥١.

(٤) عمدة القاري ٦/١٥٧.

(٥) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٩٢.

نفسه الكريمة، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[٢].

وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب، جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[٤]. فتلخص من ذلك أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى، وهو من إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته وصحة رسالته[٥].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ ببقاء الإسلام وانتشاره:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي...".

قال القرطبي: (وقوله: "أعطيت مفاتيح خزائن الأرض" أي: بُشِّر بفتح البلاد، وإظهار الدين، وإعلاء كلمة المسلمين، وتمليكه جميع ما كان في أيدي ملوكها من الصفراء، والبيضاء، والنفائس، والذخائر، فقد ملكه الله ديارهم، ورقابهم، وأرضهم، وأموالهم. كل ذلك وفاءٌ بمضمون: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

(٤) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٥) موسوعة نضرة النعيم ٥٤٢/١، ٥٤٣.

(٦) سورة التوبة، آية: ٣٣.

وقوله: "إني والله لستُ أخشى عليكم أن تشركوا بعدي" يعني: أنه قد أمن على جملة أصحابه أن يُبدِّلوا دين الإسلام بدين الشرك. ولا يلزم من ذلك ألا يقع ذلك من آحاد منهم؛ فإن الخبر - عن الجملة- لا يلزم صدقُه على كلٍّ واحدٍ من آحادها دائمًا. كيف لا؟! وهو الذي أخبر بأن منهم من يرتد بعد موته ﷺ كما جاء نصًا في غير ما موضع من أحاديث الحوض وغيرها، وقد ظهر في الوجود ردَّةُ كثيرٍ ممن صحب النبي ﷺ وصلى معه، وجاهد، ثم كفر بعد موته. ومن ذلك قولُ ابن إسحاق وحكايتُه: أنه لم يبق بعد موت النبي ﷺ مسجد من مساجد المسلمين إلا كان في أهله ردَّةٌ، إلا ما كان من ثلاثة مساجد. وقتالُ أبي بكر رضي الله عنه لأهل الردة معلومٌ متواترٌ، وإذا كان كذلك فيتعيَّن حملُ هذا الحديث على ما ذكرناه.

ويحتمل أن يكون هذا خبرًا عن خصوص أصحابه الذين أعلمه الله تعالى بمآل حالهم، وأنهم لا يزالون على هدي الإسلام وشرعه إلى أن يلقوا الله ورسوله على هديه، إذ قد شهد رسولُ الله ﷺ لكثير منهم بذلك، وشوهدت استقامة أحوالهم حتى توفاهم الله تعالى عليها، ويحتمل أن يحمل هذا الخبرُ على جميع الأمة، فيكون معناه: الإخبار عن دوام الدين، واتصال ظهوره إلى قيام الساعة، وأنه لا ينقطعُ بغلبة الشرك على جميع أهله، ولا بارتدادهم، كما قد شهد بذلك الكتاب والسنّة وإجماع الأمة. والأول أظهر من الحديث. والله أعلم[1].

قال النووي: (وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ فإن معناه: الإخبار بأن أمته تملك خزائن الأرض وقد وقع ذلك وأنها لا ترتد جملة وقد عصمها الله من ذلك)[2].

وقد وقع ما أخبر به ﷺ فقد عم وظهر الدين، وغلب وعلا على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمته في عهد الصحابة ومن بعدهم وذلت لهم سائر البلاد، ودان لهم جميع أهلها على اختلاف أصنافهم وألوانهم، وصار الناس إما مؤمن داخل في الدين، وإما مهادن باذل الطاعة والمال، وإما محارب خائف وجل من سطوة

---

(١) المفهم ٦/٩٣، ٩٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤٢١.

الإسلام وأهله)[١].

وقال ابن تيمية: (فإنه علم بالاضطرار من دين الإسلام: أنه رسالة محمد بن عبدالله ﷺ لجميع الناس: عربهم وعجمهم، وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم، وإنها باقية دائمة إلى يوم القيامة، بل عامة للثقلين الجن والإنس، وإنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين. وما سنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء، لوجب عليهم متابعته ومطاوعته)[٢].

خامسًا - من موضوعات الدعوة: الحث على الزهد في الدنيا والتحذير من التنافس فيها:

يظهر ذلك في قوله ﷺ ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها..." قال القرطبي: (وقوله: ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوا فيها، وتقتتلوا فتهلكوا" هذا الذي توقعه النبي ﷺ هو الذي وقع بعده، فعمَّت الفتن، وعظمت المحن، ولم ينجُ منها إلا من عُصم، ولا يزال الهرجُ إلى يوم القيامة، فنسأل الله تعالى عاقبة خيرٍ وسلامةٍ)[٣]. أو "لكن أخاف عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها". فقد أخبر أن أمته تتنافس في الدنيا وقد وقع[٤].

وفي ذلك حث منه ﷺ على الزهد في الدنيا وتحذير من التنافس فيها.

قال الطيبي: ("تنافسوا فيها" معناه ترغبون فيها فتشتغلون بجمعها أو تحرصون على إمساكها فتطغون فيها فتهلكون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٥])[٦].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم ١/٥٤٦.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/٤٢٣، ط/ العبيكان، ص ٦/٢٣١.

(٣) المفهم ٦/٩٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٤٢١.

(٥) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٩/٢٩٣.

فالتنافس في الدنيا يكون سببًا في التقاتل والعداوة والهلاك، كما قال ﷺ: ((فواللهِ ما الفقرَ أخشىٰ عليكم، ولكني أخشىٰ أن تُبسطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على من كان قبلكم، فتَنافسوها كما تَنافسوها، وتُهلككم كما أهلكَتهم))[1].

من ذلك يتضح أهمية حث النبي ﷺ لأمته على الزهد في الدنيا وعدم التنافس فيها.

سادسًا- من صفات الداعية: الخوف والشفقة على المدعوين:

يظهر ذلك من خوف رسول الله ﷺ على أمته من التنافس في الدنيا وخشيته من ذلك. وإشفاق الداعي وخوفه على المدعوين ضروري؛ لأن النصيحة ثمرة الإيمان، والإيمان يقتضي حب الخير للناس، والسعي فيه بالقول والعمل قدر الاستطاعة، وبالتالي تتم الدعوة -إذا اتسمت بالنصح- بأنسب الأساليب، ويراعى فيها حال المنصوح أو من توجه إليه دعوة الخير، وهذا أدعى إلى قبول الدعوة، وأعون على نجاحها، ولذلك يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[2]. فحرص الداعية على خير المدعو من شأنه أن يؤلف القلوب، ويجمع شتاتها، ويجعلها تتفتح للخير إذا أراد الله لها الهداية[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٣١٥٨، ومسلم ٢٩٦١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) انظر: النصيحة، الباز محمد عبدالفتاح الدميري، ص ٢٢١، ٢٢٢.

الحديث رقم (١٨٦٣)

١٨٦٣- وعن أَبي زيد عمرو بن أَخْطَبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه قَالَ: صلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الفَجْرَ، وَصَعِدَ المِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصلَّى، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ العَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصلَّى، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عمرو بن أخطب الأنصاري: هو عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصاري الخزرجي المدني مشهور بكنيته: أبو زيد.

أكرمه النبي صلى الله عليه وسلم فدعا له ومسح وجهه ولمس خاتم النبوة. قال عمرو: استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بإناء فيه ماء وفيه شعرة فرفعتُها ثم ناولته فقال: اللهم جمِّله[2]. قال أنس بن سيرين [أحد الرواة عنه]: وكان رجلاً جميلاً حسن الشَّمَط[3].

وعاش طويلاً دون أن يصيبه الشيب بفضل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له، قال: مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم يَده على وجهي ودعا لي. قال عزرة بن ثابت [حفيده]: إنه عاش مائة وعشرين سنة وليس في رأسه إلا شعيرات بيض[4] وعاش منبسط الوجه لم تصبه التجاعيد حتى مات.

وأذن له النبي صلى الله عليه وسلم بأن يمس خاتم النبوة في ظهره، وقال عنه: شعَرات بين كتفيه[5].

وجاهد في سبيل الله وشارك في الغزوات، فقد غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة غزوة[6].

---

(١) برقم ٢٨٩٢/٢٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤٠/٥، رقم ٢٢٨٨٣، وقال محققو المسند: صحيح ٥٢٢/٣٧.

(٣) الشَّمط: بياض شعر الرأس يخالط سواده. القاموس المحيط ٥٤٤/٢. والحديث أخرجه أحمد ٢٢٨٨٥/٣٧ وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٦٢٩ وأحمد ٢٠٧٣٣/٣٤، ٢٢٨٩٠/٣٧. وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٥) أخرجه أحمد ٧٧/٥، رقم ٢٠٧٣٢ وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣٣٣/١٣٤.

(٦) أخرجه أحمد ٢٢٨٨٤/٣٧ وقال محققو المسند: إسناده قوي.

نزل العراق وسكن البصرة وكان من مشاهير الصحابة فيها. توفي في خلافة عبدالملك ابن مروان[١].

الشرح الأدبي

كان رسول الله ﷺ أفصح خلق الله وأعذبهم كلامًا، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقًا حتى كان كلامه يأخذ بمجامع القلوب، ويسلب الأرواح، ففصاحة لسانه غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يدانى منتهاها، وقد كان ﷺ إذا تكلم تكلم بكلام مفصّل مُبيّن يعدّه العادّ؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: ما كان ﷺ يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثًا لو عدّه العاد لأحصاه، وكان يعيد الكلمة ثلاثًا لتحفظ عنه[٢].

وفي ضوء هذه الخصائص التي اختص الله بها نبيه محمدًا ﷺ في منطقه وأسلوبه وبلاغته، نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف.. ومن هذه الجماليات:

أ - الأسلوب الخبري هو السمة العامة لصياغة الجمل والتراكيب في هذا الحديث الشريف، ومما يؤكد هذه الصيغة الإخبارية التوجيهية، أن الأفعال التي وردت في الحديث كلها ماضية، حيث يحكي أبو زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه ما قام به رسول الله ﷺ من صلوات وخطب وتعليم وإرشاد للمسلمين. وفي الحديث أكثر من خمسة عشر فعلاً ماضيًا... وليس به فعل مضارع واحد، أو فعل من أفعال الأمر.

ب - تكرار بعض الأفعال والجمل - على الرغم من قصر الحديث - وذلك لتثبيت الكلام في ذهن السامعين، وكان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثًا حتى يحفظ السامعون عنه، وكان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه كما تقول عائشة رضي الله عنها ولذلك لم يُحْدِث التكرار رتابةً، ولا يعد إسهابًا، بل هو من سمات بلاغة الكلام، وحسن الإفهام، ومن ذلك تكرار جملة (صعد المنبر ثلاث مرات) وتكرار جملة (فنزل

---

(١) الطبقات ٢٨/٧، والاستيعاب ٥٠٣، ٨٠٧ وأسد الغابة ١٧٧/٤، ١٢٤/٦، والإصابة ٩٥٨، ١٤٧٨، والسير ٤٧٣/٣، وتهذيب الكمال ٣٩٣/٥، والتهذيب ٢٥٦/٣، وموسوعة عظماء حول الرسول ٣٩٤/٢).

(٢) انظر: الزهور الندية من خصائص وأخلاق خير البرية، تنقيح وضبط وتعليق: أحمد بن محمد طاحون.

فصلى مرتين) مع تغير حرف العطف في المرة الثانية من الفاء إلى ثم مراعاة للسياق، وكذل تكرار الفعل "خطب" مرتين، وفي المرة الثالثة جاء بمضمون الخطبة: فقال: (فأخبرنا ما كان وما هو كائن).

ج - بلاغة الحذف في قول الراوي: (فأخبرنا ما كان وما هو كائن) أي عن أحوال الخلق، في كل الأزمنة الماضية والحاضرة والمستقبلية، وقال العلماء: إن كان المراد جميع ذلك كما يومئ إليه لفظ (الموصول (ما) وهو بمعنى: الذي، فيكون فيه معجزة بخرق الأوقات والمباركة فيها، حتى اتسعت لنشر ذلك كله وذكره، وصيغة التفضيل في ختام الحديث: في قول الراوي: (فأعلمنا أحفظنا) توحي بضرورة التزود من العلم والتفقه في الدين، لأن الأكثر علمًا بالآيات الكونية، والمسائل الشرعية، هو الأكثر حفظًا لها ودراية بها، والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: قوة وتحمل النبي ﷺ.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بما كان وما يكون من أمور غيبيه.

أولاً- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يظهر ذلك في قول أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه: (صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل...).

وقد استعمل النبي ﷺ هذا النوع من الوسائل في نشر دعوته لكثرة فائدته، وعظيم جدواه، ذلك أن الخطابة علم من العلوم المهمة التي تساعد على الاتصال الجماعي.

وقد دارت خطابة النبي ﷺ في مجال العقيدة والشريعة والأخلاق، وكان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش، وكان في خطبته يتشهد بعد الحمد والثناء، ويذكر فيها نفسه بالعلم.

وكان يقول بعد الثناء والتشهد: أما بعد.

وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي.

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها.

وكان ﷺ يأمر بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها.

ولعل أكبر ما يدلنا على اهتمام النبي ﷺ بالخطابة أنها أول وسيلة أبرزها بعد الجهر بالدعوة مباشرة حين صعد على الصفا، وفي حجة الوداع ألقى خطبة في الجموع المحتشدة[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: قوة وتحمل النبي ﷺ:

يظهر ذلك في خطبته ﷺ من بعد صلاة الفجر حتى غروب الشمس.

قال ابن عثيمين: هذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ أخطب الناس وأن الله تعالى أعطاه قوة لم يعطها أحدًا غيره؛ فقد صلى الفجر ﷺ وصعد المنبر وخطب الناس حتى أذن الظهر ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد فصعد المنبر وخطب حتى أذن العصر، فنزل وصلى العصر، ثم صعد المنبر فخطب حتى غابت الشمس يعني يومًا كاملاً من صلاة الفجر إلى غروب الشمس وهو ﷺ يخطب، ولم يُذكر أنه خرج إلى البيت ليتغدى أو نحو ذلك، فإما أن يكون صائمًا، وإما أن يكون قد انشغل بما هو أهم، وكذلك أيضًا لم يذكر أنه صلى راتبة الظهر فيكون هنا اشتغل عن الراتبة بما هو أهم؛ لأن موعظة الناس وتعليم الناس أهم من الراتبة، فإن دار الأمر بين أداء الراتبة والتعليم فالتعليم أفضل.

وفي ذلك دليل على قوة النبي ﷺ وحرصه على تبليغ الرسالة[2].

---

(١) انظر: الدعوة الإسلامية، د. أحمد غلوش، ص ٤١٩، ٤٢٠.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين ١٨٩٤/٥، ١٨٩٥.

ومما يؤكد على قوة النبي ﷺ وأن الله عز وجل أعطاه قوة لم يعطها لأحد غيره أن الصحابة رضوان الله عليهم في حفر الخندق اعترضتهم كُدية صلبة فذهبوا إلى النبي ﷺ وأخبروه بها فجاء وضربها بالمعول فانهارت.

فعن جابر رضي الله عنه قال: ((إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدية شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل. ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل، أو أهيم...))[1].

قال ابن الأثير: الكُدية قطعة غليظة صُلبة لا تعمل فيها الفأس[2].

(وكثيبًا: أهيل) أي: رملاً سائلاً[3].

قال الطيبي: قال القاضي البيضاوي: والمعنى أن الكدية التي عجزوا عن كسرها صارت بضربة واحدة ضربها رسول الله ﷺ كتلاً من رمل مصبوب سيال[4].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بما كان وما يكون من أمور غيبيه:

يظهر ذلك في قول أبي زيد رضي الله عنه: "فأخبر بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا".

قال ابن عثيمين: (قال "وأخبرنا بما كان وما يكون" يعني مما أطلعه الله عليه وليس يعلم الغيب إلا من أطلعه الله عليه فقط، فأعلمه الله عز وجل في ذلك اليوم شيئًا من علوم الغيب الماضية ومن الغيوب المستقبلة وأخبر بها ﷺ، "فأعلمنا أحفظنا" يعني منا من علم وحفظ وبقي ذلك في ذهنه ومنا من لم يحفظ)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٤١٠١.

(٢) النهاية ٧٩٤.

(٣) المرجع السابق ١٠١٨.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١١/١٠٩.

(٥) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٩٥.

وفي إخباره ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بما كان وما يكون من أمور غيبية.

قال الدكتور عمر الأشقر: (فمن ذلك إخباره عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وإخباره عن الملائكة وصفاتهم، وإخباره عن عالم الجن، وعن الجنة والنار، ومن ذلك إخباره عن الحوادث التي وقعت، كما أخبر عن آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وهو حديث فيه تفصيل وبيان، ومثل هذا لا يتأتى من رجل أمي لم يكن كاتبًا ولا قارئًا، ولم يخالط الذين درسوا تاريخ الأمم وعرفوا أخبارها، ثم هو يأتي بأخبار لم يبلغها علم الأمم، وأخبار يكتمها علماء أهل الكتاب، ويصحح لهم كثيرًا مما عندهم، وكل ذلك دليل على أنه إنما جاء بهذه العلوم من العليم الخبير: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[١].

وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل في عدة مواضع، فمن ذلك قوله في سياق قصة مريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[٢].

وفي سياق قصة موسى، قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣].

وقد كان يخبر بالأخبار المغيبة التي وقعت في حينها، فقد أخبر باستشهاد قادة المسلمين الثلاثة في معركة مؤتة وباستلام خالد بن الوليد الراية من بعدهم في اليوم الذي وقع فيه الحدث[٤].

وعندما توفي النجاشي أخبر بوفاته في نفس اليوم، وكذلك عندما توفي كسرى.

ومن ذلك إخباره بالغيوب المستقبلية، وبعض هذه الأخبار كان يقع ويتحقق في الحال أو بعد فترة وجيزة.

---

(١) سورة هود، آية: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٤٤.

(٣) سورة القصص، آية: ٤٦.

(٤) انظر ما أخرجه البخاري ٤٢٦٢.

فمن ذلك أنّه أخبر بالمواضع التي سيصرع فيها صناديد الكفر قبل وقوع معركة بدر، عن أنس ﷺ، قال: "فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا، فقال رسول الله ﷺ: "هذا مصرع فلان" ويضع يده على الأرض ههنا وههنا، قال: فما ماط "أي ما بعد، وما تجاوز" أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ)[١].

ومن هذه الغيوب التي أخبر بها ما وقع بعد وفاته، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله))[٢]. وقد وقع الأمر كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أكثر الرسول ﷺ من الإخبار مما سيقع في مقبل الزمان، قال حذيفة ابن اليمان: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فما ترك شيئًا يكون من قيامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّثه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته، فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[٣].

ومن ذلك ما أخبر به من الفتن وأشراط الساعة وغير ذلك، وقد تكفلت بذكرها كتب الحديث[٤].

قال القاضي عياض: (والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع، الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب)[٥].

---

(١) أخرجه مسلم ١٧٩.

(٢) أخرجه البخاري ٣١٢٠، ومسلم ٢٩١٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٨٩١.

(٤) الرسل والرسالات، د. عمر الأشقر ١٤٧، ١٤٨.

(٥) الشفا ٣٢٩/١.

الحديث رقم (١٨٦٤)

١٨٦٤- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَنْ نَذَرَ أنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلاَ يَعْصِهِ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

نذر: أوجب على نفسه شيئًا تبرُعًا؛ من عبادة أو صدقة[2].

الشرح الأدبي

يتكون هذا الحديث في صياغته اللغوية من جملتين شرطيتين: وأسلوب الشرط في هذا الحديث مناسب للسياق ولمقام الكلام، فالجزاء من جنس العمل، وأداة الشرط في الجملتين هي: (من) وهي للعاقل، وتكرارها في الجملتين فيه إيحاء بأن صاحب النذر، يجب أن يكون متحصنًا بالعقل والتفكير الدقيق، والإدراك الواعي، والشعور الإيماني الفطن، حين يكون نذره في مجال الطاعة، وليس في مجال المعصية، وطاعة الله قمة الطاعات، وعصيانه في سفح السلوكيات، ومهاوي الطبائع وأرزل السيئات.

والجملتان متماثلتان في الصياغة الأسلوبية فهما شرطيتان، ولكنهما تختلفان في الدلالة، وبينهما تحالف في التركيب: ففعل الشرط في الجملة الأولى ماض، وكذلك في الجملة الثانية: وهو الفعل: نذر، ولكن جواب الشرط فعل مضارع في الجملة الأولى مقترن بلام الأمر، والأمر للوجوب (فليطعه) لأن الوفاء بالنذر واجب في الطاعة، أما جواب الشرط في الثانية فهو (فلا يعصه) فعل مضارع مسبوق بلا الناهية، وهي جازمة، ولام الأمر جازمة، ولكن النهي يناسب الدلالة في الجملة الثانية، والنهي هنا واجب، فمن نذر أن يعصى الله فلا يعصه، وقال العلماء: لا ينعقد النذر.

---

(١) برقم ٦٦٩٦.

(٢) النهاية في (ن ذ ر).

وبين الجملتين طباق وتضاد، أو مقابلة شاملة في الدلالة والألفاظ، وتأمل البون الشاسع في الدلالة بين: (أن يطيع الله، وأن يعصى الله) وكذلك التضاد الكلي في الدلالة بين (فليطعه) و: فلا يعصه، ولنتأمل دلالة الألفاظ اللغوية...وعلاقتها بالدلالة الاصطلاحية والشرعية:

فالنذر في اللغة: النَّحْب، والأرش، وقيل: النذور: لا تكون إلا في الجراح، صغارها وكبارها، والنذر: ما كان وعدًا على شرط: كقوله: عليَّ إن شفى الله مريضي كذا، فهذا نذر، فالنذر إذا لم يؤدَّ يظل كالجرح الغائر المؤلم، ولا يبرأ الناذر إلا إذا وفى بنذره في الطاعة.

والطاعة: معناها: الانقياد، ويقولون هو طوع يديك، أي منقاد لك، وفرسي طوع العنان أي سلس، ويقولون: أطاع الشجر، أي: أدرك ثمره وأمكن أن يجتني، فالطاعة انقياد لله، والطائع من الشجر المثمر، الذي ينعم بثماره آكله، ويفوز برضوان الله وجنته.

والعصيان: خلاف الطاعة، وشق العصا أي مخالفة جماعة الإسلام، وهو كناية عن الخروج على الجماعة، ويقولون: أعصى الكرم، أي خرج عيدانه ولم يثمر، والعاصي في اللغة: العرْق لا يرقأ، فالعاصي مثل الشجر الذي لا نفع فيه فهو بلا ثمر، وهو مثل الجرح النازف، يضر نفسه وغيره، فتأمل بلاغة رسول الله ﷺ، وتأمل دلالات الكلمات، وموحيات التراكيب والأساليب فكلامه كله يثمر علمًا، ويُمتثل شرعًا وحكمًا، لا يتفوه بشرٌ بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عذوبته، وهو أحكم الخلق جنانًا، وأفصحهم لسانًا وأوضحهم بيانًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء بكل ما يعين على طاعة الله تعالى.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الوفاء بكل ما يعين على معصية الله تعالى.

ثالثًا: من مهام الداعية: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة وتحذيرهم من كل ما يضرهم في الدنيا والآخرة.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء بكل ما يعين على طاعة الله تعالى:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من نذر أن يطيع الله فليطعه...".

فقد أمر رسول الله ﷺ من نذر طاعة الله أن يطيعه، فنذر الطاعة يجب الوفاء به. قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾[1] فمن نذر إرشاد الجاهلين وإنقاذ المظلومين أو مساعدة البائسين أو زيارة الأقربين، أو الجهاد في سبيل الله ونشر دينه. ومطاردة أعدائه وجب عليه الوفاء بما نذر[2].

فأمر النبي ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة يدل على حثه على الوفاء بكل ما يعين على طاعة الله تعالى.

وقد جعل الله الوفاء بالنذر من صفات الأبرار قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[3]. قال ابن كثير: (وقوله: "يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرا" أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر[4].

ولا خلاف بين الفقهاء في صحة النذر في الجملة، ووجوب الوفاء بما كان طاعة منه.

وقد استدلوا على ذلك بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب الكريم فبآيات منها قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾[5] ومنها ما قاله سبحانه في شأن الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[6].

---

(١) سورة الحج، آية: ٢٩.

(٢) انظر: الأدب النبوي ١٨٥ - ١٨٦.

(٣) سورة الإنسان، الآيات: ٥-٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٨٧/٨.

(٥) سورة الحج، آية: ٢٩.

(٦) سورة الإنسان، آية: ٧.

وما قاله جل شأنه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1].

وأما السنة النبوية المطهرة فبأحاديث منها ما ورد عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما سأل رسول الله ﷺ فقال: ((يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف يومًا في المسجد الحرام. فكيف ترى؟ قال: اذهب فاعتكف يوما)) وفي رواية أخرى: ((أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام. فقال النبي ﷺ: أوف بنذرك))[2].

وما روى عمران بن الحصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن))[3].

وأما الإجماع فحكى ابن رشد "الحفيد" اتفاق الفقهاء على لزوم النذر المطلق في القرب، وقال ابن قدامة: أجمع المسلمون على صحة النذر في الجملة، ولزوم الوفاء به[4].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اجتناب الوفاء بكل ما يعين على معصية الله تعالى:

ذلك واضح في قوله ﷺ "ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه".

قال العظيم آبادي: (قال الخطابي: في هذا بيان أن النذر في المعصية غير لازم وأن صاحبه منهي عن الوفاء به)[5].

فمن نذر النكاية بعدوه، بإراقة دمه، أو اغتصاب ماله، أو نذر لحزب مبطل، أو انتخاب شخص مجرم، أو شرب خمر، أو لعب ميسر، أو إقامة ليلة ساهرة، تنتهك فيها

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٣٢، ٢٠٤٣، ٣١٤٤، ٤٣٢٠، ٦٦٩٧، ومسلم ١٦٥٦.

(٣) أخرجه البخاري ٢٦٥١، ٣٦٥١، ومسلم ٢٥٣٥.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية ٤٠/ ١٣٧-١٣٨ (مصادرها ومراجعها).

(٥) عون المعبود، ص ١٤١١.

الحرمات، ويعصى الإله، حرم عليه الوفاء[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: ((لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ))[2]، وقال ﷺ: ((ولا نذر إلا فيما ابتغي به وجه الله تعالى))[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينا النبي ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، وأن يصوم فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم وليستظل، وليقعد وليتم صومه))[4]. فينبغي على المسلم اجتناب الوفاء بكل ما يعين على معصية الله تعالى، فإذا نذر معصية الله تعالى يحرم عليه الوفاء.

ثالثًا- من مهام الداعية: دلالة المدعوين إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة وتحذيرهم من كل ما يضرهم في الدنيا والآخرة:

ذلك واضح في أمره ﷺ لمن نذر أن يطيع الله بالوفاء بنذره؛ لأن عمل الطاعات ينفع المؤمن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[5].

ويظهر تحذيره من ما يضر الناس في نهيه عن الوفاء بنذر المعصية، وذلك لأن المعاصي مما يضر الإنسان في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6]. قال السعدي: (أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله... "أن تصيبهم فتنة" أي: شرك وشر. "أو يصيبهم عذاب أليم")[7].

---

(١) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٨٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٦٤١.

(٣) أخرجه أبو داود ٢١٩٢، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١٩١٨).

(٤) أخرجه البخاري ٦٧٠٤.

(٥) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٦) سورة النور، آية: ٦٣.

(٧) تيسير الكريم الرحمن ٥٢٥.

فقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على نفع أمته وحريصًا على دلالتهم إلى ما فيه خيرهم وحريصًا على تحذيرهم مما يضرهم، وسيرته العطرة مليئة بالمواقف والأحداث الدالة على ذلك.

فعلى الدعاة أن يتأسوا برسول الله ﷺ في دلالته المدعوين إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

الحديث رقم (١٨٦٥)

١٨٦٥- وعن أمِّ شَرِيكٍ رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمرها بِقَتْلِ الأَوْزَاغِ[١]، وقال: ((كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إبْرَاهِيمَ)) متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أم شريك القرشية: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (١٨١٥).

الأوزاغ: الوَزغ العظام مِن سَامٍّ أبَرص[٣].

الشرح الأدبي

إن المسلم مطالب بالدفاع عن نفسه وعن دينه وعرضه وماله وداره.

ومطالب بأن يحمي نفسه من كل ما يجلب له الإيذاء والضرر، ورسول الله ﷺ في هذا الحديث يضع أمامنا أنموذجًا لدفع الإيذاء، ويأمر بقتل الزواحف والدواب السامة التي تمثل مصدرًا للأمراض والأوبئة ومنها: الأوزاغ، وهي جمع وزغة وهي كما جاء في القاموس المحيط: سام أبرص، وسميت بها لخفتها وسرعة حركتها.

ويتكون الحديث من جملتين خبريتين أولاهما إسمية والثانية فعلية، والأولى يتصدرها التأكيد "بأن"، وهي ناصية مؤكدة، والتأكيد صادر من رسول الله ﷺ لأم شريك، والأمر المؤكد هو: قتل الأوزاغ، وقولها: أمرها، يضاعف من تأكيد الأمر، وهو أمر واجب، لأن فيه دفعًا للضرر واتقاء للأذى، وأما الجملة الثانية فهي من الأدلة التي يسوقها رسول الله ﷺ للبرهنة على أمره بقتل الأوزاغ، حيث يبين السبب في الأمر بالقتل ويقول: (كان ينفخ على إبراهيم) أي ينفخ النار على إبراهيم فيساعد على اشتعالها، وقال العلماء: وهو إن لم يكن لنفخه تأثير في النار لصغر جرمه ولإحراقه بلهبها، إلا أن فيه مناحاة معاداة، وإظهار للعداوة، وهو سام.. والمؤمن مطالب بالحفاظ

---

(١) بهذا اللفظ عند البخاري برقم ٣٣٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣٣٥٩، ومسلم ١٤٢/٢٢٣٧. أورده المنذري في ترغيبه ٤٣٨٧.

(٣) رياض الصالحين ٦٣٠.

على نفسه، وباتخاذ كل السبل التي تقيه الشرور والأخطار.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية قتل الحشرات المؤذية.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترغيب في قتل الوزغة وبيان النبي ﷺ لفضل ذلك.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحث على طلب أسباب السلامة والأمان بقتل الحشرات المؤذية للإنسان.

أولاً - من موضوعات الدعوة: أهمية قتل الحشرات المؤذية:

يظهر ذلك في حديث أم شريك رضي الله عنها: "أن رسول الله ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ...".

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من قتل وزغة...".

قال النووي: (واتفقوا على أن الوزغ من الحشرات المؤذيات وجمعه أوزاغ ووزغان، وأمر النبي ﷺ بقتله وحث عليه ورغب فيه لكونه من المؤذيات)[2].

وتظهر أهمية قتل الوزغ في أنه مؤذٍ وقد ورد عن رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث التي أمر فيها بقتل الحشرات نظرًا لأنها مؤذية منها: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: ((اقتلوا ذا الطُّفْيتين، فإنه يَطْمِسُ البصرَ ويُصيبُ الحبلَ))[3].

وعنها رضي الله عنها قالت: أمر رسول الله ﷺ بقتل الأبتر، وقال: ((إنه يُصيبُ البصرَ ويُذهبُ الحبلَ))[4].

ومن المندوب قتله من الحشرات، الحية، لما روت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: ((خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الأَبْقَعُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا))[5]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يخطب على المنبر يقول:

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٨٦٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٨٦٦).

(٢) شرح صحيح مسلم ١٣٩٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٣٠٨، ومسلم ٢٢٣٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٣٠٩، ومسلم ٢٢٣٢.

(٥) أخرجه مسلم ١١٩٨.

((اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ، وَاقْتُلُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ وَالأَبْتَرَ، فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ الْبَصَرَ وَيَسْتَسْقِطَانِ الْحَبَلَ. قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَبَيْنَا أَنَا أُطَارِدُ حَيَّةً لأَقْتُلَهَا، فَنَادَانِي أَبُو لُبَابَةَ: لاَ تَقْتُلْهَا فَقُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَدْ أَمَرَ بِقَتْلِ الْحَيَّاتِ قَالَ: إِنَّهُ نَهى بَعْدَ ذلِكَ عَنْ ذَوَاتِ الْبُيُوتِ، وَهِيَ الْعَوَامِرُ))[1].

من أجل ذلك فرق الفقهاء غير الحنفية بين حيات البيوت وغيرها، فحيات غير العمران تقتل مطلقًا من غير إنذار لبقائها على الأمر بقتلها، وأما حيات البيوت فتنذر قبل قتلها ثلاثًا لقوله ﷺ: ((إنَّ لِبيوتِكُمْ عُمَّارًا فَحَرِّجُوا عليهِنَّ ثلاثًا، فإنْ بَدَالكم بعد ذلك منهُنَّ شيءٌ فاقتُلوهُ))[2].

ولم يفرق الحنفية بينهما، قال الطحاوي: "لا بأس بقتل الكل، لأن النبي ﷺ عاهد الجن أن لا يدخلوا بيوت أمته، ولا يظهروا أنفسهم، فإذا خالفوا فقد نقضوا عهدهم فلا حرمة لهم. ومع ذلك فالأولى عندهم الإمساك عما فيه علامة الجان لا للحرمة، بل لدفع الضرر المتوهم من جهته وللفقهاء في حكم الإنذار وكيفيته تفصيل ينظر في مواضعه من كتب الفقه.

ومن المستحب قتله كذلك الفأر لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: ((أمر رسول الله ﷺ بقتل خَمْسٌ فَوَاسِقُ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الأَبْقَعُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ))[3]، ومن حيث العموم يستحب قتل كل ما فيه أذى من الحشرات كالعقرب، والبرغوث، والزنبور، والبق"[4].

وتبرز أهمية قتل الحشرات المؤذية في تجنب أذاها والوقاية من شرها للصغار والكبار.

ثانيًا – من موضوعات الدعوة: الترغيب في قتل الوزغة وبيان النبي ﷺ لفضل ذلك:

في حديث أم شريك رضي الله عنها أمرها بقتل الأوزاغ وقال: "كان ينفخ على إبراهيم" وفي

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٣٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣٦، والترمذي ١٤٨٤ واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم ١١٩٨.

(٤) الموسوعة الفقهية ٢٨٢/٢٧ - ٢٨٣، وانظر: مراجعها ومصادرها.

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: "من قتل وزغًا في أول ضربة كتب له مائة حسنة وفي الثانية دون ذلك".

قال القرطبي: (الوزغة: دُويبةٌ مستخبثةٌ مستكرهة، وتُجمع: وزغٌ، وأوزاغٌ، ووزغانٌ.

وأمرُه صلى الله عليه وسلم بقتله لما يحصل منه من الضرر والأذى الذي هي عليه من الاستقذار المعتاد، والنفرة المألوفة؛ التي قد لازمت الطباع، ولما يتقى أن يكون فيها سم، أو شيء يضرُّ متناوله، وما رُوي: من أنها أعانت على وقود نار إبراهيم عليه السلام؛ فإنها كانت تنفخ فيه ليشتعل، وهذا من نوع ما روي في الحية: أنها أدخلت إبليس إلى الجنة، فعوقبت بأن أهبطت مع من أهبط، وجُعلت العداوة بينها وبين بني آدم؛ ويشهدُ لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: ((ما سالمناهنَّ مُذ عاديناهنَّ))[1]. وهذا كله مذكورٌ في كتب المفسرين)[2].

قال النووي: (وأما سبب تكثير الثواب في قتله بأول ضربة ثم ما يليها فالمقصود به الحث على المبادرة بقتله والاعتناء به وتحريض قاتله على أن يقتله بأول ضربة، فإنه إذا أراد أن يضربه ضربات ربما انفلت وفات قتله، وأما تسميته فويسقًا فنظيره الفواسق الخمس التي تقتل في الحل والحرم، وأصل الفسق الخروج وهذه المذكورات خرجت عن خلق معظم الحشرات ونحوها بزيادة الضر والأذى)[3].

فعن عائشة رضي الله عنها أنه قال صلى الله عليه وسلم للوزغ ((الفويسق))[4]، وكان عند عائشة رضي الله عنها رمح بها تتبع الأوزاغ وتقتلها[5].

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه كان ينفخ النار على إبراهيم من أجل أن يشتد لهبها، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ لَمْ تَكُنْ فِي الأَرْضِ دَابَّةٌ إِلاَّ أَطْفَأَتِ النَّارَ. غَيْرَ الْوَزَغِ. فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَيْهِ. فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِقَتْلِهِ))[6] مما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٣٢/٢ رقم ٩٥٨٨، وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣٦٠/١٥.

(٢) المفهم ٥٣٩/٥، ٥٤٠.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٣٩٦.

(٤) أخرجه البخاري ١٨٣١، ٣٣٠٦، ومسلم ٢٢٣٩.

(٥) انظر: ما أخرجه أحمد ٨٣/٦ رقم ٢٤٥٣٤.

(٦) أخرجه ابن ماجه ٣٢٣١ وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٦١٦).

يدل على عداوته التامة لأهل التوحيد والإخلاص، ولذلك ينبغي للإنسان أن يتتبع الأوزاغ في بيته، في السوق، في المسجد ويقتلها[١].

وقد رغّب رسول الله ﷺ في قتلها وبين أن من يقتلها له الثواب من الله عز وجل على قتل هذه المؤذية المعادية لأهل التوحيد والإخلاص.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحث على طلب أسباب السلامة والأمان بقتل الحشرات المؤذية للإنسان:

يستنبط ذلك من عموم الحديثين[٢] فقد أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ نظرًا لأذاه وضرره للإنسان، ففي قتله اجتناب ضرره، وسلامة من أذاه، وقد كان ﷺ يأمر بقتل الأشياء المؤذية من أجل طلب السلامة والأمان للإنسان، حتى يتجنب الناس أذى هذه الأشياء. وقد ورد عن رسول الله ﷺ الكثير من الأحاديث التي تأمر بقتل الأشياء المؤذية للإنسان من أجل سلامته وتحقيقًا لأمنه، من هذه الأحاديث قوله ﷺ: ((اقتلوا الحيات وذا الطفيتين والأبتر، فإنهما يستسقطان الحبل، ويلتمسان البصر))[٣].

وقال ﷺ: ((خمس فواسق يقتلن في الحرم: الفأرة، والعقرب، والحُدَيَّا، والغراب، والكلب العقور))[٤].

قال النووي: (قال مالك: المعنى فيهن كونهن مؤذيات، فكل مؤذ يجوز للمحرم قتله وما لا فلا)[٥].

فقد أباح الإسلام للمحرم قتل الأشياء المؤذية من أجل سلامته وأمانه، فمن باب أولى غير المحرم يجوز له قتل الحشرات المؤذية، حتى يقي نفسه شرها ويأمن من أذاها، فالسلامة والأمان مطلبان أساسيان للبشر، فلابد من أخذ الأسباب الموصلة إليهما، وقد حثت الشريعة الإسلامية على طلب هذه الأسباب والعمل بها.

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٨٩٦/٢.

(٢) الحديث رقم (١٨٦٥)، (١٨٦٦).

(٣) أخرجه البخاري ٣٢٩٧، ومسلم ٢٢٣٣.

(٤) أخرجه البخاري ٣٣١٤، ومسلم ١١٩٨.

(٥) شرح مسلم ٧٤٧.

الحديث رقم (١٨٦٦)

١٨٦٦- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً، وَمَنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً دُونَ الأولَى، وَإنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّالِثَةِ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً))[1].

وفي رواية: ((مَنْ قَتَلَ وَزَغًا فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ كُتِبَ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وفي الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ، وفي الثَّالِثَةِ دُونَ ذَلِكَ)) رواه مسلم[2].

قال أهل اللغة: الوَزَغُ: العِظَامُ مِنْ سَامِّ أَبْرَص.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أم شريك رضي الله عنها بقتل الأوزاغ، وفي هذا الحديث يحث المسلمين جميعًا على ذلك، ويسوق هذا في أسلوب ترغيبي، يعدهم بمضاعفة الحسنات والثواب العظيم.

ويتكون الحديث من ثلاث جمل تتفق كلها في الصياغة النحوية، حيث أتت كلها في قالب الشرط والجواب، وهذا الأسلوب يناسب السياق ويوحي بأن كل فعل يقوم به الإنسان له مقدمات ونتائج، وصلاح المقدمات ينتج عنه صواب النتائج وصحتها: والنتيجة في هذا الحديث هي المكافأة والحسنات المضاعفة لمن يبادر ويقتل الوزغ في الضربة الأولى، وتقل الحسنات في الضربة الثانية وكذلك الثالثة.

وتكرار قوله صلى الله عليه وسلم (فله كذا وكذا حسنة) ثلاث مرات، يؤكد الوعد بالثواب المضاعف، ويحض على تنفيذ الفعل من أول ضربة في المرة الأولى، وفي ذلك إيماء

(١) برقم ١٤٦/٢٢٤٠. أورده المنذري في ترغيبه ٤٣٨٥.

(٢) برقم ١٤٧/٢٢٤٠. أورده المنذري في ترغيبه ٤٣٨٥.

بضرورة تواجد همة المؤمن القوية،وعزيمته الشديدة، والحث على قتل الوزغ في الضربة الأولى للخوف من هربه وإفلاته، لأنه خفيف الحركة، ولديه قدرة على التخفي والهرب بين الشقوق والجدران.

واستعمال أداة الشرط (من) في الجملتين الأولى والثانية فيه ترغيب وحث على إنجاز المهمة في الضربة الأولى أوالثانية، وفيه إيحاء بأن من يقوم بهذا الإنجاز هو من العقلاء الأقوياء الذين ينفذون ما يريدون، ويتقنون ما يعملون، وأما في الجملة الأخيرة فقد استعمل أداة الشرط (إن) وهي لا تفيد التحقق، ولكنها تدل على الشك في وقوع الفعل والضربة الثالثة ليست يقينية في إنجاز قتل الوزغ، أو كل ما يؤذي الإنسان، لأن هذه الحشرة السامة تستطيع أن تنجو، بعد إفلاتها منه في المرتين السابقتين.

وتأمل تكرار ثلاث مرات في الحديث، وفي هذا حث على التنفيذ، وعدم التراجع أو التباطؤ منعًا للأذى، ومنعًا لانتشار الأمراض، والأضرار الكثيرة.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٨٦٧)

١٨٦٧- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: ((قَالَ رَجُلٌ لأتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ لأتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ؛ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ! لأتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وعلى غَنِيٍّ! فَأُتِيَ فقيل لَهُ: أمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سارقٍ فَلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وأمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ عَنْ زِنَاهَا، وأمَّا الغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَعْتَبِرَ فَيُنْفِقَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ)) رواه البخاري[1] بلفظه ومسلم بمعناه.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

يجيئ هذا الحديث في ثوب قصصي، وهي قصة تاريخية من أحداث الأمم السابقة - كما قال الدماميني - هذا الرجل ممن كان قبلنا، ولذلك جاء لفظ (رجل) في صيغة النكرة، لأنه مجهول الاسم، معلوم الفعل، وهو أنموذج يمكن أن يتكرر في كل زمن، وساق الرسول ﷺ هذا الخبر للاتعاظ والعبرة، ويتكون الحديث من ثلاثة مواقف: يؤطرها أسلوب المفارقة التي تثير العجب والإنكار والسخرية، حيث يتصدق على من هم ليسوا أهلاً لذلك حسب أعراف الناس وتقديراتهم، فقد تصدق على سارق وتصدق على زانية!! وتصدق على غني غير محتاج للصدقة، وكأنه أنفق ماله في غير بابه الصحيح!! ومن مظاهر الجمال الأسلوبي في الحديث ما يلي:

أ - يبدأ الحديث بالقسم والتأكيد حيث يقول: (لأتصدقن بصدقة) والتقدير: والله لأتصدقن بصدقة، ولكن المفارقة تكمن في أنه وضعها في يد سارق، وهذا الوضع غير

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له ١٤٢١، ومسلم ١٠٢٢/٧٨. أورده المنذري في ترغيبه ٢٤.

المألوف نفّذه المتصدق في سرعة ونشاط، وتوالى العطف بحرف الفاء بين الأفعال في هذا الموقف: يوحي بذلك حيث يقول رسول الله ﷺ: (فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون) والمتحدثون غير معروفين لأنهم من عامة الناس، ويدل ذلك على أن الرجل أقسم وأخرج الصدقة في العلن أمام الناس، ومن هنا كان الاستغراب والإنكار، والسخرية في قولهم: "تصدق على سارق"، وبناء الفعل للمجهول يؤكد السخرية والإنكار.

ب - الدعاء والقسم والتوكيد في بيان موقف الرجل من حديث الناس: لأنه صادق في مسعاه، مخلص في تصدقه، حيث قال: اللهم لك الحمد: لأتصدقن بصدقة.

ج - يتكرر الفعل نفسه في الموقف الثاني وتتوالى الأفعال المكونة للموقف: والعطف بالفاء يدل على إسراع الرجل، وعدم تأثره بكلام الناس لأنه يعرف موقفه، ونبيل مقصده. فخرج بصدقته: فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون.

د - تكرار الدعاء والقسم في الموقف الثالث، والتأكيد على أنه سيتصدق بصدقة، ويضعها في يد غني، وهذه هي المفارقة الثالثة، ويكرر الناس ما قالوه في المرتين السابقتين مع التعجب والدهشة، ولكن الرجل يقول في اطمئنان غير عابئ بكلام الناس: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية، وعلى غني، ويقدم الرسول ﷺ تفسيرًا لما حدث، حتى يتعظ الناس وحتى يستميلوا نفوس العاصين، ويؤلفوا قلوبهم، ويرغبوهم في التوبة، وهذا التفسير قيل بأن الرجل أتي في منامه فقيل له: إن الله قد قبل صدقتك.

هـ - جاء تفسير هذه المواقف في أسلوب الشرط: فهو تفصيل بعد إجمال، وإيضاح بعد إبهام، وأما للشرط والتفصيل، فالصدقة على السارق من أجل أن يستعف من سرقته، ، والتعبير "بلعل" يفيد الرجاء، ترغيبًا للسارق في التوبة، وزيادة السين والتاء في يستعف تدل على أن السارق أو الزانية في توبتهما يحتاجان إلى مزيد من الإرادة والجهد ومقاومة إغواء الشياطين من الإنس والجن؛ وتصدقه على الغني فيه درس له حتى يعتبر. وينفق مما آتاه الله، وتكرار لعل ثلاث مرات يوحي بالترغيب ورجاء التوبة لهؤلاء

الناس، وتكرار قوله: فأصبحوا يتحدثون ثلاث مرات: يدل على أن العامة لا تفقه أسرار المواقف ولا مقاصدها، وتفسير المواقف، وقبول الصدقات، أعظم درس لهؤلاء المرجفين المتقولين.. والله أعلم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- في الحديث دلالة على أن الصدقة كانت عندهم مختصة بأهل الحاجة من أهل الخير، ولهذا تعجبوا من الصدقة على الأصناف الثلاثة[١].

٢- أن نية المتصدق إذا كانت صالحة قبلت صدقته ولو لم تقع الموقع المراد[٢].

٣- فضل صدقة السر، واستحباب إعادة الصدقة إذا لم تقع الموقع المراد[٣].

٤- ذم التضجر بالقضاء، وبركة التسليم والرضا[٤].

٥- ثبوت الثواب في الصدقة وإن كان الآخذ فاسقًا وغنيًا، وهذا في صدقة التطوع، أما الزكاة فلا يجزى دفعها إلى غني[٥]. وذلك إذا دفعها إلى الغني بدون تحرٍ، أمّا إذا كان بعد التحري، وظهر أن المدفوع إليه غنيٌ، فهناك خلاف بين الفقهاء في الإجزاء عنه أو إعادة التصدق، فهناك من ذهب إلى الإجزاء، وهو قول لأبي حنيفة ومحمد بن الحسن، وقول للشافعي. أما أبو يوسف فله قولان قول بالإجزاء وقول بلزوم الإعادة.

وهناك من ذهب إلى عدم الإجزاء وهم المالكية. على حين أن الشافعية والحنابلة عندهم روايتان: الإجزاء وعدمه[٦].

---

(١) فتح الباري ٣/٣٥٥.

(٢) فتح الباري ٣/٣٥٥.

(٣) فتح الباري ٣/٣٥٥.

(٤) فتح الباري ٣/٣٥٥.

(٥) بدائع الصنائع ٢/٤٩، وحاشية الدسوقي ١/٤٩٠، وأسنى المطالب ١/٣٩٣، ومطالب أولي النهى ٢/٢٠٢، وشرح صحيح مسلم ٧/١١٠، ٩/١٩٧.

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية ١٠/١٩٣-١٩٤ ومراجعها ومصادرها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل النية الحسنة في الأعمال.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: إعانة أهل المعاصي على طاعة الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على بذل الصدقة.

رابعًا: من آداب المدعو: حمد الله على كل حال.

أولاً - من موضوعات الدعوة: فضل النية الحسنة في الأعمال:

يظهر ذلك من عموم الحديث، حيث إن الرجل تصدق على سارق وزانية وغني، وهؤلاء لا تجوز عليهم الصدقة، ولكن بسبب حسن نيته قبلت صدقته.

قال ابن حجر: (وفيه أن نية المتصدق إذا كانت صالحة قبلت صدقته ولو لم تقع الموقع)[1].

وقال ابن عثيمين: (ففي هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا نوى الخير وسعى فيه وأخطأ؛ فإنه يكتب له، ولا يضره، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إذا أعطى زكاته من يظنه من أهل الزكاة فتبين أنه ليس من أهلها؛ فإنها تجزئه، مثلاً رأيت رجلاً عليه ثياب رثّة تحسبه فقيرًا فأعطيته الزكاة، ثم تحدث الناس أنه غني عنده أموال كثيرة، فهل تجزئك الزكاة؟ الجواب: نعم، تجزئه الزكاة، لأنه قيل لهذا الرجل: أما صدقتك فقد قبلت، وكذلك إذا أعطيتها غيره ممن ظننته مستحقًا ولم يكن كذلك، فإنها تجزئك[2]. وذلك بسبب حسن النية.

وقد قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى))[3]، قال ابن رجب قال في رواية حنبل: أحب لكل من عمل عملاً من صلاة، أو صيام، أو صدقة، أو نوع من أنواع البر، أن تكون النية متقدمة في ذلك قبل الفعل، قال

---

(١) فتح الباري ٣/٣٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٨٩٧، ١٨٩٨.

(٣) أخرجه البخاري ١، ومسلم ١٩٠٧.

النبي ﷺ: "الأعمال بالنيات" فهذا يأتي على كل أمر من الأمور[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: إعانة أهل المعاصي على طاعة الله:

يظهر ذلك في قول أبي هريرة رضي الله عنه عن الرجل الذي تصدق على السارق والزانية والغني: "فأُتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها تستعف عن زناها، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله".

قال الطيبي: (قوله "فأُتي" أي فأرى في المنام[٢]. فلعل السارق يستعف عن السرقة فيقول هذا مال يكفيني، ولعل الزانية تستعف عن الزنا -لأنها ربما كانت تزني-والعياذ بالله ابتغاء المال وقد حصل لها ما يكفيها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما آتاه الله[٣].

فالصدقة على هؤلاء العصاة قد تكون سببًا في هدايتهم، فيكون لصاحبها ثواب الهداية، لأنه أعان على طاعة الله، قال ﷺ: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))[٤].

وإعانة أهل المعاصي على طاعة الله، والأخذ بأيديهم إلى الهداية، لها فضل عظيم، فقد قال رسول الله ﷺ: ((لأنْ يَهديَ اللهُ بكَ رجُلاً خَيرٌ لكَ من أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَم))[٥].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: الحرص على بذل الصدقة وعدم الشح والبخل:

يظهر ذلك قوله ﷺ: "قال رجل لأتصدقن بصدقة... الخ الحديث".

فهذا الرجل كأنه رأى أن صدقته الأولى على السارق وصدقه الثانية على زانية لم تقبل فتصدق "فوقعت في يد غني" والغني ليس من أهل الصدقة، بل من أهل الهبة والهدية، وقد كان يريد أن تقع صدقته في يد فقير متعفف نزيه، ولكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا، فقيل له: "إن صدقتك قد قبلت" لأنه مخلص قد نوى خيرًا لكنه لم يتيسر له[٦].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٦٤/١.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٨٥/٤.

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٨٩٧/٢.

(٤) أخرجه مسلم برقم ١٨٩٣.

(٥) أخرجه البخاري ٢٩٤٢، ٣٠٠٩، ومسلم ٢٤٠٦.

(٦) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٨٩٧/٢.

فتكرار تصدق هذا الرجل يدل على حرصه على بذل الصدقة -وبعده عن الشح والبخل- لما لها من فضل وثواب قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: ((مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ من كسْبٍ طيّب . ولا يَقبلُ الله إلاّ الطيِّبَ . فإنَّ اللّهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمَّ يُرَبِيِّهَا لصاحبها كما يربِّي أحَدُكم فَلُوَّهُ، حتى تكونَ مِثْل الجبلِ))[2].

فينبغي على المسلم أن يحرص على بذل الصدقة وأن يبعد عن الشح والبخل. قال رسول الله ﷺ: ((واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم))[3]. فالبخل من مساوئ الأخلاق، ومن المخلات بالدين والمروءة، وهو مما يجلب الشقاء لصاحبه في الدنيا والآخرة فينبغي البعد عنه[4].

رابعًا - من آداب المدعو: حمد الله على كل حال:

يظهر في قول الرجل الذي تصدق: "اللهم لك الحمد...". وقوله "اللهم لك الحمد على سارق، وعلى زانية، وعلى غني...".

قال ابن حجر: (والذي يظهر أنه سلم وفوض ورضي بقضاء الله فحمد الله على تلك الحال، لأنه المحمود على جميع الحال، لا يحمد على مكروه سواه، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا رأى ما لا يعجبه قال: ((الْحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حالٍ))[5])[6].

قال ابن عثيمين: وكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا أصابه ما يسره قال: (الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات)[7].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

(٢) أخرجه البخاري ١٤١٠، ٧٤٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٤) سوء الخلق: مظاهره - أسباب - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٣٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٦).

(٦) فتح الباري ٣/٣٤١.

(٧) أخرجه ابن ماجه ٣٨٠٣ وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٠٦٦).

وإذا أصابه خلاف ذلك قال "الحمد لله على كل حال" والإنسان لاشك في أنه في هذه الدنيا يومًا يأتيه ما يسره، ويومًا يأتيه ما لا يسره، فإن الدنيا ليست باقية على حال وليست صافية من كل وجه، بل صفوها مشوب بالكدر - نسأل الله أن يكتب لنا ولكم بها نصيبًا للآخرة- لكن إذا أتاك ما يسرك فقل "الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات" وما يسوءك فقل "الحمد لله على كل حال"[1].

(١) انظر: شرح رياض الصالحين ٢/١٨٩٧.

الحديث رقم (١٨٦٨)

١٨٦٨- وعنه، قَالَ: كنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي دَعْوَةٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً وقال: ((أنا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاس مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيقُولُ[1] النَّاسُ: ألاَ تَرَوْنَ مَا أنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ، ألاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأتُونَهُ فَيقُولُونَ: يَا آدَمُ أنْتَ أبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وامَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وأسْكَنَكَ الجَنَّةَ، ألاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا؟ فَقَالَ: إنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأتُونَ نوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أنْتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أهلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، ألاَ تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا، ألاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فَيقُولُ: إنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إبْرَاهِيمَ، فَيَأتُونَ إبْرَاهِيمَ فَيقُولُونَ: يَا إبْرَاهِيمُ، أنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيقُولُ لَهُمْ: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذَبَاتٍ[2]؛ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، ألاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فيقُولُ[3]: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ

---

(١) عندهما زيادة: (بعض)، وكذا عند الحميدي.

(٢) عند الحميدي بعدها: (فذكرها أبو حيان يحيى بن سعيد بن حيان في الحديث).

(٣) عند الحميدي زيادة: (لهم).

قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي؛ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ -وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا- نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ[1])).

وفي روايةٍ[2]: ((فَيَأْتُونِي. فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أحدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ)).

ثُمَّ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى[3])) متفق عَلَيْهِ[4].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

فنهس منها نهسة: أخذ منها بأطراف أسنانه[5].

---

(١) عند الحميدي بعدها زيادة: (فيأتون محمدًا).

(٢) قال الحميدي: (وفي رواية محمد بن بشر).

(٣) وزاد الحميدي: (في كتاب البخاري: كما بين مكة وحمير).

(٤) أخرجه البخاري ٣٣٤٠، و٤٧١٢، ومسلم ١٩٤/٣٢٧. والسياق للحميدي في جمعه ١٦٤/٣ رقم ٢٣٨٨.

(٥) فتح الباري، ٤٢٩/٦، واللسان في (ن هـ س).

صعيد واحد: أي: في أرض واسعة مستوية[١].

من يشفع لكم: من يتوسل إلى الله لكم[٢].

من محامده: من الثناء الذي يختص به ولا يجاوزه[٣].

المصراعان: جانبا الباب[٤].

هجر: مدينة، وهي قاعدة البحرين - قديما-، وقيل ناحية البحرين كلها هجر، وهي اليوم (الأحساء)[٥].

بُصْرَى: مدينة اليوم في جنوب سورية فتحت سنة ١٣هـ[٦].

الشرح الأدبي

من فضائل النبي الهادي محمد ﷺ أنه صاحب لواء الحمد، وأنه سيد الأولين والآخرين يوم القيامة، وأنه ﷺ أول شافع، وأول مشفّع، أي مقبول الشفاعة.

وهذا الحديث يُقدم الأدلة والشواهد على أن محمدًا ﷺ سيد الناس يوم القيامة، وليس هذا افتخارًا... ولكنه حقيقة مؤكدة، وقد نفى رسول الله ﷺ الفخر عن نفسه ثلاث مرات في الحديث المذكور أعلاه، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث نجدها متعددة ومنها:

١ - الجمع بين الأسلوب الخبري والإنشائي في بداية الحديث: أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون مم هذا؟ والاستفهام هنا لإقامة الأدلة على أنه سيد الناس، وجاء في الجواب مباشرة عن طريق الاستئناف وذكر مبررات السيادة، ومعايير الأفضلية بعد عرض بعض مشاهد يوم القيامة ومنها: وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢٣٧.

(٢) الوسيط في (ش ف ع).

(٣) المفصح المفهم، ١٠٧.

(٤) الوسيط في (ص ر ع).

(٥) أطلس الحديث النبوي ٦٢، ٣٦٥.

(٦) أطلس الحديث النبوي ٦٨.

٢ - تكرار الاستفهام كثيرًا، وهذا التكرار يدل على الحيرة والرغبة في النجاة من عناء يوم القيامة.

وقد تكرر الاستفهام مرتين في سياق عرض مشاهد يوم القيامة (ألا ترون ما أنتم فيه؟، ألا تنظرون من يشفع لكم؟).

ويتكرر مرتين كذلك في سياق طلب الشفاعة من آدم عليه السلام (ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟

ويتكرر الاستفهام ثلاث مرات في سياق طلب الشفاعة من نوح عليه السلام حيث يقولون: ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ولنلاحظ تكرار العبارات على لسان طالبي الشفاعة: والتكرار يؤكد حرصهم على أن يحظوا بالشفاعة لتنقذهم من عناء يوم القيامة وأهواله.

وفي سياق طلب الشفاعة لإبراهيم عليه السلام يأتي الاستفهام مرة واحدة، وطلب الشفاعة يجيء في صيغة الأمر وهو التماس وليس أمرًا حقيقيًا، والأسلوب نفسه يكون في سياق طلب الشفاعة من موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام وتتكرر العبارة نفسها: ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ وكذلك في سياق طلب الشفاعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي مرة واحدة بالصيغة التي وردت على لسانهم مع الأنبياء السابقين: ألا ترى إلى ما نحن فيه؟

٣ - التأكيد وتكرار بعض الكلمات والعبارات التي تصور الهلع والفزع والمعاناة، وترشد إلى حاجتهم القصوى إلى الشفاعة، ومن هذا التكرار: تكرار النداء في خطاب كل نبي يطلبون منه الشفاعة.

وتكرار الجملة التي تؤهل لعدم قبول الشفاعة من الأنبياء السابقين: فكل منهم قال: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فقد تكررت هاتان العبارتان خمس مرات، وكل منها مرتبطة بتصرف يمنع النبي من الشفاعة (آدم - نوح - إبراهيم - موسى - عيسى).

وكذلك تكرار جملة: "اذهبوا إلى غيري" خمس مرات، وكلمة نفسي تكررت خمس عشرة مرة، مع كل نبي، ثلاث مرات، وهذا التكرار يوحي بشدة يوم القيامة

حتى على الأنبياء، وكل منهم يريد النجاة والفوز بالجنة، ورسول الله ﷺ يكرر قوله: "أمتي يا رب" ثلاث مرات، فيقبل الله شفاعته حيث يقول له: ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع، وفي رواية: وقل تسمع، واشفع تشفع.. ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إجابة الدعوة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ أنه سيد الناس يوم القيامة.

ثالثًا: من فقه الداعية: تعليل الأحكام والبيان والتوضيح للمدعوين.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: جمع الله جميع البشر يوم القيامة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: من أهوال يوم القيامة دنو الشمس والغم والكرب الذي يصيب الناس.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: حاجة الناس للشفاعة عند الله تعالى يوم القيامة.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: طلب الناس الشفاعة من آدم والأنبياء عليهم السلام.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: بيان شفاعة النبي ﷺ.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: رحمة الله تعالى وقبوله لشفاعة النبي ﷺ لأمته يوم القيامة.

عاشرًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على الأمة الإسلامية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إجابة الدعوة:

يظهر في قول أبي هريرة رضي الله عنه: "كنا مع رسول الله ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع...".

وهذا يدل على إجابة النبي ﷺ للدعوة، فالدعوة مشروعة لإحياء المودة بين المسلمين ومزيد التآلف[1].

وقال النبي ﷺ: «لو دُعيتُ إلى كُراعٍ[2] لأجَبْتُ، ولو أُهْديَ إلي كراع لَقبِلْتُ»[3].

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٠/٣٣٨.

(٢) الكراع: ما دون الكعب من الدواب، انظر: فتح الباري ٩/١٥٤.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٧٨.

وقد جعل الإسلام إجابة الدعوة حقًا من حقوق المسلم على أخيه المسلم نظرًا لأهميتها، وحث على تلبيتها. قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ المسلمِ على المسلمِ خَمسٌ: ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وتشميتُ العاطِسِ»[1]. فينبغي على المسلم إجابة الدعوة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: بيان النبي ﷺ أنه سيد الناس يوم القيامة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "أنا سيد الناس يوم القيامة"، قال القرطبي: (وقوله: أنا سيد الناس" أي المقدم عليهم، والسيد: هو الذي يسود قومه، أي: يفوقهم بما جمع من الخصال الحميدة، بحيث يلجؤون إليه، ويعولون عليه في مهماتهم. قال الشاعر:

فإنْ كُنْتَ سَيِّدَنا سُدْتَنا وإن كُنْتَ للخالِ فاذْهبْ فَخُلْ

وقد تحقق كمال تلك المعاني كلها لنبينا محمد ﷺ في ذلك المقام، الذي يحمده ويغبطه فيه الأولون والآخرون، ويشهد له بذلك النبيون والمرسلون. وهذه حكمة عرض الشفاعة على خيار الأنبياء، فكلهم تبرأ منها ودل على غيره إلى أن بلغت محلها، واستقرت في نصابها[2].

قال ابن حجر: قوله: "أنا سيد الناس يوم القيامة" خصه بالذكر لظهور ذلك له يومئذ، حيث تكون الأنبياء تحت لوائه ويبعثه الله المقام المحمود [3]. وإنما قال هذا تحدثًا بنعمة الله تعالى، وقد أمره الله تعالى بهذا فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[4]. ونصيحة لنا بتعريفنا حقه ﷺ فهو من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوا، ويعملوا بمقتضاه في توقيره ﷺ كما أمرهم الله تعالى به[5].

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢

(٢) المفهم ٤٢٦/١.

(٣) فتح الباري ٤٢٩/٦.

(٤) سورة الضحى، آية: ١١.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم ٢٣٧، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣٥٥/١٠.

قال النووي: قال القاضي عياض: قيل السيد الذي يفوق قومه والذي يفزع إليه في الشدائد، والنبي ﷺ سيدهم في الدنيا والآخرة. معناه أنه: يظهر يوم القيامة سؤدده بلا منازع ولا معاند، بخلاف الدنيا فقد نازعه فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين، وهو قريب من معنى قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[١]، مع أن الملك له قبل ذلك، لكن كان في الدنيا من يدعى الملك، أو من يضاف إليه مجازًا، فانقطع كل ذلك في الآخرة. وفي الحديث دليل على فضيلته ﷺ على كل الخلق؛ لأن مذهب أهل السنة أن الآدمي أفضل من الملائكة، وهو عليه الصلاة والسلام أفضل الآدميين بهذا الحديث وغيره[٢].

ثالثًا – من فقه الداعية: تعليل الأحكام والبيان والتوضيح للمدعوين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون مم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ... "إلخ الحديث.

فذكر رسول الله ﷺ تعليل قوله : "أنا سيد الناس يوم القيامة"، وبين ووضح ذلك.

وقال ابن القيم : ينبغي للمفتي أن يذكر دليل الحكم ومأخذه ما أمكنه من ذلك، ولا يلقيه إلى المستفتي ساذجًا مجردًا عن دليله ومأخذه، فهذا الضيق عطنة وقلة بضاعته من العلم، ومن تأمل فتاوى النبي ﷺ الذي قوله حجة بنفسه، رآها مشتملة على التنبيه على حكمة الحكم ونظيره، ووجه مشروعيته.

ومن ذلك قوله: "إن الله ورسولَهُ يَنهَيانكم عن لحوم الحمر الأهلية. فإنها رِجْس"[٣]، ومن ذلك قوله في الثمرة الجائحة: «أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ فَبِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؟»[٤]. فذكر علة النهى.

---

(١) سورة غافر، آية: ١٦ .

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم ٢٣٧، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠/٢٣٨-٢٣٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٢٨، ومسلم ١٩٤٠.

(٤) أخرجه البخاري ٢١٩٨، ومسلم ١٥٥٥.

والمقصود أن الشارع مع كون قوله حجة بنفسه يرشد الأمة إلى علل الأحكام ومداركها وحكمها، فورثته من بعده كذلك. فينبغي للمفتي أن ينبه السائل إلى علة الحكم ومأخذه إذ عرف ذلك، وإلا حرم عليه أن يفتى بلا علم.

وكذلك أحكام القرآن يرشد سبحانه فيها إلى مداركها وعللها وذلك كقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[1]،[2].

فينبغي على الداعية أن يعلل الأحكام، وأن يبين ويوضح للمدعوين الحكمة من قوله، حتى يعلموا حقيقة قوله وأصله من الدين.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: جمع الله جميع البشر يوم القيامة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "يَجمعُ الله الأولينَ والآخرينَ في صَعيدٍ واحد، فيُبصرُهُم الناظرُ، ويُسْمِعهم الداعي"، فيوم الحشر: هو الجمع.

فبعد البعث إلى الحياة الأخرى يوم القيامة يتم حشر جميع البشر لموقف الحساب، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[3].

قال ابن كثير: أي: أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة، لا نغادر منهم أحدًا كما قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾[4].

ولهذا قال ههنا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[5]. أي: هو موقت محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص[6].

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم، ٨٧٠-٨٧١.

(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩-٥٠.

(٤) سورة هود، الآيات: ١٠٣-١٠٥.

(٥) سورة الواقعة، آية: ٥٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٥٣٨/٧.

قال القرطبي: (وقوله: "فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر" معناه": أنهم مجتمعون مهتمون بما هم فيه، لا يخفى منهم أحد، بحيث إن دعاهم داع سمعوه، وإن نظر إليهم ناظرٌ أدركهم. ويحتمل أن يكون الداعي هو الذي يدعوهم إلى العرض والحساب أو أمر آخر، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾[1])[2].

قال ابن عثيمين: (يجمعون في صعيد واحد والأرض يومئذ ممدودة ليست كهيئتها اليوم كروية لا ترى -إذا مددت بصرك- لا ترى إلا ما يواجهك من ظهرك فقط، أما يوم القيامة فإن الأرض تمد مد الجلد وليس فيها جبال ولا أودية ولا أنهار ولا بحار، تمد مدًا واحدًا والعالم فيها، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر - يعني لو تكلم الإنسان يسمعهم آخر واحد - والبصر ينفذهم، يراهم، لأنه ليس بها تكور حتى يغيب بعض عن بعض ولكن كلهم في صعيد واحد[3].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: من أهوال يوم القيامة دنو الشمس والغم والكرب الذي يصيب الناس:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون".

فالحشر للحساب يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4] .

أي: يقومون حفاة عراه غرلاً، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله – ما تعجز القوى والحواس عنه[5].

---

(١) سورة القمر، آية: ٦ .

(٢) المفهم ٤٢٧/١.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٨٩٩/٢.

(٤) سورة المطففين، آية: ٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٣٤٧/٨.

فالشمس تدنو من الخلق مقدار ميل مع ما يصيب الناس من شدة يتفاوت بمقدار تفاوت أحوال الموقف[١]. فعن المقداد بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تُدْنَى الشمسُ يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه"[٢]. فيوم القيامة يوم عظيم الفزع والهول كما قال تعالى: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾[٣]، فمن شدة أهواله يصيب الناس الغم والكرب.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: حاجة الناس للشفاعة عند الله تعالى يوم القيامة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم..." .

فإن يوم القيامة يوم عسير، فيه الكثير من الأهوال والصعاب التي يلاقيها الناس فيه، فيكونون في حاجة للشفاعة عند الله، لأن الله يغضب غضبًا شديدًا في هذا اليوم.

قال النووي: المراد بغضب الله تعالى ما يظهره من انتقامه ممن عصاه، وما يرونه من أليم عذابه، وما يشاهده أهل المجمع من الأهوال التي لن تكن ولا يكون مثلها، ولاشك في أن هذا كله لم يتقدم قبل ذلك اليوم مثله، ولا يكون بعده مثله، فهذا معنى غضب الله تعالى[٤].

قال ابن هبيرة: في قول آدم عليه السلام والأنبياء ﷺ -كل واحد منهم- إن ربي غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة، ٦٥٦.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٦٤.

(٣) سورة المزمل، آية: ١٧.

(٤) شرح صحيح مسلم ٢٣٧.

وهذا فلا أراه إلا عن علم قد كان عنده منه، وعند الأنبياء كلهم حتى قالوه. ولا أراه إلا من حيث إن الله تعالى لما أمهل الخلائق، وأخر انتصار المظلوم مع تكرار استصراخه به سبحانه، وأمهل الكافر مع جحده الحق وغمطه الصواب، وإرجائه سبحانه أهل النفاق على ما يسد الصبر عند كل محق، يتراخى استطالة الباطل عليه، فكان لاشتداد غضبه في ذلك اليوم بمقتضى طول إمهاله، وتضاعف سخطه بحسب اندفاع أخذه، حتى ظن الكافرون أنهم مهملون أو مغفول عنهم.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[١][٢].

فالناس في حاجة لمن يشفع لهم عند ربهم حتى يرتاحوا من عناء هذا اليوم.

سابعًا- من موضوعات الدعوة: طلب الناس الشفاعة من آدم والأنبياء عليهم السلام:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فيقول بعض الناس أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك بيده ... إلى قول عيسى عليه الصلاة والسلام: "إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ".

قال ابن عثيمين: فالناس في ذلك اليوم تدنو الشمس منهم، ويلحقهم الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فتضيق بهم الأرض، ويطلبون الشفاعة لعل أحدًا يشفع فيهم عند الله – جل وعلا- ينقذهم من هذا الموقف العظيم على الأقل، يلهمهم الله عز وجل أن يأتوا إلى آدم أبي البشر فيأتون إليه ويبينون فضله: لعله يشفع لهم عند الله عز وجل..

فيعتذر ويقول: "إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله ولن يغضب مثله قط"، ثم يذكر خطيئته: إن الله سبحانه تعالى نهاه أن يأكل من شجرة فأكل، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] شجرة في الجنة لا ندري ما هذه الشجرة ولا

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح ٦/٤٣٥.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩.

نوعها ولا كبرها ولا صغرها، شجرة أبهمها الله، فعلينا أن نؤمن بها مبهمة، نهى آدم أن يأكل منها، وبين له أنه إذا أكل منها هو وزوجه فإنهما يكونان من الظالمين، ولكن عدوهما الشيطان دلاهما بغرور ووسوس لهما وقاسمهما: إني لهما من الناصحين، فغرهما ونسي آدم ما عهده إلى الله عز وجل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[١]، نسي وأكل من الشجرة فعوقب بأن أخرج من الجنة إلى الأرض لحكمة يريدها الله عز وجل، فيذكر معصيته ويقول: "نفسي نفسي" يعني: عسى - أنقذ نفسي، ويؤكد ذلك ويكرره ثلاث مرات (اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح) ونوح هو الأب الثاني للبشرية، لأن الله أغرق جميع أهل الأرض الذين كذبوا نوحًا ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[٢]، ... فيأتون إلى نوح ويذكرون نعم الله عليه وأنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وأن الله سماه عبدًا شكورا، ولكنه يقول كما قال آدم في غضب الله عز وجل: "إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله قط ولن يغضب مثله"، ثم ذكر دعوته التي دعا بها على قومه: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[٣].

وفي رواية أنه يذكر دعوته التي دعا بها لابنه ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[٤]، يذكر ذنبه والشافع لا يشفع إلا إذا كان ليس بينه وبين المشفوع عنده ما يوجب الوحشة، والمعصية بين العبد وربه، توجب الوحشة بينهما وخجله منه، فيذكر معصيته ويقول: نفسي نفسي نفسي، ويحيلهم إلى إبراهيم عليه السلام فيأتي الناس إليه ويقولون: "أنت خليل الله في الأرض"، ويذكرون صفاته، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند ربه فيعتذر، ويقول: إنه كذب ثلاث كذبات، ويقول: نفسي نفسي نفسي.

---

(١) سورة طه، آية : ١٢١.

(٢) سورة هود، آية: ٤٠.

(٣) سورة نوح، آية: ٢٦.

(٤) سورة هود، الآيتان: ٤٥-٤٦.

والكذبات: هى قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[1]، وهو ليس بسقيم، لكنه قال متحديًا لقومه الذين يعبدون الكواكب.

والثانية: قوله للملك الكافر "هذه أختي" يعني زوجته ليسلم وهى ليست كذلك.

والثالثة: قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾[2] أى الأصنام.

هذه كذبات في ظاهر الأمر، لكنها في الحقيقة وبمناسبة تأويله ﷺ لم تكن كذبات، لكنه لشدة ورعه وحيائه من الله – تبارك وتعالى – اعتذر لهذا الإثم، ويقول (نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى)، ويذكرون من صفاته وأن الله تعالى كلمه تكليمًا واصطفاه على أهل الأرض برسالاته وكلامه فيذكر ذنبًا فيعتذر، يذكر أنه قتل نفسًا قبل أن يؤذن له في قتلها، وهو القبطي الذي كان في خصام مع رجل من بني إسرائيل، وموسى من بني إسرائيل ﷺ والقبطي من أهل فرعون ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[3]. دون أن يؤمر بقتله، فرأى ﷺ أن هذا يحول مما يحول بينه وبين الشفاعة للخلق حيث قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، وقال: (نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى، ويذكرون منه مِنَّة الله عليه، أنه نفخ فيه من روحه وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، لأنه عيسى ﷺ خلق بلا أب، فلا يذكر ذنبًا[4]. ولكن يذكر لهم غضب الله في ذلك اليوم ويقول نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى محمد ﷺ ويحيلهم إليه ﷺ.

ثامنًا– من موضوعات الدعوة: بيان شفاعة النبي ﷺ:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم

---

(١) سورة الصافات، آية: ٨٩.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٦٣.

(٣) سورة القصص، آية: ١٥.

(٤) انظر: رياض الصالحين ١٨٩٩/٢-١٩٠١.

الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ... إلخ الحديث.

فيشفع لهم رسول الله ﷺ عند ربه بعد اعتذار الأنبياء لهم عن الشفاعة وإحالة عيسى عليه الصلاة والسلام لهم إلى رسول الله ﷺ.

قال ابن عثيمين: وهذا شرف عظيم لرسول الله ﷺ حيث كان أربعة من الأنبياء يعتذرون بذكر ما فعلوه، وواحد لا يعتذر بشيء، ولكن يرى أن محمدًا ﷺ أولى منه، فيأتون إلى رسول الله ﷺ فيقبل ذلك، ويجلس تحت العرش ويفتح الله عليه من المحامد والثناء على الله ما لم يفتحه على أحد غيره ثم يقال له: "ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفع"، فيشفع ﷺ يقول: يارب أمتي أمتي. فيتقبل الله شفاعته ويقال له أدخل أمتك من الباب الأيمن من الجنة، وهم شركاء مع الناس في بقية الأبواب، وهذه فيها دلالة ظاهرة على أن النبي ﷺ أشرف الرسل، والرسل هم أفضل الخلق كما قال عز وجل: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1]، هؤلاء هم الأصناف الأربعة الذين هم أفضل الخلق، والنبي ﷺ أفضلهم[2].

قال القرطبي: (وقوله: "فأقول يارب أمتي، فيقال: يامحمد أدخل الجنة من أمتك مَن لا حساب عليه") هذا يدل على أنه شفع فيما طلبه من تعجيل حساب أهل الموقف، فإنه لما أُمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم، ولذلك قال في الرواية الأخرى: "فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط" هذا المساق أحسن من مساق حديث معبد عن أنس، فإنه ذكر فيه عقيب استشفاعه لأهل الموقف: أنه أجيب بشفاعته لأمته، وليست الشفاعة العامة التي طلب منه أهل الموقف، وكأن هذا الحديث سكت فيه عن هذه الشفاعة، فذكرت

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٩٠١.

شفاعته لأمته؛ لأن هذه الشفاعة هي التي طلبت من أنس أن يحدث بها في ذلك الوقت، وهي التي أنكرها أهل البدع، والله أعلم)[١].

قال ابن رجب: وأما الشفاعة التي اختص بها النبي ﷺ من بين الأنبياء، فليست هى الشفاعة في خروج العصاة من النار؟ فإن الشفاعة يشارك فيها الأنبياء والمؤمنون -أيضًا- كما تواترت بذلك النصوص، وإنما الشفاعة التي يختص بها دون الأنبياء أربعة أنواع:

أحدها: شفاعته للخلق في فصل القضاء بينهم.

والثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخول الجنة.

والثالث: شفاعته في أهل الكبائر من أهل النار، فقد قيل: إن هذه يختص هو بها.

والرابع: كثرة من يشفع له من أمته؛ فإنه وفر شفاعته وادخرها إلى يوم القيامة.

وقد ورد التصريح بأن هذه الشفاعة هى المرادة في هذا الحديث، ففي الحديث الذي خرجه الإمام أحمد[٢] من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: "أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن نبي كان قبلي"، فذكر الحديث إلى أن قال: "والخامسة هى ما هى: قيل لي سل؛ فإن كل نبي قد سأل، فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله".

فإن كل نبي أعطي دعوة عامة شاملة لأمته، فمنهم من دعا على أمته المكذبين له فهلكوا، ومنهم من سأل الله كثرتهم في الدنيا كما سأله سليمان عليه السلام، واختص النبي ﷺ بأن ادخر تلك الدعوة العامة الشاملة لأمته شفاعة لهم يوم القيامة[٣].

وقد ذكر بعضهم: شفاعة خامسة خاصة بالنبي ﷺ وهي: شفاعته في تخفيف عذاب بعض المشركين، كما شفع لعمه أبي طالب، وجعل هذا من الشفاعة المختص بها ﷺ.

---

(١) المفهم ٤٣٧/١.

(٢) اخرجه أحمد في مسنده ٢٢٢/٢، برقم ٧٠٦٨، وقال محققو المسند: صحيح ٦٣٩/١١.

(٣) انظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد ط/٢، دار ابن الجوزي: ١٤٢٢هـ، ٢٢/٢-٢٣.

وزاد بعضهم: شفاعة سادسة خاصة بالنبي ﷺ وهي شفاعته في سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ. وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[2].

قال القرطبي: (وقوله: "وأول شافع، وأول مشفع") قد تقدم القول في الشفاعة وأقسامها، ومقصود هذا الحديث أن يبين أنه لا يتقدمه شافع؛ لا من الملائكة، ولا من النبيين، ولا من المؤمنين، في جميع أقسام الشفاعات، على أن الشفاعة العامة لأهل الموقف خاصة لا تكون لغيره. وهذه المنزلة أعظم المراتب وأشرف المناقب، وهذه الخصائص والفضائل التي حدث بها النبي ﷺ عن نفسه؛ إنما كان ذلك منه لأنها من جملة ما أُمر بتبليغه؛ لما يترتب عليها من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حق في نفسه، وليرغب في الدخول في دينه، وليتمسك به من دخل فيه، وليعلم قدر نعمة الله عليه في أن جعله من أمة من هذا حاله، ولتعظم محبته في قلوب متبعيه، فتكثر أعمالهم، وتطيب أحوالهم، فيحشرون في زمرته، وينالون الحظ الأكبر من كرامته. وعلى الجملة فيحصل بذلك شرف الدنيا، وشرف الآخرة؛ لأن شرف المتبوع متعد لشرف التابع على كل حال - فإن قيل: كل هذا راجع للاعتقاد، وكيف يحصل القطع بذلك من أخبار الآحاد؟ فالجواب: أن من سمع شيئًا من تلك الأمور من النبي ﷺ مشافهة حصل له العلم بذلك، كما حصل للصحابة السامعين منه، ومن لم يشافهه، فقد يحصل له العلم بذلك من جهة التواتر المعنوي؛ إذ قد كثرت بذلك الظواهر، وأخبار الآحاد، حتى حصل لسامعها العلم القطعي بذلك المراد[3].

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: رحمة الله تعالى وقبوله لشفاعة النبي ﷺ لأمته يوم القيامة:

يستنبط هذا من قبول المولى عز وجل لشفاعة نبيه محمد ﷺ في أمته إكرامًا له

---

(١) المرجع السابق ٢/٢٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٣) المفهم ٦/٤٩.

ورحمة منه تعالى للأمة الإسلامية. والرحمة صفة من صفات الله عز وجل قال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾(١). وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾(٢).

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة(٣)، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله لما خلق الخلق، كتب كتابًا عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي"(٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ للّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ. فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ. وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٥).

قال النووي: هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين، قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار المبنية على الأكدار، والإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به، فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهي: دار القرار ودار الجزاء(٦).

عاشرًا – من موضوعات الدعوة: فضل الله على الأمة الإسلامية:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث إن الله سبحانه وتعالى جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم يوم القيامة، وجعله الشفيع عنده تعالى لأمته، وفضل الله على الأمة الإسلامية، يتمثل في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليها وهو رسول الرحمة كما قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(٧)، أي أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٤٢/٣.

(٤) أخرجه البخاري ٧٤٢٢، ومسلم ٢٧٥١.

(٥) أخرجه مسلم ٢٧٥٢.

(٦) شرح صحيح مسلم ١٦١١.

(٧) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة[١].

وقد أعطاه الله من الفضائل والشمائل ما لم يعطه لأحد من خلقه، واختصه بخصائص لم يختص بها أحدًا من رسله، ومن هذه الخصائص المقام المحمود والشفاعة لأمته عند الله يوم القيامة. ومحمد ﷺ هو النبي الوحيد الذي جاء وصفه بأنه رحيم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣].

فقد كان ﷺ رحيمًا بأمته مشفقًا عليهم، حتى أثر ذلك على حياته، وكادت نفسه تذهب حسرات على الذين لم يؤمنوا رحمة بهم وخوفًا عليهم، فقال تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[٥].

ويقول ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»[٦][٧].

فرسول الله ﷺ خير خلق الله، وأفضل الرسل والأنبياء، وإرساله إلى الأمة الإسلامية فضل عظيم من الله عليها في الدنيا والآخرة.

فينبغي معرفة نعمة الله على عباده بهذا النبي ﷺ ومن أعظم أسباب هذه المعرفة،

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٨٥/٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٨ .

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩ .

(٤) سورة فاطر، آية: ٨ .

(٥) سورة الكهف، آية: ٦ .

(٦) أخرجه مسلم ٢٣٥٥.

(٧) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٣١٧، ٣١٨.

التفكر في النفع الحاصل لهذه الأمة بسبب بعثة النبي ﷺ فيها ونزول القرآن عليه.

وأنه سبب نجاة هذه الأمة في الدنيا والآخرة، وأن كل خير وعز وسعادة حصلت لهذه الأمة، أو يقدر لها أن تحصل، فلسبب اتباعه.

وأن كل بلاء حصل لهذه الأمة أو سيحصل، فسببه مخالفة ما جاء به من عند ربه، وحتى تكتمل هذه المعرفة، يتخيل الإنسان كيف سيكون حال هذه الأمة لو لم يبعث فيها رسول الله ﷺ وكيف كان حالها قبل مبعثه ﷺ ثم كيف أصبح حالها بعد بعثته ونزول القرآن عليه، وكيف أن الله جمع به بعد فرقة، ورفع به شأن هذه الأمة، وأخرجها به من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١][٢].

فإرساله ﷺ رحمة مهداة، ونعمة مسداة، وخير عظيم خص الله به المسلمين، ويتعدى هذا الخير غير المسلمين في الدنيا والآخرة.

في الدنيا بعدم الهلاك - وذلك برفع العذاب العام عن أهل الأرض- وفي الآخرة بالشفاعة في فصل القضاء.

قال ابن القيم: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾[٣].

أصح القولين في هذه الآية: أنها على عمومها.

وفيها على هذا التقدير وجهان.

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته. أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦ .

(٢) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، الشيخ عبدالرؤوف محمد عثمان، ٦٣، ٦٤.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧ .

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة. وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته. وهم أقل شرًا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به، حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه: فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض. فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض[1].

---

(١) التفسير القيم، جمع محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، ص٣٦٤، ٣٦٥.

الحديث رقم (١٨٦٩)

١٨٦٩- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: جَاءَ إبراهيم ﷺ بِأُمِّ إسماعيلَ وَبابْنِهَا إسْمَاعِيل وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ البَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوقَ زَمْزَمَ فِي أعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا[1] جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إبْرَاهِيمُ، أيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهذَا الوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أنِيسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إلَيْهَا، قَالَتْ لَهُ: آللهُ أمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إذًا لاَ يُضَيِّعُنَا؛ ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إبْرَاهِيمُ ﷺ، حَتَّى إذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ[2] حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ إنِّي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧]. وَجَعَلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ يَتَلَوَّى - أوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ - فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أنْ تَنْظُرَ إلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِي تَنْظُرُ: هَلْ تَرَى أحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أحَدًا. فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إذَا بَلَغَتِ الوَادِي، رَفَعَت طَرفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِي، ثُمَّ أتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا، فَنَظَرَتْ: هَلْ تَرَى أحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابن عباس رضي الله عنهما: قَالَ النبيُّ ﷺ: ((**فَلِذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**))، فَلَمَّا أشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهْ - تُريدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أيضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أسْمَعْتَ إنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، فَإذَا هِيَ بِالمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ - أوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ.

---

(١) لفظ الحميدي: (عندها).

(٢) لفظ الحميدي: (البيت).

وفي رواية: بِقَدَرِ مَا تَغْرِفُ.

قَالَ ابن عباس رضي الله عنهما: قَالَ النبيُّ ﷺ: ((رَحِمَ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ – أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ – لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا)).

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هاهُنَا بَيْتًا للهِ يَبْنِيهِ هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وإنَّ اللهَ لاَ يُضَيِّعُ أهْلَهُ، وكان البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمٍ، أَوْ أهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمٍ مُقْبِلينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءَ، فَنَزَلُوا فِي أسْفَلِ مَكَّةَ؛ فَرَأَوْا طَائِرًا عائِفًا، فَقَالُوا: إنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بهذا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاء. فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالمَاءِ. فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ؛ فَأَقْبَلُوا وَأُمُّ إسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فقالوا: أتَأذَنِينَ لَنَا أنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ابن عباس: قَالَ النبيُّ ﷺ: ((فَألْفَى ذَلِكَ أُمَّ إسْمَاعِيلَ، وهي تُحِبُّ الأُنْسَ)) فَنَزَلُوا، فَأَرْسَلُوا إِلَى أهْلِهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ.

حَتَّى إِذَا كَانُوا بِهَا أهْلَ أبْيَاتٍ وَشَبَّ الغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأنْفَسَهُمْ وَأعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأةً مِنْهُمْ: وَمَاتَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إسْمَاعِيلَ؛ فَسَألَ امْرَأتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خرجَ يَبْتَغِي لَنَا – وفي روايةٍ[1]: يَصِيدُ لَنَا – ثُمَّ سَألَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ؛ وَشَكَتْ إلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ اقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءكُمْ مِنْ أحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءنا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَألَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَألَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أمَرَنِي أنْ أقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أبِي وَقَدْ أمَرَنِي أنْ أُفَارِقَكِ! الْحَقِي بِأَهْلِكِ. فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى.

---

(١) إبراهيم بن نافع.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَ عَنْهُ. قَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا قَالَ: كَيفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَت: الماءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ.

قَالَ النَّبيُّ ﷺ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ، قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ.

وَفِي رواية[١]: فجاء فقَالَ: أيْنَ إسْمَاعِيلُ؟ فقَالَتْ امْرأتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ؛ فقَالَتْ امْرأتُهُ: ألاَ تَنْزِلُ، فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ؟ قَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا المَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو القاسم ﷺ: بَرَكَةُ دَعوَةِ إبْرَاهِيمَ[٢].

قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ وَمُرِيهِ يُثَبِّتُ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أتاكُمْ مِنْ أحدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أتانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَألَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَألَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأخبَرْتُهُ أنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأوْصَاكِ بِشَيءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَيَأمُرُكَ أنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكَ أبِي، وأنْتِ العَتَبَةُ، أمَرَنِي أنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعدَ ذَلِكَ وإسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ. قَالَ: يَا إسْمَاعِيلُ، إنَّ اللهَ أمَرَنِي بِأمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أمَرَكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: وَتُعِينُنِي، قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أمَرَنِي أنْ أبْنِيَ بَيْتًا هاهُنَا، وأشَارَ إلَى أكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إسْمَاعِيلُ يَأتِي بِالحِجَارَةِ وَإبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحجارة وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧].

---

(١) إبراهيم بن نافع.

(٢) قال الحميدي بعد هذا: رجع إلى باقي الإسناد الأول.

وفي روايةٍ[١]: إنَّ إبْرَاهِيمَ خَرَجَ بإسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إسْمَاعِيلَ، مَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إبْرَاهِيمُ إلَى أهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءَ نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إبْرَاهِيمُ إلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إلَى اللهِ، قَالَتْ: رَضِيْتُ باللهِ، فَرَجَعَتْ وَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ وَيَدُرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ المَاءُ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أحَدًا. قَالَ: فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ احدًا، فَلَمْ تُحِسَّ أحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الوَادِي سَعَتْ، واتَتِ المَرْوَةَ، وَفَعَلَتْ ذَلِكَ اشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ الصَّبِيُّ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ، كَأنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ احَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ ونظرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أحَدًا، حَتَّى اتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإذَا هِيَ بِصَوْتٍ، فَقَالَتْ: أغِثْ إنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإذَا جِبْرِيلُ فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ بِعَقِبِهِ عَلَى الأرْضِ، فَانْبَثَقَ المَاءُ فَدَهِشَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفِنُ ... وَذَكَرَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ، رواه البخاريُّ[٢] بهذه الروايات كلها.

"الدَّوْحَةُ" الشجرة الكبيرة. قوله: "قَفَّى" أي: ولى. "والجَرِيُّ": الرسول، "وأَلْفَى" معناه: وجد. قوله: "يَنْشَغُ" أي: يشهق.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

دوحة: شجرة كبيرة[٣].

---

(١) في حديث أبي عامر عبد الملك بن عمرو العقديّ، عن إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(٢) بأرقام ٣٣٦٢- ٣٣٦٥. والسياق للحميدي في جمعه ٢/٨٦ – ٩١، رقم ١١١١، وكذا نقله عن الحميدي بهذا السياق ابن الأثير في جامع الأصول ١٠/٥٩٥.

(٣) رياض الصالحين ٦٣٦.

زمزم: البئر المباركة المشهورة، جنوب شرق مبنى الكعبة المشرفة[١].

جرابًا: وعاء[٢].

سقاء: وعاء من جلد يكون للماء واللبن وهو قربة صغيرة[٣].

قفى: وَلّى[٤].

الثَّنِيَّة: هي: الثنية العليا في مكة المكرمة (المعلاة اليوم) وهي بجانب الحجون[٥].

يتلبط: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض[٦].

الصَّفا: جبل قرب الكعبة يتم السعي بينه وبين المروة من وقف عليها كان بحذاء الحجر الأسود، وهذا المشعر بين الصفا والمروة، وهما جبلان بين بطحاء مكة المكرمة والمسجد، وكانت الصفا متصلة بجبل أبي قُبَيْس، فشقَّ بينهما مجرى للسيل عند توسعة الحرم الجديد[٧].

درعها: ما تلبسه فوق قميصها[٨].

المجهود: الذي أصابته المشقة والتعب[٩].

المروة: هي: جبيل صغير بالقرب من الكعبة يسعى الحاج بينه وبين جبل آخر اسمه الصفا[١٠].

أشرفت: علت وانتصبت ورفعت بصرها[١١].

---

(١) أطلس الحديث النبوي ٢٠٦.

(٢) الوسيط في (ج ر ب).

(٣) الوسيط في (س ق ي)، وينظر فتح الباري، ٤٦١/٦.

(٤) رياض الصالحين، ٦٣٦.

(٥) انظر: أطلس الحديث النبوي، ١٠٤.

(٦) فتح الباري، ٤٦٢/٦.

(٧) معجم لغة الفقهاء، ٢٤٥، أطلس الحديث النبوي، ٢٣٦.

(٨) معجم لغة الفقهاء، ١٨٥.

(٩) القاموس المحيط، والوسيط في (ج هـ د).

(١٠) معجم لغة الفقهاء، ٣٩٢، وأطلس الحديث النبوي، ٣٣٩.

(١١) الوسيط في (ش ر ف).

صه: كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتي[١].

غوّاث: أي إعانة ونصرة[٢].

فبحث بعقبه: فحفر بمؤخرة قدمه[٣].

تحوضه: تجعله مثل الحوض ليجتمع فيه الماء[٤].

وتقول بيدها هكذا: إشارة بيدها وهو حكاية فعلها[٥].

عينا معينا: ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض[٦].

الضيعة: أي: الهلاك[٧].

كالرابية: أي: المكان المرتفع[٨].

رفقة: هم الجماعة المختلطون سواء كانوا في سفر أم لا[٩].

جرهم: قبيلة قحطانية كانت تسكن اليمن، ثم هاجرت إلى الحجاز، وسكنت مكة المكرمة، وفدوا على إسماعيل وأمه هاجر وصاهرهم[١٠].

كداء: العقبة الصغرى بأعلى مكة عند المحصب، دار النبي ﷺ من طُوًى إليها[١١].

عائفًا: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه[١٢].

---

(١) فتح الباري، ٤٦٢/٦.

(٢) الوسيط في (غ و ث).

(٣) الوسيط في (ب ح ث)، و (ع ق ب).

(٤) فتح الباري، ٤٦٣/٦، وانظر: الوسيط في (ح و ض)

(٥) انظر فتح الباري، ٤٦٣/٦.

(٦) فتح الباري، ٤٦٣/٦.

(٧) فتح الباري، ٤٦٣/٦.

(٨) انظر: المصباح المنير، ٢٥٨.

(٩) فتح الباري، ٤٦٤/٦.

(١٠) أطلس الحديث النبوي ١٢٠.

(١١) أطلس الحديث النبوي، ٣١٤، فتح الباري، ٤٦٤/٦.

(١٢) فتح الباري، ٤٦٤/٦.

جريًا: رسولاً[١].

فألفى: وجد[٢].

الأُنس: السَّكنُ وذهاب الوحشة [٣].

أهل أبيات: أقارب وعشيرة[٤].

أنفسهم: كثرت رغبتهم فيه[٥].

يطالع تركته: يتفقد حال ما ترك هناك[٦].

فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه: أي: لم يخلط بهما غيرهما إلا اشتكى بطنه[٧].

يبري نبلا: ينحته ويُسوي طرفه، والنبل: السهم قبل أن يركب نصله وريشه[٨].

أكمة: تل[٩].

الشنة: القرية الصغيرة[١٠].

فيدر لبنها: يكثر[١١].

ينشغ: يشهق[١٢].

فلم تقرها نفسها: لا ترضى ولا تُسر[١٣].

---

(١) رياض الصالحين، ٦٣٧.

(٢) رياض الصالحين، ٦٣٧.

(٣) الوسيط في (أ ن س).

(٤) الوسيط في (أ هـ ل).

(٥) فتح الباري، ٤٦٤/٦.

(٦) فتح الباري، ٤٦٥/٦.

(٧) فتح الباري، ٤٦٦/٦.

(٨) فتح الباري: ٤٦٧/٦، والوسيط في (ب ر ي).

(٩) الوسيط في (أ ك م)

(١٠) الوسيط في ٠(ش ن ن).

(١١) الوسيط في (د ر ر).

(١٢) رياض الصالحين، ٦٣٧.

(١٣) انظر الوسيط في (ق ر ر).

أغث: أعن[١].

فقال بعقبه هكذا: أي: أشار وهو حكاية عن الفعل[٢].

تحفن: تملأ كفها[٣].

الشرح الأدبي

هذه صفحة مشرقة من تاريخ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وهي تسجل قصة إسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر... وقد أسكنهما إبراهيم بواد غير ذي زرع، ليقيموا الصلاة، واستجاب الله لدعاء إبراهيم عليه السلام وجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ورزقهم من الثمرات، ورفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، وأصبح البيت الحرام مهوى أفئدة المؤمنين من كل فج عميق، إن هذا الأثر المطول يرويه ابن عباس رضي الله عنهما وهو مزيج من كلام ابن عباس ومشاهده، وكلام رسول الله ﷺ، وهو من الأحاديث التي تعنى بتاريخ الأنبياء عليهم السلام، ومشاهده واقعية.. والأحداث تنمو في تسلسل وترتيب لأنها أحداث واقعية حقيقية.

وأول بارقة من بوارق هذه الأحداث ما دار بين الخليل إبراهيم عليه السلام وزوجه هاجر حين تركها مع رضيعها إسماعيل عند البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، فقالت هاجر يا إبراهيم: أين تذهب وتتركنا؟ وهو لا يلتفت إليها، فأعادت السؤال: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا، وتبدأ مسيرة إسماعيل وقصة بناء البيت وعمران مكة المكرمة، وأما المشهد الثاني فهو ينبع من قلب الأب الذي ترك فلذة كبده وزوجته في هذا المكان الذي يخلو من الإنسان والعمران، ولا يملك إبراهيم إلا الدعاء، ويستجيب الله له ويرزق أهله من الثمرات ويجعل البيت مثابة للناس وأمنًا، ويطل في قلب الأحداث المباركة المشهد الثالث وهو من أقوى المشاهد تأثيرًا في الإنسانية، حيث تبحث هاجر عن الماء لتطفئ ظمأ وليدها الرضيع الذي لم يعد له مع أمه ما يروي ظمأه!! وتهرول بين

---

(١) الوسيط في (غ و ث).

(٢) فتح الباري، ١١/٢٧١.

(٣) الوسيط في (ح ف ن).

الصفا والمروة سبع مرات، ويقول رسول الله ﷺ: (فلذلك سُعي بينهما) ويمن الله عليها بماء زمزم، وما زال يفيض إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويرتوي منه الآتون من كل فج عميق،ويعمر المكان، بعد أن تفجر ماء زمزم، وتأتي قبيلة جرهم،وتصنع الأحداث المشهد الرابع من هذه القصة المباركة، ويكبر إسماعيل،ويتزوج، ويظهر الخليل إبراهيم ليعطي ابنه الخبرة، ويوضح له معالم الطريق، ولكن لا يجده في بيته، فيترك له رسالة مضمونها: أن غير عتبة بابك... وهذا أسلوب كنائي،ودلالته: طلق زوجتك، ويستجيب إسماعيل ويطلق زوجته الأولى، ويتزوج الثانية، وتستقر عتبة بابه، كما أخبره أبوه في الزيارة الثانية، وما أدق الحوار وما أجمله في هذين المشهدين الجليلين اللذين صنعا تاريخ أمة عريقة، وتتوج رحلات إبراهيم من العراق إلى مكة المكرمة ببناء البيت الحرام، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا، والأمن في ظلال البيت العتيق يظلل كل الكائنات، من نباتات وجمادات وحيوانات وطيور وأناس، وكلها في حمى الرحمن، الملك الديان، فلا يقطع الشجر، ولا يصاد الطير، ولا يؤذى الإنسان.

هنا البيت مثوى الآمنين تحوطهم ... من الله أملاك.. وتحرسهم جند
هنا الركن والحجر الطهور وزمزم ... هنا مشرق الرؤيا: هنا الحب والمهْدُ
هنا تشرق الآيات أمنًا ورحمةً ... بكل فؤاد نبضه الحب والود
هنا الطير للإنسان يفضي بسره ... هنا الصخر أوابٌ، وإيقاعه حمْد
هنا تخطر الأشجار في نور أمنها ... وفي ظلها الفينان لا يفزع الصيد [1]

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: مجيء إبراهيم عليه السلام بزوجته وابنه عند البيت.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التوكل على الله والتضرع إليه.

---

(١) من قصيدة: أشواق حجازية الإيقاع، شعر: د. صابر عبدالدائم، ديوان العمر والريح قيد الطبع.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: رحمة الله تعالى بإسماعيل وأمه وغوثه لهما.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الوالد عن أولاده وتفقده لأحوالهم.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الكناية.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: شكر الله تعالى على نعمه.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للبيت الحرام.

أولاً- من تاريخ الدعوة: مجيء إبراهيم عليه السلام بزوجته وابنه عند البيت:

حيث جاء في الحديث: "جاء إبراهيم عليه السلام بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هناك"، قال الإمام ابن حجر: (وكان السبب في ذلك، أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم، فحملت منه بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء، فاتخذت هاجر منطقًا فشدت به وسطها، وهربت وجرت ذيلها لتخفي أثرها على سارة، ويقال: إن إبراهيم شفع فيها وقال لسارة: حللي يمينك بأن تثقبي أذنيها وتخفضيها، وكانت أول من فعل ذلك. ويقال إن سارة اشتدت بها الغيرة، فخرج إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة لذلك، وروى إن الله لما بوأ لإبراهيم مكان البيت خرج بإسماعيل وهو طفل صغير وأمه، وحملوا على البراق)[1].

وقال الإمام ابن كثير: والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعًا فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا ؟ فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم، قلت : فإذًا لا يضيعنا"[2].

---

(١) فتح الباري ٦/٤٦١.

(٢) البداية والنهاية ١/٣٥٦.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على التوكل على الله والتضرع إليه:

حيث جاء في الحديث: "قالت له: آللّه أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت: فإذا لا يضيعنا". وجاء في الحديث أيضًا: "ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء" وقوله في الحديث: "حتى إذا ما نفد ما في السقاء ... فانطلقت فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه..."، وكل هذا يدل على فضل التوكل على الله والأخذ بالأسباب، وأن الله لا يضيع من يتوكل عليه، قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى "الوكيل"، وهو القيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكول إليه[1]. وقال الجرجاني: "التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس"[2]. وفي الربط بين الأخذ بالأسباب والتوكل قال الإمام ابن القيم: "التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه، قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه، والتوكل، متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية"[3]. وقد دلت آيات القرآن الكريم على فضل التوكل وأهميته قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[5] وقال جل شأنه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[6]، وفي الصحيحين في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ. وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَلاَ يَكْتَوُونَ. وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[7].

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٩٨٧.

(٢) التعريفات ٧٤.

(٣) مدارج السالكين ٢/٣٦٢-٣٦٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٢.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٧) أخرجه البخاري ٥٧٠٥، ومسلم ٢٢٠.

قال ابن قدامة: (اعلم أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أي: فوض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية، فإذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وإنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببه أحد أمرين:

إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال.

وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم، وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من كان يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة، ربما نفر طبعه منه، وتعذر عليه.

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقنًا بكونه ميتًا في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منه، وقد يقوي حتى يصير مرضًا، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعًا، فإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي تسمى توكلاً، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه: يا أماه. فمن كان باله إلى الله، ونظره

إليه، واعتماده عليه، كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلاً حقًا.

والفرق بين هذا وبين الأول، أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه، ولا مجال في قلبه لغيره.

وأما الأول، فهو متوكل بالتكلف والكسب، وليس فانيًا عن توكله، بل له التفات إليه، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

الدرجة الثالثة: وهي أعلى منهما، أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه، إلا في أنه يرى نفسه ميتًا، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهذه الأحوال توجد في الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولاسيما المقام الثالث"[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: رحمة الله تعالى بإسماعيل وأمه وغوثه لهما:

حيث جاء في الحديث: " قَدْ أَسْمَعْتَ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ. فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا...، وقوله في رواية "فقالت: أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل عليه السلام فقال بعقبه هكذا وغمز بعقبه على الأرض فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفن" وكل هذا يدل على رحمة الله تعالى بإسماعيل عليه السلام وأمه وغوثه سبحانه لهما.

قال ابن حجر: (قال ابن الجوزي: كان ظهور زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل عامل، فلما خالطها تحويط هاجر داخلها كسب البشر فقصرت على ذلك"[٢]. ورحمة الله تدرك عباده الصالحين وهى قريبة منهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣] ورحمته سبحانه واسعة قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٤]، وغوث الله سبحانه يدرك الصالحين من عباده قال سبحانه عن موسى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) فتح الباري ٤٦٣/٦.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٦.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1]، ولما ضاق الأمر بيونس عليه السلام في بطن الحوت ولجأ إلى الله كان الفوز له : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

جاء في موسوعة فقه القلوب: (والاستعانة: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما.

وقد ذكر الله سبحانه الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع أعماله وعباداته إلى الاستعانة بالله تعالى.

فإنه إن لم يعنه لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

فهو سبحانه المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

وقد أمرنا الله عز وجل بالاستعانة بالصبر والصلاة على جميع الأمور.

ففي الصبر بجميع أنواعه، وهي الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، وفي الصبر على ذلك كله، معونة عظيمة على كل أمر من الأمور.

وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان وعلامته، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور.

وقلب الإنسان يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف وهما: الرياء، والكبر.

فدواء مرض الرياء بـ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٦١-٦٣.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٨٨.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥ .

ودواء مرض الكبر بـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

فإذا عوفي العبد من مرض الرياء بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعجب بـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[2].

فقد عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، الذين عرفوا الحق واتبعوه، غير المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد كاليهود الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين، وهم أهل فساد العلم كالنصارى الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه، فهم يعمهون في الضلال.

فالذين كملت نعم الله عليهم هم الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به وهم المؤمنون.

فإن اختل قيد العمل فهم الفسقة وهم المغضوب عليهم كاليهود، وإن اختل قيد العلم فهم الضالون كالنصارى.

ولا يمكن للعبد أن يعبد ربه إلا بتوفيقه وعونه، فلا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

فالله وحده خالق كل شيء، وبيده كل شيء، وإلقاء الاستعانة في القلب، وإزالة الدواعي المعارضة لها ليست إلا من الله تعالى، ولا معنى للإعانة إلا ذلك.

والاستعانة هي طلب العون من الله تبارك وتعالى.

ويطلب من المخلوق ما يقدر عليه من الأمور.

وكل عبد مجبول على أن يقصد شيئًا ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده، وصلاح العبد في عبادة الله والاستعانة به، ومضرته وهلاكه وفساده في عبادة غير الله والاستعانة بما سواه.

والإنسان ضعيف عاجز، محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥ .

(٢) سورة الفاتحة، آية: ٦ .

المحظورات، والصبر على المقدورات.

فمن حقق الاستعانة بالله في ذلك كله أعانه الله)[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الوالد عن أولاده وتفقده لأحوالهم:

حيث جاء في الحديث: "فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل"، وقوله :"فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد....". والآباء مسئولون عن الأبناء وتفقدهم ورعايتهم، وقد جاء في الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَ هِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٢]. قال السيد سابق: (الأبناء أمانة وضعها الله بين يدي الآباء وهم مسئولون عنها، فإن أحسنوا إليهم بحسن التربية كانت لهم المثوبة، وإن أساءوا تربيتهم استوجبوا العقوبة، والأبناء يخلقون مزودين بقوى فطرية، تصلح أن توجه للخير كما تصلح أن توجه للشر، وعلى الآباء أن يستغلوا هذه القوى ويوجهوها وجهة الخير، ويعودوهم العادات الحسنة، ووقاية النفس والأهل من النار تكون بالتعليم والتربية، وتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة، وإرشادهم إلى ما فيه نفعهم وفلاحهم"[٣].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الكناية:

حيث جاء في الحديث: "وقولي له يغير عتبة بابه"، وقوله: "ويأمرك أن تثبت عتبة بابك"، وأسلوب الكناية من أساليب الدعوة المهمة يقول الميداني: (ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام، احترام فكر المخاطب وتقديره، بترك استخدام الأسلوب المباشر اعتماداً على أنه لماح تكفيه الإشارة الخفيفة والخفية، ويدخل في هذا الكنايات ورموز

---

(١) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري، ٢/١٨٦٤، ١٨٦٥.

(٢) أخرجه البخاري ٥١٨٨، ومسلم ١٨٢٩.

(٣) إسلامنا ٢٣٦.

الأقوال والتلميحات والمعاريض، ولا ريب أن من احترام فكر المخاطب وتقديره الإيجاز له في الأشياء التي يمكن أن يفهمها بنفسه، إذا كان أهلاً لذلك، ويحسن هذا الإيجاز جدًا إلى حد الرمز في مواقف خاصة، منها أن يتطلب الموقف إعلام المخاطب وحده مع إخفاء الأمر عن حاضري مجلسه[١].

قال ابن حجر: (وقوله: "عتبة بابك" كناية عن المرأة، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لها، وهو حفظ الباب، وصون ما هو داخله، وكونها محل الوطء"[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: شكر الله تعالى على نعمه:

حيث جاء في الحديث: "وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله تعالى"، وشكر الله على نعمه أمر مهم، وقد وعد الله بالزيادة لمن يشكره، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٣]. وأمر الله بشكره فقال: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤]. وقال سبحانه: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٥]. ومدح خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[٦]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ "أنه قام حتى تورمت قدماه فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: "أفلا أكون عبدًا شكورا"[٧]، قال الإمام ابن القيم: "والشكر حقيقته في العبودية هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة، والشكر مبني على خمس

---

(١) مبادئ في الأدب والدعوة ١٤٧.

(٢) فتح الباري ٦/٤٦٥.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ١٧.

(٥) سورة النحل، آية: ١١٤.

(٦) سورة النحل، الآيتان: ١٢٠-١٢١.

(٧) أخرجه البخاري ١١٣٠، ومسلم ٢٨١٩.

قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره"[١].

ومما يدل على أهمية الشكر أن من أسماء الله الحسنى الشكور، قال الطيبي: "الشكور" هو الذي يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، فيرجع إلى الفعل. وقيل: هو المثنى على العباد المطيعين، فيرجع إلى القول. وقيل: معناه المجازى عباده على شكرهم، فيكون الاسم من قبيل الازدواج، كما سمى جزاء السيئة سيئة. وحظ العبد منه: أن يعرف نعم الله تعالى، ويقوم بمواجب شكره، ويواظب على وظائفه، وأن يكون شاكرًا للناس معروفهم، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

قال أبو القاسم: حقيقة الشكر، الثناء على المحسن بذكر إحسانه، ثم العبد يثنى على الرب بذكر إحسانه الذي هو نعمته، والرب يثنى على عبده بأن يمدحه، ويذكر إحسانه وطاعاته. وقد قيل: إن الشكر في وصفه بمعنى، أنه يعطي الثواب الكثير على اليسير من الطاعة. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢]. قال بعضهم: قليل من عبادي من يشهد النعمة مني، لأن حقيقة الشكر، الغيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم، وقيل: هم الأكثرون وإن قلوا، ومواضع الأنس حيث حلوا[٣].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للبيت الحرام:

حيث جاء في الحديث: "قال يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتًا ههنا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : "ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم"، وهذا يشير إلى بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للبيت الحرام، قال ابن حجر: "ولم

---

(١) مدارج السالكين ٥٧٥/٢.

(٢) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣٧/٥، ٣٨.

يشاركهما في البناء غيرهما، والقواعد التي رفعها إبراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك، وبلغ إبراهيم من الأساس أساس آدم، وجعل طوله في السماء تسعة أذرع، وعرضه في الأرض -يعني دوره ثلاثين ذراعًا، وكان ذلك بذراعهم - كما جاء في رواية عثمان وأبي جهم - وقوله "جاء بهذا الحجر" أى المقام وقد قيل إن إبراهيم عليه السلام بناه من خمسة أجبل[1].

هذا وقد دل القرآن الكريم على هذا البناء للبيت، قال تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[2]. قال ابن كثير: "قال الحسن البصري: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس، ولا يصيبه من ذلك شيء، وقال السدى: أى ابنيا بيتي للطائفين. وإن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود"[3]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[4]. قال ابن كثير: "والقواعد جمع قاعدة وهى السارية والأساس يقول تعالى : واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للبيت ورفعهما القواعد منه، فإنهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما"[5]. وقال البوطي: "ولأهمية الكعبة وشرفها وقداستها في الأرض، فإن الذي باشر تأسيسها وبناءها هو إبراهيم خليل الله وابنه إسماعيل بأمر من الله تعالى لتكون أول بيت لعبادة الله وحده ومثابة للناس وأمنًا، وقد اقتضت حكمة الله -جل جلاله- أن يشيد فوق الأرض بناء يكون شعارًا لتوحيد

---

(١) فتح الباري ٦/٤٦٧-٤٦٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٤٢٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٢٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١/٤٢٧.

الله وعبادته وحده، ويظل -مع الدهر- تعبيرًا للعالم عن المعنى الصحيح للدين والعبادة، وعن بطلان كل من الشرك وعبادة الأصنام، وإذا كان لابد للمؤمنين بوحدانية الله والداخلين في دينه، من رابطة يتعارفون بها، ومثابة يؤوبون إليها مهما تفرقت بلدانهم وتباعدت ديارهم، إذا كان لا بد من ذلك، فليس أجدر من هذا البيت الذي أقيم رمزًا لتوحيد الله، وردًا على باطل الشرك والأصنام، أن يكون هو الرابطة وهو المثابة لهم جميعًا، يتعارفون في حماه، ويلتقون على الحق الذي شيد ليكون تعبيرًا عنه، ومن هنا جاءت قداسة البيت وعظيم مكانته عند الله تعالى"[1]. هذا وقد قال الله سبحانه: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[2].

(١) فقه السيرة النبوية ٨٦-٨٧.

(٢) سورة الحج، آية: ٢٦.

الحديث رقم (١٨٧٠)

١٨٧٠- وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

سعيد بن زيد بن عمرو: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٦٤).

غريب الألفاظ:

الكمأة: فُطُر من الفصيلة الكمئية، وهي أرضية تنتفخ حاملات رؤوسها فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع[2].

المنُّ: مادة صمغية حلوة تفرزها بعض الأشجار كالأثل، وطل ينزل من السماء على شجر أو حجر ينعقد ويجف جفاف الصمغ، وهو حلو يؤكل[3].

الشرح الأدبي

إن الطب النبوي له فوائد جليلة، ومقاصد نبيلة، وهو نابع من تجربة عملية، ومن توجيه رباني، يقول ابن القيم في كتاب: الطبي النبوي في مقدمته: (أما بعد، فهذه فصول نافعة في هديه ﷺ في الطب الذي تطبب به، ووصفه لغيره، فبين ما فيه من الحكمة التي تعجز عقول أكبر الأطباء عن الوصول إليها، والحديث النبوي يفيض بكثير من النصوص التي ترشد الأمة إلى الوقاية من الأمراض، وإلى العلاج الناجع مع ضرورة مواكبة ما يستجد من العلاج في ضوء العلوم الطبية الحديث.

وحين نتأمل صياغة هذا الحديث الشريف الموجز، نجده يتكون من جملتين اسميتين، دلالتهما ثابتة لا مجال فيها للحدث والزمن، فالجملة الاسمية من صفتها الثبات، فالدواء هنا ثابت لا يعتريه تغير أو تحول، فهو دواء صالح في كل مكان إذا

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤٧٨، ومسلم ٢٠٤٩/١٥٨ ولفظهما سواء.

(٢) الوسيط في (ك م أ).

(٣) الوسيط في (م ن ن).

وجد هذا النبات، وهو (الكمأة) ولنتساءل: عن دلالة "الكمأة" ودلالة المن، فالكمء: كما جاء في القاموس المحيط: اسم نبات، والجمع أكمؤ، وكمؤة، ونقول: اكمأ أي كثر فيه الكم، ويقولون: أكمأ القوم، أي أطعمهم إياه، أي الكمء.

ولكن هذه الدلالة لا تشع جوانبها إلا في ظلال ارتباطها بكلمة (المن) في قول رسول الله ﷺ: "الكمأة من المن". والمن هو كل طلّ ينزل من السماء على شجر أو حجر، ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ، وقيل: المن: هو ما وقع على شجر البلوط، معتدل، نافع للسعال والرطب والصدر والرئة.

وهذه الجملة التي توضح ماهية الكمأة وتجعلها من أنواع المن -أي هي أشبه بالعسل- تعد مقدمة مقنعة للاستشفاء بها، حيث يقول الرسول ﷺ "وماؤها شفاء للعين" أي يشفي العين، وفي رواية أخرى مبشرة بالشفاء وبدخول الجنة "الكمأة من المن، والمن من الجنة، وماؤها شفاء للعين".

والسجع في الحديث الشريف يحدث تأثيرًا صوتيًا، وتشويقًا للسامع، وسرعة في حفظ الحديث.

وحرف النون في نهاية كل جملة هو الذي أحدث هذا الأثر النفسي القوي، لأن النون تشبه الحركة في قوة الوضوح السمعي، وهو صوت أسناني لثوى مجهور يتفق في جهارته وقوته مع التبشير بالشفاء، والمن على العبد المستشفي بالجنة، لأن المن من الجنة، وحرف النون من أسنى الحروف، وأعظمها شهودًا، ولذلك يتضح تأثيرها الصوتي والإيقاعي والنغمي في كتب القراءات، حيث تأتي في حالات الإظهار والإخفاء والإدغام والقلب، ونجد تأثرها الواضح بما يجاورها من أصوات.

وفي ضوء هذه الخصائص نكتشف أسرار الجمال الإيقاعي والأسلوبي.. والدلالي في هذاالحديث الموجز البليغ: (الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الأخذ بأسباب الشفاء واليقين في الله.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يتضح هذا من سياق الحديث ومضمونه، ففيه بيان لفضل الله على العباد بتيسير التداوي والشفاء، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة النافعة، حيث إن النفس البشرية بطبيعتها تحب ما يرغبها وتكره ما ينفرها.

"والترغيب هو إرادة الشيء والرغبة فيه، وتشويق الناس إلى ثواب الله عز وجل، والترغيب يأتي في الشريعة حسب الأحوال والنفوس والمواقف، يأتي علاجًا وردعًا، ويأتي بشيرًا ونذيرًا. فمن النفوس من ترغب في الخير، وتهفو إلى الهدى، وتشتاق إلى النور، فذكر الخير يرغبها، ودعوة الإحسان تدفعها، ونور الحق يدفئها"[(١)]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[(٢)].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾[(٣)].

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يتضح هذا من الحديث: "الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين"، ومما لاشك فيه أن من أولى مهام الداعية إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وذلك باعتبار أن الداعية حريص على قومه وعلى ما فيه مصلحتهم، والداعية إذا علم خيرًا أذاعه ونشره ليعلم به الجميع، وحتى يعم النفع، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله، أو قال عامله"[(٤)].

قال النووي: "وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله،

---

(١) الدعوة إلى الله الرسالة الوسيلة الهدف- د. توفيق الواعي، ١٩٩-٢٠٠.

(٢) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٣) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات، لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيره، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء"[١]. فمن واجب الداعية توجيه المدعوين وإرشادهم إلى ما ينفعهم، ليكون له بذلك الأجر والثواب.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الأخذ بأسباب الشفاء واليقين في الله:

حيث جاء في الحديث: "الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين"، جاء في فتح الملهم: قوله: "الكمأة" بفتح الكاف وسكون الميم، وجمعه كمأ. عكس ابن الأعرابي فقال: الكمأ مفرد والكمأة جمع على خلاف القياس. وقيل: الكمأة قد تطلق على الواحد وعلى الجمع، وقد جمعوها على أكمؤ. وهي نبات لا ورق لها ولا ساق، توجد في الأرض من غير أن تزرع، ومادة الكمأة من جوهر أرضي بخاري يحتقن نحو سطح الأرض ببرد الشتاء، وينميه مطر الربيع، فيتولد ويندفع متجسدًا، ولذلك كان بعض العرب يسميها جدري الأرض تشبيهًا لها بالجدري مادة وصورة، لأن مادته رطوبة دموية تندفع غالبًا عند الترعرع وفي ابتداء استيلاء الحرارة ونماء القوة. ومشابهتها له في الصورة ظاهر. وقيل: سميت بالكمأة لاستتارها، يقال: "كمأ الشهادة". إذا كتمها[٢].

وفي هذا الحث على التداوي، والأخذ بأسباب الشفاء، واليقين في الله تعالى، قال النووي: "قال أبو عبيد وكثيرون: شبهها بالمن الذي كان ينزل على بني إسرائيل، لأنه كان يحصل لهم بلا كلفة ولا علاج، والكمأة تحصل بلا كلفة ولا علاج. وماؤها مجردًا شفاء للعين، وقيل معناه: أن يخلط ماؤها بدواء ويعالج به العين، والصحيح بل الصواب أن ماءها مجردًا شفاء للعين، وقد رأيت من فعل هذا وكانت قد ذهبت عينه فشفى اعتقادًا في الحديث وتبركًا به"[٣]. وقال ابن حجر: (قال الخطابي: إنما اختصت الكمأة بهذه الفضيلة لأنها من الحلال المحض الذي ليس في اكتسابه شبهة، ويستنبط

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٢١٥.

(٢) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٠، ٤٨، ٤٩.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢٩٧.

منه أن استعمال الحلال المحض يجلو البصر، والعكس بالعكس، واستعماله لما وردت به السنة بصدق ينتفع به من يستعمله، ويرفع الله عنه الضرر بنيته، والعكس بالعكس)[١].

وقال ابن القيم: "والكمأة فيها جوهر مائي لطيف يدل على خفتها، والاكتحال بها نافع من ظلمة البصر والرمد الحار، وقد اعترف فضلاء الأطباء: بأن ماءها يجلو البصر، وقال الغافقي ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عُجِنَ به الإثمد واكتحل به، ويقوي أجفانها، ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة، ويرفع عنها نزول النوازل.

واعلم أن الله سبحانه أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تام المنفعة لما هيئ وخلق، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور أخر: من مجاورة أو امتزاج واختلاط، أو أسباب أخر تقتضي فساده، فلو ترك على خلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به لم يفسد"[٢].

قال المازري: والكمأة ليس على أحد منها مؤونة في بذر ولا سقى ولا غيره، وإنما هو شيء ينشئه الله عز وجل في الأرض، حتى يصير إلى من يجتنيه.

وقوله عليه السلام "وماؤها شفاء للعين" يقال: إنه ليس معناه أن يؤخذ ماؤها بحتًا. أي صرفًا فيقطر في العين، ولكن يخلط ماؤها بالأدوية التي تعالج بها العين، فعلى هذا يوجه الحديث[٣].

وقال القاضي عياض: قال بعض أهل المعرفة بالطب والحذق فيه وغيره في بعض ما ألفه وتكلم عليه في معنى هذا الحديث: إما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتشفى بنفسها مفردة، وإما لغير ذلك فمركبة مع غيرها[٤].

وقال القرطبي: والكمأة: ظاهر هذا اللفظ أنها مما أنزل الله على بني إسرائيل مما

---

(١) فتح الباري ١٣/١٧٤.

(٢) الطب النبوي ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٢١، ٢٢٢.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٦/٥٣٥.

خلقه الله تعالى لهم في التيه، وذلك أنهم كانوا ينزل عليهم في أشجارهم مثل السكر، ويقال هو الطَّرَنْجَبِين، وهو المن في قول أكثر المفسرين، وعلى ظاهر هذا الحديث تكون الكمأة أيضًا مما خلق لهم في مواضع نزولهم. وقيل: الكمء من المنِّ بمعنى شبهه من حيث: إن الكمأة تطلع من عند الله تعالى من غير كلفة منا ببذر ولا حرث، ولا سقى، كما أن المنّ ينزل عليهم عفوًا من غير سبب منهم"[1].

جاء في فتح الملهم: قوله: "من المنّ" في تفسيره ثلاثة أقوال:

١- المراد به المنّ الذي أنزل على بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام. والمعنى أن الكمأة جزء من المنّ النازل عليهم، ولا يعارض ما روى أن المنّ كان كالطل الذي يسقط على الشجر، ومنه الترنجبين، فإنه يحتمل أن يكون المنّ أنواعًا، منها ما يسقط على الشجر ومنها الترنجبين، ومنها ما يخرج من الأرض فتكون الكمأة منه، وبه جزم عبداللطيف البغدادي، وذكره الخطابي احتمالاً.

٢- المراد به المنّ الذي أنزل على بني إسرائيل، ولكن ليس المعنى أن الكمأة عينه، وإنما المعنى أن الكمأة شيء ينبت من غير تكلف بذر ولا سقي، فهو بمنزلة المنّ الذي كان ينزل على بني إسرائيل فيقع على الشجر فيتناولونه. وإنما نالت الكمأة هذا الثناء، لأنها من الحلال الذي ليس في اكتسابه شبهة. وهذا ما جزم به الخطابي في أعلام الحديث.

٣- المراد من "المن" معناه اللغوي، والمعنى: أنها من المنّ الذي امتن الله به على عباده عفوًا بغير علاج. والمن مصدر بمعنى المفعول أي ممنون به، وإن جميع نعم الله تعالى، وإن كانت منًا منه تعالى على عبيده، غير أن ما ليس فيه شائبة كسب كان منًا محضًا، والكمأة منه، لأنها توجد بدون أية مؤونة. واختار هذا القول أبو عبيد وجماعة.

وسبب هذا الحديث ما أخرجه الطبري من طريق ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: كثرت الكمأة على عهد رسول الله ، فامتنع قوم من أكلها وقالوا: هي جدريّ

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣٢٤/٥.

الأرض، فبلغه ذلك فقال: «إنَّ الكَمْأَةَ لَيْسَتْ مِنْ جُدرِيِّ الأرْضِ، ألا إنَّ الكَمْأَةَ مِنَ المَنِّ» وأخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: «أنَّ ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: الكَمْأَةُ جُدَرِيُّ الأرض، فقال النبي ﷺ: «الكَمْأَةُ مِنَ المنِّ»[1].

قوله: "وماؤها شفاء للعين" في المراد بكونها شفاء للعين أقوال أربعة:

١- قال الخطابي: وقوله: وماؤها شفاء للعين، فإنما هو بأن يربي به الكحل أو التوتياء ونحوهما مما يكتحل به، فينتفع بذلك، وليس بأن يؤخذ بحتًا فيكتحل ويتداوى به، لأن ذلك يؤذي العين ويقذيها، وهو الذي اختاره ابن الجوزي ويؤيده ماحكاه الحافظ من قول الغافقي في المفردات: "ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عجن به الإثمد واكتحل به، فإنه يقوي الجفن ويزيد البصر قوة ويدفع عنها النوازل.

٢- واختار النووي أن ماءها مجردًا شفاء للعين مطلقًا، فيعصر ماؤها ويجعل في العين منه. قال: "وقد رأيت أنا وغيري في زمننا من كان عمي وذهب بصره حقيقة، فكحل عينه بماء الكمأة مجردًا، فشفي وعاد إليه بصره، وهو الشيخ العدل الأيمن الكمال بن عبدالله الدمشقي صاحب صلاح ورواية الحديث، وكان استعماله لماء الكمأة اعتقادًا في الحديث وتبركًا به"[2].

ولكن يخالفه ما حكى إبراهيم الحربي عن صالح وعبدالله ابني أحمد بن حنبل أنهما اشتكت أعينهما، فأخذا كمأة وعصراها واكتحلا بماءها، فهاجت أعينهما ورمدا. وحكى ابن الجوزي عن شيخه أبي بكر بن عبدالباقي أن بعض الناس عصر ماء كمأة فاكتحل به فذهبت عينه. ثم علق على قول النووي بأن استعمال الماء الصرف ينبغي أن لا يكون إلا ممن عرف من نفسه قوة اعتقاد في صحة الحديث والعمل به، كما يشير إليه آخر كلام النووي.

٣- اختار ابن العربي أن في التداوي بماء الكمأة تفصيلاً. وهو إن كان لتبريد ما يكون بالعين من الحرارة فتستعمل مفردة، وإن كان لغير ذلك، فتستعمل مركبة.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٦٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٨٩).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم ١٢٩٧.

وحكاه القاضي عياض عن بعض الأطباء أيضًا.

٤- والقول الرابع: إن المراد من الماء هنا ليس الماء الذي يعصر من الكمأة، ولكنه الماء الذي تنبت به، فإنه أول مطر يقع على الأرض فتربى به الأكحال. حكاه ابن الجوزي عن أبي بكر بن عبدالباقي.

قال العبد الضعيف عفا الله عنه: أما القول الرابع فهو أضعف الأقوال، كما قال ابن القيم وأما الأقوال الثلاثة الأولى، فكلها محتملة[1].

قال ابن مفلح: ولا تزرع الكمأة، ومادتها من جوهر أرضي بخاريّ يحتقن في الأرض نحو سطحها، يحتقن ببرد الشتاء وتنميه أمطار الربيع فيتولد ولهذا يقال لها: جدري الأرض، تشبيهًا بالجدري في صورته ومادته، لأن مادته رطوبة دموية تندفع عند سن الترعرع في الغالب، وفي ابتداء استيلاء الحرارة ونماء القوة، وهي مما يوجد في الربيع، وتؤكل نيئًا ومطبوخًا. وسمتها العرب: نبات الرعد لكثرتها بكثرته. وتنفطر عنها الأرض، وتكثر بأرض العرب، وأجودها ما كانت أرضها رملة قليلة الماء، ومنها صنف قَتَّال يضرب لونه إلى الحمرة.

قيل: هي من المن حقيقة على ظاهره، وقيل: شبهها به لحصول كل منهما بلا كلفة ولا معالجة. وظاهر اللفظ أنَّ ماءها شفاء للعين مطلقًا من ضعف البصر والرمد الحاد، ولا مانع من القول به. وقد صح عن الصادق المصدوق ﷺ، فيجب القول به. وقد ذكر مثل هذا من الأطباء: المسيحي وصاحب القانون وغيرهما، وقد اكتحل بماءها مجردًا بعض من عمي معتقدًا متبركًا فشفاه الله تعالى بحوله وقوته، وأظن قد وقع مثل هذا في زمن أبي زكريا النووي[2]. وقد سبق أن أبا هريرة رضي الله عنه روى الخبر، وفعل ذلك، وهو أعلم بما رواه.

وقيل: يخلط ماؤها بدواء ويعالج به، وقيل: هذا إن كان من غير حرارة، وإن كان من حرارة فماؤها مجردًا شفاء.

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٠/٤٩، ٥٠.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ١٢٩٧.

وقيل: المراد بمائها بعد شيه واستقطاره، لأن النار تلطفه وتنضجه، وتذيب ما فيه من أذى، وقيل: المراد بمائها الماء الذي تحدث به من المطر، وهو أول مطر ينزل إلى الأرض فيكون إضافة اقتران لا إضافة جزء، ذكره ابن الجوزي وهو ضعيف.

وقد ذكر الأطباء أن الكمأة باردة رطبة في الدرجة الثالثة، وأنها رديئة للمعدة بطيئة الهضم، تورث القولنج وعسر البول، وتولد خلطًا رديئًا ويخاف منه الفالج والسكتة. وينبغي أن تُعَالَج قبل الأكل، قال بعضهم: تدفن في طين رطب، وتسلق بماء وملح وصعتر، وتؤكل بزيت وتوابل حارة، لأن جوهرها أرضي غليظ، وغذاءها رديء، لكن فيها جوهر مائي لطيف يدل على خفتها، ولا يمنع كونها من المن أو أن ماءها ينفع العين، عدم الضرر فيها وقت خلقها، فالعسل وغيره فيه ضرر مع ما في ذلك من النفع.

وقال بعض أصحابنا: الآفات والعلل حادثة، والفساد بأسباب اقتضت ذلك لمجاورة أو امتزاج أو غير ذلك، وإلا فهو في الابتداء بريء من ذلك[1].

ومن خلال هذا الحديث وغيره تتضح دعوة الإسلام إلى الأخذ بالأسباب والتداوي، وبذل الوسع للشفاء.

إن هذا الحديث بين أن ماء الكمأة مفيد للعين، وبما أن النبي ﷺ لم يبعث لبيان الحقائق الطبية، فإنه لم يذكر طريق استعمال هذا الماء، وأنه هل يستعمل مفردًا، أو مركبًا مع غيره؟ فلا ينسب أحد من الطرق المحتملة إلى النبي ﷺ على سبيل القطع. فربما يفيد بمفرده، وربما يفيد مركبًا مع غيره، ويمكن أن يفيد في بعض الأمراض دون بعضها، كما يمكن أن تكون بعض أنواعها نافعة، وبعضها ضارة، فلا ينبغي ان ينسب إلى النبي ﷺ إلا ما ذكره هو بنفسه، وهو أن ماء الكمأة شفاء للعين، ويصدق ذلك بكونه شفاء في الجملة. ولم يقل النبي ﷺ إنها شفاء في كل مرض، ولا أنها تفيد كل إنسان في كل مكان. فينبغي للعامة أن يراجعوا الأطباء ليصفوا لكل مريض ما يلاءم أحوال مرضه. نعم! ينبغي للأطباء أن يستفيدوا بهذا الحديث في تجاربهم، ويستخرجوا التفاصيل بها.

---

(١) الآداب الشرعية ٣/ ١٠، ١١.

ثم إن هذا الكلام إنما كان من حيث الأسباب الظاهرة، ولكن لا يخفى أن الشفاء الحقيقي ليس إلا بيد الله سبحانه وتعالى، وإنما الأدوية أسباب محضة ليست تنفع بنفسها ولا تضر بنفسها، فإن اعتقد رجل أن قول النبي ﷺ عام لكل كمأة، ولكل مرض، ولكل إنسان، فاستعمل ماء الكمأة في مرض لا يراها الأطباء نافعة فيه، ونوى اتباع النبي ﷺ وحصول الشفاء به بقوة اعتقاده، فلا يبعد أن يجعلها الله شفاء له، خاصة على الرغم مما يقوله الأطباء، لأنهم لا يتكلمون إلا عن الأسباب الظاهرة، وأن قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته فوق هذه الأسباب بكثير[1].

لقد جاءت الأحاديث النبوية ترشد إلى أهمية التداوي، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً»[2].

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تَدَاوَوْا يَا عِبَادَ اللَّه ، فَإِنَّ اللَّه لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ دَوَاءً، إِلاَّ دَاءً وَاحِدًا ، الْهَرَمُ»[3].

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ. فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[4].

ويعلق على هذه الأحاديث صاحب كتاب الإعجاز العلمي فيقول: وفي هذه الأحاديث المختلفة حث للإنسان، ودفع له لأن يبحث، ويستمر في بحثه حتى يحصل على الدواء الشافي بإذن الله تعالى لكل مرض يحدث في هذه الدنيا، فلا يجوز أن يضعفه شيء دون الوصول إلى الدواء المؤثر في الأمراض الحادثة، فإن رسول الله ﷺ يقرر أنه ليس هناك داء إلا وله دواء، وهذا الدواء يحتاج إلى بحث ليعلم، أو يعمل به، ويتناوله المريض. وفي ذلك حث للمسلمين أن يكون لهم مختبراتهم ومعاملهم التي يعملون بها للحصول على أدوية الأمراض المختلفة.

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٠/ ٥٠، ٥١.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٧٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٨٥٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٦٤).

(٤) أخرجه مسلم ٢٢٠٤.

فهذه الأدوية التي يكتشفها الإنسان للأمراض المختلفة إنما هي من قدر الله تعالى ولا تخالف قدر الله عز وجل، فالتداوي من الأسباب العادية التي أمر الإنسان بالأخذ بها والعمل وفقها، ومما يجدر التنبيه عليه أن الدواء الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في أحاديثه أعم من أن يكون كيميائيًا، أو طبيعيًا - مأخوذ من الطبيعة - أو بجراحة، أو فصد، أو كي ... وما أشبه ذلك.

وسر الإعجاز العلمي في حديث رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث، يكمن في كونه قرر هذا التقرير الجازم بأنه ليس هناك داء إلا وله دواء، فكأنه فتح آفاق العلم والمعرفة، والبحث والاختبار على مصاريعها ليلجها المسلمون، ويقتحموا تلك العمليات التي كان يقف الإنسان مستسلمًا للمرض لا يعرف كيف يتخلص منه، فعلمه أن لا ييأس، وإنما يبحث حتى يصل إلى النتيجة[1].

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا، ٢/٧٨١، ٧٨٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

هذا الباب فيه أحاديث كثيرة ومتنوعة؛ لذا كان معالجتها كلها من الصعوبة بمكان. خاصّة ونحن نعالج معالجة تربوية موجزة؛ لذا رأينا أن نذكر بعض النقاط التربوية التي رأينا أنها تكون أقرب إلي الواقع المعاصر، ونحن أحوج ما نكون إليها:

أولاً: التربية علي الاستعداد لعظائم الأمور:

خلق الله سبحانه وتعالي هذه الدنيا وكتب عليها الفناء ، وقدّر سبحانه أن بعد هذه الدنيا ستكون الساعة، وهذه الساعة لها علامات صغرى وكبرى ، ومن العلامات الكبرى خروج الدجال ، والدجال فتنته عظيمة : فقد جعل الله معه ما يظنّ الناس أنه ربهم وإلهم ؛ لذا حذر النبي ﷺ أمته من فتنته العظيمة؛ فقال ﷺ: ((مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ)) الحديث ١٨١٦، كما أخبر النبي ﷺ عن الضيق الذي سيصيب المؤمنين منه ، فقال ﷺ: ((لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِي الْجِبَالِ)) الحديث ١٨١٥ ، بل أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال، فقال : ((مَا مِنْ نَبِيَ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ. أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ. وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ. وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَ ف رَ))، الحديث ١٨١٩، كما أخبر ﷺ أيضًا عن خروج يأجوج ومأجوج بعد أن يقضي نبي الله عيسى عليه السلام علي الدجال، كما في الحديثين ١٨١٢، ١٨١٠.

في هذه الأحاديث وغيرها التي تتحدث عن علامات الساعة، نرى فيها تربية علي الاستعداد لعظائم الأمور، وإعداد للمخاطبين أن يكونوا علي أهبة الاستعداد دائمًا لملاقاة عظائم الأمور. هذه التربية لها من الثمار النافعة والنتائج الطيبة ما لا يخفى، من ذلك:

(أ) تربية المخاطبين علي ملء أوقاتهم بالعمل الصالح النافع والعمل المستمر الطيب؛ لأنه إذا كان الوقت وقت أمن وسكينة، فإنه لا يدري ماذا يكون بعده، فربما تكون الفتنة والهرج والاضطراب، فتكون معاناة المؤمنين الصابرين معاناة شديدة ،وفي هذا دفع لهم أن يغتنموا أوقاتهم وحياتهم فيما ينفعهم في

الدنيا والآخرة ويجدُّوا كل الجدّ، ويجتهدوا في ذلك كلّ الاجتهاد.

(ب) تربيتهم علي الصبر وعدم الضجر والقنوط مما قد يقع بهم من صغائر الأمور وعظائمها، فإن شأن المؤمن أن يصبر ويرضى بما قدّره الله تعالي، نعم إنه يدعو الله خاشعا متضرعًا أن ينجيه من الفتن، فإن وقعت فلا مفرّ أمامه من أن يصبر عليها مع استمراره في الدعاء إلي الله رب العالمين أن ينجيه من آثارها وتبعاتها.

(ج) تربيتهم علي الإيجابية والفاعلية مع ما وقع بهم من ضرر وفتن وشرور، فإن المسلم، وإن كان لا يرغب قي التعرض للفتن وخاصة عظائمها، فإنه إن وقعت في زمانه لا يهرب منها ولا يستسلم لها، بل يكون كله عزم علي مجابهتها والتصدي لها بما يستطيع من جهد وطاقة واستطاعة، فإن تمكن من القضاء عليها وإلا حجّمها وضيّق من تأثيرها وإلا لم يرضَ بها ولم يقبلها.

ثانيًا: التربية علي التبشير بانتصار الإسلام:

أخبر النبي ﷺ عما يقع بين المسلمين واليهود من قتال وانتصار المسلمين عليهم، فقال ﷺ: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ. حَتَّىٰ يختبئ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ. فَيَقُولُ الْحَجَرُ والشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللّهِ هَـٰذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي. تَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إلاَّ الْغَرْقَدَ. فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليهود))، الحديث ١٨٢٢، وهذا الإخبار من النبي الكريم ﷺ بشارة للمسلمين بالانتصار علي اليهود، وليس هذا فحسب، بل إن الحجر والشجر يكون أيضًا من جند الله المسخرة؛ للتعجيل بنصر المسلمين علي اليهود: فإذا اختبأ اليهود وراء الحجر أو الشجر وظنوا أنهم ناجون بذلك، دلّ عليهم ما اعتقدوا أنه ينقذهم؛ فكان سببًا في قتلهم وهلاكهم.

ونحن نرى في هذا الحديث النبوي الشريف تربية للمسلمين علي الإيمان والاعتقاد بأن الإسلام سينتصر علي أعدائه وإن طال الزمان حتى ظنّ بعض الناس أنه لن تقوم للمسلمين قائمة؛ نظرًا لما هم فيه من ضعفٍ وهوان وتفرق وذلّة.

ونحن نرى أن التربية علي انتصار الإسلام من الضرورة والأهمية بمكان؛ فهي من

التربية التي يجب علي الآباء والمعلمين والدعاة وأهل الإعلام وكل من له علاقة بالتربية، أن يغرسوها في نفوس الناشئة، وليس هذا فحسب، بل يجب أن تتعمق أيضًا في نفوسهم وتترسخ حتى تصبح عقيدة ثابتة راسخة لا تقبل شكًّا أو ريبًا وإن طال زمن الانهزام والاستخذاء والخضوع والخنوع.

ونحن نرى أن في التربية علي ذلك من الفوائد ما لا يخفى، من ذلك:

(أ) تربية المخاطبين علي الاعتزاز بالإسلام اعتزازًا يبلغ السموات العليا، والاعتزاز بمبادئه وبما جاء به، فإن الانتصار لا يكون إلا للدين الحقّ الذي ارتضاه الله لعباده.

(ب) تربيتهم علي أن لهم دورًا يجب أن يقوموا به تجاه دينهم وأمتهم؛ فإن النصر لا يأتي بالأماني والأحلام، وإنما يأتي بالعمل، والعمل الجاد المستمرّ من كلّ فرد من أفراد المسلمين: فالصانع في مصنعه له دور، والزارع في زرعه له دور، كما أن للقائد في المعركة دوراً، وهكذا.

(ج) تربيتهم علي التمسك بالقيم الإيجابية الدافعة إلي البناء والعمل، وإن أحاطت بهم ما يثبط هممهم ويحبط عزائمهم ويضعف قواهم، فهم لا يلتفتون إلي هذا: فهم ماضون نحو النور وإن طال الظلام، وهم متمسكون بالعزة وإن انتشرت الذلّة، وهم عاقدون العزم علي النصر وإن أعلن المخذّلون الهزيمة والاستسلام.

ثالثًا- التربية علي التخلق بالقرآن:

لقد أخبرت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ وعن خلقه، فقالت: ((كَانَ خُلُقُ نبي الله الْقُرآنَ))، وأخرجه البيهقي في الدلائل بلفظ: ((كَانَ خُلُقُهُ الْقُرآنَ، يَرْضى لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ))[1]، فهذا النبي الكريم ﷺ يضرب المثال والقدوة علي التحلي بأخلاق القرآن: فما كان فيه من أمر فعله، وما كان فيه من نهي انتهى عنه، فكان ﷺ يقف عند حدوده.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ١/٢٠٩-٢١٠

وفي هذا تربية عملية للمسلمين جميعًا أن يقتدوا به ﷺ، فلا تكون أخلاقهم إلا أخلاق القرآن: فلا يفعلون إلا ما أمرهم القرآن به، ولا ينتهون إلا عمّا نهاهم عنه؛ فإن فعل المسلمون ذلك حازوا السبق في الدين والدنيا وفي العاجلة والآجلة، وكانوا نماذج صالحة وأمثلة مضيئة، يراها الناس فيعرفون عظمة الإسلام وسمو رسالته؛ ودليل ذلك أن أتباعه أخلاقهم طيبة وأفعالهم محمودة وسيرتهم حسنة.

ونحن نرى في التربية علي التخلق بخلق القرآن أهمية قصوى ومفتاحا لحل كثير مما يعانيه المسلمون وتعانيه مجتمعاتهم؛ ذلك أنه- كما هو مشاهد- هناك فرق هائل جدًا بين تعاليم الإسلام وما يفعله المسلمون في حياتهم وأيامهم:فتجد عند المسلمين الكسل والتهاون والضعف وسوء الأخلاق وسوء الأفعال،ما يناقض تمامًا ما يدعوهم إليه القرآن الكريم من العزة والقوة ومحاسن الأخلاق وفضائل الأعمال.

لذا كان علي المربين كافة أن يغرسوا في نفوس الناشئة وغيرهم أن يحرصوا تمام الحرص على التحلي بالقرآن في كلّ شؤونهم المختلفة، حتى ينفعوا أنفسهم وغيرهم،ويكونوا قدوة صالحة لغيرهم في وقت عزّت فيه القدوات الصالحة.

رابعًا- من صفات المربي الناجح: الثبات في وقت الشدة:

كانت حنينُ أولها هزيمة للمسلمين وآخرها نصر مؤزر: فقد فرّ المسلمون أول المعركة لما رأوا من شدة هجوم الأعداء ومفاجآتهم، لكن النبي ﷺ لم يفرّ، بل إنه ﷺ ركض بغلته نحو الكفار، وأمر العباس عمه رضي الله عنه أن ينادي: ((نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ))، فثاب المسلمون ورجعوا وقاتلوا ورسول الله ﷺ قد أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: ((انْهَزَمُوا، وَرَبِّ مُحَمَّد))، حتى منّ الله عليهم بالنصر الكبير والغنائم الكثيرة، كما في الحديث رقم١٨٥٢ من أحاديث الباب.

لقد ضرب النبي ﷺ النموذج الأسنى في الثبات وقت الشدة وتكالب الأعداء؛ فوقف كالطود الشامخ لا يريم، بل إنه ﷺ اندفع ببغلته نحو الكفار ، فأعطى النموذج المضيء للشجاعة التي ليس فوقها شجاعة.

فلما ثبت ورأى منه أصحابه ذلك رجعوا إليه و التفوا حوله وقاتلوا حتى قَتلوا وانتصروا.

ونخلص من هذا إلي أن النبي ﷺ كان أشجع الشجعان: فإذا كان يحثّ أصحابه علي القتال والشهادة، فإنه أول المقاتلين وأقربهم إلي العدو، وإذا كان يحضّ أصحابه علي الثبات، فإنه ﷺ كان أثبت الناس في ميدان المعركة و القتال، فكان عمله يوافق قوله؛ فكان ذلك من أسباب نجاحه في إقامة دولة الإسلام علي الأرض، وقبل هذا نجاحه في إقامة هذه الدولة في صدور أصحابه.

لذا كان علي المربين أن يكونوا نماذج حية لما يربون أتباعهم عليه، فهم أول الفاعلين إذا أمروا بشيء ، وأسرع المنتهين إذا نهوا عن شيء؛ لأن هذا من الأسباب القوية، بل من أول الأسباب لنجاح التربية ونجاح كلّ دعوة.

إن الواقع يشهد أن كثيرًا من الدعاة إلي المبادئ العليا والقيم السامية هم أول الناس انتهاكًا لها ونقضًا لها؛ لذا كانوا نماذج سيئة لأتباعهم ولغيرهم؛ لذا لا خير في تربية غير مشفوعة بالعمل، ولا خير في مربٍّ يخالف عمله قوله.

